سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

- ٢ -

السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع الجمهورية
عابدين - القاهرة

تليفون / ٣٩٠٦٧٢٧

فاكس / ٣٩٥٦٨٠٤

ص ب / ٦٣٢ القاهرة

الرقم البريدى / ١١٥١١

Resalah Publishers

Tel.: 3906727

Fax : 3956804

P.O.Box : 632

Cairo - Egypt

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

ـ ٢ ـ

السيرة النبوية والدعوة

في العهد المكي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمـــد لله رب العـــالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . وبعـــــد ،،،

فـــإن دين الله واحد ، ورسله جميعاً يتحركون بعقيدة واحدة ، يعلنون كلمة الله ، ويعملون لنقل الناس من الضلال إلى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور يقول تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [1] ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [2] ، ويقول تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [3] .

والآيات واضحة الدلالة في إثبات وحدة الدين ، الذي جاء به الرسل أجمعين وهـــذه الوحدة بادية في أركان العقيدة ، فهي عقيدة واحدة معلومة من لدن آدم " عليه السلام " ، إلى محمـــد " ﷺ " ، تناســـب الفطرة البشرية ، وتتسم بالصدق ، والحق ، والواقعية .

ولو كان الإنسان واحداً ، والواقع البشرى ثابتاً ، لجاء للناس رسول واحدً ، صالح للناس أجمعين .

---

[1] سورة الشورى الآية (١٣) .

[2] سورة آل عمران الآية (١٩) .

[3] سورة آل عمران الآيات (٨٤ ، ٨٥) .

لكـــن الإنسان ليس واحداً ، وإنما هو متعدد النزعات ، متنوع الفكر ، يتأثر واقعـــه دائمـــاً بعوامـــل جغرافية ، وبيئية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية .. إلخ ولذلك قضـــى الله بحكمـــته أن يبـــعث رسولاً لكل أمة يبلغهـــا بالعقـــيدة الدينية الواحـــدة ، وبأســـلوب يتلاءم معها ، وبمنهج يقربها من دعوته ، مع تكليف الناس بأعمـــال ، وتطبيقات ، تطهر حياتهم ، وتقوى عقيدتهم ، وتساعد في القضاء على مواريث الجهل والضلال ، وبناء الحياة على الحق والصواب .

وقـــد رأينا في الكتاب الأول الخاص بدعوة الرسل " عليهم السلام " أن كل رسول دعا قومه بمنهج خاص ، وبطريقة خاصة ، مع اتحادهم في العقيدة الواحدة .

ورأينا ــ كذلك ــ أن كل رسول بعث لقوم معينين سواء تتابعوا زمنياً ، أو بعثوا في وقت واحد كإبراهيم ولوط " عليهما السلام " .

ورأيـــنا ــ أيضاً ــ أن كل رسالة كانت تراعى أحوال المدعوين ، وتلاحظ مستواهم العقلي ، والحضاري في التوجه ، والمناقشة .

إن هـــذا الموكـــب الطويل من الرسل جاءوا للناس بصورة واحدة للاعتقاد الصحيح ، القائم على التوحيد الخالص ، التوحيد المطلق ، الناصع ، القاطع ، توحيد الألوهية التي يجب أن يتوجه إليها البشر جميعاً، كما يتوجه إليها سائر الخلائق بالتسليم والخضوع ، والعبودية .

إن هذا التوحيد يعنى أن القوامة المطلقة لله لازمة على خلقه جميعاً، فلا يقوم شئ إلا لله ، ولا سيادة على الخلق إلا من الله ، ومن ثم فإن الاستسلام كله من البشر يجب أن يكون لله ، صاحب الحول والطول ، ورب العالمين .

وقد علم الله رسله أن يتلاءم كل منهم مع واقعه فى الشريعة ، وإن اختلفت عن الشرائع الأخرى ، يقول تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [1]

---

[1] سورة المائدة الآية (٤٨) .

وقد رأينا لكل رسول شريعته ، المناسبة لقومه ، فيها الحلال ، وفيها الحرام ، وفيها التكاليف العملية المتنوعة ، وهى مع اختلافها مع كل رسول فهى منزلة من الله ، ولذلك اتسقت مع العقيدة الربانية الواحدة ، التى تلزم المعتقد بضرورة التلقى من الله الواحد ، والتحاكم إلى الوحى المنزل ، والأخذ من توجيهات النبى المبعوث ، وبذلك يتحد الضمير الخفى مع الواقع العملى ، ويعيش الناس ، كل الناس مع رسلهم مؤمنين مخلصين ، مطيعين لله رب العالمين .

وكما اختلف الرسل فى الشريعة اختلفوا كذلك فى المنهج،والأسلوب ليتحقق المراد من الدعوة،يقول تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ (١) .

إن طريقة التوجه لقوم ما لا تتناسب مع التوجه لغيرهم، لما بين الفريقين من اختلاف ، وتنوع ، وتلك دروس مستفادة من تاريخ دعوة رسل الله تعالى .

وقبيل بعثة محمد " ﷺ " ، أقترب الناس فكرياً ، وترقت عقولهم حتى وصلت إلى التصور المجرد ، والقدرة على مناقشة الدليل ، إلا أنهم مع ذلك كانوا مختلفين واقعاً وسلوكاً ، وعقيدة .

ووسط هذا الحال بعث محمد " ﷺ " رسولاً للعالم كله ، بالعقيدة الإلهية الواحدة ، والشريعة الملائمة للناس أجمعين ، والصالحة للتطبيق فى كل زمان ، ومكان

إن الواقع البشرى يلتقى مع العقيدة الإلهية لأنها نفس العقيدة التى نادى بها جميع الرسل ، وخوطب بها سائر الأقوام ، وآمن بها الكثيرون فيما مضى من الزمان .

ورسالة محمد " ﷺ " هى خاتمة الرسالات فلا دين بعده ، ولا رسول بعده ولذلك جاء الإسلام بعقيدته ، وشريعته ، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

وحتى تلتقى الشريعة الإسلامية الواحدة مع جميع الناس ، وعلى امتداد الزمن

---

(١) سورة إبراهيم آية (٤) .

جعلها الله على نوعين :ـــ

النوع الأول : ما يتصل بالعبادات المشروعة، والأعمال التامة، والأحكام الثابتة ، وهذه فصلها الإسلام تفصيلاً ، لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ، وقد شرعها الله بهذه الدقـــة ، والدوام لتنظيم حياة الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهى المعروفة بالثوابت فى الإســـلام ، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وأحكام النكاح ، والطلاق ، والميراث ... وهكذا .

النوع الثانى : وهو ما يتصل بالأعمال التى تختلف من مكان إلى مكان وتـــتغير من زمن لزمن آخر ، ومن جماعة لغيرها كصورة الشورى ، ومناهج العمل الـــيومى ، والطبائع المرتبطة بالعادات والتقاليد، ومع هذا النوع كان وضع القواعد العامـــة المنضـــبطة بالأصـــول الشرعية، لتكون إطاراً للمتغيرات، تأخذ الحكم منها بواســـطة اجـــتهاد علماء الإسلام ... ومن أمثلة ذلك القوة فهى تختلف نوعاً ، وصورة ، فهناك القوة الخلقية،وهناك القوة الإيمانية، وهناك القوة العلمية وهناك القوة العسكرية ، من سيف ، ورمح ، ومدفع ، وصاروخ ، وطائرة ... إلخ .. وأمام هذا التنوع للقوة يضع الله تعالى مبدأ كلياً حيث يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [١] وعلى مثال ذلك وضعت المبادئ الكلية للمتغيرات العملية .

وهكذا ملكت الشريعة القدرة على الالتقاء مع الناس جميعاً ، وهى تنظم لهم كافة جوانب الحياة مع اختلافهم وتنوعهم .

والعـــالم كله لا يجتمع على منهج واحد ، ولذلك احتاجت الرسالة المحمدية إلى عديـــد من المناهج لتتوجه إلى الناس ، أينما كانوا ، وكيفما كانوا ، وبخاصة أنها

---

[١] سورة الأنفال الآية (٦٠) .

تمتد إلى آخر الزمان ، وتشمل العالم كله ، ولم يكن المطلب عسيراً أبداً ، فقد قص الله تـاريخ الأنبـياء ، وسـجل حركة الدعوة الإسلامية من خلال الوحى المنزل على مـحمد " ﷺ " ليقدم العديد من المناهج ، والوسائل ، للقائمين بأمر الدعوة إلى الله تعالى .

إن مـناهج الرسل تعد طرقاً عملية ، تطبيقية للدعوة ، تحتاج إلى من يفهمها ويطبقها فى حركة الدعوة للناس .

ولم يـبق تعـدد اللغات ، واللهجات عائقاً أمام الدعوة ، بعدما هيأ الله من المسلمين دعاة يتقنون كافة اللغات ، ويعرفون الجوانب النفسية ، والفكرية التى تساعد فى نجاح الدعوة .

وهكذا ..

جاء الإسلام للناس صالحاً لكل زمان ومكان ..

ومحمد " ﷺ " هو الرسول المختار لتبليغ دعوة الإسلام للناس ، ولذلك أنزل الله عليه القرآن الكريم محكماً ، مفصلاً ، قيماً ، مهيمناً ، لا عوج فيه ، ولا ريب .

وقـد استمرت البعثة المحمدية ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام خلالها رسول الله " ﷺ " فى مكة ثلاث عشرة سنة ، والمدة الباقية عاشها فى المدينة المنورة بهجرته " ﷺ " إليها .

فى مـدة البعثة نزل وحى الله للناس ، وكمل الدين ، وتمت النعمة ، وأصبح الإسـلام ديـن البشرية جميعاً ، فى كافة أرجاء الأرض ، وعلى طول الزمن إلى يوم القيامة .

وقد هيأ الله محمداً " ﷺ " للدعوة، وصنعه للرسالة ، وأمده بكل ما يحتاجه لتصل الدعوة إلى الناس على وجه صحيح ، واضح ، قطعاً للأعذار ، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وقد ترك الرسول " ﷺ " لأمته رصيداً هائلاً ، يمكنهم من نشر الدين ، وتبليغه إلى العالم ، والتعامل مع كل إنسان بواقعه ولغته ، لأن هذا الرصيد كما يقدم موضوعه يقدم معه الأسلوب الأمثل ، والطريق السديد .

وقد أعانني الله تعالى فكتبت في تاريخ دعوة الرسل " عليهم السلام " وفيه حاولت إبراز منهجهم في الحركة بالدعوة ، وتوضيح أهم الركائز المستفادة من تاريخهم ، من أجل أن تكون أسساً للدعاة إلى الله من بعدهم ، وإلى يوم القيامة .

وأصبحت أمام الدعوة المحمدية لأكتب بعون الله فيها، ورأيت ضرورة إتباع المنهج الذى أتبعته مع تاريخ الرسل حيث الأسس التالية : ـــ

أولاً : التعريف بقوم الرسول ، من ناحية موطنهم ، وحضارتهم ، وأديانهم ومستواهم الفكرى ، لأن هذا يساعد على اكتشاف الجوانب الفنية التي واجه بها الرسول قومه ، منهجاً ، وأسلوباً ، وحتى يتمكن دعاة العصر من الاستفادة بهذه الناحية ، كاختيار الموضوع المناسب ، والطريقة اللائقة ، والأسلوب المفيد ... وهكذا

ثانياً : التعريف بالرسول نفسه من ناحية أصله ، ونشأته ، ورحلاته ، وكافة المؤثرات في شخصيته ، وصفاته ، وكلها عوامل نجاح في تكوين الدعاة ، لأنه " ﷺ " قائدهم ورائدهم ، يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [1]

ثالثاً : تتبع حركة الرسول بالدعوة ، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم ، فمنهم الملأ ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم السادة ، ومنهم العبيد ، وبذلك دعا الرسول قومه جميعاً ، ووصل إلى عقولهم ، وناقش حججهم ، وهدم ضلالهم ، وبذلك ظهرت منهجية الدعوة ، والطريقة المثلى للحركة بها مع الطوائف المختلفة وأصحاب المذاهب ، والملل المحرفة .

---

[1] سورة الأحزاب الآية (٢١) .

رابعا : استنباط أهم الركائز المستفادة من دعوة الرسول " ﷺ "لتكون ركيزة يستفاد بها فى الدعوة إلى الله تعالى .

خامسا : المحافظة مع الأسس المذكورة على ذكر الوقائع ورواية الأخبار وتصحيح الخطأ للمحافظة على التاريخ ، وأحداثه ، وبخاصة أنه تاريخ الدعوة .

إن إتباع هذا المنهج مع الدعوة الإسلامية دفعنى إلى عدة أمور : —

الأمر الأول : التعريف بأمم العالم كله ، فإليها جاء الإسلام،ومن أجلها بعث محمد " ﷺ "، يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [١] ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [٢] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [٣]، ويقول سبحانه قال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [٤] ، ويقول النبى " ﷺ " : (**كان كل نبى يبعث لقومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**) [٥] ..

ويقول الرسول " ﷺ " : (**إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة**) [٦] .. وهذا التعريف بالعالم له أهميته ، لأنه يعرف بمدى حاجة العالم إلى الدعوة ، ويبين الحكمة فى تنوع المناهج ، والطرق ، والأساليب ، التى وجه الله رسوله " ﷺ " إلى

---

[١] سورة الفرقان الآية (١) .

[٢] سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

[٣] سورة سبأ الآية (٢٨) .

[٤] سورة الأنعام الآية (١٩) .

[٥] صحيح البخاري — كتاب التيمم ج ١ ص ٤٣٦ بشرح فتح الباري .

[٦] المرجع السابق — كتاب التفسير — باب سورة المسد ج ٨ ص ٧٣٧ .

استخدامها فى مجال الدعوة ، ويشير إلى السر فى تكليف الرسول أصحابه بحمل الدعوة فى حياته ، وتحميلهم مسئولية التبليغ من بعده إلى أن تقوم الساعة .

الأمر الثانى : فى قضية التعريف بالرسول وجدت نفسى أمام السيرة النبوية ولاحظت أن مرحلة ما قبل البعثة حيث التنشئة ، والتربية ، والتكوين الشخصى لرسول الله " ﷺ " لها إرتباط وثيق بالبيئة والواقع، ولذا كان الاهتمام بدراستها، لما لهما من تأثير فى التربية الإسلامية ، ولإظهار قيمة الحق ، والصواب ، ومكارم الأخلاق الذى عاشه رسول الله " ﷺ " وسط واقع ملئ بالفساد ، والضلال

إن مرحلة ما قبل البعثة المحمدية تعد دراسة للسيرة ، ولها صلة مباشرة فى التعريف بالرسول " ﷺ " ، ومن الممكن الاستفادة بأحداث هذه المرحلة وأثرها فى نشأة رسول الله " ﷺ " فى اختيار الدعاة ، وتربيتهم ، وتكوين شخصياتهم النفسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والقيادية ، ليتمكنوا من حمل الدعوة ، وتبليغ الإسلام على الوجه المطلوب .

أما مرحلة ما بعد البعثة ، فقد لاحظت أن تاريخ السيرة تاريخ الدعوة متداخلان بحيث يصعب الفصل بينهما ، فقد كانت حياة الرسول " ﷺ " خلالها حركة دائمة للدعوة ، حيث عد نومه " ﷺ " ، ومشيه ، وصمته ، وحياته فى بيته ومع الناس جزءاً من حركته " ﷺ " بالدعوة ، وقد أعتبرها المسلمون ركائز يأخذون منها ، ويستفيدون من توجيهاتها ، وإيحاءاتها .

وتبعاً لهذه الحقيقة سأعيش مع السيرة النبوية فى مرحلة ما قبل البعثة ، وأدرسها دراسة تفصيلية ، وآخذ منها الركائز التربوية فى مجال التكوين ، والتنشئة .

أما مرحلة ما بعد البعثة فسأوردها مجملة،مع التركيز على الأحداث المتصلة بشخصية محمد الرسول " ﷺ " تاركاً تفصيل الجانب الحركى لمبحث حركة الرسول بالدعوة ، مع أن هذه الحركة جزء من شخصيته " ﷺ " العملية ، وإظهار لرسالته

مع الناس .

الأمر الثالث : سأحاول مستعيناً بتوفيق الله تعالى إبراز الركائز التى فيها فائدة للدعوة والدعاة ، متصلة بكل دراسة سواء كانت الدراسة للواقع البشرى، أو فى السيرة قبل البعثة ، أو الحركة بالدعوة بعد البعثة على أن تكون هذه الركائز فى فصل مستقل يجمعها جميعاً .. وبذلك التزم نفس المنهج الذى اتبعته مع تاريخ رسل الله تعالى .

ونظراً لطول دراسة تاريخ الدعوة خلال البعثة المحمدية فقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول : ويشمل دراسة المرحلة المكية قبل الهجرة ، بحيث يتكون منه الكتاب الثانى من سلسلة تاريخ الدعوة .

القسم الثانى : ويشمل دراسة المرحلة المدنية الذى ستصدر بإذن الله تعالى فى كتاب مستقل ، يمثل الكتاب الثالث فى سلسلة تاريخ الدعوة .

وسيتضمن تاريخ المرحلة المكية بعون الله تعالى النقاط التالية تبعاً للمنهج الذى رجوته في دراستى لتاريخ الدعوة ، وهى كما يلى :ـ

الأولى : التعريف بالعالم قبيل ظهور الإسلام وسيشمل دراسة أوضاع أقاليم العالم المختلفة ، لأن موطن الدعوة الإسلامية هو العالم كله .

الثانية : التعريف بالرسول " ﷺ " من الميلاد إلى الهجرة .

الثالثة : الحركة بالدعوة في مرحلة ما قبل الهجرة .

الرابعة : إبراز الركائز المستفادة من سيرة الرسول " ﷺ " وحركته بالدعوة ، وبخاصة ما لها صلة بالدعوة والدعاة في العصر الحديث .

وسوف أورد كل نقطة من هذه النقاط فى فصل مستقل، لما لكل منها من دراسة مطولة ، وعمق علمى ، وفوائد عديدة .

وبهـذا التقسيم أكتب فى السيرة، وهو الأمل الذى كنت أتمناه ، كما أكتب فى تـاريخ الدعوة الذى أرجو له أن يصير علماً ، شامخاً بين سائر العلوم الإسلامية ، وأكتب للدعاة الذين هم أمل الأمة في النهوض ، والتقدم ، ولسوف أستفيد من سائر العلوم الإنسانية والدينية ، لأن الدعوة فى الحقيقة هى غاية كل العلوم ، والحركة بهـا تحتاج لدراسات عديدة .

إن الدعـوة إلى الله تعالى من أهم علوم الإسلام فى أى جانب من جوانبها ، ويكفـى شهادة على ذلك موقف القرآن الكريم معها ، فهو الذى حدد موضوعها ، ورسـم مـناهجها ، وقص تاريخها ، وأنزل العديد من أساليبها ، ووسائلها .. ومن المعلوم أن كل العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن الكريم ، وخدمة أهدافه والدعوة هـى هدفه الأول ، وغايته الأساسية ... وأملى فى الله ، ودعائى له أن يهيئ العلماء المخلصـين ، وييسر لهم العمل لإبراز علوم الدعوة ، متميزة بموضوعها ومنهجها ، وغايتها ، وشرفها ، ليتتلمذ بها ومعها ، وعليها ، المؤمنون المخلصون

يقول الله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [1].

ويقـول سـبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [2] ويول سحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [3]

فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، ولا جديد فى الدعوة بعد القرآن الكريم ، اللهم إلا اجتهادات عقلية فى مجال التطبيق ، والملاءمة بين القضية والواقع فى إطـار

---

[1] سورة الأنعام الآية (١٩) .

[2] سورة الكهف الآيات (١ ــ ٤) .

[3] سورة الفرقان الآية (١) .

مفهوم القرآن الكريم .

والرسول "ﷺ" ، بعث للدعوة ، فهي مسئوليته ، ووظيفته ، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [1]، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [2]، ويقول سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [3]

هذا التزاوج الواضح بين القرآن الكريم وبين رسول الله " ﷺ " مع الدعوة ، وكذا الصلة الوثيقة بينهما ، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية ، توجيهية ، ورسول الله " ﷺ " دعوة تطبيقية عملية ، وبهذا التلاقى تحققت المثالية الإسلامية فى مجال الواقع والتقت الفطرة البشرية مع الوحى الإلهي العظيم ، وتجسدت في رسول الله " ﷺ " الذى جعل القرآن تطبيقاً عملياً في خلقه ، وسلوكه .

يروى مسلم بسنده عن سعد بن هشام قال : (**قلت لعائشة " رضى الله عنها " : يا أم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله " ﷺ "** .

قالت : ألست تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

---

[1] سورة المائدة الآية (٦٧) .

[2] سورة الأحزاب الآيات (٤٥ — ٤٨) .

[3] سورة المائدة الآية (٦٧) .

قالت : فإن خلق نبى الله " ﷺ " كان القرآن)[١] .

ومن هنا تكون السيرة إبرازاً لشخصية الرسول " ﷺ " فى خصائصها وكمالاتها، ويكون تاريخ الدعوة إظهاراً لجهاد الرسول " ﷺ "، وتحمل مشاق الدعوة وهو يتحرك بها مع الناس .

ولى قصة مع السيرة أحب أن أذكرها هنا :

فلقد كان شيخاى اللذان حفظت القرآن الكريم على يديهما وهما الشيخ/عيسى أحمد طه،والشيخ / إبراهيم وبح[٢]، يحكيان لى ولزملائى نتفاً عن رسول الله " ﷺ " حين نقرأ على أحدهما سورة من السور التى تتحدث عن رسول الله مثل سورة " الضحى " و " الانشراح "و " الفيل " وكان الشيخ يشرح لنا خواطره بأسلوب مبسط، مما حببنى فى السيرة منذ الصغر ، حيث كنت مع زملائى الصغار ، نتداول كلام الشيخ،ونسعد معه بحب رسول الله " ﷺ " ونتمثله حركة معجبين بها .

ولما انتسبت للأزهر الشريف ، ودخلت المرحلة الابتدائية على النظام القديم[٣] ، صارت السيرة مقرراً دراسياً ، يعيش تاريخ رسول الله " ﷺ "، من

---

(١) فيض القدير ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) ولد الشيخ عيسى أحمد طه ونشأ بقرية " منية مسير " من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وأسس كتاب القرية ، واهتم به مع زميل له هو الشيخ / إبراهيم وبح " عليهما رحمة الله " ، وقد بارك الله في عملهما ، وتخرج من هذا الكتاب علماء أفذاذ ، وظهر جيل من علماء القرية يدين لهما بالفضل ، ويكفى أن قرية ريفية صغيرة هى قرية " منية مسير " تخرج من أبنائها أكثر من ثلاثين أستاذاً بجامعة الأزهر يدينون لكتاب القرية بالفضل ، ومن الواضح أن أبناء هذه القرية قد بارك الله لهم وحبب أبناءهم فى العلم والتعلم .

(٣) كان النظام القديم فى الأزهر يقصر الدراسة قبل الجامعة على مرحلتين ، المرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات ، والمرحلة الثانوية ومدتها خمس سنوات ، على أن يكون التحاق الطالب بالمرحلة الابتدائية بعد امتحان للقبول فى مستوى نهاية التعليم الأساسي ، وحفظ القرآن الكريم كله .

مولده، إلى لقائه ربه ، ونالت مقررات السيرة إهتمامى ، إذ كنت أحفظها مع بداية الدراسة ، وأذكر أن بعض زملائى كان يشيد بذلك عند الأساتذة .

ولما بدأت فى دراسة المرحلة الثانوية القديمة ، لاحظت أننا فى الدراسة كلها نعيش مع رسول الله " ﷺ " .

فالتفسير بيان لوحى الله إلى الرسول " ﷺ " .

والحديث شرح لأقوال رسول الله وأفعاله " ﷺ " .

والفقه أحكام مأخوذة عن رسول الله " ﷺ " .

وعلوم اللغة تدور كلها حول القرآن لمعرفة معانيه ، وبيان إعجازه، وإظهار سمو الوحى إلى رسول الله " ﷺ " .

وأذكر أن مدرس الخط كان يورد الآيات، والأحاديث، ويكلفنا بكتابتها (رحمه الله) ويشرح لنا معناها ، وما يستفاد بها ، وبذلك عملت المقررات كلها فى بناء الصورة الإسلامية ، وكان الأساتذة خير من يتفاعلون مع أهداف هذه المناهج ، وتحويلها إلى عنصر يتفاعل معه الطالب الأزهرى فى النظام القديم .

ومن هنا لم تعد السيرة مجرد تاريخ ، وإنما صارت الدين كله ، مما رغبنى في أن أكتب فيها منذ صغرى، وأذكر هنا أنى كتبت عن محمد اليتيم ، وعن غزوة أحد ، وغزوة الحديبية .. وغير ذلك وأنا فى المرحلة الثانوية .

وكلما تقدم بى السن كبر معى الأمل ، وأخذت أتصور نفسى أمام مؤلف ضخم عن رسول الله " ﷺ " ، أتناول فيه كافة جوانب شخصيته " ﷺ " .. فأخذت أقرأ ، وأطلع ...

ومع القراءة ، وعمق النظرة ، وتكشف الحقيقة ، أخذت أستشعر ضآلة همتى أمام هامة المصطفى " ﷺ " ، وبان لى أنى كنت فى أمنية حالمة، صعبة المنال ، لكنى لم أفقد الرغبة ، ولم يملكنى اليأس والقنوط ، عشت مع أمنيتى راجياً مؤملاً فى توفيق الله

أن يسدد الخطى ، وييسر الصعب ، ويقرب البعيد والله على كل شئ قدير .

وزاد من تباعد الأمنية بروز المؤلفات الضخمة ، العديدة ، حول شخصية المصطفى " ﷺ " متناولة أهم جوانب العظمة فى السيرة النبوية ، حتى خيل إلى أن هذه المؤلفات لم تترك لى ولمن يأتى بعدى مجالاً نبرزه فى حياة رسول الله " ﷺ " .

وحمدت الله ، ولجأت للسكوت الهادئ ، واكتفيت بالقراءة ، والتعلم ، وقلت لنفسى : لأكن متعلماً ما دمت قد عجزت عن أن أكون عالماً معلماً .

ولم يطل بى الحال إذ وقع أمر قدرى أعاد لى الأمل مرة أخرى ، حين حدث حوار علمى ، حول ما هية الفروق بين السيرة النبوية ، وبين تاريخ الإسلام فى عصر النبى " ﷺ " ، أو بين فقه السيرة النبوية ، وبين الدعوة فى عصر النبوة ، ووجدت نفسى فى خضم المناقشة أؤكد أن السيرة النبوية ، لابد معها من فقه يعيش مع الحدث ويأخذ العبرة حتى لا تروى السيرة فى صورة جامدة،خامدة،لا تليق برسول الله " ﷺ " الذى أفنى حياته فى خدمة الإسلام ، وتبليغ الدعوة ، والدفاع عن دين الله تعالى ، وتلك كانت مهمته، يقول تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [1] .

إن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل ، واستنباط العبر ، فإنها تعد تاريخاً للدعوة فى عصر رسول الله " ﷺ " .

وفى زيارة لمسجد رسول الله " ﷺ " وقفت أمام قبره " ﷺ "،وجاشت الخواطر في ضميرى،ودارت تصوراتى دورة سريعة حول حياة وجهاد المصطفى" ﷺ " ، وقلت لنفسى : إنى أقف أمام محرك البشرية كلها ، وأرى الآن التاريخ مجسداً في قوته النابضة ، وألفت ضميرى يلتصق بعالم اللاشعور الخفى ، متنقلاً بين روابى مكة ، وبادية بنى سعد ، وفى غار حراء ، وثور .. وعند بدر ، وأحد ،

---

[1] سورة العنكبوت الآية (١٨) .

والأحـــزاب ، وتــبوك ، وأخذت أتصور المسلمين مع رسول الله " ﷺ " وهم يواجهون الطواغيت وهم يعملون للقضاء على الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وســرح خاطرى بعد ذلك إلى واقع المسلمين المعاصر ، ورأيت ما فيه من تباعد عن المجتمع الإسلامى الذى رباه محمد " ﷺ " ، وقلت متسائلاً :

ـــ لم كل هذا التباعد الذى ألحقه المسلمون بأنفسهم ؟ !

ـــ وما أسباب هذا التباعد ؟ !

ـــ وهل من عودة مرة أخرى إلى حيوية الإسلام، وعظمة الحياة فيه ؟ !

ـــ ألم يتأكد المسلمون من فشل كافة السبل اللا إسلامية ؟

ـــ وهل يتصور المسلمون نصرهم فى غير الإسلام، وهم مسلمون ؟ !

ـــ وهل يضع مجد الإسلام غير المسلمين ؟ !

ـــ ماهى العراقيل ؟ وكيف نتغلب عليها ؟ !

ـــ ومن للإسلام فى عالم اليوم ؟ !

وهكذا :

عشت الإسلام كله، ونظرت أمامى إلى قبر حبيبى، وسيدى المصطفى " ﷺ " ودعوت الله أن يجزيه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى .

وعشت مع المسلمين ودعوت لهم بالفوز والفلاح ..

في هـــذه اللحظات عشت السيرة كلها ، بأحداثها ، وحركتها ، وقيمتها ، وقيمها .. وتأكدت أن أملى القديم ضـــرورة نفسية تســرى ، وتسعدنى .

وهو في الوقت نفسه ضرورة إيمانية ، لأن العصر الأول ـــ سيرة ودعوة ـــ هو منهج الإسلام وعبرة التاريخ للمؤمنين ..

كمـــا أنـــه ضـرورة اجتماعية يحتاجها الناس في وقت تتنازع فيه المذاهب ، وتكثر المعارضات، وتشتد الحاجة إلى العلم والمعرفة بالإسلام ، لأن به وحدة النصر ،

والفوز ، والفلاح .

إن عرض السيرة بصورة حركية ، ومنهجية فنية ضرورة ليعيش الناس السيرة ، ويحيوا بها ، ويعيدوا الإسلام للحياة كما حققه النبى " ﷺ " للناس .

وزاد إقتناعى بهذا التصور بعد أن اطلعت على مناهج أقسام، وكليات الدعوة فى الجامعـات التى قمت بالتدريس فيها [١] ورأيت أنها تهتم بدراسة تاريخ الدعوة ، وتخص عصر النبوة بالدراسة الموسعة،وشرفنى الله تعالى فقمت بتدريس مقررات تاريخ الدعوة ، لسنوات عديدة فى جامعات مختلفة الأمر الذى أحيا الأمل القديم مرة أخرى فى أن أكتـب عن رسول الله " ﷺ " من هذه الزاوية المنهجية ، وبذلك أكتب سيرة رسول الله " ﷺ "،وأؤرخ للدعوة فى عصره"ﷺ"،وأقدم للدعوة والدعاة الفوائد والعبر المأخوذة من السيرة النبوية،وتاريخ عصر النبوة،وأوضح منهج التقدم للمجتمع كله .

إن سيرة الرسول " ﷺ " غنية بالأحداث ، مليئة بالوقائع ، متنوعة فى العطاء رائـدة فى التربية والتوجيه ، وعلى دارسها أن يوسع اهتمامه ليشمل جوانبها جميعاً ، من شخصية ، وسياسية ، ودعوية ، واجتماعية ... إلخ .

وسأحاول بإذن الله تعالى أن أكتب فى الجوانب كلها إيفاء لحق السيرة النبوية وإبرازاً للدعوة فى إطار السيرة الكاملة ..

وسـوف أعمل على إيراد الحقائق المدعمة بالدليل ، الخالية من المبالغة ، أو التهويل ... ولن أقف موقف الدفاع أمام أكاذيب أعداء الإسلام ، وسأترك الحقيقة التاريخية تعلو بصدقها، وأحقيتها، فليس أقوى من الحق نصراً للحقيقة فى مجال المنازعة العلمية ، وفى كل مجال .

ولـن أجرى وراء المبالغة والتهويل فى ذكر الحوادث ، والوقائع ، حتى لا أتعارض مع مسلمات العقل ، وأكون كالدبة التى قتلت صاحبها ، وهى تحبه .

---

[١] قام المؤلف بتدريس مقررات تاريخ الدعوة فى قسم الدعوة بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الملك سعود بالرياض ، وفى كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

لقـــد كـــان " ﷺ " فى حركته بالدعوة واقعياً ، ربى أصحابه على الصبر ، وتحمل المشاق ، وتحمل " ﷺ " من أذى أعدائه ما لا يتصوره عاقل ، وبذلك بنى أمته على الإيمان بسنن الله فى الحياة والأحياء ، وأبعدها عن الجرى وراء الخيال والأوهام .

إن الحقيقة يجب أن تعرض في ثوب يليق بها،ثوب خال من المبالغة ، والتهويل بعيد عن الإخفاء ، والصمت ، لأن كل ذلك يبعدها عن صورتها المستقيمة .

والسيرة النبوية هى شخصية رسول الله " ﷺ " الحقيقية، وتاريخ الدعوة هو الحركة الحقيقية بدين الله تعالى وتبليغه للناس .

وهاتان القضيتان ــ السيرة وتاريخ الدعوة ــ من أمهات الحقائق التى يجب أن يعيشها الناس ، بعقل مفتوح ، وتأمل دقيق ، وتفهم واع ، من أجل أن تظهر فترة الدعوة المكية والمدنية ــ كما كانت ــ بنبضها الحي ، وقوتها المتدفقة .

ومـــن أفضـــل السبل لعرض حقائق السيرة والدعوة أن نأخذ من المؤرخين القدامـــى والمحدثين ما يفيد ، فمن القدامى نأخذ حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وحقائق الوقائع والأحداث ، .. ونأخذ من المحدثين التفحص ، والتحليل، والموازنة ، واستنباط الدروس ، والعبر .

وبذلك نعرض أحداث السيرة ، ووقائع الدعوة بوسطية حية ، محببة ، يتأسى بها ، من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً .

إنـــى أكتب في السيرة كمؤمن محب لصاحب السيرة، سيدى محمد " ﷺ " تدفعـــه عواطفـــه المحبة إلى مواصلة المديح ، والإشادة ، ويدفعه إيمانه إلى التزام الدقة والصدق ، الذى دعا إليها رسول الله " ﷺ " ، والحمد لله أن رواية الصدق لا تظهر إلا عظمة رسول الله " ﷺ " .

وأكتب في الدعوة كذلك كعالم شرفه الله بالتخصص في علوم الدعوة،وقدر الله تعالى بفضـــله،ومنه،علىَ العمـــل لها،ولذلك فإنى أود أن آخذ من السيرة الدروس المفيدة للدعوة والدعاة ، وأحبب الدعاة في أن يعيشوا مع السيرة فهماً ، واستفادة ، وعملاً .

ولـــيس من اللائق أن يبقى رسول الله " ﷺ " بين الكتب حبيساً، أو في ثنايا الألســـنة ذكراً وفقط ، وإنما الواجب أن يصير عملاً وسلوكاً ، وقدوة ، لتحيا الأمة مرة أخرى ، ويعيش الإسلام حاضره العظيم .

لقد عاش أصحاب النبى " ﷺ " حياة رسول الله " ﷺ " وتمثلوها فى نومهم ، ويقظتهم ، وحركتهم ، وسكونهم .. وهو الأمل الذى أرجوه لنفسى ، وللمسلمين أجمعين ، ولذلك جعلت دراستى للسيرة والدعوة فى إطار واحد .

وبذلك أكون قد سلكت منهجاً وسطاً ، لا إفراط فيه ، ولاتفريط ، لتتحقق الفائدة ، ويبدو الإسلام بواقعيته وشموخه .

وبهذه الوسطية المنهجية أشعر أنى مع الحق والصواب ، أورده بدليله الصحيح بعـــيداً عن الشطط الذى لا أرتضيه، سواء كان مدحاً ، أو ذماً .. وبذلك التزم مع السيرة والدعوة بالصدق والأمانة ، واضعاً أمام عينى قول النبى " ﷺ " : (**من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**) (١) ..

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى مقصدى ، ويبارك لى فيه ، ويجعله ذخراً لى فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ...

أ.د/أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر ١١/ ٣/ ١٤٢٤هـ

١٢/ ٥ / ٢٠٠٣م

---

(١) صـــحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب العلم ـــ باب إثم من كذب على النبى " ﷺ " ج ١ ص ٢٠٢ .

الفصل الأول

الواقع العالمى قبيل مجئ الإسلام

(التعريف بأمة الدعوة)

ويشمل

المبحث الأول : " واقع العرب " .

المبحث الثانى : " واقع الروم " .

المبحث الثالث : " واقع الفرس " .

المبحث الرابع : " واقع الهنود " .

المبحث الخامس : " ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .



تمهيد :

العـــالم هو أمة الدعوة ، فإليه بعث محمد " ﷺ " ، وأمر بتبليغ الإسلام إلى الناس أجمعين .

فمـــن أجاب ، ودخل فى دين الله تعالى صار من أمة الإجابة ، التى عرفت الحق ، وآمنت به ، واستقامت على الصراط المستقيم .

والتعريف بهذا العالم ضرورة مهمة ، لأنه يبين واقعه ، وما ساده من انحراف وضـــلال ، ويظهر المناهج التى دعا بها الرسول " ﷺ " الأمم كلها على اختلافهم ، وتـــنوعهم ، ويوضح طريقة المواجهة بين الإسلام ومعارضيه فى هذا الزمان السحيق .... وبذلك تستفيد الدعوة ، ويأخذ الدعاة الدروس ، والعبر ..

لقـــد انقسم العالم فى هذا الزمان إلى أمم كبرى هى الفرس، والروم، والعرب والهنود وكان لكل منها وضعه، ونظامه ، ودينه ، وانضوت بقية الأقاليم تحت سلطان إحدى هذه الأمم ، كولايات تابعة لها ، تعيش بنظمها ، وتتمذهب بمذهبها .. وهكذا .

وفى هـــذا الفصـــل سأتناول هذه الأمم بالدراسة ، وأعرف بواقعها ، وأهم نظمهـــا ، وأديانها ، وأخلاقها ، وسأعقد لكل أمة مبحثاً على أن أعقد مبحثاً أخيراً أبـــين فيه مدى حاجة العالم يومذاك لحمل الإسلام ، وكيف تهيأت الظروف العالمية لاستقباله ، وبذلك سيكون هذا الفصل مكوناً من خمسة مباحث هى :

- **المبحث الأول** : " واقع العرب " .
- **المبحث الثانى** : " واقع الرومان " .
- **المبحث الثالث** : واقع الفرس " .
- **المبحث الرابع** : " واقع الهنود " .
- **المبحث الخامس** : " ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .

وبذلك ينتهى الفصل بتوفيق الله تعالى ،،،،

المبحث الأول

" العـرب "

ـ ١ ـ

جغرافية بلاد العرب

العـــرب هم أبناء إسماعيل " عليه السلام " ، نشأوا فى مكة أولاً ، وبعدها انتشروا فى شبه جزيرة العرب [1] ، وهاجروا إلى البلدان المجاورة .

وتنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم تبعاً لجغرافية الأرض ، وطبيعة المكان ذلك أن جبل السراه بدأ من ثغر اليمن جنوباً ، وأمتد حتى بلغ أطراف الشام شمالاً ، فسمى بإقليم " الحجاز " لأنه يحجز أقليم " تهامة " الواقع فى غربه على ساحل البحر الأحمر ، عن إقليم " نجد " الواقع شرقه .. وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبل السراة بإقليم " اليمن " ، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم " العروض " .

وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها على النحو التالى :

١ ـ تهامة : يشـــمل الأرض المنخفضة ، الساحلية ، المحاذية للبحر الأحمر بدءاً من ينـبع فى الشمال، إلى نجران فى جنوب السعودية ، وسميت تهامةبتهامة لشدة حرها ، وركود ريحها ، كما تسمى " الغور " لإنخفاض أرضها بالنسبة لغيرها .

٢ ـ الحجاز : ويـتكون مـــن عدد من الوديان التى تتخلل جبال السراة، الممتدة من الشـــام شمالاً إلى نجران جنوباً، وسميت بالحجاز لأنها تحجز تهامة عن نجد ، وفى هذا الأقلـيم تقع مدينتا " مكة " ، " والمدينة " ، ويرتبط هذا الأقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية كما يرتبط بسائر الجهات .

---

(١) يســمى العرب بلادهم بـــ " جزيرة العرب " على سبيل التجوز ، لأن المياة تحيط بها من ثلاث جهات فقط هـــى : الشرق ، والجنوب ، والغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، والعرب يدخلون فى جزيرتهم برية سيناء ، وفلسطين ، وسوريا .

٣ ـ نجد : ويمتد من اليمن جنوباً ، وبادية السماوة والعروض والعراق شمالاً ، والخليج العربي شرقاً ، والحجاز غرباً ، وسمى " نجد " لارتفاع أرضه .

٤ ـ اليمن : ويمتد من نجد شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً إلى حضرموت ، والشمر ، وعمار شرقاً ، وقد أقيم باليمن سد مأرب ، وقصر غمدان .

٥ ـ العروض : ويشمل اليمامة ، وعمان ، والبحرين، والإمارات العربية ، وقطر وسمى بـ " العروض " لاعتراضه بين اليمن ، ونجد ، والعراق .

وبلاد العرب صحراوية ، شحيحة المياه ، نادرة الزرع، إلا فى بعض المناطق كالطائف ، واليمن ، ولذلك إتجه الناس إلى الرعى ، والتنقل ، والتجارة، طلباً للرزق والمعـاش ، وساعدهم على ذلك تعدد الطرق الممهدة التى تربط الشمال بالجنوب ، والشـرق بالغـرب ، بطـرق ومسالك عديدة ، وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر التجارات المختلفة الآتية : من وإلى الهند ، وروما ، والحبشة ، ومصر ، وغيرها .

وتعد مدينة " مكة " ، حاضرة الجزيرة العربية ، لوجود الحرم بها ، وقد حفظ العرب لمكة حقها ، وصانوا حرمتها ، وتعارفوا على الأشهر الحرم، لينتشر السلام فى الحرم ويحج الناس إليه آمنين .

وكان العرب على إختلاف قبائلهم ، وأديانهم يؤمنون بأن دعوة إبراهيم " عليه السلام " الواردة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [١] قد استجيبت ، حتى صارت مكة، التى دعا لها إبراهيم " عليه السلام " بلداً ، يأمن فيه الخائف ، ويشبع الجائع ، وتأتيها الثمرات من كل الآفاق ويخيب فيها الظالم ، ويهلك المعتـدى ، وقد رأووا

---

[١] سورة البقرة الآية (١٢٦) .

" أبرهة " يهلك أمامهم بجيشه، وفيله [١] ، عندما جاء لهدم الكعبة ، وصرف الحجيج عنها إلى الــ " قليس " الذى بناه فى اليمن ليقصده الناس بدل الكعبة .

وقد سمى العرب مكة بـــ " ناسة " لأنها تطرد من يظلم فيها ، كما سموها " بكة " لأنها تبك أعناق الجبابرة [٢] .

يقول جصاص بن عمرو بن الحارث لقومه الجراهمة : **(لا تستخفوا بحق الحرم ، وحرمة البيت ، ولا تظلموا من دخله ، وجاء معظماً لحرمته، أو آخر جاء بايعاً لسلعته ، أو راغباً فى جواركم ، فإن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منها خروج ذل وصغار)** [٣] .

ومن أقوال سبيعة بنت الأحب بن عيلان توصى ولدها بإحترام مكة ، وبأهمية تجنب الظلم في الحرم ، تقول :

أبنى لا تظلم بمكـــــــــــــ   ــة لا الصغير ولا الكبير
وأحفظ محارمها بنــــــــــ   ــى ولا يغرنك الغـــرور
أبنى من يظلم بمكـــــــــ   ــة يلق أطراف الشـــرور
أبنى يضرب وجهــــــــه   ويلح بخديه السعيـــــــر
أبنى قد جربتـــــــــها   فوجدت ظالمها يبـــــــور
الله أمنها ومـــــــــا   بنيت بعرصتها قصـــــور
والله آمن طيرهـــــــا   والعصم تأمن في ثبيـــر
ولقد غزاهــــا تبــــع   فكسا بنيتها الحبـــــير
وأذل ربــى ملكـــــه   فيها فأوفى بالنـــــذور
والفيل أهلك جيشـــــه   يرمون فيها بالصخـــور

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١١٣ .

(٢) سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٢٦ .

(٣) عبقرية خالد ص ١٧ .

فاسمع إذا حدثت وافهـــــــــم كيف عاقبة الأمــــور [١]

إن هذه المرأة العربية تشير فى نصيحتها تلك إلى مقام مكة فى ضمير أبنائها ، والعرب جميعاً منذ القديم .

وقد أعتبر العرب مكة حاضرتهم ، ومقصدهم ، ولذلك سموها بأم القرى .

وقد ازدادت أهمية " مكة " بعد الإسلام بمبعث محمد " ﷺ " فيها ، وشروق الإسلام من بين جنباتها ، وتوجه المسلمين فى كافة أنحاء الكون إليها ، قاصدين الكعبة فى صلواتهم ، وحجهم .

* * *

[١] السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٦ ، يبور : يهلك ، وثبير : اسم جبل بمكة ، بنيتها : الكعبة .

ـ ٢ ـ

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

اختلفت الأقاليم العربية فى أنظمتها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية والأخلاقية .

ففى إقليم اليمن قامت مملكة " حمير الثانية " التى ضمت إلى سلطانها مناطق كثيرة ، وكان ملكها يسمى بملك " سبأ ، وذى ريدان ، وحضرموت ، ويمنات ، وعربهم فى الجبال ، وفى تهامة)[١] .

وكان هذا الإقليم محل صراع ، وتنافس بين الفرس والروم، خلال القرن السادس الميلادى ..

حكمهم" ذونواس " الحميرى وكان يهودياً ، متعصباً ، حاول فرض يهوديته على أهل نجران النصارى ، فلما أبوا خد لهم أخدوداً ، وأحرقهم بالنار ، وأعمل فيهم السيوف ، فاستنجدوا بأمبراطور الروم، فأعانهم بجيش نصرانى حبشى بقيادة " أبرهة " قوامه سبعون ألف جندى ، فقضى على دولة " حمير " الثانية[٢] وسار في اليمنيين بجبروته ، وطغيانه حتى ملوا من ظلمه ، وعدوانيته وبخاصة بعدما بنى " القليس " ليصرف العرب إليها ، ويهجروا الكعبة الموجودة بمكة ، فاستعان اليمنيون بالفرس الذين أسسوا دولة لهم بقيادة " وهرز " الفارسى ، وقد استمرت هذه الدولة حتى ظهور الإسلام .

وقد سار ملوك اليمن التابعين للفرس أو للروم ،على نظام سياسى واحد ، قائم على وراثة الحكم بين الأبناء والإخوة ، وكان يساعد الملك مجلس من شيوخ

---

[١] عصر ما قبل الإسلام ص ٧٩ .

[٢] سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج١ ص ٣٦ .

القبائل ، يتولون شئون الأقاليم، حيث يرأس كل قبيلة شيخها على أن يقدم الأموال التى يكلف بجمعها إلى حاكم اليمن .

وكان المجتمع في اليمن ينقسم إلى طبقات أربع هى : ـــ

١ ـ **طبقة الجند** : وتتكون فى أغلبها من جنود الفرس أو الروم .

٢ ـ **طبقة الفلاحين** : وهم الذين يقومون بالزراعة والرعى .

٣ ـ **طبقة الصناع** : وهؤلاء يقومون بالصناعات المطلوبة التى يحتاجها الناس .

٤ ـ **طبقة التجار** : وهم جماعات في المدن والقبائل كثيرو السفر والتنقل .

وقد أدى الثراء المادى فى إقليم اليمن إلى تعاون الناس ، وإلى قيام حضارة مزدهرة ،وإلى بعدهم عن الشحناء والتحارب ، كما ساعدهم على الحركة وركوب البحر ، والانتقال إلى أقاليم العالم المختلفة ، وكانوا دائماً حلقة وصل بين العرب وسائر الأمم فى الشرق ،أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب ، وكان لهم نشاطهم الواسع مع أقاليم الجزيرة الغربية ، وقبيل ظهور الإسلام تأثر اليمنيون بحادثة محاولة أبرهة هدم الكعبة ، وبناء القليس ، وشعروا بأن هذا يتعارض مع مشاعرهم القومية ، ويتناقض مع توجه عرب الجزيرة جميعاً إلى الكعبة بيت الله تعالى الذى بناه إبراهيم وإسماعيل " عليهم السلام " .

وقد تبدلت أوضاعهم الاقتصادية بهدم سد مأرب، بسبب بغيهم ، وظلمهم ، وإعراضهم عن الحق ، والصواب، يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [1] وهكذا انقلبت أوضاعهم ، وعاشوا فى اضطراب ، وضجر حتى جاء الإسلام .

---

[1] سورة سبأ الآية (١٦ ، ١٧) .

وفى **شمال الجزيرة العربية** ، حيث قرب قبائلها من الفرس والروم ، تأسست مملكتان ، هما مملكة الحيرة فى الشرق تابعة للفرس ، ويحكمها المناذرة ، ومملكة الغساسنة فى الغرب تابعة للروم .

وقد اتخذ الفرس والروم هاتين المملكتين حائلاً بشرياً لكل منهما، يتقى به هجوم الدولة الأخرى .

وقد تشبه ملوك العرب في كل دولة بأسيادهم ، وساند كلاً منهم جيش كبير مدعوم من الفرس أو من الروم .

وكثيراً ما قامت الحروب بين الغساسنة ، والمناذرة ، وبذلك تحقق للدول الكبرى ما أرادت ، حيث كان الصدام بين العرب والعرب ، ولم يقع صدام بين الفرس والروم بصورة مباشرة .

إلا أن هذا الحال أدى فى الوقت نفسه إلى عدم العدوان على داخل الجزيرة العربية،حيث لا مطمع لأحد من الفرس ، أو من الروم فيها، لأنها بدت في نظرهم أماكن صحراوية، متباعدة ، خالية من الخير والنفع ، وتحتاج لجهد كبير من أجل السيطرة عليها .

وأما أقاليم **نجد** ، **والعروض** ، **والحجاز** ، **وتهامة** ؛ فقد عاشت حياة بدوية ، تعتمد على الرحلة ، والتنقل ، ماعدا أهل مكة والمدينة ، والطائف ، فقد سكنها أهلها وعاشوا حياتهم بين الحضارة والبداوة ، فقد أخذو الحضارة من الحجاج ، والزوار ، والتجار ، وتمسكوا ببداوتهم التى ورثوها ، وعاشوا نظامهم عليها .

ومن هنا كان لهم شئ من الحضارة ، **ففى مكة** أنشأ " قصى بن كلاب " نظاماً سياسياً ، فأسس داراً سماها " دار الندوة " ، وجعل بابها يؤدى إلى الكعبة ، وخصصها لاجتماع كل من بلغ أربعين سنة ، متمتعاً بالحكمة ، والفصاحة ، وتدبر الأمور من أهل مكة، ولا يستثنى من شرط السن فقط إلا أبناء قصى [1] .

---

[1] أخبار مكة ج١ ص ٦١ .

حمل قصى قومه على دفع ضريبة سنوية تسمى بـــ " الرفادة " . ينفق منها على الحجيج ، ضيوف الله ، فهم أحق الناس بالكرم .

وقـــد أتفـــق القرشيون فيما بينهم ، منذ عهد قصى ، على توزيع مناصب المسئولية العامة ، على مختلف القبائل ، مع استقلال كل قبيلة بشئونها [١] .

استمر هذا النظام إلى ظهور الإسلام حيث كانت توزع المناصب على النحو التالى :

١ ـ **الحجابة والسدانة** : والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت فى بيت " عبد الدار " .

٢ ـ **السقاية** : وهى الإشراف على بئر زمزم ، وكانت فى بيت هاشم .

٣ ـ **الديات** : وتسمى الأشناق ، وكانت فى بيت " تيم " .

٤ ـ **السفارة** : وتختص بالبت فى الصلح ، وكانت فى بيت " الخطاب " .

٥ ـ **اللواء** : وحامله هو كبير القواد إذا هوجمت مكة ، وكان فى بنى أمية .

٦ ـ **الرفادة** : وهى الإشراف على جمـــع الأمـــوال ، وكـــانـــت لـــ " عبد المطلب " .

٧ ـ **الندوة** : وهى الإشراف على دار الندوة ، وكانت لأبناء عبد العزى .

٨ ـ **الخيمة** : وهى حراسة دار الندوة وتولاها بنو مخزوم .

٩ ـ **الخازنة** : وهى إدارة أموال الكعبة وكانت لبنى كعب .

١٠ ـ **الأزلام** : وهى الاستخارة لمعرفة رأى الآلهة فى القضايا العامة ، وكانت فى بنى أمية [٢] .

وقـــد أرضـــى هـــذا التقسيم قبائل مكة ، فعاشوا فى استقرار ، وتعاون ، واستقلت كل قبيلة بشئونها ، ونشاطها ، وحركتها .

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ١٣٨ .

(٢) عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ .

وظهرت فى الجزيرة طبقات اجتماعية متعددة أهمها : ـــ

١ـ **الصرحاء** : وهــؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتساهم إلى آبائهم الموالين لهم ، ولقبيلتهم .

٢ ـ **العبيد والموالى** : وهــم الأسرى الذين ملكتهم القبائل، أو الرقيق المشترون ، أو الموالى الذين لجأوا إلى القبيلة ، أو المحرر من العبيد .

٣ ـ **الصعاليك** : وهــم الأحــرار الذين فروا من قبائلهم ، واجتمعوا فى الصحارى ، وكونوا مجتمعات جديدة معارضة لقبائلهم الأولى وتعتمد على السلب ، والنهب [١] .

وأغلــب نشاط العرب قائم على الرعى ، والتجارة ، وبخاصة بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتى الشتاء ، والصيف ، وعقد محالفات عدة ، ضمنت الأمن للتجار ، كمــا أخــذ الأمن (الإيلاف) من القبائل المنتشرة على الطرق فى مختلف أرجــاء الجزيرة .

وقد استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيراً ، لأن التجارة مدرسة تعلم السياســة ، والكياســة، وحســن الجوار ، وعمق الفهم، فتعلموا من الحيرة القراءة والكتابة ، وأخذوا من الروم السياسة ، ونقلوا من الفرس ما للسلطة من سيادة وطاعة

وفي ــ يــثرب ــ كثرت الآبار ، والأشجار ، واعتدل ريحها عن مكة ، سكنها اليهود منذ القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزل عليهم الأوس والخزرج ، وكان لكــل من اليهود، والأوس ، والخزرج ، وضع خاص، ونظام معين ، فاليهود انطووا عــلى أنفسهم واهتموا بالزراعة ، والتجارة ، وتحصين المساكن ، خاصة وأهم رأوا قبيلتى الأوس والخزرج ، في قتال دائم جعلهما يقدمان شباهما ، وأموالهما ، للحروب الطويلة المستمرة بينهما ، وأغلب أيام العرب كانت في يثرب .

---

[١] الشعراء الصعاليك ص ١٠٣ ــ ١٠٦ بتصرف .

وقد أدت هذه الحروب إلى اضطراب الحياة في المدينة ، فاقتصادهم مهلهل ، وأفراد القبائل كلهم محاربون ، ورؤساء القبائل لا يعدون إلا للحرب ، وطالت الأيام بين الأوس والخزرج مما جعلهم ينتظرون الخلاص من هذا التنافس ، وقد حاولوا أن يتوجوا " عبد الله بن أبي الخزرجي " ملكاً عليهم يخضع له الجميع، لكنهم فوجئوا بالبعثة المحمدية في مكة فوجهوا أملهم إليها .

وأما ـــ الطائف ـــ فإنها تتمتع بخصوبة التربة، وجودة المناخ، وحسن الثمر [١] وجمال الموقع ، حيث يمر بها الطريق التجارى القادم من الجنوب، وترتبط بمكة ، وبالمدينة بأكثر من طريق، وقد نشأت بها صناعات عديدة وإن كانت بدائية، كل هذا جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها ؛ فعاشوا في رغد ، ورفاهية، مع تمسكهم ببداوتهم فكانوا يرعون الإبل ، والغنم ، ويهتمون بالزراعة ، وكانت القبيلة هى النظام السائد فيها، حيث يدير شئونها رؤساء القبائل بالتشاور فيما بينهم ، وقد قام بالطائف نظام يشبه المزارعة في العصر الحديث إذ تنازل " بنو عامر " وهم البدو المجاورون للطائف عن أرضهم ، وسلموها لمن يعمرها ، ويحييها ، بالغرس والزراعة ، على أن تقسم الثمار بينهم نصفين [٢] وقد اكتسبت الطائف شهرة عظيمه عند ظهور الإسلام .

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة، فهم مجموعة من القبائل الرحل يتولى شئونهم مشايخهم بلا دولة ، أو جند ، أو حصون [٣] .

وعاشت هذه المناطق الجدب ، والحر ، وقلة المطر ، وكان أهلها دائماً في تنقل وراء رعيهم، ومعايشهم [٤] .

وعاش أهل هذه البوادى حياة فقيرة، لبعدهم عن رحلات التجارة ، وخلو

---

(١) مراصد الاطلاع ـــ ص ٢٦٥ .

(٢) معجم ما استعجم ـــ البكرى ـــ ج١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) العرب قبل الإسلام ـــ ص ٢٤٠ .

(٤) الشعراء الصعاليك ـــ ص ٦٢ .

مواطنهم من المياه ، وقد أدى الفقر الشنيع بهم إلى قتل أولادهم، أو بيعهم ، ليستعينوا بأثمانهم على مطالب الحياة [١] .

وكـــان مجـــال العمل أمام البدو ضيقاً جداً ، لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلـــة نادر ، ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا للأغنياء في رعى الإبل، أو فى خدمتهم ، فإن أبت ذلك نفوسهم تحولوا للغزو والإغارة [٢] .

وقـــد وقعـــت بين قبائل البدو المتناثرة في الجزيرة حروب، ومنازعات، هى أيامهم ، ورغم كثرتها فإن الدم لم يرق فيها كثيراً ، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء بلا مبرر [٣] ، وكثيراً ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوى عن خلق كريم ، أو رد لظـــلم واضـــح ، وتعتبر " حرب البسوس " وهى أطول حروبهم صورة رائعة لاحـــترام البدوى لواجب الضيافة المقدس [٤] عند العرب ودفاعه عن الأضياف، وقد اشـــتهر البدوى بالشجاعة، والكبرياء منذ القديم، وقد اكسبتهم الصحراء بما فيها من مخاطر ، صفات جعلتهم أشجع من الحضر [٥] ، وعودهم الاعتماد على أنفسهم.

وكان لعرب الجزيرة تصرفات أخلاقية راقية ، فالوفاء بالوعـــد صـــفة بارزة لا تـــنقض ، حيث يرون أن الغدر من كبائر الأمور ، ذكروا أن الحارث بن عباد مر على عدى بن ربيعة، وهو قاتل أبيه في يوم " قضه " وكان يبحث عنه ليثأر منه لأبيه فلما لقيه وهو لا يعرفه قال له : (**دلنى على عدى بن ربيعة .**

فأجابه عدى : إن دللتك عليه أتؤمننى ؟ !

قال الحارث : نعم .

---

[١] الكامل ـــ للمبرد ـــ ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

[٢] الشعراء الصعاليك ـــ ص ١٤٧ .

[٣] الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ـــ ص ١٨ .

[٤] سيرة النبى " ﷺ " ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ٢٠٠ .

[٥] ابن خلدون ـــ المقدمة ـــ ج١ ص ١٢٥ .

فقال له عدى : **أنا عدى بن ربيعة فخلاه)** [١] ، احتراماً لكلمته ، ووفاء بوعده .

وكانوا **أهل حلم ولين** ، ويكفيهم عند الغضب كلمة يقولونها فتهدأ ثائرتهم وهـى " **إذا ملكـت فاسجح** " وما حروبهم إلا لحماية المنزلة ، والمحافظة على المجد والشرف، وكانوا يتحرزون عن سفك الدم بقدر إمكانهم ، ولذلك ندر عدد القتلى في معـاركهم ، ففى يوم " شمطة " ، وهو أول أيام الفجار لم يقتل أحد من قريش ، كذلـك لم يقتل أحد من بنى بكر بن عبد مناف ، وفى يوم " الشعب " وكان أهله ثلاثـين ألفاً ، وكان أعداؤهم أضعاف ذلك ، في هذا اليوم لم يقتل إلا رجل من كل طرف [٢] ، ولم تكن الحرب تقوم، أو تتوقف، إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد من القبائل ليقرروا ما يستقر عليه الأمر [٣] .

وأمـا **سخاؤهم وكرمهم** فهو مضرب الأمثال ، ويكفى أنهم كانوا يوقدون ناراً تسمى " نار القرى " توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل، وكانوا يوقدونها عـلى الأمـاكن المرتفعة لتكون أشهر ، وكثيراً ما أوقدوا معها عطراً يطير مع الريح ليهتدى إليها العميان [٤] .

وقد اشتملت أخلاقهم على صرامة وجدية ، والناظر لأسباب حرب الفجار وقيام حلف الفضول ، يدرك ذلك .

إن سبب حرب الفجار كان قتل رجل في الحرم [٥] الأمر الذى أدى إلى ثورة القبائل وتجمعها فى مواجهة من فجر فى الأشهر الحرم ، لتنتقم للقتيل ، ولتبقى درساً بعدها لكل من يفكر فى هتك حرمة مكة أو التعدى فى الأشهر الحرم ، وحتى لا يفجر

---

(١) بلوغ الأرب ـــ ج١ ص ١٣٦ .

(٢) بلوغ الأرب ـــ ج١ ص٧٠ ، ٢٦٨ .

(٣) بلوغ الأرب ـــ ج١ ص ٢٧١ .

(٤) سيرة النبى " ﷺ " ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٩٩ .

(٥) سيرة النبى " ﷺ " ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٩٩ .

أحد بعد ذلك فى الحرم ، ويظلم غيره .

وأيضاً فإن قيام حلف الفضول كان لصيانة حقوق المظلومين الضعفاء وضرورة الانتصار لمن وقع عليه عدوان من أهل مكة ، أو من يقصدها من العمار والزوار .

إن حلف الفضول يتميز بنبل الهدف ، وروعة الطريقة ، والتجرد الكريم من الأنانية ، والذاتية ، ولذلك مدحه النبى " ﷺ " بعد ذلك، وقال عنه " **لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت**[1] لأنه يلتقى مع غايات الإسلام ، ومراميه .

❊❊❊

---

[1] سيرة النبى " ﷺ " ــ لابن هشام ــ ج١ ص ١٤٤ .

ـ ٣ ـ

أوضاع العرب الدينية

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب ، وأقاموها حول الكعبة وفي جوفها إلى وجود عقيدة دينية ، وانتشار أفكار مقدسه عند العرب جميعاً ، فلقد وجد يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً [١] .

يمثل هـذا العدد بكثرته ، آلهة القرشيين الثابتة عند الكعبة، وفي جوفها ، حيث كان يأتيها أصحابها للطواف حولها بين الحين والحين ، وكانت كل قبيلة تعرف صنمها الذي تعبده عند الكعبة ، أما ما وراء هذا العدد فهو كثير بعضه أقيم في البيت وبعضـه في مكان العمل ، والبعض الآخر ينتقل مع قوافل السفر ، وكان لأهل كل بيـت صـنم يعبدونه [٢] وينحتون على صورته أصناماً صغيرة يصطحبونها معهم في الرحلة والسفر ، ويلازمونها حتى يعودوا إلى مكة [٣] .

وقد اشتهر العرب بتقديسهم لما اتخذ من حجر ، أيا كان شكله ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن كان يعجز منهم عن بناء البيت، واتخاذ الصنم ينصـب حجراً في مكان يستحسنه ، ثم يطوف به ويسميه النصب [٤] .ومن بيوت العرب المقدسة " يرئام " وكان بيتاً لأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده [٥] ، ومنها " رضاء " وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب [٦] .

ومن أصنامهم " هبل " وهو أول صنم أقيم في الكعبة بعد أن أحضره عمرو

---

[١] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٧٠ .

[٢] الأصنام ص ٣٣ .

[٣] الأصنام ص ٦ .

[٤] الأصنام ص ٧ .

[٥] ابن هشام ـــ ج١ ص ٢٤.

[٦] ابن هشام ـــ ج١ ص ٩٢ .

ابـن لحـى من " مآب " ونصبه على البئر الذى حفره إبراهيم " عليه السلام " في جوف الكعبـة، وأمر الناس بعبادته فعبدوه، وكانوا ينادونه " يا إلهنا " [١] وكان من تقديس أهل مكة لـ " هبل " أن أظهروه في المشاكل الكبرى، حتى أنهم هتفوا باسمه لما رأوا أنفسهم انتصروا على المسلمين في يوم أحد [٢] .

ومع أن " هبل " هو أقدم الأصنام فإن قريشاً ومن سكن مكة كانت تعظم " العزى " أكثر من " هبل " وبعدهما " مناة "

وقد أشار الكلبى إلى أن " مناة " أقدم الثلاثة، وهى المنصوبة ناحية البحر عند المشلل والمتمتعة بتعظيم العرب جميعاً، وكان الأوس والخزرج أكثر تعظيماً له واختصاصاً به .

وذكر الكلبى أيضاً أن " اللات " أحدث من مناة، وكان تعظيمه عند أهل الطائف أكثر ، و " العزى " أحدث الثلاثة، وهى شجرة بوادى نخلة قرب مكة، ولها منزلـة خاصـة، وفريدة عند أهلها فهى أعظم الأصنام عند قريش جميعاً، يزورونها، ويهدون إليها، ويذبحون عندها [٣].

وقد تقسمت القبائل أصناماً عدة، واختصت كل قبيلة بصنم ، وعلى سبيل المثال نرى أن هذيلاً اتخذت سواعاً ، وكلباً اتخذت وداً ، وأنعم وأهل جرش اتخذت يغوث ، وحيوان اتخذت يعوق ، وحمير اتخذت نسراً ، وطئ اتـخذت الفلس وبنو الحارث اتخذت ذا الشرى [٤] .

وهكذا توزعت الأصنام على القبائل ، وليس المجال هنا لحصرها فما هى إلا نماذج نعرف منها دين العرب ، ومعتقدها قبل الإسلام .

---

[١] أخبار مكة ــ ج١ ص ٦٨ .

[٢] سيرة ابن هشام ــ ج٢ ص٣٧ .

[٣] الأصنام ــ ص ١٣ ــ ٢٧ .

[٤] سيرة النبى ــ ج١ ص ٨٣ ــ ٩١ ، الملل والنحل ــ ج٢ ص ٢٤٧ .

وقد عظم العرب أصنامهم بأشكال متعددة ، فكانوا يسمون أولادهم باسمها فباسم " مناة " سمي تميم بن مر ابنه، "زيد مناة بن تميم" ، وباسم اللات سمي ثعلبة بن عكابة ابنه"تيم اللات"، وباسم العزى سمى كعب بن سعد ابنه " عبد العزى " وحمل عوف بن عذرة " وداً " معه إلى دومة الجندول وسمى ابنه "عبد ود" .

وكانوا يذبحون ذبائحهم عندها، ويهدون لحومها من حضر عند الصنم ويأتونها بالهدية والزيارة [١] .

وكانوا يهتمون بالتمسح بها فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح بالصنم ، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما يفعله ، وكانت الحائض لا تقربه،ولا تتمسح به،بل تقف بعيداً عنه حتى ينتهي حيضها [٢]

وكانوا يحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون حوله شعرهم ، ومعه كمية من دقيق .

وكانوا يحلفون به ، يقول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها وبالله إن الله منهن أكبر [٣]

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم في الحروب ، فنرى العربي في يوم " أحد " يستغيث ويستنصر " هبل " [٤]، وكان أبو سفيان في هذه الغزوة يحمل اللات والعزى ، وكانوا يستهمون عند الصنم ، ويضربون الأقداح لديه في شئون كثيرة كالعقل إذا اختلفوا فيمن يتحمله ، ولعمل ما، أيفعل أم يترك ، يقول ابن هشام [٥] : كانوا إذا

---

[١] الأصنام ـــ ١٨ ، ٥٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٥٩ .

[٢] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٦٦ .

[٣] الأصنام ـــ ص ٤٨ ، ١٤ ، ١٧ .

[٤] تاريخ الرسل والملوك ـــ ج١ ص ١٣٩٥ .

[٥] سيرة النبي ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٦٥ .

أرادو أن أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وأجروا القداح ، ونفذوا المراد .

ولقد أشار الأزرقى إلى أن عبادة الحجر نشأت في بني إسماعيل بسبب تعلقهم الشديد بالحرم، وبمكة ، لدرجة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصبابة بمكة ، وبالكعبة ، وحيث ما حلوا وضعوا هذا الحجر أمامهم، ليبقى رمزاً لبيت الله في غيبتهم عن مكة، ويطوفون به ، كطوافهم بالكعبة، وظلوا على ذلك حتى عبدوا ما استحسنوا من الحجارة [١].

ولعل هذه البداية سهلت للعرب تقدير الرمز نيابة عن أصله ، وجعلوا ذلك مبدأ ينطبق على كل الأصنام مهما كانت بدايتها ، وهو الذى جعلهم يتقبلون ما أتى به عمرو بن لحى من أصنام ، حين أحضرها من بلاد الشام لقومه ، ونصبها عند الكعبة ، وذكر لهم أنها تنزل المطر ، وتنصر في الحروب ، وأمرهم بعبادتها فعبدوها [٢] ، وهو الذى أمرهم كذلك بعبادة أساف ونائلة ، هذين الصنمين اللذين كانا في الأصل رجلاً وامرأة فجرا في الكعبة فمسخا حجرين للازدجار والعظة ، ولكنهما بتقادم العهد صارا صنمين فلما أمر " عمرو بن لحى " بعبادتهما عبدا [٣] .

وقد كان العرب لهذا المبدأ يستحسنون بعض أصنامهم مع علمهم أنها في الأصل صورة لقوم صالحين، معظمين من قومهم السابقين ، لكنهم مع طول العهد تأولوا وقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوا صورهم، وعظموا أمرهم، واشتد كفرهم [٤] وما عبدوا الصورة إلا لاعتقادهم أنها رمز يستشفعون به نيابة عن صاحبه .

---

[١] أخبار مكة ــ ج١ ص ٦٧ .

[٢] الأصنام ــ ص٨ ، أخبار مكة ــ ج١ ص ١٢٥ .

[٣] أخبار مكة ــ ج١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

[٤] الأصنام ــ ص ٥١ ، ٥٢ .

وكان تعلق العربي الشديد بصنمه يشير إلى ارتباط عجيب معه، وتحمس من أجـل دوام عبادته ، فلقد دخل أبو لهب على أبي أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن عـبد شمس)، وهو في مرضه الذى مات فيه فوجده يبكى فقال له : ما يبكيك أمن الموت تبكى ولابد منه .

قال : لا ، ولكنى أخاف أن لاتعبد العزى بعدى .

فقـال أبـو لهب : والله ما عبدت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

فقال أبو أحيحه : الآن علمت أن لى خليفة [1] .

ويـبدو أن العـرب كانت تعتقد أن لهذه الأصنام أثراً جعلهم يتمسحون بها ويطلـبون نصرتها ، ويرحلون بها، ويرون أن الأصنام احتوت روحها التى صورت في الأصل على شاكلتها ، ولولا الروح التى احتوت ما كانت تستحق شيئاً [2] .

من ذلك ما عرف عن " اللات " فإنها كانت في الأصل صخرة يجلس عليها رجل يلت السويق ، فلما مات اعتقدوا أن روحه تقمصت الحجر ، وسكنته فاتخذوه إلهـاً هو اللات ، ومنه ما عرف عن " العزى " فإنها ثلاث شجرات أعتقد العرب أن الجن سكنتها ، وأن التأثير فيها للجن الساكن فيها [3] .

وعـلى الجملة كانت العرب تعتقد أن لكل صنم شيطاناً ، فمن عبد الصنم قضى الشيطان حوائجه ، بأمر الله الأكبر وإلا أصابه الشيطان بنكبة عظيمة [4] وأكد لهـم هذا الاعتقاد ما كانت تصدره بيوتهم المقدسة بفعل الريح ، أو بفعل الكهنة من أصوات خفية ، جعلتهم يصدقون أن الأرواح والشياطين تكلمهم [5] .

---

[1] الأصنام ــ ص ٢٣ .

[2] أخبار مكة ــ ج١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

[3] تاريخ العرب قبل الإسلام ــ ج٥ ص ٣٤ .

[4] بلوغ الأرب ــ ج٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

[5] الأصنام ــ ص ١٢ .

ورغـــم صور تعظيم الأصنام السابقة ، وعقيدة العرب فيها ، رغم ذلك لم تنشأ طبقة كهنوتية لها مميزاتها، وخصائصها، كما حدث في البلاد الأخرى ، بل بقى كهنة العرب بين الناس كأحدهم ، يقومون بسائر الأعمال، ويشتركون في الحروب .

كذلك لم يحدث صراع من أجل الأصنام رغم تعددها ، ولم تحاول قبيلة ما ضـم أخـرى لتعبد صنمها ، بل وجدنا العكس، فالقبيلة تقدس صنمها ،وفى نفس الوقت تحترم أصنام الآخرين ، ولكنها لا تتقرب إلا إلى صنمها .

كذلـــك لم تنشأ لدى العرب عاطفة دينية تربطهم بالأصنام ربطاً نفسياً، فيه الحمـــاس والاندفـــاع، ومعه الغيرة والانفعال ، ولذلك نراهم يتركون أصنامهم في الكعبة يوم قدوم أبرهة، ولا يفكرون إلا في البيت وحده دون معبوداتهم .

ولعل تفسير ذلك هو اعتقادهم أن كلَ هذه المقدسات من بيوت ، وأصنام ، ونصب ما هى إلا آلهة صغرى فوقها إله أكبر هو الخالق للجميع ، وما عبادة المظاهر الطبيـعة المادية إلا لتكون قربى لله الأكبر، لأنه هو المالك لكل الآلهة الصغرى ، وهو رب الحـرم، وحامـيه ، وكانـــت التلبية السائدة عندهم تشير إلى أن الله هو المالك للأصنام فهم يقولون فيها " **لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك** " ، وهكذا كانوا يوحدون الله في التلبية، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده [١] .

وأيضاً فإنهم يوم قدوم " أبرهة " تركوا مكة، ورحلوا عنها إلى شعاب الجبل المحـيطة بهـــا ، على أمل أن ينقذ رب الحرم حرمه ، ولم ينتظروا معونة من هبل، أو الـــلات، أو غيرهـــا ، ولم يفكروا في انقاذها هى نفسها من الهـــدم، والتكســـير، يـــروى ابـــن هشام أن عبد المطلب لما أمر قريشاً بالخروج من مكة أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

---

[١] الأصنام ـــ ص ٧ .

لاهم إن العبـــد يمنـــع   رحله فامنع حلاً لك

لا يغلـــبن صـــليبهـــم   ومحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلـــ   ـــتنا فأمر ما بدا لك

ولمـــا حدثـــت المناقشـــات بين أبرهة وعبد المطلب وقال ابرهة متسائلاً: تسألني عن الإبل، وتترك البيت الذى هو دينك، ودين آبائك، أجاب عبد المطلب: أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه [١] ، ولم يرد ذكر للأصنام في حوار عبد المطلب وأبرهة .

وقد كان العرب يذبحون ، وينحرون ، ويتقربون إلى الأصنام، وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة، ورب الكعبة ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها   وبالله إن الله منهن أكبر [٢]

يرى " ورنركاس " أن الله هو الإله الذى كان فوق آلهة القبائل جميعاً، ولهذا ذكره شعراء مختلف القبائل لأنه لا يختص بقبيلة واحدة [٣] فهذا امرؤ القيس في معلقته يقسم بالله فيقول :

فقالت يمين الله مالك حيلة   وما أن أرى عنك الغواية تنجلى

ونراه يذكر الله بالحمد فيقول :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت   ثقالاً إذا ما استلهمتها صعودها

ويقول عبيد بن الأبرص :

حلفت بالله أن الله ذو نعـــم   لمن يشاء وذو عفو وتصفاح [٤]

ويقول زهير بن أبي سلمى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

---

[١] سيرة النبى ـــ ج١ ص ٥١ .

[٢] الأصنام ـــ ص ١٧ .

[٣] الشعراء الصعاليك ـــ ص ٣٠٥ .

[٤] نفس المرجع ص ١٩٧ ، ٢٩٨ .

وهكذا نراهم يعرفون الله بأنه الخالق،القادر،المدبر،الحكيم، المسخر لكل شئ في الوجود،وقد سجل القرآن الكريم لهم هذه المعرفة بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [1] وبقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [2]،وبقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [3] وبقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [4] ، وبقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [5]، فهم يعرفون أن الخالق هو الله،ومسخر الفلك هو الله، ومنزل المطر ، ومحيي الأرض هو الله، وهو المالك لكل شئ .

وهذه النظرة إلى الله بما فيها من قداسة، وسمو، لم تصل إلى التوحيد الخالص بسبب إنعدام التعاليم الثابتة ، الأمر الذى جعلهم يبحثون عن واسطة تربطهم بهذا الإله الأعلى ، ويبدو أن " ابن لحى " كان يتمتع بعقلية فذه استغل بها الوضع القائم فقدم للعرب الأصنام كرمز على شئ آخر عظيم، ولتكون واسطتهم إلى الله فعبدوها وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾، لدرجة أن بعض الجاهلين كانت أصنامهم على صورة تخيلوها للملائكة، لاعتقادهم أن الملائكة ذو منزلة عند الله، فهم أولى أن يكونوا واسطتهم إليه [6] .

---

[1] سورة العنكبوت آية (٦١) .

[2] سورة العنكبوت آية (٦٣) .

[3] سورة المؤمنون آية (٨٤ ، ٨٥) .

[4] سورة المؤمنون آية (٨٦ ، ٨٧) .

[5] سورة لقمان آية (٢٥) .

[6] بلوغ الأرب ــ جـ٢ ص ١٩٧ .

ومما زاد من ضلال نظرة العرب في الواسطة ما كانوا يسمعون من أصوات تصدر من الأصنام ، والبيوت ، ومن رؤيتهم لخيالات الجن قرب معبوداتهم، وبذلك تأكدت فكرتهم عن الواسطة ، وبمرور الأيام أصبحت هذه الفكرة عقيدة أساسية وما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً إلا لاستحالة اتصال البشر بالله من غير واسطة في نظرهم، وكأنهم كانوا يريدون واسطة بين الرسول والله، من نوع معبوداتهم الموضوعة عند الكعبة وحولها، رغم صغر مساحتها لتكون في رعاية الله الأكبر، وعلى مقربة منه .

وكانت هذه العقيدة، وذاك الخلط يعيشان عادة عند العرب، فهم يحجون الكعبة، ويطوفون بها، وبعدها يختمون حجهم بالتقرب للصنم، فيحلقون رؤوسهم عنده، ويذبحون عتائرهم أمامه [١] ، ويبدو أن سبب ذلك هو بقايا بقيت من مناسك دين إبراهيم " عليه السلام " تقادم بها الزمن فشابتها بعضُ العبادات المبتدعة ، هذه البقايا جعلتهم يعظمون البيت، ويطوفون به، ويحجون، ويعتمرون، ويقفون بعرفه، ويهلون بالحج والعمرة [٢] .

ولعل في تسمية مكة " أم القرى " على الرغم من وقوعها في واد غير ذى زرع إشارة إلى اهتمام العرب بقداسة الكعبة، أول بيت وضع للناس، وأحد مواريث إبراهيم " عليه السلام " .

وقد سخر بعض عقلاء العرب من هذا الخلط فنظروا إلى مسلك أقوامهم مع الأصنام فوجدوه لهواً لا يفيد، وعبثاً من غير فكر دقيق، وعندئذ أخذوا يلتمسون الصواب في الدين .

ولقد حكى ابن هشام عن أربعة منهم هم **ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل** ، وأنهم اجتمعوا في عيد لهم

---

[١] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٧٣ .

[٢] الأصنام ـــ ص ٦ .

عند صنم من أصنامهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شئ، لقد أخطـأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر، ولا ينفع، ياقوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شئ [١] .

وقد وقف" **قس بن ساعدة الأيادى** " قبيل البعثة بسوق عكاظ، وقـال : **أيها الناس اسمعوا وعوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور ، ليل داج، وسماء ذات أبراج ، أقسم قسـماً، حقاً حتماً، لئن كان في الأرض ليكونن بعده سخطاً، وأن لله عزت قدرته ديناً أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه** " [٢] .

وهكذا وصل فكر هؤلاء النفر إلى أن ما عليه قومهم ليس شيئاً يذكر، وأن ديـن الله الحق هو من نوع ما جاء به إبراهيم فبحثوا عنه، وانتظروا في الوقت نفسه رسـولاً يبعثه الله إليهم ، وقد انتشر هذا الفكر بين عدد من العرب [٣] مع اختلاف طرقهم التي سلكوها بعد ذلك،فمنهم من لم يهتد إلى شئ محدد حتى مات كـ " زيد بن نفيل " ومنهم من تنصر وقرأ كتب النصرانية كـ " ورقة بن نوفل " ، ومنهم من بقـى على فكره حتى جاء الإسلام وأسلم كـ " عبيد الله بن جحش " [٤] .. ومن هـؤلاء المفكـرين **كانـت طائفة " الحنفاء " التى عبدت الله** على ما بقى من دين إبراهـيم، وبحثوا عن كل ما غاب عنها ، وهكذا لم يقتصر نشاط العرب الديني على الأصنام، والأوثان فقط ، بل اتجه مفكروهم إلى الإله الحق كما بدا من الحنفاء .

---

(١) سيرة النبي " ﷺ " ــ ج١ ص ٢٤٢ .

(٢) بلوغ الأرب ــ ج٢ ص ٢٤٥ .

(٣) الملل والنحل ــ ج٢ ص ٢٥٠ ــ ٢٥٣ .

(٤) ابن هشام ــ ج١ ص ٢٤٣ ــ ٢٥٠ .

وكذلـك ظهـر في العـرب عدد من " **الحكماء** " الذين امتازوا بالخبرة، والـتجربة وكانوا مرجع القوم فيما يعرض لهم من مشاكل، يقضون لهم فيها ، وقد تنوقلـت عنهم كلمات قصيرة موجزة ، لكنها تحمل المعنى الكبير مما جعلها تخلد بين الناس ومن أمثالهم : —

" **مقتل الرجل بين فكيه** " .

" **إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى** " .

يقول الشهرستاني عنهم : (ومنهم الحكماء وهم شرذمة قليلون، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر) [١] .

وقد اتجه الحكماء أيضاً إلى فكرة ضرورة الخالق ، وربط المعلول بعلته ، ورأوا استحالة وجـود هذا الكون بلا موجد له ، قدير ، يقول عامر بن الطرب الحكيم مفكراً في سبب الخلق : (**إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء**) [٢] .

ومن حكماء العرب كذلك " عبد المطلب " جد النبى " ﷺ " الذى وصلت بـه الحكمـة إلى سـن أمور أقرها الإسلام بعد ، فقد منع نكاح المحارم ، وقطع يد السـارق ، ونهى عن قتل الموءوده، وجعل دية القتيل مائة من الإبل، إلا أن الحكمة مهمـا دقـت ، فإنها لا تصل إلى الحقيقة بكمالها ، وأصولها ، ولذلك كانت حاجة الحكماء، وغيرهم إلى وحي يقنعهم ، ويأخذهم إلى دين الله تعالى ، ضرورة لابد منها

ويبدو أن الفرق بين الحنفاء والحكماء أن الحنفاء بذلوا الجهد كله لمعرفة الدين الحق ، الذي كان عليه إبراهيم " عليه السلام " وأهملوا عبادة الأصنام ، أما الحكماء فكان تفكيرهـم في الخلـق والخالق عارضاً ، وكانوا بمثابة قضاة مجتمعهم ،ومع ذلك عبد بعضهم الأصنام مثل أقوامهم ..

---

[١] الملل والنحل — ج٢ ص ٦٤ .

[٢] تمهيد لتاريخ الفلسفة — ص ١١٠ .

وقـــد وصل الاضطراب الديني عند بعضهم إلى ابتداع رأى **الحمس** ، وهو اتجـــاه مبـــتدع، سببه حماسة العرب تجاه حرمة البيت، ووجوب إبراز هذه الحرمة في منهج عملى ، وكان هذا المنهج شديداً ، ويحتاج إلى مال كثير ، فلقد كانوا يلتزمون بإطعـــام الحجيج ، وكسائهم، فلا يأكل الحاج إلا من طعام الحمس ، ولا يلبس إلا أثوابهـــم ، فإذا لم يجد من ثيابهم طاف عرياناً، ولو طاف بثوبه فإنه يخلعه مباشرة ولا يســـتعمله أبـــداً ، وذلك لظنهم أن الحجيج عصوا الله في أثوابهم ، ولذلك لا يصح الطواف بها .

هذا وقد وجدت عند العرب عقائد أخرى وردت إليهم من أقاليم العالم التي اتصلوا بها خلال التجارة ، أو الهجرة ، ومن هذه العقائد : ـــ

المجوسية :

أخـــذ العـــرب المجوسية من بلاد فارس،فجعلوا النور والظلمه آلهة تعبد ، وكانوا يتخذون لهما رموزاً تقدس ، يقول الألوسى : كانت المجوسية في تميم، ومنهم الأقرع بن حابس، وكان مجوسياً ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً [١] ويقول في مكان آخر : كانت الزندقة في قريش أخذوها عن الحيرة [٢] .

وقـــد ثبت أن النبى " ﷺ " أخذ الجزية من مجوس هجر [٣] ويذكر أبو عبيدة أن النبى " ﷺ " قبل الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً [٤] .

ومنها أيضاً " عبادة الكواكب " وكانـــت موجودة في العالم على ندرة أصحابها، وهم الصابئة ، وقد نقلها بعض العرب عنهم فعبدت " طى " الثريا [٥] وعبد لخم وجذام " المشترى " وعبد أسد " عطارد " وعبد كنانة " القمر " [٦] .

---

(١) بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق ـــ ج٢ ص ٢٢٨ .

(٣) نيل الأوطار ـــ ج ٨ ص ٦٣ .

(٤) الأموال ـــ ص ٣٣ .

(٥) بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ٢٣٩ .

(٦) التاريخ الإسلامى العام ـــ ص ١٧٧ .

ومنها عبادة الحيوان والطيور : وهذه العبادة أتت من قبل الهند ، وقد اتخذ بعض العرب أصنامهم على صورة الحيوان ، والطير .

فصنمهم " نسر " كان على صورة النسر .

وصنمهم " يغوث " كان على صورة الأسد .

ويعوق كان على هيئة الفرس [١] .

ومن عبادات العرب عبادة الشجر ، فلقد روى أن النبى " ﷺ " خرج إلى حنين وقومه حديثو عهد بجاهلية ، **فلما رأى بعض أصحابه شجرة في الطريق ، يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تقدسها ، فنادوا وقالوا : يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله " ﷺ " : سبحان الله هذا كما قال قوم موسى لموسى " عليه السلام " إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم** [٢] .

ومن العرب ظهر بعض الدهريين الذين أنكروا الخالق، ويوم القيامة،وقالوا بالطبع المحيى، والدهر المفنى [٣] وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٤] وقد أشارت الآية إلى عقيدة هؤلاء الأفراد الذين جعلوا الدهر إلهاً ، يحيى ، ويميت .

ولقد أدت المحاولات التبشيرية للفرس والروم إلى وجود عدد ليس بالكثير تابعاً لإحدى الدولتين ، على منهج الولاء السياسى ، أو الدينى ، ومن هنا وجدت

---

[١] تفسير الزمخشرى ـــ ج٤ ص ١٦٤.

[٢] سنن الترمذى ـــ كتاب الفتن ـــ باب لتركبن سنن من كان قبلكم ـــ ج ٤ ص ٤٧٥ .

[٣] الملل والنحل ـــ ج٢ ص ٢٤٥ .

[٤] سورة الجاثية آية (٢٤) .

المسيحية في شمال الجزيرة ، وجنوبها ، وشرقها .

كمـــا أن اليهودية وجدت في جنوب الجزيرة ووسطها، وسكنت " يثرب " بهجـــرة بعض اليهود إليها ، و لم تكن اليهودية دين أمة؛ وإنما دين جماعة متعصبة من الرجال المغامرين .

وكـــان الـــيهود يسكنون عند الميلاد في فلسطين ، فلما تعرضوا لاضطهاد الرومان وخاصة على يد " تيطس " الذى دمر لهم " أورشليم " في المرة الثانية، رحلوا إلى الـــبلاد المجاورة كالعراق ، ومصر، والجزيرة العربية [١] ، فسكنوا أولاً بلاد اليمن حيث الازدهار والغنى ، إلا أنهم وقعوا في صراع مع المسيحية، كاد يودى عليهم لولا أن ســـاعدهم الفرس ضد الروم ، فلما اشتد اضطهادهم في اليمن، وانهدم سد مأرب مصـــدر الغـــنى؛ هاجروا إلى يثرب، وأسسوا فيها لأنفسهم المزارع والحصون ؛ وفى يثرب باشروا مناسك دينهم في حرية ، ونشطوا في أعمال التجارة والصناعة وغيرها .

وقـــد أشـــار ابن قتيبة إلى تهود عدد قليل من العرب ، حيث وجد أفراد من اليهود العرب في حمير ، وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكنده [٢] .

ويـــبدو أن السبب في عدم انتشار اليهودية هو عنصرية اليهود القائمة على فكرهم الديني، وإيمانهم بأنهم شعب مختار من الله على الخصوص؛ حسب ما تعلموا من نصوص كتابهم المقدس ، فلقد ايقنوا أنهم أعلى من سائر الشعوب ، وأن دينهم وقف علـــيهم كما جاء في سفر التثنية : (**أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك، لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب،الذين على وجه الأرض**) [٣]

وهـــذا مـــا جعلهم يعيشون مستقلين،ومنطوين على أنفسهم ، ودفعهم كذلك إلى التفوق في كافة الشئون،وخاصة الشئون الاقتصادية؛ كماأسسوا القرى المحصنة ضمانا

---

[١] التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٨ .

[٢] المعارف ص ٣٠٥ .

[٣] سفر التثنية ــــ الإصحاح السابع فقرة .

لمصالحهم، وحفاظاً على هذه العنصرية ، التي آمنوا بها ، وأيضاً فإن من طبيعة العربي الاستعلاء ، والثقة ، والرضي ، رغم ما فيه من نقص ، وحاجة ، ولذلك أبى أن يكون تابعاً لهؤلاء المتعصبين .

وقد انقسم اليهود إلى طوائف متعددة ، أشهرها **الفريسيون** الذين ينادون بالتمسك بنص التوراة من غير تأويل ويسمون أنفسهم بالأصوليين، **والصدوقيون** وهم الذين ينكرون الآخرة .

وتؤكد آيات القرآن الكريم وجود اليهود في الجزيرة العربية ، حيث خاطبتهم الآيات المنزلة، وتحدثت كثيراً عنهم ، ويفهم من دلالة الآيات أن اليهود في الجزيرة كانوا من بني إسرائيل لا من العرب ، حيث كان النداء لهم ببني إسرائيل ، يقول تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [١]، ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٍ ﴾ [٢] ، ويذكر الأستاذ دروزة أن اليهودية لم يعتنقها أحد من العرب في يثرب، ويبدوا أن من تهود من العرب كانوا أعداداً قليلة لاتذكر لقلتها ، وعدم تأثيرها في الناس ، كما أنها لا تستحق نداء باسمها على الخصوص ، ولذلك فهي مندرجة في نداء الله لبني إسرائيل [٣].

هذا ..

والمطلع على هذا التنوع فى أديان العرب يدرك حكمة الله تعالى فى جعل الإسلام ينبع أولاً فى العرب ، حيث يمكن مناقشة سائر المذاهب والأديان ، ومناقشة أصحابها بسهولة ممكنة ، وشمول تام و ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [٤]

---

[١] سورة البقرة آية (٤٠) .

[٢] سورة البقرة آية (٢١١) .

[٣] سيرة الرسول ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

[٤] سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

المبحث الثانى

الروم

- ١ -

جغرافية الدولة الرومانية

سكنت — الروم — غرب أوربا، واتخذت روما [١] حاضرة لها ، ومدت سلطانها على مساحات شاسعة ، شملت سائر البلاد المطلة على البحر الأبيض من جميع جوانبه، وكان الشمال الأفريقي ابتداء من مصر حتى المحيط الأطلسي تحت السيطرة الرومانية ، وكانت مصر تمد الإمبراطورية الرومانية بالحبوب، والغذاء [٢] .

أدى الاتساع الكبير للإمبراطورية إلى أخطار كثيرة، قابلت الدولة من جيرانها في عدد من النواحي [٣]، فمن أطرافها الشرقية عند نهر الفرات أتاها خطر الفرس، ومن حدودها الشمالية الشرقية والشمالية، كان خطر القبائل الجرمانية، ومن حدودها الجنوبية الشرقية على حدود الشام كان خطر القبائل العربية الغازية [٤]، ولم يسلم من حدودها إلا الجنوبي في أفريقيا، حيث كان الأحباش قوة تحمي هذا الجانب .

وأصبح لهذه الأخطار المتعددة أثر كبير في تفكك الدولة الرومانية، وانقسامها إلى شطريها الشرقي، والغربي، ذلك أن تجمع هذه الأخطار جعلت الإمبراطور " قسطنطين " سنة ٣٢٣م " والإمبراطور دقلديانوس " سنة ٢٨٤م يشعران بأن روما " لم تعد تصلح لأن تكون مركزاً لإدارة الإمبراطورية، ومنذ عهدهما بدأ الاتجاه نحو الشرق ، وصار غرب البحر الأبيض المتوسط في المرتبة الثانوية [٥] .

---

(١) مراصد الاطلاع ص ١٩٦ .

(٢) المسلمون والجرمان ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية ص ١ ، ٢ .

(٤) الدولة الجرمانية الشرقية ص ٣٦ .

(٥) المسلمون والجرمان ص ١٣ .

وبـــالفعل فلقد عين " دقلديانوس " قسيساً له مقره " رافنا " بشمالى إيطاليا يشرف على إدارة القسم الغربى ٠

وتعتبر سنة ٣٩٥م هى بداية الانفصال العملى بين الشطر الشرقى، والشطر الغـــربى لهـــذه الإمبراطورية الكبرى ، إذ صار إمبراطور كل قسم يعمل على حماية ممـتلكاته دون اعتــبار لوحـــدة الإمـــبراطورية [١] ، وأصــبح لهـــا عاصمتان هما "القســطنطينية" عاصمة القسم الشرقى و " **روما** :" عاصمة القسم الغربى ، وأخذ الانفصال في تزايد بينهما حتى القرن السابع الميلادى [٢] .

الأحباش :

الأحباش أمة تابعة للدولة الرومانية ، مع شئ من الاستقلال، سكنت شرق أفريقـــيا وأصـــبحت حارسة لحدود الدولة الرومانية الجنوبية في القطاع الأفريقي ؛ واشـــتهرت بقوتهـــا العسكرية التى مكنتها من شن حملات على جيرانها، وسعت بها حدودهـــا التي وصلت شمالاً إلى الحدود المتاخمة لجنوب مصر، التى كانت مستعمرة رومانية، وأخضعت لحكمها منطقة نهر "نكازه" (المجرى الأعلى لنهر عطبرة) وقبائل " الـــبجة " ووصلت حدودها الجنوبية إلى الصومال ، أما حدها الشرقى فهو البحر الأحمر [٣] وحدها الغربى فينتهى عند النيل وسط أفريقيا [٤] .

وكانـــت حاضـــرة الأحباش هى " أكسوم " الواقعة في شمال الحبشة، وقد عرفت دولة الأحباش بالدولة الأكسومية ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادى [٥] .

---

[١] المصدر السابق ص ١٩ .

[٢] الدولة الرومانية الشرقية ص ٣٦ .

[٣] بين الحبشة والعرب ص ٢٧ ، ٢٨ .

[٤] سيرة النبى " ﷺ " ص ٣٦١ .

[٥] بين الحبشة والعرب ص ١٣ ، ١٥ .

وقـــد كـــان لدولـــة الروم نفوذ واسع على الحبشة نظراً لاعتناق الأخيرة المســـيحية،إذ مـــن المفهوم أن المسيحية كانت تربط الدولة المتنصرة بالدولة الرومانية ربطـــاً قوياً،وكانت المسيحية هي الوسيلة المـــثلى في بسط النفـــوذ الروماني في أي مكان [١] .

***

[١] نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

- ٢ -

أوضاع الرومان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية

كان لكل إقليم فى الدولة الرومانية بشطريها أوضاع اجتماعية مغايرة لسواها ونظم سياسية تختلف عن غيرها .

فالرومان في دولتهم الشرقية أو الغربية كانوا يعرفون منهج الدولة المنظمة إلا أنهم عاشوا تحت وطأة ظلم بغيض ، وطبقية باغية ، وكان عامة الشعب عبيداً، وخدماً للطبقة العليا المتمتعة بكل شئ .

ففى **الدولة الرومانية الغربية** : قامت دويلات عدة ، تكونت من القبائل الجرمانية التى نزلت من الشمال في موجات غازية ، وكونوا طبقة السلطة ، ففى أسبانيا قامت دولة القوط الغربيين التى أسسها الملك " واليا " .

وفى أفريقيا قامت دولة " الوندال " بعد انتزاعها من الرومان بالقوة ، وتمكن القوط الغربيون من تأسيس مملكة لهم في إيطاليا ، وتدعمت في غاليا (فرنسا) مملكة يحكمها الفرنجة البحريون ، وبقيام الممالك المذكورة تصدعت الدولة الرومانية الغربية عملياً [١] ومع بداية القرن السادس الميلادى تم استقرار هذه الممالك الجديدة في مواطنها من المدة ما بين سنة ٤١٥م إلى سنة ٥٠٧م .

وكان حكم هذه الممالك وراثياً في القبائل الجرمانية ، وقد تشبه أمراء هذه الدول بأباطرة الشرق ، وحولوا المجتمع إلى طبقات ، وكانت طبقة الحكم هم الجرمان والعسكريون ، حيث تتمتع بكل شئ في الدولة ، ولا يقرب منها إلا طبقة صغار الملاك ، والحرفيين ، والتجار ، أما عامة الشعب فهم الطبقة الدنيا حيث العبيد ، والأجراء ، والفلاحين ، والخدم .

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٢٢ ـــ ٣٨ بتصرف .

عـــاش أفـــراد الشعب يكرهون حكامهم ، وكثيراً ما قامت صراعات بين الحكام والمحكومين في هذا العصر ، الذى عرف بـــ " عصر الظلام " في أوربا .

وقـــد زاد المـــلوك البلاء ، فكانوا يسفكون الدم ، ويلحقون بالشعب العـــذاب ، لأتفـــه الأسباب ، أو من غير سبب أصلاً، ويكفى تدليلاً على ذلك أن القـــوط ، والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان " ميلان " ، وقد قدر " بروكوبيوس " عددهم بثلاثمائة ألف طفل [(١)] .

ورغـــم أن غالبية المجتمع زراع ، فقد شمل الدمار والتخريب صغار الملاك [(٢)] فســـلبت الأرض مـــنهم، وتحولوا إلى عبيد، يرتبطون بالأرض التى يقومون بزراعتها لســـادهم بـــلا مقابل، وبسبب الحاجة والفقر، اضطروا إلى أكل لحوم البشر، وثمار الحشائش ، وورق الشجر .

وقـــد تدهورت الحالة الاقتصادية تدهوراً تاماً ، وزاد من تدهورها أن الدولة الرومانـــية الشـــرقية قاطعت التجارة مع دول الجرمان ، فضلاً عن أن دول الجرمان نفســـها كانـــت فيما بينها متقطعة الأوصال ، وكل منها ينطوى على نفسه ، ولا يتعاون مع جيرانه ، بل وصلت الفرقة إلى قيام عديد من الحروب بينهم ، أما الشمال الأفريقي الذى كان مكاناً لمملكة الوندال ، فقد اضطرب اقتصادياً هو الآخر، وعجز عن انتاج القمح كعادته ، ولم يستطع أن يقف ولو قليلاً أمام هجوم " جستنيان " لما كان فيه من ضعف وانهيار .

ولم يسجل تاريخ الجرمان في هذه الدويلات أى نظرة إصلاحية ، بل سادها نظام الإقطاع البغيض الذى مزق غرب أوربا تمزيقاً كاملاً [(٣)] .

وفى الدولة الرومانية الشرقية التى اتخذت " القسطنطينية " عاصمة لها ، وهى

---

(١) المسلمون والجرمان ص ٤٨ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطيه " بينز " ص ٦ .

(٣) المسلمون والجرمان ص ٢٠ ـــ ٥٢ بتصرف .

المدينة التي ابتناها "قسطنطين" في موقع ممتاز [١] ، واتخذ لها هذا الاسم الديني، المنسوب إليه ، لتكون في الحقيقة رمزاً على مجتمع هذه الدولة ، ونظمها الأوتوقراطية [٢] حيث كانت الهوايات ، والنزعات ، وكافة الأمور من سياسية ، واجتماعية ، تلبس ثوباً دينيا [٣] فإذا ما تعرضت الدولة لهجمات بربرية فإنها في دستورهم أحكام من السماء نزلت على عالم فاسد يستحقها [٤] وصار الفرد يعيش بمجموعة من الأوهام، فإذا نزل به مرض فإن ذهابه إلى الطبيب كفر ، وكانت جماهير المرضى من جميع أنحاء الإمبراطورية تهرع إلى القسطنطينية ، لتعالج في كنيسة يوحنا المعمدان [٥] .

ولقد مزقت الطبقية أوصال هذا المجتمع ، ذلك أن طبقته العليا المكونة من الإمبراطور ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، كانت تقرب طبقة ثانية تقل عنها، وتتكون من الملإ، وأغنياء التجار، وأصحاب الحوانيت، ليمثلوا وجهة نظرهم ويقبضوا لهم على زمام الأمور،ويسخروا الشعب المتمثل في مجموعات العبيد،والأجراء، ورعاع المدن [٦] وكثيراً ما صدرت قرارات إمبراطورية تجعل من المستأجر رقيقاً تابعاً ، هو وأولاده ، وزوجته ، للمالك يرتبط بالأرض مملوكاً لسيده [٧] وكان هذا النظام مطبقاً في الولايات التابعة للإمبراطورية الشرقية [٨] .

واتصف البيزنطيون بالخدعة ، والخيانة الصريحة ، والوحشية ، والعنف ، نتيجة لقلة عددهم أمام عدوهم ، ولما رأوه أمام أعينهم من ساستهم ، الذين كانوا

---

[١] الإمبراطورية البيزنطية (بينز) ص ٨ .

[٢] مصر البيزنطية ص ٢

[٣] الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ١٧ .

[٤] الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٦ .

[٥] الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ٢١٠ .

[٦] تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

[٧] المصدر السابق ص ٦٣١ .

[٨] مصر البيزنطية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

يقـــترفون التحريق ، والقتل ، وقطع الأيدى ، وسمل العيون ، وجدع الأنوف ، بكل سهولة، ولأتفه الأسباب [١] .

وقــد شــاعت في أبناء القسطنطينية على الأخص صفات الجبن، والفسق، والخـيانة، يقــول بعض المؤرخين إنها لقصة مزعجة من مكايد القسس،والخصيان، والنساء، من دس السم، والمؤامرات، ونكران الجميل، وقتل الإخوة بشكل مستمر [٢] ورغم أن تولية الإمبراطور كانت تتم وفق انتخاب يقوم على نظام معين ، لكن النظرة المقدسة إليه من الناس ، جعلته أكثر رسوخـاً ، فهـو صفى الإله ، وخليلــه ، وإذا فالمرشــح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التى اكتسب بها هذا النصر .

إن نجاح الإمبراطور يلزم الناس دينياً بطاعته ، وعلى ذلك فالإمبراطور رجل ديــن ، وملكيــته أوتوقراطية [٣] وقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلادى تحول الإمــبراطور من رجل مدنى إلى رجل يعتمد على الدين ، في تأييد نفوذه ، ويمثل هذا الاتجاه بوضوح الإمبراطور " جستنيان " سنة ٥١٨م إلى سنة ٥٦٥م .

ومــع كــل هــذا الفســاد الإمبراطورى فقد تم إلغاء الانتخاب ، وصار الإمبراطور يعين من يخلفه في حياته ، ويدعى أنه اختيار الله .

ويكفــى تصــويراً للقســوة التى عامل الأباطرة شعوبهم بها ، أن نعرف أن الإمــبراطور " جســتنيان " لما قامت ثورة الزرق (أنصار جستنيوس الأرثوذكسى) والخضر (أتباع انستاسيوس اليعقوبى) وطلبوا إقصاء وزير المالية أخمدها بالقوة، وقتل من الثوار خمسة وثلاثين ألفاً في ستة أيام وذلك في يناير سنة ٥٣٢م [٤] .

---

[١] الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٢٥ .

[٢] الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٧ .

[٣] الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٨٠ ، ٨١ .

[٤] الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٢٥ ، ٦٣ بتصرف .

وهكذا كثرت الفتن في الإمبراطورية، وكثرت الاضطرابات، وقد لخص أحد الكتاب الإنجليز أسباها ، وذكر أنها تنحصر في الابتداع الديني ، واستحداث الضرائب وتغيير القوانين ، والعادات ، مما أدى إلى الظلم العام ، وانتشار المجاعات [١] .

وكانــت العلاقة بين الإمبراطوريتين الرومانتيتين سيئة ، وزادت انهياراً بقيام الحــروب بيــنهما ، وقد وجه " جستنيان " أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بأفريقيا ، واستولى على المدن الكبرى [٢] وأخذ بعدها يسلك مسلكاً معيناً فأكثر من فرض الضرائب ، واستعمل القسوة في جمعها ، فهجر الأهالي مزارعهم ، ومتاجرهم ، واحــترفوا اللصوصية وقطع الطرق ، وشن الغارات على الحاميات البيزنطية [٣] فلجأ الإمــبراطور إلى قوة أكبر لحكمهم بالأسلوب العسكري، حتى صارت أفريقيا ولاية يديرها قائد عسكري، وله مساعدون عسكريون ، وكانت هذه خطوة انتجت ضرراً ضد الدولة ، فعندما شعر القائد العسكري بقوته، وبإمكان استغنائه عن الإمبراطورية أعلن استقلال ولايته .

وهكذا أعلن " جوريجوريوس " استقلاله بأفريقيا قبيل الفتح الإسلامي بقليل [٤] .

أما ــ **الأحباش ــ فهم** أمة عاشت هدوءاً نسبياً ، وسادها نظام ملكي مثلته الدولة الأكسومية، التي قامت مزدهرة، قوية منذ القرن الأول قبل الميلاد [٥] .

وقــد ساعدت قوة هذه الدولة على الاستقرار الاجتماعي ، وبسط سيطرتها علي جيرانها بعدما قامت بحملات حربية عديدة ، وعبرت البحر، وكونت مستعمرات حبشــية [٦] في الــيمن ، تدر عليهم الأموال والخيرات ، وتضمن لهم تجارة آمنة ،

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٥٦ .

[٢] الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ٣١ .

[٣] المسلمون والجرمان ص ٦٠ .

[٤] المسلمون والجرمان ص٦١

[٥] بين الحبشة والعرب ص ١٧ .

[٦] المصدر السابق ص ٢٦ .

ومتبادلة مع الجزيرة العربية ، والشرق الأقصى ، وكان لفتح الأحباش اليمن أن صارت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يجدون فيها رغداً من الرزق ، وأمناً ورخاءً حسناً [١] ، بل وصلت قوة الدولة الأكسومية غرباً حيث النيل [٢] تستفيد من مياهه وخيراته ، ولقد كان ساحل أرتيريا موطناً هاماً للتجارة ، ففي موانيه ترسو السفن التجارية لعديد من الجاليات الأجنبية ، وقد دلت الآثار على وصول تجار من اليونان ومصر إلى هذه البلاد .

وقد اشتهر ملوك هذه الدولة قبيل الإسلام بالعدل، وبكراهية الظلم، وكان هذا سبباً في اختيار المسلمين للحبشة بالذات للهجرة إليها ، وقد قال الرسول " ﷺ " لأصحابه : (**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد**) [٣] .

وخضعت الدولة الحبشية للنفوذ الروماني، وبخاصة بعد اعتناقها المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي [٤] ، حيث كان اعتناق المسيحية هو السبيل الفعال إلى بسط النفوذ الروماني ، ويمكن ملاحظة هذا النفوذ عندما تعرض مسيحيو اليمن للاضطهاد وذهاب " دوس ذو ثعلبان " إلى قيصر الروم يستنصره ، فأرسله القيصر إلى ملك الحبشة الذي أعانه بجيش من عنده ، قوامه سبعون ألف رجل [٥] .

***

---

[١] تاريخ الطبري ج١ ص ٣٧ .

[٢] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٦١ .

[٣] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٤٣ .

[٤] بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

[٥] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٦ .

ـ ٣ ـ

الأوضاع الدينية للرومان

كانـــت المسيحية هي دين الدولة الرومانية بقسميها الشرقي والغربي ، ودين الولايات التابعة لها كمصر والحبشة وغيرهما ، وكانت الأحداث الدينية تتردد سريعاً في كل أرجاء الدولة من أقصاها إلى أقصاها .

وقـــد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيناً، تسير عليه ، فأقامت رئاساتها في العواصم الثلاث الكبرى لعالم البحر الأبيض حيث توجد كنائس **روما والإسكندرية وإنطاكية** ، على أن يكون لبقية المدن أساقفة ورؤساء تابعون لأحد الكنائس الرئيسية الثلاث [١] .

وظـــل الأمر على هذا الوضع حتى تأسست القسطنطينية وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فتحولت كنيستها إلى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، تليها في المرتبة الثالثة كنيسة الإسكندرية وإنطاكية [٢] .

ولم يكن هذا الوضع الجديد بمحل رضي من رؤساء الكنائس الأخرى ، فحل التـــنافس بيـــنهم، وقد ظهرت أفكار جديدة في الفكر المسيحي، شغلت بال العالم المسيحي ، وقسمته إلى فرق متنازعة [٣] .

ذلك أن أفكار " أريوس " الداعية إلى إنكار ألوهية المسيح ، وتأسيس فكرة دينـــية، تعتمد على التوحيد ، لاقت خلال القرن الرابع الميلادى نجاحاً في عديد من الأماكن،حيث كانت الكنيسة في " أسيوط " على رأيه، وكثر أنصاره في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية [٤] وكانـــت الكنائس الجرمانـــية التى نشـــأت في الدولـــــة

---

[١] الحضارة البيزنطية ص ١٢٤ .

[٢] الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٣٦ .

[٣] الحضارة البيزنطية ص ١٢٥ .

[٤] محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

الرومانية الغربية على رأيه كذلك [١] .

وقد عرف أتباع مذهب " أريوس " بالموحدين ، وقد نشط هؤلاء الموحدون في نشر عقيدهم، حتى أنهم في الإسكندرية وثبوا على " اثناسيوس " بطريرك الإسكندرية ، ورأس معارضي " أريوس " والمنادى بألوهية المسيح، وثبوا عليه ليقتلوه فهرب منهم واختفي ، وكذلك فعلوا في بيت المقدس مع بطريركها [٢] .

وفى قرطاجنة تعرض " الاثناسيوسيون " للاضطهاد، ولقى كثير منهم حتفهم، وتحول بعضهم إلى عبيد، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحدين ، وفى بلاد الغال وأسبانيا، لجأ الموحدون إلى القسوة في تبشيرهم، معتمدين على سلطان " القوط " [٣] .

ورغم سيادة أفكار التوحيد فقد استطاع " قسطنطين "، بقوته أن يقضى عليها فجمع القسس من جميع الكنائس، وعُقد مجمعاً في " نيقية سنة ٣٢٥م " ضم ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين في أرائهم وعقائدهم ، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يقولون بألوهية المسيح ، فأخذ الإمبراطور برأيهم ، وجعله عقيدة عامة قررها على الناس بقوة الدولة [٤] وجعل مخالفته زندقة،موجهة ضد الدين يعاقب عليها بالهرطقة [٥] .

وهكذا انتصرت " الاثناسيوسية " على الأريوسية مما آذن بعلو شأن كنيسة الإسكندرية [٦] واختفاء مذهب التوحيد ، ولم يظهر في عالم المسيحية بعد ذلك إلا ألوهية المسيح .

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٤١ ، ٤٢ .

[٢] محاضرات في النصرانية ص ١٣١ .

[٣] محاضرات فى النصرانية ص ١٢٣ .

[٤] محاضرات في النصرانية ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

[٥] الحضارة البيزنطية ص ١٣١ .

[٦] الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ١٠٠ .

ولم يكـن هـذا النصر بداية استقرار في الفكر المسيحي، بل نشأت مسألة أخرى مع بداية القرن الخامس الميلادي، كانت هى السر في الانقسام الكامل للكنائس المسيحية بصورة واضحة.

ذلـك أن مجمع " أفسوس " الأول سنة ٤٣١م الذى اجتمع ليقرر رأيه في أفكار " نسطور " القائلة بأن المسيح ليس إلهاً، ولكنه إنسان ملهم معصوم، لا كسائر النـاس [١] ،أيـد رأى أسـقف القسطنطينية، في تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى، والناسوتى ، وأنهما امتزجا ، وصارا كائناً واحداً .

وكـان هـذا القـرار مبغضـاً عند كنيسة الإسكندرية، وروما، وشعب القسطنطينية، لأنه يهدد بعزل " مريم " العذراء من أمومتها للقسم اللاهوتى، ويحرمها مـن لقـب" أم الرب " ولذلك نجد هذه الكنائس تتحد ضد هذا القرار، **وتجتمع في أفسـوس ثانية**، وتقرر أن للمسيح طبيعة واحدة ، وتسرع في نشر هذا المذهـب في أطـراف الـدولـة ، وتقوم كنيسة الإسكندرية بإرسال تسعة رهبان إلى الحبشة، يدعـون لمذهب الطبيعة الواحدة [٢] مما جعل كنيسة القسطنطينية تثأر لنفسها بقرار مضـاد في مجمع " خلقدونية " سنة ٤٥١م وذلك بمساعدة كنيسة روما ، وقد أعتبر هـذا المجمـع القائلين بالطبيعة الواحدة هراطقة، وقرر وجوب تعذيبهم ، ومع الأيام تطور هذا الخلاف إلى منافسة حادة، نشط فيها كل طرف لتقوية مذهبه، واتهام غيره بالهـرطقة ، الأمر الذى حوله إلى خلاف قومى ، نادى كل وطن فيه بالانفصال عن الإمبراطورية [٣] .

فشـلت كـل محاولات التوفيـق بين الطرفين المتنازعين، كما اعترف بذلك " يوستنياتوس " في مجمع " القسطنطينية الخامس سنة ٥٥٣م " .

---

[١] محاضرات في النصرانية ص١٣٥ .

[٢] بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

[٣] الحضارة البيزنطية ص ١٣٣ .

وقـــد حاول " هرقل " بعد انتهائه من الحروب الفارسية أن يضع حداً لهذا الخـــلاف، فـــألف مذهباً جديداً، تخيل من ورائه أنه يرضي الأطراف المتنازعة، سماه مذهـــب التوحـــيد في الإرادة، وهـــو ينادي بعدم التقاش في طبيعة المسيح، حيث الاختلاف والتنازع ، مع الإيمان بأن له إرادة واحدة ، غير أن هذا المذهب جاء بنتيجة مضـــاده لأن " هرقل " استعمل القوة في فرضه، وأملـــى علـــى أمراء الولايات أن يفعلـــوا ذلـــك، فأخذ " المقوقس " في مصر يستعمل العنف والتعذيب في فرض هذا المذهـــب، واتهـــم القوم " هرقل " وولاته بمحاولة إضلال الشعب المسيحى، وقاموا بحـــركة مقاومة سرية ؛ وقاد " بنيامين " هذه الحركة فى مصر حتى أصبح المصريون يتمنون زوال الإمبراطورية [١] .

ومع الأيام انتشر هذا النزاع في كل الدولة الرومانية بأجزائها، وولاياتها، وقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة في مصر، والحبشة، واعتنقه بعض الغساسنة وتعصبوا له وانتشـــر مذهب الطبيعتين في " القسطنطينية " وروما، وبلاد الحيرة ، وعن طريق الحيرة أمتد إلى بعض أطراف الجزيرة العربية الجنوبية [٢] .

ويجب ملاحظة أن هذه المنازعات لم تقف حائلاً دون نشر المسيحية، بل إنها أدت إلى قيام منافسة، وتسابق، بين الكنائس المختلفة، لتتـــفوق كل على زميلتها في نشـــر المسيحية بمذهبها، في بلاد جديدة وبذلك يتحقق تفوق سياسي واقتصادي يمكن الدولة من مجابهة الصراع الفارسي، والانتصار عليه .

والمســـيحية بعد المسيح " ﷺ " تعتبر ديناً توسعياً ، ولذلك نشط معتنقوها قبل الإسلام في توسيع دائرتها في البلاد الخارجية .

ففى الولايات التابعة للفرس ظهر لها أتباع من الغساسنة، كما أن امتدادها إلى الحبشـــة تم في القرن الرابع، ووصولها إلى اليمن تم قريباً من هذا التاريخ ، وكان

---

[١] الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٠ .

[٢] تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ .

لانتشارها طرق متعددة لاقت تشجيعاً من جميع المسيحيين، وخاصة من الدولة الرومانية الشرقية، وكنائسها المتعددة ، ولا غرو فهي دولة " أوتوقراطية " أسست من بدايتها على الدين .

ولم تمنع المنازعات المذهبية تعاون المختلفين في المذهب إذا لزم الأمر ، حيث نرى " النجاشي " ملك الحبشة يتعاون مع إمبراطور القسطنطينية، ويرسل جيشاً إلى اليمن للمحافظة على المسيحية بها، رغم اختلاف الإمبراطور والنجاشي في طبيعة المسيح ، ورغم أن نصارى اليمن أنفسهم كانوا على القول بالأريوسية المخالفة لكل من النجاشي والإمبراطور .

وكان لموقع الجزيرة العربية بين الحبشة والدولة الرومانية الشرقية أن تعرضت لمحاولات تبشيرية متعددة ، أدت إلى اعتناق بعض العرب للمسيحية ، وقد وجدت المسيحية بنجران (**جنوب الجزيرة**) على يد رجل من الشام هو " فيمين " حيث تمكن هو وتلميذه " عبد الله بن التامر " من نشر المسيحية بهذه المنطقة [١] ، وقد كان فيمين وتلميذه صورتين لمبشرى المسيحية الذين انتشروا في الجزيرة يتاجرون، ويدعون للمسيحية ، وكانوا يعتبرون التجارة مع التبشير كسباً مضاعفاً [٢] .

ويمكن اعتبار حملة " أبرهة " على مكة حملة عسكرية للتبشير بالمسيحية، تمت بعد فشل الوسائل السلمية ، وبخاصة بعدما ثبت أن الدولة البيزنطية كانت ترسل تجارها إلى مكة لتتجسس على العرب [٣] ، ومما يساعد على هذا الاعتبار سرعة بناء أبرهة " للقليس " ومضاعفة تحسينها، وتجميلها؛ قاصداً بذلك صرف العرب عن كعبتهم وتوجههم إلى القليس للحج والزيارة ، التى بناها على هيئة الكعبة ،

---

[١] التاريخ الإسلامي العام ص ٥٠ .

[٢] أخبار مكة ج١ ص ٨٣ .

[٣] تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٥٨ .

وصـــورتها، وقد كتب أبرهة إلى النجاشى بعد بناء القليس قائلاً : (**ولن أنتهي حتى أصرف حج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم**) [١] .

ولـمـــا تبين استحالة تحقيق هذا الأمل جرد حملته إلى الحجاز، لهدم الكعبة، وبذلـــك لا يجـــد العرب إلا " القليس " ، فيذهبون إليها مضطرين ، وبذلك يسهل تنصير أبناء الجزيرة العربية كلها .

وقـــد بذلت الدولة الرومانية الأموال الضخمة في تأسيس عديد من الكنائس والأديرة داخل الجزيرة العربية، وكانت تجلب الإعانات ، والأموال لهذه الكنائس من بـــلاد العـــراق والشام، والروم [٢] ، ومع كل هذه المحاولات التبشيرية فإنه لم يعتنق المسيحية إلا نفر ضئيل من العرب، ويبدوا أن السبب ما كان فيها من قصور فكرى، وتناقض واضطراب لا يتفق مع الفطرة العقلية .

***

---

[١] الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

[٢] وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

المبحث الثالث

الفرس

- ١ -

الموطن الجغرافى

ـــ **والفـــرس** ـــ أمـــة سكنت شرق الجزيرة العربية ، واشتركت معها في الحدود الشرقية ، ويعتبر الخليج العربي حاجزاً طبيعياً بين العرب والفرس .

ـــ والفرس ـــ امتداد للشعب الإيرانى القديم الذى نشأ في الوديان الخصبة بين جـبال الهـندكوش ، وسلسـلة جبال بغمان ، وانتشر هذا الشعب في منطقة آسيا الوسـطى ، وانقسـم إلى شطرين : شطر سكن في منطقة ما وراء نهر جيحون وهم الإيرانيون الشرقيون ، وشطر سكن غرب النهر وهم الإيرانيون الغربيون [١] .

وقد قامت دولة الفرس في المنطقة الواقعة بين الجزيرة العربية، وبلاد الشام ، ونهـر الفرات غرباً ، وبين نهر جيحون، والسند شرقاً ، وبين بلاد أرمينيا، وصحراء سيبريا شمالاً ، وبين المحيط الهندى جنوباً [٢] .

وكانت عاصمة الفرس " المدائن " وهى مدينة كبيرة أقيمت على شاطئ نهر دجلـة ، فـتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب " ﷺ " ، في واقعة مشهورة ، عرفـت باسمها، وقد عرف جزؤها الشرقى بـــ " المدائن القصوى " وجزؤها الغربي عرف بالمدائن الدنيا [٣] .

وقبـيل الإسـلام وحـد الساسانيون فارس تحت حكمهم ، وانهوا إمارات الطوائـف التى تقاسمت الدولة ، وجعلوا لدولتهم قوة تناوئ دولة الروم الموجودة في شمال غرب الدولة .

---

[١] تاريخ بخارى ص ٤٤ .

[٢] العرب قبل الإسلام ـــ زيادة ـــ ص ٥٥٢ .

[٣] نفس المصدر ص ٥٣٤ .

- ٢ -

الأوضاع السياسية
والاجتماعية والأخلاقية للفرس

كـــان الحكم في الفرس مطلقاً قائماً على أساس تقديس بيت معين، يستمد حقه من الله ، فلقد كان (آل ساسان) يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ونشـــروا ذلك في الناس، حتى أن العامة اعتقدوا هذا، وصار جزءا من تدينهم ، ومن هنا كان الملك يتوارث للأولاد، والحفدة ، فإذا لم يجدوا من الأبناء رجلا كبيرا جعلوه لطفل لا يعي ، فإن لم يوجد الطفل جعلوه لامرأة ، ولقد ملكوا بعد شيرويه أردشير طفـــلاً عمـــره سبع سنوات، وملكـــوا بوران بنت كســـرى ، وملكوا أخـــرى اسمهـــا (أزرهـــي دفت) [١] ووفقاً لهذه النظرية المقدسة تمتع الأكاسرة، وهم ملوك فـــارس تمزايا لا حد لها، فهم كالآلهة تماماً، وفوق القانون، وفوق البشر، ولهم تنشد الأناشـــيد المقدســـة ، وعندهم تكفر الذنوب، وإشاراتهم أمر لا يستحق إلا السمع والطاعة ، وكان لكل واحد منهم حاشية خاصة لها تقاليدها، ومظاهرها .

وقـــد استغل الملوك منزلتهم عند القوم في الإثراء الفاحش الكبير،واعتادوا أن يكنـزوا النقود، ويدخروا الطرائف من الأشياء الغالية، حتى أن "خسرو الثاني" حينما نقـــل أمواله إلى بناء جديد سنة ٦٠٨م بلغ ما نقله ٤٦٨ مليون مثقال ذهب، وبعد ثلاثـــة عشـــر عامـــاً من ملكه بلغت ماليته ٨٠٠ مليون مثقال [٢]، يقول شاهين مكاريوس:(لم يرد في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة، الذين كانت تأتيهم الهدايا، والجزيات، من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى) [٣]

وكانت الولايات العديدة تخضع لكسرى يوجهها كما يريد رغم تباعدها ،

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٥ ــ ٥٥ بتصرف .

(٢) إيران في عهد الساسانية ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس ص ٢١١ .

ولعل في طلب (باذان) من عامله في اليمن أن يحضر النبي " ﷺ " إلى المدائن حياً، أو ميتاً توضيحاً لنوع سطوة كسرى، وخضوع الولاة له .

وقـــد امتاز الفرس بالنشاط وكلفوا بالمدنية، وطلبوا الاستقرار ما وسعتهم الأرض، ومـــالوا إلى الاشتغال بالفـــنون والحرف، وأقبلوا على تجارة الحرير في غيرة وجـــد، وكـــانوا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطورية الرومانية [١] وبسبب ذلك انتشر النشاط الصناعي، والزراعي، في أنحاء الإمبراطورية، وحقق رخاءً ورفاهية في أنحاء الدولة.

وكـــان المقتضى أن ينتشر العدل بين الرعية تبعاً لذلك، إلا أن الوضع أخذ شـــكلاً رهيباً من الطبقية البغيضة، القائمة على النسب، والحرف ، يصوره صاحب كتاب إيران في عهد الساسانية في إيجاز فيقول : (كان المجتمع الإيراني مؤسساً على أساس النسب، والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة، لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير، أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى مـــنحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع) [٢] .

ولم تقـــف إهانـــة الطبقات الدنيا عند حد إبعادها عن الوظائف العامة، بل فرضت عليها الضرائب الباهظة بلا حساب وضبط، حيث كانت تختلف من سنة إلى أخـــرى ، ومـــن مكـــان إلى آخر، كما، ونوعاً ، الأمر الذى ألحق أفدح الأضرار

---

[١] تاريخ بخارى ص ٤٥ ــ ٤٦ .

[٢] إيران في عهد الساسانية ص ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

بالضعفاء وأصحاب الحرف الصغيرة، مما أدى أخيراً بالمزارعين إلى أن يتركوا أعمالهم، ويلجأوا إلى الأديرة يلتمسون فيها المأوى والاستقرار ، وكان أسعد المزارعين حظاً ذلك الذى سمح له بأن يعمل لسيده بأجر زهيد .

ولم تقف هذه الإهانات الواقعة على الطبقات السافلة في حياتهم المدنية،بل كانت تلازمهم وهم في الجيش، وفى ميدان القتال،يقول المؤرخ" أميان مارسيلينوس ": (إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة، أو تشجيعاً، من راتب، أو أجرة، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة) [1] .

وقد أدى هذا الوضع الطبقى إلى نتائج بالغة السوء ، فانتشر الحقد والبغضاء بين الضعفاء، والكبر والاستعلاء بين الكبراء، وهدد المجتمع بانقسامات خطيرة، سكنت ملامحها نفوس الناس وقلوبهم .

ولعل في هذا الوضع بعض أسباب إنتشار واستقرار الإسلام السريع في ربوع الدولة الفارسية،حين أتاها، لأن مبادئ الإسلام السامية صادفت وضعاً ظالماً فمحته، وطبقت تعاليمها مكانه ، فاستقرت، وما ظهر في فارس من قوة وغنى ، فقد كان خاصاً بالطبقات الأعلى ، والحاكمة وحدها ، وكل ما دونها ، فقد عاش في فقر وهوان .

---

[1] المرجع السابق ص ٣٢٤ .

- ٣ -

أوضاع الفرس الدينية

كانت المجوسية وهى ديانة الفرس ، مركبه من عناصر مذاهبهم المتعددة ، التى بـدأت قبل الميلاد بكثير ، واستمرت في تطورها ، وتشكلها ، حتى جاء الإسلام ، وهـى ديانة في الجملة تهتم ببيان أصل المخلوقات وعدد الآلهة ، فمنذ القدم والملوك يقدسون إلهين من بين الآلهة الكثيرة، التى يعبدها عامة الشعب، على أساس أن أحدهما أصـل الخير ، والثانى أصل الشر [١] وبعد تطور المجوسية على يد زرادشت نراه يرجع جميع الآلهـة الموجودة إلى إلهين اثنين ، إله الخير ويسمى " أهورامزدا " ، وإله الشر ويسمى " أهريمان " وهما متضادان، فلقد ورد في كتبهم المقدسة أن " مزدا" قال لـ " أهريمان " ما معناه : (**ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ، ولا حياتنا ، أنا وأنت متفقه في شئ ، ولذا فنحن اضداد**) [٢] .

والفرس يعتبرون أن أقوال زرادشت،وتعاليـمه قـد أودعـت في كتـاب " زند أفيستا " ، الذى تم جمعه في القرن السادس الميلادى [٣] ، وفى هذا الكتاب سمو خاص، ومواعظ طيبة، مما جعل الفرس يرفعون زرادشت بعد وفاته إلى مرتبة عالية ، فزعموا أن وجوده في الدنيا مر بمراحل خيالية خاصة ، وأنه بعث رسولاً إلى الخلق ، ونبياً لكشتاسب الملك وغيره ، هذا مع إثباته للأصلين المتضادين ، النور والظلمة [٤] ويظهر من كلام الشهرستانى أن نبوة " زرادشت " صحيحة لأنه يقول : إن زرادشت يدعـو إلى أن البارى هو الخالق للظلام والنور ، ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له، ولا ضد، ولا ند له ، ويدعى كذلك أن كتاباً نزل عليه وهو " زندوفيستا" ومن

---

[١] الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

[٢] وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

[٣] الفلسفة الشرقية ص ١٨٧ .

[٤] الملل والنحل ج١ ص ٢١٧ .

تعالـــيمه ضرورة الإيمان بالروح والجسم ، والتكليف القائم على الاعتقاد ، والقول ، والعمـــل ، وأيضاً فأتباع زرادشت يثبتون له معجزات ، منها دخول قوائم الفرس في بطـــنه ، وقد بشر " زرادشت " بظهور " الرجل العالم " في آخر الزمان،ليزين الكون بالدين والعدل [١] وهو يدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر، والبعث، والجزاء .

وليس لدينا دليل ، يمنع أن يكون نبياً ما دامت تعاليمه موحدة في العقيدة ومؤمنة بالبعث ، وداعية إلى الخلق الطيب ، والعمل النافع ، وغير ذلك ، واندراجه تحت الرسل المذكورين في قوله : ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾جائز .

ويمكن تفسير ما ينسب إليه من دعوته لإلهين ، أحدهما للنور ، والآخر للظلام ، أنه من وضع أتباعه الذين حرفوا دعوته .

لكن الذى نذكره بعد ذلك أن ديانة الفرس بعد " زرادشت " داخلها فساد كـــبير، أضـــاع أغلب معالمها ، فلقد جاء "**مانى**" في القرن الثالث الميلادى، وعمق الأصلين في الوجود ، وجعلهما إلهين ، مستقلين ، أزليين ، قديمين .

وقـــد حكـــى " **محمد بن هارون** " المعروف بــ " أبي عيسى الوراق " أن الحكيم "**مانى**" زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ، ولن يزالا [٢] .

وفى نهاية القرن الخامس الميلادى جاء "**مزدك** "فأضاف إلى فساد العقيدة على يـــد " **مانى** " فساداً أخلاقياً آخر، حين قال بالشيوعية المتطرفة، المنادية بالمساواة في المال، والنساء، لأنهما في نظره سبب الحرب ، والقتال ، وبإلغائهما تتطهر القلوب من الأحقاد ويعيش الناس في سلام [٣] ، وجاءت المانوية فأوصلت الأصول إلى ثلاثة هى النار والأرض، والماء [٤] .

---

(١) الملل والنحل ج١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) الملل والنحل ج١ ص ٢٢٤ .

(٣) الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٤) وحدة الدين ص ١١١ .

ولقــد كانت المجوسية في عصر ظهور الإسلام خليطاً من كل هذه الآراء ، فلقد تناسي الفرس وحدانية زرادشت ، وتمسكوا بثنائية المانوية ، بل كان العامة منهم يؤلهــون بعــض القوى الطبيعية ، ويقدسون بعض الحيوانات ، ويؤمنون أن روح الإنســان بعد الموت تنتظر ثلاثة أيام ، وفى فجر اليوم الرابع تهب ريح إما معطره إن كان صاحب الروح خيراً ، أو نتنه إن كان صاحبها شريراً ، وبعد ذلك تذهب الروح مع فتاة ، أو عجوز لتحاكم وتأخذ جزاءها [١] .

وكــان الفرس قبيل ظهور الإسلام يعبدون النار ويقدسونها ؛ مؤمنين بقوتها وشرفها ، حتى لا يعذبوا بها في الآخرة ، وقد بنوا لها بيوتاً للعبادة في كثير من نواحى الدولة ، ففى طوس، وبخارى، وغيرهما أقيمت البيوت ، ومن المعلوم أن عبادة النار مع طــول الــزمن تغيب فلسفتها، وأسباب وجودها، وتبقى هى بقداستها أمام العامة والجمــاهير الغفيرة، بعقولها المغيبة، وبذلك يزداد الفساد والضلال كما حصل لعبدة الأوثان من العرب، فإنهم بدأوها تقديراً لأشخاص، ثم تصوروها آلهة ، وتناســوا كل ما يتصل بوجودها .

وقد أطلق مسمي " المجوسية " على هذا الخليط الموروث من الأقدمين ، ومن زرادشــت ، ومــانى ، وغيرهـــم ، وصار للمجوسية دولة كبرى تدافع عنها، هى الإمبراطورية الفارسية المنافسة لدولة الروم قبل ظهور الإسلام ، وكان الفرس يعظمون ملوكهـــم ، ويقدسونهم ، ويزعمون أن الله اختار هؤلاء الملوك ، وأعطاهم ملكه ، لـــيكونوا ظله بين الناس ، فلهم الطاعة، وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد أشده أيام الأسرة الساسانية [٢] ، التى وجدت قبيل ظهور الإسلام .

---

[١] الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

[٢] وحدة الدين ص ١١١ .

المبحث الرابع

الهنود

- ١ -

الموطن الجغرافى

و ــ الهـنود ــ أمة سكنت الجزء الجنوبى من قارة آسيا، وسط مجموعة من الحواجز الطبيعية التى هيأت لها لوناً معيناً من الحياة المستقرة، وطبعت حضارتها بطابع فريد ، وهى أمة تشغل حيزاً كبيراً من الأرض، حيث أن مساحتها تعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا [١] .

ويذكر السبيرونى أن الهند يحيط بها من الجنوب البحر المعروف باسمها وهو المحيط الهندى ، وفى جهاتها الثلاث الأخرى توجد سلسلة جبال مرتفعة [٢] .

ولمعرفة ما وراء هذه المرتفعات نتطلع على سطحها،فنراه يأخذ شكلاً رباعى الأضلاع،ضلعاه الجنوبى الشرقى،والجنوبى الغربى يطلان على البحر،ويكونان سواحل الهند وموانيها،أما الضلعان الشمالي الغربي،والشمالي الشرقي فبريان يسيران مع الحافة الجنوبـية الغربية لمرتفعات وسط آسيا [٣]،وهذان الضلعان مجموعة من المرتفعات التى تتكون من جبال آسام،وسلسلة جبال الهملايا،وجبال هندكوش وجبال سليمان [٤]، وهذان الضلعان يكونان حدود الهند مع بلوخستان،والتركستان والصين، وبورما [٥].

قامـت هذه الحدود الطبيعية المنيعة بدور عازل هام، ساعـد على ازدهار

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٩ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص١٥٧ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١١ .

(٤) تاريخ الإسلام في الهند ص ٢ .

(٥) أديان الهند الكبرى ص ٢١ .

الحضـــارة الهـــندية، وبروزها في طراز فريد، جعل تأثرها بغيرها محدوداً، وخاصة في داخل البلاد ، أما في الأطراف الشمالية عند الأبواب فكان التأثير أوضح [١] .

ونظراً لتغاير السطح الطبيعي للهند فلقد انقسمت البلاد إلى ولايات عديدة واشتهرت بها مدن كثيرة [٢] .

وأبـــناء الهند نشيطون منذ القديم، حيث انتشرت مجموعات منهم في البلدان حولهم، ووصلوا إلى أقصى شرق آسيا، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات لها طابع هندى خاص ، وكان من هؤلاء الرجال تجار كبار ، ورجال ذوو ثقافات عالية تمكنوا بها من نقل ثقافات الهند إلى المستعمرات التى أسسوها [٣] .

واستمر هذا النشاط لأبناء الهند حيث توقف في القرن الثامن الميلادى [٤] .

***

---

[١] ملامح الهند والباكستان ص ٥ .

[٢] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٣٣ .

[٣] ملامح الهند والباكستان ص ١٥٤ .

[٤] يلاحظ أن الحديث هنا عن الهند يشمل شبه القارة الهندية كلها التى تتكون حالياً من دول ثلاث هى : الهند ، والباكستان ، وباكستان الشرقية .

- ٢ -

الأوضاع السياسية
والاجتماعية والأخلاقية للهنود

والهنود أمة سادت فيها الطبقات الاجتماعية بكل وضوح، وقد تنوعت دواعي هذا التقسيم الطبقي بسبب البعد الزمني لوجوده، إلا أن الراجح أنه قام بسبب اختلاف العناصر الهندية،فإن الآريين، والتورانيين، وفدوا على الهند، واختلطوا بسكانها الأصليين ، يؤيد ذلك أن الآريين قوم بيضو اللون، طويلو القامة، والسكان الأصليون سودو اللون، قصيرو القامة ، وكلمة طبقة باللغة الهندية هي " فارنا " ومعناها لون [١]

وعند استقرار الآريين في البلاد خافوا مغبة الاختلاط بغيرهم، فوضعوا نظام الطبقات، وجعلوا أنفسهم طبقة **برهمية عالية** .

تليها **طبقة الكشترية**،فالجيش تقوده الكشترية، والبراهمة يؤيدونه بالدعاء الذى لا يتم النصر إلا به .

وإلى جانب هاتين الطبقتين الآريتين وضع التورانيون في طبقة ثالثة **هي طبقة الويشية** .

وتأتي بعدهم الطبقة الرابعة والأخيرة وهى **طبقة الشودرا** التي تنتظم أصحاب المهن الحقيرة والخدم [٢] .

وكان الهنود يمثلون الطبقات الأربع بجسم إنسان،**فالبراهمة يمثلون الرأس ، والكشتريا يمثلون المنكب واليدين ، والويشية تمثل الفخذ ، والشودرا تمثل القدم** .

ويعتقد الهنود أن الطبقات خلقت من جسم براهما، ومن العضو الذى تمثله كل طبقة [٣] حيث يقول منو وهو يعدد خلق برهما للكائنات : (**تم خلق البرهمى من**

---

[١] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٧ .

[٢] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٩ .

فمه ، والكاشتريا من ذراعه ، والويشيا من فخذه ، والشودرا من رجله)[١] .

وقد وردت نصوص دينيه تحدد وظيفة كل طبقة ، فلقد جاء في الفقه الهندوسى الأكبر وذكره الأستاذ / أحمد شلبي في " أديان الهند الكبرى " : (على البرهمى أن يشتغل بالتعليم، والتعلم، وإرشاد الناس في دينهم ، فكان هو المعلم والكاهن، والقاضى ، أما كشتريا فعليه أن يقدم القرابين، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه ، وشعبه، أما ويشيا فعليه أن يزرع، ويتجر، ويجمع المال ، أما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاث الشريفة)[٢] .

والمنبوذون هم طبقة " الشودرا " وهم سلالة العنصر الأصلى من السكان القدامي، ولا يجرى في عروقهم الدم الآرى، أو التوراني ويسمون بـ " زنوج الهند " وقد حرمهم المجتمع حقوق الإنسان العادى، فليس لهم حقوق كطبقة، ولا منزلة لهم يشتغلون برذالات الأعمال، وهم منفيون، منحطونَ[٣] لدرجة أنه إذا استمع أحدهم خلسة لرجل برهمى وهو يتلو " الفيدا " صب في أذنيه الآنك ، وإذا رؤى جالساً معه كوى بالنار، ولا يجوز له أن يتزوج من الطبقات الثلاث الأخرى[٤].

يقول مانو " أن الخالق قد ذرأهم " الشودرا " عبيداً ، وكل من انتمى إلى هذه الطبقة فمن المحال أن يكون حراً حتى ولو أعتقه سيده ، ومن الذى يستطيع أن يحرره من الرق إذا كان الرق طبيعة فيه[٥] .

ومع هذه المنزلة الوضيعة للشودرا ، فقد وجد فى المجتمع من هو أدنى منزلة منهم ، وهم الوافدون إلى البلاد ، الذين ولدوا بعيداً عن براهما ، وهؤلاء لا حقوق

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

[٣] نفس المصدر ص ٥٧ .

[٤] تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٧ .

[٥] روح الإسلام ص ١٥ .

لهم مطلقاً .

وكـــان النظام السياسى في الهند ملكياً حيث يرأس الملك الدولة، ويساعده الوزراء، ورجال التشريع [١] ، ومع ذلك فالملكية تعتمد على نظام مقدس ، فالملك إله في صـــورة إنســـان ، وعليه أن يكون عادلاً، وخادماً لشعبه، ومحافظاً على حقوق الطبقات بكل دقة [٢] .

وقد ازدهرت الهند بهذا النظام السياسي، فنمت حضارتها وفلسفتها، وكثرت المدن المليئة بالحركة والناس، وانتشرت المستشفيات ، والمدارس ، وعم الرخاء والعدل وخاصة مع بداية القرن الرابع الميلادي ، حيث ظهرت أسرة " كبتا " في الهند .

وقد نعم **البراهمة** مع هذا النظام المقدس، ونالوا كل حقوقهم وصاروا سادة المجتمع ، لهم ما يريدون [٣] وهم ملجأ الجميع في كل الحالات .

أما بقية الطبقات فإنها تتمتع بالحقوق التي يسمح بها البراهمة ، وليس عليهم إلا الطاعة ، والخضوع .

وقد أدى تمسك المجتمع بالتعاليم المقدسة في أنظمته الاجتماعية والسياسية إلى ازدهار اجتماعي، تمتع به أهل الطبقات الشريفة، وما عداهم فلا شئ لهم من حقوق كمـــا أدى هذا النظام الطبقي في الهند إلى إذلال طبقة المنبوذين ، وحرمهم من كافة حقوقهـــم ، وقد وصل مستواهم أحياناً إلى أقل من مستوى الحيوان ، وعاشوا حياة بدائية متخلفة ، ولم يتقنوا إلا السخرة ، والطاعة ، في إطار القداسة البوذية .

***

---

[١] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٢ .

[٢] أديان الهند الكبرى ص ٧٢ .

[٣] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٣ .

- ٣ -

أوضاع الهند الدينية

يرجع ظهور الهندوكية إلى أقدم العصور، وهي ديانة معقدة ، لا تعرف البساطة في تعاليمها ، أو السهولة في مناسكها ، أخذت كثيراً من معتقدات الوافدين إلى الهند من أقدم العصور [١] .

وللهندوكية كتب عدة أهمها " الويدا " وأهميته ترجع إلى تصويره لحياة الآريين ، ومعيشتهم ، ونظمهم ، وعقائدهم .

وقد مرت هذه الديانة بأطوار مختلفة،جعلت تطبيقاتها تأخذ أشكالاً متعددة فمن أشكالها تأليه قوى الطبيعة والكون،حيث يتصور مؤلهوها أن للطبيعة روحاً، وقوة، تنفع وتضر،ومع تعدد آلهة الهنود إلا أنهم إذا اتجهوا لإله من هذه الآلهة سموه بـ " رب الأرباب " و " إله الآلهة " وهو إحساس منهم بالوحدانية غير مركز [٢] .

وللهندوكية سلوك أخلاقي ، يقوم على فكرة الجزاء على العمل في الحياة الأولى للروح ، أو بعد الحياة الأولى ، لأن الروح عندهم لا تفنى،بل إنها تنتقل بعد فناء جسد صاحبها إلى جسد آخر ، لتأخذ جزاءها، ولتتمتع بشهوات المادة التي لم تنلها من قبل ، وتستمر هكذا في تنقلها من جسد إلى جسد ، حتى تتغلب على شهواتها وتقنع بما حصلت عليه [٣] وحينئذ تمتزج بـ " براهما " في مرحلة تعرف عندهم بـ " الانطلاق " ذلك أنهم يؤمنون أن روح الفرد جاءت من روح العالم، ومآلها إليه [٤] فإذا ما وصلت إلى الانطلاق فقد اتحدت مع أصلها الأول ، وهذه أشكال صوفية قائمة على إحساس بوحدة الوجود .

---

(١) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٤٢ ، ٤٨ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

(٤) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

وهكـــذا نـــرى أن عبادة الهندوكيه انتقلت من البساطه إلى التعقيد ، ومن البدائـــية إلى التفلسف ، وكان من أثر هذا التنقل تعدد طوائف الهنادكة تعدداً يجاوز العد ، وفي الجملة فإن عقائد الخاصة تختلف عن عقائد العامـــة، حيث اتجه الخاصة إلى لون من التوحيد الغامض،المشوش،بينما عاش العامةمع التعددوالتجسيد [١] إلاأن العقائد كلها كانت تلتقيعند فكرة الجزاء،وتناسخ الأرواح،والروح الواحـــدة للهندوكية [٢]

وتقـــوم العقيدة الدينية عند الهنود على أساس النظام الطبقي السابق ذكره ، لأن المنـــبوذين لا يسمح لهم باعتناق الهندوكية ، ولهم أن يختاروا ديناً آخر ، مما أدى إلى حـــدوث ثـــورات عدة ضد هذه النظم ، وخاصة نظام الطبقات ، وأشهر هذه الثورات ثورتان قام بهما الزعيمان " مهاويرا " و " بوذا " وهما من طبقة " الكشتريا " التي ضجت من ظلم البراهمة، واضعي الهندوسية ، وقد قاما بثورتيهما ضد الهندوسية ، وأدخلوا بعض التعاليم الجديدة عليها ، وأعلنوا ديانتين جديدتين هما : الجينية والبوذية

فالجينـية وهـــي مذهب " مهاويرا " تنكر الإله ، وتنادي بالمسالمة ، ولا تعترف بالطبقات ، إلا أن ميد أ المسالمة أدى بأتباع مهاويرا إلى الإقرار بآلهة الهندوس للهندوس، واحترام عبادة البراهمة .

وعـــلى العموم فالجينية دين يؤمن بالزهد ، والتقشف ، والفناء ، والسلوك الســـوي، حتى تصل الروح إلى مرتبة " النجاة " التي تشبه مرتبة " الانطلاق " وكل تعاليمهم المقدسة أتت من خطب " مهاويرا " ومريديه [٣] وكان انتشار هذا المذهب ضئيلاً في العدد ، انحصر في طبقة الكشتريا، والمنبوذين .

والـبوذية هـــي دعوة " بوذا " تلغي نظام الطبقات ، وتدعو إلى الصبر ، وتحمل الألم ، ودعم قوة الذات ، لتقهر سيطرة الشهوة والهوى وترفع النفس عن عالم

---

[١] تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣٩ .

[٢] أديان الهند الكبرى ص ٥٢ .

[٣] أديان الهند الكبرى ص ١١٣ وما بعدها .

المادة ، وكانت تنادى بالسلوك القويم حتى يمتزج الهندوسى مع " النرفانا " وهى تؤمن بتناسخ الأرواح ، وإمكانية الوصول إلى " النرفانا " [١] والاندماج معها كما حدث في الانطلاق ، والنجاة .

أما فكرة البوذية عن الإله فقد تجاهلته تماماً، ولم تتكلم عنه ، ولم يشر بوذا إلى ذلك لا نفياً ولا إثباتاً ، بل كان يدعو إلى اكتشاف الألم ، والبحث عن مصدره من أجل إعدامه لتزول الآلام ، ويصل الإنسان إلى السعادة [٢] .

وكان صمت البوذية عن أفكار الألوهية الهندوسية، وقصرها إلغاء نظام الطبقات على من دخل البوذية ، وتبسيطها العقائد سبباً في إقبال الناس عليها ، وتمسكهم بأخلاقها ، مع ولائهم لآلهة الهندوس ، وكان هذا الوضع سبباً في أن مظاهر البوذية لم تكن خالصة لها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، الأمر الذى جعلها محل تقبل في المجتمع الهندى، وسرعان ما اكتسبتْ تعاليم الهندوسية ، وذابت فيها وقبلت من الناحية العملية لا النظرية نظام الطبقات الهندوسى .

وأتى القرن السادس الميلادى على الهند والبوذية تنتشر بثقافاتها ، وأخلاقها ، وحضارتها، إلى عديد من الأماكن خارج الهند، فوصلت إلى البنغال، والصين، شرقاً وكشمير، وكوريا شمالاً [٣] ، وكان لاعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح أن عبدوا الحيوان، على أساس أن روحاً قديمة تقمصته، فعبدوه على أساس أنه جد حقيقي، أو رمزي للأسرة ، وأنه معطيهم الخير بلا مقابل [٤] .

وقد اتخذ العامة منهم الأصنام وجعلوها آلهة لهم [٥] يتعبدون لها، ويتقربون إليها بالقرابين ، وهى عندهم تجسيد لشئ قوى وهام، وكانوا يسمون الصنم باسم

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٥٦ وما بعدها .

(٢) الله ص ٦٥ .

(٣) أديان الهند الكبرى ص ٨٤ .

(٤) الله ص ٦١ .

(٥) الملل والنحل — للشهرستانى — ج١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

القـــوة الغائـــبة عنهم ، فصنعوا للشمس صنماً ، وللقمر آخر ، وللنار مثل ذلك .. وهكذا .

وقد أقاموا في بعض الأحيان بيوتاً للأصنام يطوفون حولها ، ويسجدون فيها

ويبدو أن هذه الأصنام هى من بقايا آلهة الهندوسية في بدائيتها ، وقد بقيت عند الـ... وفى عدد قليل من الشعب الهندى .

***

المبحث الخامس
ملاءمة الواقع العالمي
للحركة بالإسلام

بالنظر إلى أوضاع العالم قبيل مجئ الإسلام كما ظهرت في المباحث السابقة نلمس مدى حاجته إلى دين ، ينقذه من ضلاله ، وهوانه ، وقد تجلت رحمة الله تعالى بالناس فجاء الإسلام بدعوته ، وعمل عمله في العقول والقلوب ، وأخذ في صناعة العالم بمنهج الله تعالى .

ويمكن إجمال أوضاع العالم التي جعلته ملائماً لدعوة الإسلام في النقاط التالية : ـــ

أولاً : شيوع الضلال الدينى : ـ

يرحم الله عباده ، ويترل عليهم كتبه ، ويرسل فيهم رسله ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر ، إلى أنوار الحق والإيمان .

وجاءت الرسالات تترى ، فكلما احتاج الناس إلى الحق أتاهم رسول من قبل الله تعالى بالهداية والخير .

ودائماً تأتي الرسالة في إحدى الحالات التالية : ـــ

١. أن تكون الرسالة السابقة خاصة بقوم معينين ، وحينئذ يحتاج غيرهم إلى رسالة أخرى .
٢. وإما أن يتطور أتباع الرسالة فكرياً ، أو اجتماعياً ، مما يجعل الرسالة السابقة فيهم قاصرة بتعاليمها عن ملاءمة التطور الجديد .
٣. وإما أن تختفى معالم الرسالة السابقة ، أو أغلبها لطول الزمن ، مما يجعل أتباعها يعجزون عن معرفتها لتطبيقها .
٤. وإما أن يقوم نفر من الناس بتحريف الرسالة الموجودة لغاية في أنفسهم ، وحينئذ يحتاج الناس إلى رسالة صحيحة خالية من التحريف .

وللـــناس في كل حالة من الحالات المذكورة عذر في عدم الاتباع ، وترك ما عندهم من رسالة لأنها تكون قاصرة عن الحق ، لا تمثل هدى الله للناس .

فدين إبراهيم " عليه السلام " قبيل ظهور الإسلام لم يبق منه إلا بعض رموز لا تمثل شيئاً من الحقيقة ، وقد رأينا كيف امتلأت الكعبـــة بالأصنام ، وكيف اخترع العرب ألوان الشرك ، وابتدعوا صوراً عديدة للعبادات ، وزعموا أن ذلك من ديـــن إبراهيم " عليه السلام " .

ورأينا أهل الكتاب وقد أدخلوا في دين عيسى " ﷺ " ما ليس منه ، وحرفوه وبدلـــوه وشغلوا أنفسهم بالمجادلات ، والمحاورات حول الألوهية ، والمسيح ، وما إليه مما لا يفيد .

ورأينا ما كان عند الهند ، وفارس من ضلال ، وفساد جعلهم يعبدون النار والحيوان ، وكافة مظاهر الطبيعة المخلوقة .

كـــل هذا يؤكد الضلال الديني في العالم كله ، ويؤكد حاجة الناس إلى دين ينقذهم من هذا الضياع الذى هم فيه ، وفى رواية سلمان الفارسى عن قصة إسلامه دلالة واضحة على هذا الضلال الذى ساد العالم كله لأنه عايش المجوسية،والنصرانية، واليهودية، فى هذا الزمان، قبيل ظهور الإسلام .

يـــروى ابن عباس عن سلمان الفارسى أنه قال : (كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها : (جى) ، وكان أبي دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى في بيت كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها، لا أتركها تخبو ساعة .

وكان لأبي ضيعة عظيمة .

شغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يا بنى إنى قد شغلت في بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فاطلع عليها ، ودبر شئونها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد .

ثم قـــال لي : لا تحتبس علي، ولا تغب عني،فإنك إن احتبست علي كنت أهم من ضيعتي، وشغلتني عن كل شئ من أمري .

فخرجـــت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فـيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى سبب حبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم ، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فو الله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي و لم آتها .

فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام .

ثم رجعت إلى أبي ، وقد بعث في طلبي ، وقد شغلت عن عمله كله .

فلما جئته قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟

قلت : يا أبتِ مررت بناس يصلون في كنيسة لهم،فأعجبني ما رأيت من دينهم، فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا .

فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

وبعثـــت إلى النصـــارى وقلـــت لهم : إذا قدم عليكم من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني .

فقلت : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فآذنوني بهم .

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا : الأسقف في الكنيسة .

فجئـته فقلـــت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك ، وأصلي معك .

قـــال : أدخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له منها شيئاً اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهـــب، وورق ، وأبغضـــته بغضـــاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه .

فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جمعتهم له منها أشياء جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

قلت : أنا أدلكم على كنزه .

قالوا : فدلنا عليه .

فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً، وورقاً .

فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

يقول سلمان : فما رأيت رجلاً يصلي أفضل منه ، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، فأحببته حباً لم أحبه من قبله ، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إني كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل ، وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على مثل أمره .

فقـــال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل (على أمر صاحبه) ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصاني إليك وقد أمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما تـــرى ، فإلى مـــن توصـــى بي ؟ وما تأمرني ؟

قـــال : أي بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب نصيبين ، فجئته فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي .

قال : أقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فـــو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على مثل أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري .

فقـــال : أقـــم عندي، فأقمت مع رجل على أمر أصحابه وهديهم، واكتسبت حتى صارت لى بقيرات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله ـــ عز وجل ـــ .

قال : فلما حضر ، قلت له : يا فلان ، إني كنت مع فلان ، وأنه أوصى بي إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان، إلى فلان، وأوصاني بي فلان إليـــك فإلى من توصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قـــال : يا بني ـــ والله ـــ ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس ، أمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة

إلى أرض بـــين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ، ولا يأ
الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل) [1].

ونلحظ من القصة ما كان عليه الفرس ، والنصارى ، وما كان عليه الجـ
مـــن ضلال جعلت سلمان " ﷺ " يترك موطنه ، ودين آبائه ،ويتنقل في العديد
الأماكن باحثاً عن الدين الحق ، حتى وجده في مبعث المصطفى " ﷺ " .

ومـــن رحمـــة الله بالناس أن جاءهم بالإسلام في وقت تلاقت فيه الأفهام
ونضجت العقول ، وتشابهت في التوجه والتفكير ، حتى صارت البشرية كياناً فكر
واحداً في مصاحبة دين الله الواحد ، الذي جاء مناسباً للناس أجمعين .

وقد ضمن الله دينه من التعاليم ما يجعله صالحاً على الزمن كله لا يقصر
غايـــة للـــناس إلى يوم القيامة ، وحفظ الله دينه بثبوت الوحي الذي نزل به ، و
الأسباب الموجبة لهذا الحفظ ، الأمر الذي يؤكد استمرار الإسلام بين الناس كما نز
من عند الله تعالى بلا تحريف ، أو غموض .

إن الحقيقة التطبيقية تؤكد كفاية الإسلام للناس وعدم حاجتهم لدين جد
وكل ما عليهم أن يعلموا دينهم ، ويعملوا بما جاء به .

ثانيا : هوان الإنسان :

ســـيطر على العالم قبيل ظهور الإسلام وضع سئ ، ضيع حقوق الإنسا
وحرمه من حريته ، وكرامته ، وسائر حقوقه .

ففـــي كل مجتمع وجد العبيد ، والمنبوذون ، والضعفاء الذين يعيشون لخد
الســـادة ، والرؤساء، لدرجة أن الإنسان الضعيف كان يعد جزءاً من الأرض يمـ

---

[1] رواه أحمد في المسند ــ الفتح الرباني ــ باب المناقب ــ باب ما جاء في سلمان ج٢٢ ص ٢٦١ ، والحاكم
مستدركه ، والطبراني في الكبير بنحوه ، يقول الهيثمي : رجال هذه الرواية رجال الصحيح ، وقد صرح محمد
إســـحاق بالســـماع فانتفت تهمة التدليس ، وذكر البخاري في الصحيح أن قصة إسلام سلمان تداولها بضعة عشر
سيداً .

غيره كما يملك الحيوان ، والمتاع ، والعقار .. وانقسمت المجتمعات جميعاً إلى طبقات عديدة يتمتع من خلالها فريق الطبقة العليا بكل شئ ، ويحرم الآخرون من أي شئ ، ولذلك انتشرت الأحقاد ، والكراهية بين أبناء الشعب الواحد .

ومـــن العجيب أن استغلال الإنسان لغيره ، واستعباده لغاياته ، وأمانيه لبس ثوبـــاً دينياً ، فالطبقات العليا في فارس والهند هي آلهة الناس ، وليس على الطبقات الدنـــيا إلا السمع والطاعة .... وفى الدولة الرومانية يقسميها شغل القياصره الناس بأمور جدليه حول طبيعة المسيح ، وأمه ، وحول الألوهية، وصلة المسيح بالله ... ومع كـــل هذا الجدل كانت طبقة الكنيسة ، تملك كل شئ ، فهي ظل الله في الأرض ، وعليها المحافظة على ما للمسيح من قداسة ، وتقدير .

وكـــان الـــولاة في كافة الأقاليم يرهقون الناس بدفع الضرائب ، وتحصيل الإتـــاوات المختلفة بمسميات كثيرة ، ويجبروهم على ذلك ، وإن كان فيما يدفعون معاشهم و حياقم ، وحياة أبنائهم .

وهكذا عاش إنسان هذا الزمان مقهوراً ، مظلوماً ، مستعبداً باسم دين العلية الحاكمة

وقـــد تذكر بعض الصور الأخلاقية الكريمة هنا ، أو هناك ، إلا إنها لا تدل عـــلى طبيعة العلاقات الاجتماعية بصورة عامة، لأنها صور وجدت في حياة الرؤساء والقادة ، والطبقات العليا ، ولم ير العامة منها شيئاً .

وهذا الوضع يفسر سر مسارعة الضعفاء إلى اعتناق الإسلام ، والدخول في دين الله تعالى، لما رأوا فيه من عقيدة كاملة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس ، وتحقق للجميع الحرية ، والمساواة ، في إطار الأخوة الدينية التي تؤكد على أن الناس سواسية لا يفضل أحدهم أخاه إلا بالتقوى ، وجزاء الجميع عند الله تعالى .

ثالثا :سهولة التواصل : -

لم تستمر البشرية على بداوتها الأولى،ولكنها تقدمت تقدماً هائلاً في المدنية ، والتحضر المادي .

وقـــد بـــرز ذلك بوضوح في اكتشاف طرق الاتصال العديدة ، التي ربط العالم كله ، وأصبح التجار يرحلون ببضائعهم إلى كل مكان في المعمورة ، ويركبو السـبحر عـــلى اتساعه وعمقه ، وصار شرق أفريقيا، وبلاد الحبشة، مرتبطاً با والجزيــرة العربــية ، وتمكن تجار مكة من الرحلة بقوافلهم شرقاً ، وغرباً ، وشما وجنوباً في يسر وأمان .

ولم تعد المحيطات حاجزاً يمنع من التنقل ، وإنما ساهمت الصناعات العديد تحقيق التواصل ، وسهولة الانتقال من مكان إلى مكان .

صـــحيح أن التواصل لم يكن سلاماً كله ، فلقد نشأت الحروب ، و الأقويــاء على الضعفاء ، وتحولت البلاد الصغيرة إلى ولايات تابعة للفرس أو للروم تستغل خيرها ، وتسخر أصحابها لخدمتهم ، ومصالحهم .

ومــع ذلك ففي التواصل كسب مادي ، وارتقاء عقلي ، ومعرفة بعادات وفكر الآخرين .

وكثيراً ما انتقلت العادات ، والأفكار ، والمذاهب مع هؤلاء المسافرين .

وقدحـــاول القســس، والأباطرة، الاستفادة هذه التطورات المدنية فعقد المؤتمرات ، والمجامع العالمية ، التي كان يحضرها الآلاف منهم ، في كنائس مصر ، في بيت المقدس ، أو في الشام ، أو في أوربا ، بسهولة وأمان .

وهاجر المسلمون إلى الحبشة وكأنها بلد مجاور لمكة ..

وظهـــر في كـــل إقليم من يتقن المعرفة بالطرق ، وقيادة القوافل في الر والحركة .

ولما جاء الإسلام ساهمت هذه الخاصية في نشر الدعوة وتبليغها للناس في مكـــان ، حيـــث تمكن الدعاة من الوصول إلى كل مكان قصدوا التبليغ فيه ، الطـــريق معـــروف لهـــم ، ومخاطبة أهل البلاد أمر عادي لسابق إحاطتهم بلغتهم وعاداتهم .

وقد ساعد هذا التواصل على سرعة انتقال الأفكار ، والأخبار ، ولذلك كان كل فريق يعرف أخبار الآخرين ، وكانت العقائد، والأديان، والمذاهب الخاصة بجماعة ما معلومه لغيرهم من الناس .

فلما بعث محمد " ﷺ " انتشر خبره في الجزيرة العربية ، وفى العالم كله ، ولذلك جاءت الوفود إلى مكة لاكتشاف أخبار الدعوة الجديدة ، فلما رأوا موقف أهل مكة انتظروا نتائج صراعهم مع الدعوة ، فلما فتحت مكة دخلت الجزيرة كلها في دين الله تعالى ..

رابعاً : تعدد الصراع : ■

ساد العالم في هذا الزمان صراع عام ، فلم تخل أمة، أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها ، وأهم ما تميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكرراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف ، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات ففي البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع (**قصي**) الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفى البيئة الرومانية كان سبب الصرع ينحصر في الدين والسياسة .

وفى الفرس والحبشة كان السبب في الدين .

وفى الهند كان السبب في نظام الطبقات المعروف فيهم .

وقد ساد الصراع الداخلي سائر الأمم ، ففي الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة أشهرها ثورة الزرق والخضر أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التى طالبت باقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً [١] .

---

[١] الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ — ٦٣ .

وفى الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة ، وحروب كثيرة من أشهرها في بلاد الغال " فرنسا " حيث ظهر الصراع بين كلوفس وسيجاريوس ، والثورنجيين ، والبرجنديين ، واللأليمان [1] وكان هناك صراع إيطاليا [2] وبين البربر في شمال أفريقيا [3] .

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس الذي استمر مدة طويلة ، وكذا حرب حاطب ، ويوم بعاث بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلام .

وفى فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب و الابن ، ومما ساعد على ازدهار الصراع في الفرس ظهور مذهب " ماني " القائم الشيوعية المطلقة .

ومع الصراع الأقليمى وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ كان الحرب مستعرة بينهما على الدوام في أطراف الجزيرة العربية جنوباً في اليمن ، وشمالاً بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدى حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، سواء كانت هذه التغييرات متجهة إلى التقدم ، أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء الاجتماع بضرورة هذه التغييرات [4] ، إلا أنها تتجه عندهم في النهاية إلى التطور والتقدم يقول إيمانول كانت : إن القوة التى تدفع التاريخ إلى التطور هى الصراع ، وهيجل يرى أن التعارض هو أهم مؤثر فى العلاقات الإنسانية ، وأن حركة التطور الاجتماعي ما هي إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة من التطور [5]

---

[1] المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

[2] نفس المرجع ص ٣٠ .

[3] نفس المرجع ص ٢٥ .

[4] أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

[5] أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

ومن التغييرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ظهور قوى جديدة، وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ، كما أن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشئ معين ، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، فإن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هي فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت كانت ركيزة لانطلاق الدعوة ونشرها ، وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التي لا تتعصب لمواريث قديمة .

وأيضاً فإن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها .

إن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، وجدا في الدعوة بغيتهما ، فكان الضعفاء هم أتباع الدعوة في العرب وفى كل مكان، لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المنبوذين ، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما ، لا ينالهم منه سوى الظلم ، والجبروت ، والتعالي وإنما يتجهون إلى الله الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذي يملك الخلق كله ، ويحيط به علماً ، وإرادة ، وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمر في الدعوة بالقيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعدل في الكسب والعمل .

إن وضعية الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ومبادئها ، والمتصارعون يجدون بغيتهم في الدعوة ، لأنها تهدم سبب صراعهم ، وتؤاخى بينهم بالحسنى، وتعودهم على الألفة والخير .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول، والعمق، حيث انتشرت في العالم كله، بشكل مستمر، ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس

وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول ، وهذا العمق ، فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذرى في المجتمع ، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس ، وتحرير العبيد ، والمنبوذين والأجراء من وضعهم البائس ، ووضعهم في الإطار النظيف الذى وضعته للناس أجمعين بما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة . لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

خامسا : النضج الفكرى : .

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية ، إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الشيخ / محمد عبده [١] ولعل المراد من النضج العقلى المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلى، المنظم، الذى يستنتج من المحسوس ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل ، والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم .

إن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، تنبهر بالعجائب ، وتندهش بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة . لأن الخوارق إليهم كانت حسية ، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين ، كما حدث لما أحيا المسيح شاباً في مدينة " نايين " فقد أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين : **قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه** [٢] .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافقه عصر نضج عقلي واضح ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان، متجهاً إلى العقيدة

---

[١] رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

[٢] انجيل لوقا ــ الأصحاح السابع فقرات ١٤ ــ ١٦ .

الدينـية ، وأوهامهـــا ، ولم يجد العلماء مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أئمهم وأديانهم .

ففي العالم المسيحى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال المناداة بألوهية المسيح ، وتركبه من طبيعتين، مع إصرار هذه الأصـوات عــلى مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً، من قبل الإله الواحد، وأحاطه بالخوارق الـتى لا توجــد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقـلهم الــذى أبى التصــديق بما هو وهم وخيال ، ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعــتين تصور ينهار أمام النظرة الفاحصة ، وقد حدثت لهذه المعارضات أحداث خطيرة في كل العالم المسيحى انعقدت لها مجامع عدة، على النحو الذى سبق ذكره .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً ، يقول ان البطريق (**إن الذنب ليس على " أريوس " ، وهو رأس المنادين بالتوحيد ــ بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير " أريوس " الــذى جعــل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا الرأى وعم**)[1] ، وهذا دليل على نضج عقلى وجد بين المسيحيين، جعلهم يحاولون إصلاح معتقداتهم .

ومـــن الملاحظ أن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا أيضاً بعقلهم وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية في صورة تشبيه عقلى ، وهذه إن دلت فإنها تدل على تقدم ذهنى، وفهم إدراكى، فيه نوع من التجريد، والعقل ، يقول الشهرستانى ــ عنهم : (**وهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشــرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبع فيه انطــباع النقش في الشمع ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحانى بالجسمانى ،**

---

[1] محاضرات في النصرانية ص ١٢٢ .

ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء، والماء اللبن)[1] .

فهذه الأدلة، مع ما فيها، تدل على تقدم فكري معين، ويكفي أنها من آثار التعصب المسيحي الذين آمنوا بألوهية المسيح، وحاولوا جعل هذه الألوهية فكرة مستساغة أمام العقل، فأتوا هذه التشبيهات ليقربوا فكرة اتحاد الألوهية مع الإنسانية .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن الهنود قد أبدوا ثورة "بوذية" على البرهمية في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد ، والاهتمام بالأخلاق والعودة إلى الفطرة ، كما إن الهنود قبيل مجيء الدعوة الإسلامية كانوا يخصون الواحد من الآلهة، ويخصونه باسم (رب الأرباب) و (إله الآلهة)[2] وهذا نوع من التوحيد لم يعهده الهنود من قبل ، فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة، ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة، بلا التفات إلى حقيقتها ، أو فهم لمعنى عبادتهم لها ، إلا أنهم في هذا العصر بسبب النضوج تمكنوا من تخطي الردة العقلية، والقرب من توحيد الآلهة .

وفي الجزيرة العربية وعلى الرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام ، وتعظيم الحجر ، فإن النضج الذي اتسم به العصر بدأ يظهر في العرب، إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام، ويقلل الصراع والشرور ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة فأحاطوا بفصولها ، ونظموا التجارة على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أماكن الجزيرة، وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب المادي ، وتقوية للشعور القومي، وللتسابق اللغوي والأدبي، وكأنها مؤتمرات تمهد لوحدة مقبلة .

وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمكنة والأزمنة : فمن الأمكنة وزعوها في ملتقى جميع أبناء الجزيرة ، وعن الأزمنة جعلوها في الأشهر الحرم ، وهذه

---

[1] الملل والنحل ج١ ص٢٠١ .

[2] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة، والقول الجرئ، والنقد الحر، وكل هذه أسباب تجعل العقل ينمو باطراد ، وخصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلـوا سوق " عكاظ " في أول شهر ذى القعدة، و " المجنة " في آخره، وذى المجاز وعرفه في شهر ذى الحجة [١] ربطاً للدنيا بالدين، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة، والكعبة، فيعيشون هذه الأسواق، ويكتسبون مع شعورهم الديني بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلى عند العرب ظاهرة الحنفاء، الذين أخذوا يحللـون بعمـق وفهم فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق ، ويكتشـفون الطـريق إليه، مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، وليل داج ، ونهار ساج ، وقد وصلت هذه الجماعة برجاحة عقلها إلى بعض شَريعة إبراهيم " عليه السلام " .

وفى الحق لقد وصل النضج الفكرى إلى مستوى ممتاز ، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التى جعلها الله تعالى في قرآنه الكريم، الذى نزل للناس، يؤمن بالكلمة ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعانى والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم الحس إلى عالم الغيـب، والإيمـان به ، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر ، تؤكد وتجادل ، وتقـرب وتيسـر ، قاصـدة الإقناع العقلي ، واليقين النفسي ، والثبات مع الروح والوجدان، أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقـول الشيخ/رشيد رضا:إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم، والعقل في ثبوتها،وفى موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاسـتقلال الـنوعى،الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر منهم أمور مخالفـة للـنظام الكونى،وإنمـا جعل الله تعالى حجة نبيه كتابه المعجز للبشر، بهدايته

---

[١] أخبار مكة ج١ ص ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف .

وعلومه ، وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، ليرقى البشر على الترقي في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال [١] .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية ، ودائما يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول في دعواه ، وينظروا إلى ما جاءهم به، ويعلموا أنه وحي من الله ، ودليلهم المعجزة التي يعرفوها يقيناً، حيث تفوقوا في جنسها ونوعها كما ظهرت لهم .

إن معجزة موسى " ﷺ " في قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً، وإخراج اليد بيضاء من تحت الجناح ، ومعجزة عيسى " ﷺ " إلى قوم اشتهروا بالطب هي إحياء الموتى وإبراء الكمه والأبرص ، فكان لزاماً أن تأتي معجزة الإسلام على هذه السنة ، ما دام العالم كُله على وجه العموم في موجة رشيدة من النضج الفكري .

وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان، وعلوم البلاغة والفصاحة [٢] ولهذا كانت المعجزة هي القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج، ومراعاة البلاغة والفصاحة، ليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذي ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ومع ما في القرآن الكريم من إعجاز لغوي ناسب العرب الذي نزل بلغتهم فإنه يشتمل على وجوه عدة للإعجاز تناسب كافة الأمم لأن الرسول بعث للعالم كله ، ففي القرآن من وجوه الأعجاز الكثير منها : ـــ

ـــ الإعجاز التاريخي بما فيه من بيان لتاريخ السابقين وآثارهم ، ومللهم ، ونحلهم ليناسب أهل الحضارات ، المهتمين بالتاريخ .

---

[١] الوحي المحمدي ص ٦١ .

[٢] توضيح العقائد ص ١٧٢ .

ـ الإعجاز العلمى ، مثل إيراد بعض الإشارات عن الحديد ، وألوان الصناعات .

ـ الإعجاز الفلكى ، مثل الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار .

ـ الإعجاز البيئى ، مثل الحديث عن الزراعة ، والحيوان ، والنهر ، والبحر .

ـ الإعجاز الطبى .

ـ الإعجاز النفسى والاجتماعى .

سادساً : انتظار رسول جديد :

كان للنضج الذى ساد العالم، وكثرة الصراع، وتنوعه، وسهولة الاتصال ، وتلاقى الأفكار قبيل مجئ الدعوة الإسلامية أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك.

إن النقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة في العقائد التى يتوجه النقد إليها ، ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبى من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة، والسلوك، وكل ما يعتقده الناس فى الأصنام، ويطلبونه منها .

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود في المدينة "يثرب" كانوا ينتظرون هذا النبى على وجه اليقين، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبى" ﷺ " فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [1]

---

[1] سورة البقرة آية (٨٩) .

فهم كانوا يعرفون مبعث النبي "ﷺ" ، ويعلمون أن زمانه قد حان، فعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخه أن اليهود في المدينة كانت تقول للأوس والخزرج:قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم [١] .

يقول ابن عباس إن اليهود في المدينة كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله " ﷺ " قبل مبعثه [٢] .

ورأى اليهود له قيمته عند جيرانهم قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم بعض أسرار الوحي ، وعلاماته ، فلقد رووا أن مشركي مكة لما بعث محمد " ﷺ " فيهم أرسلوا وفداً منهم، يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم، ودعاهم لدعوته، وكان الوفد مكونا من النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط [٣] ولم تكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة، وصلت إلى أقصى الشمال، لدرجة أن سلمان الفارسي حينما أراد أن يترك المجوسية، ويبحث عن الدين الحق ؛ قال له كاهن عمورية : إنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم " ﷺ " يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة [٤] .

وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم : ﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [٥] .

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية أن صفة النبي محمد " ﷺ " وجدت في التوراة والإنجيل ، ولم تزل صفاته موجودة يعرفها العلماء والأحبار [٦] من أهل الكتاب .

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٩٦

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢١٣ هامش فتح البيان.

(٣) سيرة النبي " ﷺ " جـ١ ص٣٢ .

(٤) نفس المرجع جـ١ ص ٢٣٧ .

(٥) سورة الأعراف من آية (١٥٧) .

(٦) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٤٨ هامش فتح البيان .

وكمـــا وصـــل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فلقد روى الأزرقي أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذي يـــزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه، من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة [١] .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية في عقول الناس، وفى كثير من الأماكن وهـــذه الملامح في حد ذاتها تمهد للدعوة، وتدعو إلى استماعها بشوق، خاصة وقد وقعت أحداث كثيرة، جعلت الناس يرجون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر الذى كـــاد أن يلمس في طفولته، لوضوح صفته في الكتب السابقة ، بل أن بحيرى الراهب عـــرفه وهو صغير ، يروى ابن هشام قاصاً ما حدث من بحيرى فيذكر أنه أعد طعاماً لقافلـــة قريش، وفيها أبو طالب، ومحمد (وهو صغير) ودعاهم فحضروا جميعاً إلا محمداً؛ لصغر سنه، لكن بحيرى أصر على حضوره ، فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كـــثيرة، وأخـــيراً قال لعمه أبي طالب : إرجع بابن أخيك إلى بلده ، وأحـــذر عليه يهود فو الله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظـــيم فأسرع به إلى بلاده [٢] ، ولا غرابة في تحديد بحيرى للنبي " ﷺ " في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة في التوراة والإنجيل .

إن عديداً من الرهبان في أديرتهم ، والقسس في كنائسهم كانوا يدركون هذه الحقيقة ، ويتحدثون بها لمن يمر بهم ، وفى مكة نفسها كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم : (**زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منـــه نبي كريم**) [٣] .

إن تجمـــع انـــتظار رســـول جديد، مع موجة النقد السائدة ضد العقائد، والمذاهب على يد الحنفاء، وأتباع أريوس " والبوذية " ،مع وجود الصراع ، والتنافس

---

[١] أخبار مكة ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

[٢] سيرة النبي ج ١ ص ١٩٤ ـــ ١٩٦ بتصرف .

[٣] بلوغ الأرب ج١ ص ٢٧١ .

وسرعة الحركة والاتصال ، أدى فائدة عظمى للدعوة الإسلامية ساعدت على انتشارها، وما لاحظناه من معارضات للدعوة بعد ظهورها فمنشأة التعصب، و محاولة المحافظة على القديم الموروث، وبقايا صراعات قبلية قديمة كما حدث من الأمويين فإنهم تأخروا عن الدخول في الإسلام بسبب كون النبي من بني هاشم، لدرجة أن أبا سفيان الأموى حمل المعارضة للنبي في مكة بلا سبب غير التنافس بين الهاشميين والأمويين، وكانت " أم جميلة بنت حرب زوجة أبي لهب تحمل الحطب، وتضعه أمام بيت النبي " ﷺ " وفي طريقه، وكانت تقول عنه " ﷺ " :

مذمماً عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا [1]

كانت مدفوعة بالعصبية بسبب كونها أختاً لأبي سفيان الأموى [2] فدفعتها العصبية إلى هذه الحملة على رسول الله" ﷺ "وما المانع إذاً أن يكون موقف زوجها أبي لهب عم النبي " ﷺ " من تأثيرها فيه .

وكذلك فإن أصحاب المصلحة في مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم

لكن ...

وهل تحدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذى تميز بالصراع، والنضج، وانتظار الرسالة، لكي تنتشر الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر .

وهل تمحو الحيل الشيطانية من واقع الحياة ، وأفكار الناس ما قدره الله في كافة الشئون ، والأحوال ، والأعمال .

إن قدر الله غالب ، وقضاءه نافذ ، وإرادته شاءت أن تجيء الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان بما فيه من خصائص وصفات .

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٣٧٩ .

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٢٩٦ .

الفصل الثانى

السيرة النبوية

(التعريف بالرسول)

" ﷺ "

من الميلاد حتى الهجرة

تمهيد

محمد " ﷺ " هو رسول الإسلام ، وهو المبعوث بدين الله الخاتم إلى الناس أجمعين ..

ولد بمكة ، ونشأ ، وتربى في بادية العرب ، وجاءه الوحي من الله على رأس الأربعين ، وبلّغ رسالته داعياً إلى الله تعالى بمكة قبل الهجرة ، وبالمدينة بعدها ، وبلغ بما كلف به إلى العالم كله ، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله للعالمين .

ونعد سيرته " ﷺ " دراسة لنموذج الإنسان الكامل الذي يجب أن نقتدي به ، وأن يكون أسوة ، وقدوة لمن أراد النور ، والفلاح .

واتباعاً للمنهج الذي رسمته في دراسة تاريخ الدعوة ، فإني أعقد هذا الفصل في التعريف بالرسول " ﷺ " بعد أن جعلت الفصل الأول في التعريف بالعالم الذي بعث له رسول الله " ﷺ " .

إن الرسالة اختيار إلهي محض ، لا دخل فيه لأمنيات بشر ، ولا لمطالب خلائق وقد تمنى كفار مكة النبوة لبعضهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (١) متمنين بذلك أن تكون الرسالة في أحد رجال القريتين مكة أو الطائف ليقوم بها رجل عظيم مشهور فيهم بعناده أو بجاهه ، أو بغير ذلك يقصدونه الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم من مكة ، وهو ابن عم أبي جهل ، وكان يعرف بريحانة قريش ، أو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف (٢) .

---

(١) سورة الزخرف آية (٣١) .

(٢) هذا ما قاله قتادة ، وذكر مجاهد أن الرجلين هما عتبة بن ربيعة من مكة ، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وذكر ابن عباس أن عظيم الطائف هو حبيب بن عمرو الثقفي ، وذكر السدي أن عظيم مكة هو [illegible] بن [illegible] (تفسير القرطبي ج١٦ ص ٨٣) .

يوم طلب كفار مكة ذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [1] وبذلك أبطل الله أمنيات هؤلاء القوم وأمثالهم، ووضح لهم أن الرسالة والنبوة لا تكون لمن شاءه الناس ، وإنما لمن أراده الله، واختاره، ولا دخل لبشر في هذا الاختيار .

وبين سبحانه في هذه الآية أيضاً أن أوضاع الناس المعيشية قسمة إلهية تتم وفق إرادة الله ، وقدرته، لأسباب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وليس لها ارتباط بالعظمة، أو بالحقارة، وليست نتاجاً لمجرد العمل ، وعلى الناس أن يعلموا أن النبوة خير ما يعطاه إنسان في الدنيا، بل هي أعظم من كل الخير إذا اجتمع، فإذا ما أتاها الله إنسانا فإنه يعظم، ويعلو باختيار الله إياه، وقد اختار الله لرسالته الخاتمة العالمية محمداً " ﷺ "،وهو سبحانه: ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [2] والمالك لهذا ، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [3] وقال سبحانه ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [4] وعلى ذلك صار " ﷺ " أعظم العرب قاطبة ، وأعظم البشر أجمعين .

وإني لموقن بأن حكمة الله في اختيار رسوله محمد " ﷺ " للرسالة لا يمكن لبشر أن يدركها إدراكاً كلياً ، وأرى في نفس الوقت أن في مقدور البشر أن يعلموا شيئاً من هذه الحكمة ، وخاصة بعد انكشاف شيء من أسرارها خلال الحركة بالرسالة ، والإسلام.

---

[1] سورة الزخرف آية (٣٢) .

[2] سورة الأنعام آية (١٢٤) .

[3] سورة القصص آية (٦٨) .

[4] سورة الحج آية (٧٥) .

إن الخصـــائص التي تميز بها رسول الله محمد " ﷺ " ، وظهرت خلال قيامه بـــالدعوة عديدة ، وشاملة لكافة جوانب شخصيته ، ومتأصلة في أصوله وجذوره ، وملازمة له في تربيته ونشأته ، وملموسة في سائر أعماله ، وأقواله ، وأمانيه ، وأمانته وسلوكه مع نفسه ، ومع أسرته، ومع الناس أجمعين .

ولـــولا أن الرسالة والنبوة اصطفاء وإحسان من الله لقلنا : إن محمداً " ﷺ " اكتســبها بخصائصه ، ونالها بأعماله وجهاده ، لكن جمهور علماء المسلمين ـــ ونحن معهـــم ـــ يجمعون على أن الرسالة لا تكتسب ، وإنما يخلق الله الناس ، ويختار منهم رسوله ، ويهبه من لدنه استعداداً خاصاً ، يجعله أهلاً لهذا الاختيار ، قادراً على تحمل أمانة التبليغ والدعوة .

والاختـــيار بهذه الكيفية رحمة من الله بالناس ، إذ به جرت الأمور بين الخلق عـــلى وفق سننه في الكون ، فلم يفاجئهم بشخص سيئ ، ولم يدعهم إلى أمر شاذ لا يتصور ، ولا يعقل .

ومتابعة خصائص الشخصية المحمدية تبدأ من الأصول والجذور لنرى كيف أودع الله فيه ما يجعلنا نؤمن بحكمة الله في هذا الاختيار و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1]

وفي هـــذا الفصل سأتناول الحديث عن سيرته " ﷺ " من مولده ، ومروراً بنشـــأته ، وزواجه ، ومبعثه، وتكريم الله له ، ومعونته إياه ، في مباحث متتابعة حتى نصل إلى الهجرة إلى المدينة المنورة نهاية المرحلة المكية .

وســـوف أعـــتمد بإذن الله تعالى على ما رواه المؤرخون ، وعلماء السير ، وبخاصة ما صح منها .

وســـوف تكون الأحداث ممثلة للسيرة النبوية بكمالها في عدد من المباحث وذلك فيما يلي ..

---

[1] سورة الأنعام آية (١٢٤) .

المبحث الأول

النسب الشريف

رسـول الله " ﷺ " هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، ابن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب .

وأم رسول الله "ﷺ" هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فنسب أبيه وأمه " ﷺ " يلتقيان في كلاب ..

وكلاب هو ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ابن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن مضر ، بن عدنان .

ونسبه " ﷺ "من جهة أبيه ، ومن جهة أمه مجمع عليه إلى عدنان، وما فوق ذلك فمختلف فيه ، والكل يجمع على أنه "ﷺ" من ولد إسماعيل بن إبراهيم "عليهم السلام " .

ونسبه " ﷺ " كريم ، جامع لسائر أسباب الفضل والرفعة .

فأبوه " **عبد الله** " أصغر أبناء عبد المطلب وأقربهم إلى قلبه ، يكنى بأبي القسم وأبي محمد ، وأبي أحمد ، ويلقب بالذبيح .

وسـبب هذا اللقب أن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، والد المطعم قال لـه : يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ؟ ....

فقـال عبد المطلب : أبا لقلة تعيرني ؟ فو الله لئن آتاني الله عشرة من الولد ذكورا لأنحرن أحدهم عند الكعبة [١] .

فـلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : أوف بنذرك، وافعل ما شئت ،

---

[١] طبقات ابن سعد ج١ ص ٥٣ .

لهم : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني ففعلوا.
فقال عبد المطلب لصاحب القداح ، اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه ،
وحدثه بنذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه ، فخرج
السهم على عبد الله. فأخذه عبد المطلب بيده وحد الشفرة ليذبحه ، فقامت إليه
قريش من أنديتها وقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه
بمال فديناه ، فذهبوا إلى عرافة خيبر فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟

قالوا : عشرة من الإبل .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل
ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل
حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم، ونجا
صاحبكم ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة .

فقالت قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا
على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ،
ثم عادوا الثانية والثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله فخرج القدح في كلتيهما
على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان، ولا يمنع [1] .

(١) ... ابن كثير بسنده أن أعرابياً قال للنبي ﷺ : يا ابن الذبيحين ، فتبسم
... ولم ينكر عليه ... فقيل لمعاوية : من الذبيحان ؟
... [illegible]

تميز عبد الله بالعفة والطهر ، وحسن الخلق ، ويروون أن كاهنة تدعى فاطمة بنت مر الخثعمية مر بها عبد المطلب ، ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب ، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله ، فقالت : هل لك أن تغشاني وتأخذ مائة من الإبل ، فعصمه الله تعالى من إجابتها وقال لها :

أما الحرام فالممات دونه　　　والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه　　　يحمي الكريم عرضه ودينه

فلما تزوجت آمنة عبد الله ، وحملت برسول الله ﷺ ، مر بها عبد الله على الكاهنة مرة أخرى ، وقال لها : هل لك فيما قالت ؟ !

فنظرت إليه ، ولم تر ذلك النور في وجهه فقالت : أما قد كان ذلك مرة ، فاليوم لا ، ماذا صنعت ؟

فقال : زوجني أبي آمنة بنت وهب الزهرية .

فقالت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك وأنشأت تقول :

الآن قد ضيعت ما كان ظاهراً　　　عليك وفارقت الضياء المباركا

غدوت علي خاليا فبذلته　　　لغيري فالحق بشأنك ذلكا

ولا تحسبن اليوم أمس وليتني　　　رزقت غلاماً منك في مثل ذلكا

وداخلها الأسف على ما فاتها ، والحسرة على ما تولى عنها (١)

وكان عبد الله باراً بأبيه ، مطيعاً له ، ويروي ابن إسحاق أن عبد الله مر حين انصرف مع أبيه بعد الذبح مر على امرأة من بني أسد ، وهي أخت ورقة بن نوفل ، فنظرت إلى وجهه ، وقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال لها : مع أبي .

قالت له : لك مثل الإبل التي نحرت عنك ، وقع علي مكانك الآن .

---

(١) أعلام النبوة للماوردي ص [illegible] .

قال لها : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه [١] .

فأخذه أبوه عبد المطلب ، وذهب به إلى وهب بن عبد مناف وزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، .

ورسول الله هو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة ، وقد مات أبوه قبل مولده ، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات .

وعبد المطلب ، والد عبد الله اسمه شيبة الحمد ، واشتهر بعبد المطلب ، لأن عمه المطلب أحضره من المدينة ، حيث نشأ عند أخواله ، فلما سأله أهل مكة : من هذا ؟

قال لهم : هذا عبدي ، فثبت معه اسمه هذا ، وترك شيبة .

وكـــان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده ، وقد رأينا ما فعل مع نذره بذبح أحد أبنائه ، إذا بلغوا عشراً .

ومـــن وفائه أنه أجار يهودياً يدعى " أذينة " فتآمر حرب بن أمية على قتله ، وقتله ، فلم يزل عبد المطلب يسعى في دمه حتى أخذ ديته ، وسلمها لأهله [٢] .

وهو شيخ مكة ، وزعيمها يوم قدوم أبرهة ..

وكـــان عبد المطلب جسيماً أبيض ، وسيماً " طوالاً ، فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا قدره ، وقد صارت إليه السقاية والرفادة ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ، وكان يعرف فيه قوة الحق ، وهيبة الملك .

ومكارمه أكثر من أن تحصى ، فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفساً ، وأباً ، وبيتاً ، وجمالاً ، وبهاء ، وفعالاً .

وكـــان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وأول من جعل دية القتيل مائة مـــن الإبل بعد فداء عبد الله . . .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٣١٠ .

وقد أقام لأهل مكة ما كان يقيمه آباؤه لهم ، فشرف فيها شرفاً لم يبلغ[...] قبله ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان : ـــ

الأول : حفر بئر زمزم بعدما أمر به في المنام ، ووصف له موضعها ، و[...] كانت السقاية معه ، ولما حاولت قريش منازعته في زمزم، والسقاية، أراهم الله[...] على تخصيص عبد المطلب بـــ " زمزم " [1] .

الـثانى : لما قدم أبرهة بجيشه يريد هدم الكعبة خافت قريش ، وتفرق[...] الشعاب ، وتركت إبلها وغنمها ، فاستولى عليها أبرهة ، فذهب إليه عبد المطل[...]

واستقبله أبرهة وسأله : ماذا جاء بك ؟

قال عبد المطلب : جئت أسألك الإبل والغنم .

فقـــال أبرهة له : اكبرتك حين رأيتك ، وزهدتنى فيك حين كلمتنى ، تسألنى الإبل، وتترك البيت الذى هو دينك ودين أبائك ؟ ! .

فقال عبد المطلب : أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

وقد كان حيث هلك أبرهة،وجيشه بالطير الأبابيل،واستردعبدالمطلب الإبل والغنم [2]

وهـــو أول مـــن طلى الكعبة بالذهب ، وسمي الفياض لجوده ، وكان [...] أولاده بـــترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويقول : **لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة** ، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ونهى عن قتل الموءودة ، ونكاح المحارم ، وأمر أن لا يطوف بالبيت عريان [3] .

و " **هاشم** " واسمه عمرو العلا والد عبد المطلب .

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ ص ١٤٣ بتصرف .

[2] منتقى النقول ص ٢٠ ، ٢١ .

[3] منتقى النقول ص ٢١ .

ولقـب هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة، وأطعمهم ، وذلك أن أهل مكة أصابهم جهد، وشدة ، فرحل هاشم إلى فلسطين، فاشترى منها دقيقاً كثيراً وكعكاً ، وقدم بذلك إلى مكة فأمر به، فخبز، ثم نحر جزوراً ، وجعلها ثريداً ، عم به أهل مكة ولا زال يفعل ذلك معهم حتى استكفوا .

وهو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام [١]

ومن قبله كان تجار مكة لا يغادرون بلدهم ، فركب هاشم إلى الشام ، ونزل بقيصر ، فلما علم به ملك الروم سأل عنه ، وكلمه ، وأعجب به ، وجعل يرسل إليه ويدخله عليه .

فلما رأى هاشم مكانه منه قال له : أيها الملك إن لى قوماً وهم تجار العرب، فـإن رأيت أن تكتب لى كتباً تؤمنهم، وتؤمن تجارتهم، فيقدمون عليك بما يستظرف مـن أدم الحجاز، وثيابه، ليتمكنوا من بيعه عندكم، فهوَ أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم، فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحى من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرافهم إيلافاً .

والإيـلاف أن يأمنوا وهم عندهم، وفى طريقهم، وفى أرضهم بغير حلف ، إنمـا هو أمان الطريق ، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بين مكة والشام، حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب ، فكان ذلك أعظم بركة ، ثم خرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهـم يجوزهم، ويوفيهم إيلافهم، الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يبرح يجمع بينهم وبين العرب حتى ورد الشام [٢].

واشتهر هاشم بالدقة ، والحكمة ، ومكارم الأخلاق ، ومن وصاياه الحكيمة لقومه وهو يخطب فيهم : ـــ

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٦ .

[٢] المرجع السابق ج ١ ص ٣١٦ .

أيها الناس نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كـلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل في كـل حلـف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف لا يصـان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز، والجود سؤدد ، والجهـل سـفه، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعملـه ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول يجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسـكم يوثـق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنيئة ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ألا وإن نهنهة الجاهل أهون من جزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به [١] .

وكـان من أجمل الناس ، وأحسنهم صورة ، يتلألأ النور في وجهه كالهلال يتوقد ، لم يره أحد إلا أحبه ، وأقبل عليه .

و " **عبد مناف** " والـد هاشم اشتهر بأفعال الخير ، وأماجد الأعمال ، وسمى **بالمغيرة** لقوته، وإغارته على الأعداء ، **وسمى بالقمر** لحسنه وجماله .

وقد ساد في حياة أبيه ، وبرز بآرائه في دار الندوة ، وسر به والده " قصى " وهو الذى سماه (**عبد مناف**) واستبدله بـ " **عبد مناة** " كما سمته أمه .

قام بعد أبيه قصى بالسقاية ، والرفادة ، واشتهر بالحكمة ، وحسن السياسة ..

---

(١) أعلام النبوة للماوردى ص ١٣٩ .

أحاطت قريش عبد مناف بالتفضيل ، والتكريم ، ومن أشعارهم :

كانت قريش بيضة فتفلقت　　　فالمح خالصة لعبد مناف

والمح : صفرة البيض ، يشيرون بذلك إلى أن قريشاً إذا إنقسمت كالبيضة ، فعبد مناف صفرتها ، وهي أصل البيضة ، وأكثرها منفعة .

يروى البلاذرى أن النبى " ﷺ " سمع جارية تنشد هذا البيت وتقول :

فالمح خالصة لعبد الدار .

فقال الرسول " ﷺ " لأبي بكر " ؓ " : كذا قال الشاعر ؟

قال أبو بكر : لا ، إنما قال : لعبد مناف

فقال النبى " ﷺ " : كذاك [١] .

وهذا تأكيد لمترلة عبد مناف ، وقدرته في قومه .

و " **قصي** " والد عبد مناف اسم مصغر من " قَصى " أى بعد ، لأنه بعد عن قومه في بلاد " قضاعة " مع أمه حين تزوجت بعد أبيه في بني عزرة ... وقد عاد قصى إلى مكة بعد أن عير بغربته ... وعمل بعد أن شب على أن يكون أمر مكة لأهلها ، فأبت خزاعة وبنو بكر ، فقاتلهم قصى ومن معه .. حتي تصالحوا بعد ذلك على أن يكون الأمر لقصى وبنيه ، لأهم الأحق والأولى .

فلما جمع قصى قريشاً قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم (أى أنتم وبيوتكم) في الحرم حول البيت ؟ فو الله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً .

فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة [٢] وبنوا بيوقم مجاورة للكعبة ، وكانوا من قبل يبنوها بعيداً في الشعاب .

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢١ .

[٢] المرجع السابق ج١ ص ٣٢٤ .

وأمـــرهم قصى أن يجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة، على أن يتركوا بين كل بيتين طريقاً يؤدى إلى الكعبة ، وفى نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم بعد ذلك.

وقـــد جمع " قصى " لنفسه أمر الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة واللواء ، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها .

وبـــنى داراً سماها " **دار الندوة** " ، وجعلها مكاناً للاجتماع ، والتشاور في كافة أمورهم الشخصية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها .

وقـــد فرض قصى على قريش مالاً يدفعونه إليه ، وهو الذى يعرف بالرفادة ، يصرف **علـــى حجاج بيت الله تعالى ، قال لهم : (يا معشر قريش : إنكم جيران الله وأهل البيـــت، وأصحاب الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا .**

يقـــول ابـــن هشـــام : فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا ، فهو الطعام الذى يصنعه الولاة كل عام ، ويقدمونه للحجيج بمنى حتى ينقضى الحج [1] .

وقـــد قســـم قصى المهام الرئيسية في أولاده .. فأعطى عبد مناف السقاية والندوة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام منى .. وهكذا .

ومن أقوال قصى الحكيمة التى علمها أولاده :

" من عظم لئيماً شركه في لؤمه " .

" ومن استحسن مستقبحاً كان معه " .

" ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه ، فذاك دواء يحسم الداء " .

---

[1] سيرة النبى ج١ ص ١٣٠ .

" العي عيان : عي إفحام ، وعي المنطق بغير سداد " .

" من سأل فوق قدره استحق الحرمان " .

و " **كلاب** " والـد قصي جمع كلب ، وهو مجمع نسب عبد الله ، وآمنة ، أبوى النبى " ﷺ " ، سمى بذلك من المكالبة، وهو المسارعة في التجمع على الكسب ، أو جرياً على عادة العرب في تسمية أبنائهم بأسماء موحشة كذئب ، وأسد ، وضبع ...

قيل لأعرابي : لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء كـ " كلب "، وذئب ، وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كـ " رباح " و " مرزوق " ؟ ...

فقال : إنا نسمي أبناءنا لأعدائنا ، ونسمي عبيدنا لأنفسنا ... يريد أن الأبناء هم عدة مواجهة الأعداء ، والسهام المصوبة إليهم .

وقيل : سمى بذلك لدفع السوء والحسد عنه [1] .

ومن أسماء " كلاب " الحكيم ، والمهذب، وعروة ، ويكنى بـ " **أبي زهرة** " وزهرة هو جد النبى " ﷺ " من قبل أمه .

و " **مرة** " والد كلاب اسم منقول من وصف الحنظلة ، والعلقمة ، وقيل منقول من وصف الرجل بالمرارة .

وقيل مأخوذ من القوة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أى قوة، وكنيته أبو يقظه [2] .

وهذه المعانى تفيد ما كان له من قوة في الحق ، وشدة وقسوة على أهل الباطل .

و " **كعب** " والد مرة ومعناه العلو في الشرف ، والسؤدد ، والثبات والمترلة وكنيته أبو هصيص .

---

[1] الروض الأنف ج١ ص ٨ .

[2] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٣٢٩ .

وهو أول من جمع الناس، وخطبهم في يوم معين، هو يوم " **العروبة** " وهو اليوم المسمى في الإسلام بيوم الجمعة ، ومن خطبه في قومه : ـــ

أمـــا بعد ، فاسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً فتضربوا عنه صفحاً ، الآخرون كالأولين ، والذكر كالأنثى ، والزوج والفرد إلى بلى ، فصلوا أرحـــامكم ، وأوفوا بعهودكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام مـــروءتكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ، الدار أمامكم ، واليقين غـــير مـــا تظنون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به ، فسيأتي له نبأ عظيم وســـيخرج منه نبي كريم بذلك جاء موسى وعيسى " صلى الله عليهما وسلم " والله لو كنا ذا سمع وبصر ، ويد ورجلٍ ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت فيها إرقال الفحل [١] .

و " **لـؤي** " يكنى باسم ابنه كعب ، اشتهر بالحكمة ، والحلم منذ صغره وكان مطاعاً ، محبوباً في قومه .

و" **غالب** " من الغلبة والفوز ، وكنيته أبو تيم .

و " **فهـر** " كان رئيس أهل مكة ، وقيل إنه سمي بـــ " قريش " يقول ابن شهبا : من جاوز فهراً فليس من قريش [٢] .

و " **مـالك** " يكـــنى باسم ولده " فهر " ولم ينجب سواه ، تميز بالحكمة وحسن الخلق .

و " **النضر** " ابن كنانة ، وكنيته (أبو يخلد) .

---

(١) المرجع السابق ج١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج١ ص ٣٣٤ .

و " **كنانة** " هـي سـتر السيف ، سمى بذلك لأنه كان ستراً على قومه ، ويكـنى بـأبي النضر ، يقول عامر العدواني لابنه في وصيته : يابني أدركت كنانة بن خزيمة وكان شيخاً مسناً، عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ، ومن أقوالـه لهـم : إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد ، يدعو إلى الله،وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالى : إن كنانة رئى وهو نائم في الحجر فقيل له : تخـير يـا أبا النضر بين الصهيل والهدر ، وعمارة الجدر، وعز الدهر ، فقال : كل يارب فصار هذا كله في قريش [١] .

و " **خزيمة** " يكـنى بأبي أسد ، يروى ابن عباس أن خزيمة مات على دين إبراهيم " عليه السلام " ، وهو أول من أهدى البدن للبيت .

و " **مدركة** " اسمه عمرو على الصحيح ، وكنيته أبو هزيل ، وأبو خزيمة .

و " **إلياس** " كـان عاقلاً ، أريباً ، يقول ابن الزبير : لما أدرك إلياس وبلغ أنكـر عـلى بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم ، وسيرهم ، وبان فضله عليهم ، وجمعهـم رأيه ، ورضوا به ، فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة .

وهو وصى أبيه ، تميز بجمال الخلق والخلقه ، ويذكر عن النبى " ﷺ " أنه قال : (**لاتسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً**) [٢].

ويذكر أنه كان يبشر بنبي من صلبه ، يصلح الله به شئون الناس .

و" **مضر** " اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس ، كان على دين إبراهيم " عليه السلام " أشتهر بالحكمة ، وسداد الرأى ، ومن أقواله :ـــ

---

[١] سبل الهدى ج١ ص ٣٣٨ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

" خير الخير أعجله " .

" احملـــوا أنفسكم على مكروهها فيما يصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق " [١].

و " **نزار** " سماه أبوه بهذا الاسم لما نظر في وجهه ، ورأى نور النبوة الذي كان يتنقل في الأصلاب، لما رأي ذلك فرح،ونحر، وأطعم، وقال : هذا نذر لــ... فسمى بــ " **نزار** " وكنيته " **أبو إياد** " .

و " **معد** " يضرب به المثل في الخلق ، يقـــول عمر بن الخطاب " ﷺ " اخشوشنوا وتعددوا " أى كونوا على خلق معد .

و " **عدنان** " أول من كسا الكعبة ، وكان الناس يعرفون أن نبياً ... من صلبه ، ويكنى بأبي معد .

وقـــد ســبق الإشارة إلى إجماع النسابين على معرفة نسب النبى " ﷺ " ... عدنان ، وأن عدنان من نسل إسماعيل " ﷺ " ، إلا أنهم يختلفون في عدد أباء ... إلى إسماعـــيل " ﷺ " ، ولذلك اكتفى هنا بذكر نسبه " ﷺ " إلى عدنان مع ... أن عدنان من ولد إسماعيل " ﷺ "، **فلقد روى ابن سعد أن النبى " ﷺ " كان إذا انتســب لم يجــاوز في نسبه عدنان ، ثم يمسك ، ثم يقول : كذب النسابون** [٢] **ويرى السهيلى أن هذا الحديث من قول ابن مسعود ، ويقول عمر بن الخطاب ﷺ " : إنما ننتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندرى ما هو** [٣] .

ومـــن هذا الإيجاز نرى شرف النسب ، وعلو المحتد، فجميعهـــم كـــ... ذوو شـــأن حيث نلمح في سيرهم كل خير ، فهم حماة البيت ، والمقربون من الله ، والمؤسسون لأهل مكة " دار الندوة " ، وقد نظموا للقبائل سائر المهام ، وعرفوا ...

---

(١) سبل الهدى ج١ ص ٣٤٤ ، والفواق : المدة بين حلبتين للناقة .

(٢) الطبقات الكبرى ج١ ص٥٦ .

(٣) المرجع السابق ج١ ص ٥٨ .

يوم العروبة ، وجمعوهم فيه كل أسبوع ؛ لسماع الخطب ، وتداول الأمور .

وفي أسمـائهم تلمح صفاتهم ، ففي كعب العلو والثبات ، وفي لؤي الهدوء والأناة، وفي غالب القوة القاهرة للأعداء [١] وفي فهر الطول والعون، حتى قريشا لأنه كـان قرش أي يفتش عن حاجة المحتاج ليعينه بماله ونفسه [٢] ، وفي مالك السيادة وملك العرب [٣] ، وفي النضر الحسن والجمال [٤] ، وفي كنانة ستر قومه، ومرجعهم لعلمه وفضـله [٥] ، وفي خزيمة إصلاح قومه ، وأخذهم على الحق [٦] وهكذا إلى عدنان الذي عاش زمن موسى "عليه السلام" [٧] .

هذا نسبه "ﷺ" من جهة أبيه ..

وأما نسبه من جهة أمه فهو إلى كلاب ، وعند كلاب يلتقي نسبها مع أبيه نسـبه من جهة أمه عالٍ هو الآخر ؛ يصفه ابن هشام ويقول : (إن آباء آمنة من فضلاء قريش، وسادة بني زهرة) [٨] .

ولم يكـن للنبي "ﷺ" أخ ولا أخت من أمه وأبيه ، يقول الماوردي : (لم يشركه في ولادته من أبويه أخ، ولا أخت، لانتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده بها آية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل به) [٩] .

---

(١) [illegible] النبوة ص ٦ ، ٧ .

(٢) [illegible] ص ٣٠ .

(٣) [illegible] ص ٣٠ .

(٤) [illegible] ج٣ ص ٣٧ .

(٥) المرجع السابق ج٣ ص ٣٧ .

(٦) ابن كثير ج١ ص ١٨٨ .

(٧) الروض الأنف ج١ ص ١١ .

(٨) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٦٩ .

(٩) أعلام النبوة ص ١٤٧ .

ولقد تميز آباؤه بعديد من المزايا العامة التي اشتركوا فيها جميعاً ، وال[illegible]

معهم تكريماً لرسول الله " ﷺ " .

وسأبين أهم هذه المزايا لما لها من مردود إيجابي على شخصية النبي " ﷺ "

وتهيئة النفوس للاستماع له ، والإجابة لدعوته ، وبخاصة أن الناس جبلوا على "[illegible]

السريعة لمن علا نسبه ، وسمت أخلاقه ، وكان لهم به صلة وقربى .

وسأوضح بإذن الله تعالى أهم هذه المزايا في عدد من المسائل لتتض[illegible]

مسألة مزية ، وهي كما يلي : —

المسألة الأولى : أصالة النسب .

المسألة الثانية : بعدهم عن عبادة الأصنام .

المسألة الثالثة : صلتهم بسائر بطون العرب .

وسوف أفصل هذه المسائل فيما يأتي ...

***

المسألة الأولى

أصالة النسب

اشتهر آباؤه " ﷺ " جميعاً ، بعلو الأصل ، وشرف النسب ، ومكارم الخلق ، فكـانوا مـن أحسن الخلق وأماجدهم ، وقد رأيناهم سادة الناس ، ورواد القبائل ، حملوا مهام البيت ، وقاموا بواجب ضيوف الله .

ولعل أهم ما تميزوا به هو طهارتهم ، وعفتهم ، وبعدهم عن سفاح الجاهلية ، وضلالات الشرك والهوى ، والأحاديث الصحيحة تؤكد هذه الحقيقـــة ، فعن علي " ﷺ " أن النـبي " ﷺ " قال : (**خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لـدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي**)[1] ، وعن ابن عباس " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**مـا ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولـدني إلا نكاح كنكاح الإسلام**)[2] .

ويروى ابن سعد في طبقاته عن محمد الكلبي قال : (**كتبت لنبي الله " ﷺ " خمسمائة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه أمر الجاهلية**)[3] .

وهكذا وضع الله رسوله " ﷺ " في موضع يحمل معه شرف سلسلة طاهرة ، كريمة الخلق والسلوك ، طيبة الشأن والذكر ، وهو اصطفاء من الله تعالى .

فعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**إن الله اصطفى كنانة مـن ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم**)[4] .

---

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد – باب علامات النبوة – باب كرامة أصله " ﷺ " ج ٨ ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق – باب علامات النبوة – باب كرامة أصله " ﷺ " ج٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٩١ .

(٤) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب فضل النبي " ﷺ " ج٧ ص ٥٨ .

وعـــن أبي هريرة " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت منه**)[١] .

وأخـــرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال : (**ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً**)[٢] .

وعـــن ابـــن عباس قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما**)[٣] .

وعن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال : (**ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهمـــا ، فأخرجت من بين أبوي ، لم يصبني شي من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي**)[٤] .

وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**إن الله اصطفى من ولـــد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم**)[٥] .

أخـــرجه الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في فضائل العباس من حديث واثلـــة بلفظ : (**إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً ، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً ، ثم اصطفى من ولد**

---

[١] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ـــ كتاب المناقب ـــ باب صفة النبي " ﷺ " ج٦ ص ٥٦٦ .

[٢] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـــ كتاب علامات النبوة ج٨ ص ٣٩٥ .

[٣] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٢٧٦ .

[٤] تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٢٧٩ .

[٥] صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الفضائل ـــ فضل نسب النبي ج١٥ ص ٣٦ .

مضر ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشاً ، ثم اصطفى من قريش بني هاشم ، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ، ثم اصطفاني من بني عبد المطلب)[١] والاصطفاء أخذ الأحسن من جماعة فيها غيره ليسوا مثله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله " ﷺ " : (خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بني مناف بنو هاشم ، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب والله ما افترقت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما)[٢] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار)[٣] .

وعن ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير فريق ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوهم ، فأنا خيرهم بيتاً، وخيرهم نسباً)[٤] .

وعن ابن عباس قال:قال رسول الله" ﷺ ":(إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً،ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً،ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة،ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً)[٥] .

---

[١] الحاوي ج٢ ص ٣٦٦ .

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٠ .

[٣] دلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ١٦٨ .

[٤] سنن الترمذي ــ كتاب المناقب ج٥ ص ٥٨٤ .

[٥] الطبقات الكبرى ج١ ص ٢٠ .

وعن ابن عباس قال : (دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب فجعلـــوا يتفاخرون، ويذكرون الجاهلية ، فقالت صفية : منا رسول الله " ﷺ " ، فقالوا : تنبت النخلة أو الشجرة في الأرض الكبا .

فذكرت ذلك صفية لرسول الله " ﷺ " فغضب وأمر بلالاً فنادى في الناس ، فقام على المنبر فقال : أيها الناس من أنا ؟

قالوا : أنت رسول الله .

قال : انسبوني .

قالوا : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قـــال : أجـــــل ، أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله، فما بال أقوام يبتذلون أصلي ؟! ! فو الله إني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً)[١] .

وعن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبي " ﷺ " أن قوماً نالوا منه ، فقالوا : إنما مـــثل محمد كمثل نخلة نبتت في كناس ، فغضب النبي " ﷺ " وقال : (إن الله خلق خلقـــه فجعـــلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهـــم قبيلاً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، ثم قال : أنا خيركم قبيلاً وخيركم بيتاً)[٢] .

وعن عائشة " رضي الله عنها " قالت : (قال لي رسول الله " ﷺ " : قال لي جبريل " ﷺ " : قلبت الأرض مشارقها ، ومغاربها ، فلم أجد أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من بني هاشم)[٣] .

هـــذه النصوص الكثيرة التي أوردتها تطمئن النفس على صدق ما تضمنته وهو ما نريد إبرازه في إثبات علو نسبه "ﷺ"،وتمتع آبائه،وأجداده بكرم الطبع، وسمو

---

[١] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـــ باب علامات النبوة ج٨ ص ٣٩٩ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج٥ ص ٢٧٦ .

[٣] دلائل النبوة ج١ ص ١٥١ .

الأصل ، والبعد عن الدنايا ، وصغائر الأمور .

كان " ﷺ " نتاج هذه السلسلة الكريمة التى يفتخر بها ، وتذكرها العرب له وقد أقر خصومه في مكة بهذه الحقيقة ، وهم في أشد حالات العداء معه .

يروى البخارى أن هرقل أرسل إلى أبى سفيان ومن معه ، وكانوا في تجارة بالشام ، فدعاهم إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعا ترجمانه .

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ .

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً .

فقال هرقل : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

ثم سأله عدة أسئلة وأبو سفيان يجيبه، وأخيراً قال هرقل لترجمانه: قل لأبى سفيان سألتك عن نسبه فقلت: هو فينا ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها [1]

والمهم أن أبا سفيان يومئذ كان على الكفر ، ولم يدخل في الإيمان بعد ، ومع ذلك نطق بالحق، وشهد بعلو نسب رسول الله " ﷺ " وهو أول ما سأل عنه هرقل لمعرفته بضرورة سمو نسبه ، وطهارته إن كان رسولاً صادقاً ..

إن معرفة خصائص النسب الشريف لرسول الله " ﷺ " يؤثر في تقويم صاحبه وتقدير شأنه، وإدراك مستقره في الأمور ، فالخلق الغالب علي الأصل يترع عنه الفرع ولا يتغير بالإسلام إلا إلي الأفضل .

أخرج الشيخان وأحمد عن أبى هريرة أن رسول الله " ﷺ " قال : (**تجدون**

---

[1] صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب بدء الوحى ج١ ص ٣١ ، ٣٢ .

الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه)[١] .

فأصحاب المروءات، ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا فهم خيار الناس[٢] .

قال ابن حجر في الفتح : وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر مـا اختفى، منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس ، فإن أسلم استمر وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية[٣] .

ولهذا كان رسول الله " ﷺ " يقول : (أنا بن العواتك)[٤] .

والعاتك هو الكار الشجاع في القتال ، والمرأة العاتك هي الشريفة الكريمة .

وعـند اشتداد المواجهة بين الرسول " ﷺ " وأهل مكة لم نسمع شيئاً في نسب رسول الله وأصله،ولا نقداً لخلقه وسلوكه ولا همزاً حول شيء يتصل به ... ولو وجد شيء من هذا لتحدثوا عنه ، وأظهروه ..

***

---

[١] صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ ج ٦ ص ٥٢٥.

[٢] شرح النووي على مسلم ج ٥ ص ٢٣٠ .

[٣] فتح الباري ج٦ ص ٥٢٩ .

[٤] الطبراني ، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ـ كتاب علامات النبوة ـ باب في كرم أصله " ﷺ " ج ٨ ص ٢١٥ .

المسألة الثانية

بعد أبائه " ﷺ " عن الشرك

وعبادة الأصنام

ثبت بالأدلة والبراهين العديدة أن أصول النبى " ﷺ " وأباءه من لدن آدم " عليه السلام " إلى والده المباشر عبد الله بن عبد المطلب ، كانوا جميعاً بعيدين عن الشرك ، وعبادة الأصنام .

والأدلة على ذلك عديدة ، يجمعها السيوطى رحمه الله تعالى [1] في مقدمتين ليصل إلى نتيجة عقلية مسلمة .

أما المقدمة الأولى فهى أن آباء النبى " ﷺ " هم من خير الناس ، كل منهم أفضل معاصريه ، وأخيرهم ، فهم خيار من خيار ، اصطفاهم الله منذ وجود آدم " عليه السلام " ، واستمر هذا الاصطفاء معهم حتى جاء رسول الله محمد " ﷺ " .

أما المقدمة الثانية فإنها تظهر حقيقة دينية ، تاريخية ، وهى أن الأرض لم تخل من عهد آدم " عليه السلام " إلى بعثة النبى " ﷺ " ، وإلى أن تقوم الساعة، من أناس على الفطرة يوحدون الله ، ويعبدونه بما بقى من دين سابق ، ويرون أن الأصنام ، والأوثان ، وما يماثلها ، ما هى إلا افتراءات لا حقيقة لها، ولذلك فهم بعيدون عنها ، لا يقتنعون بها ..

فإذا انضمت المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية لظهر بجلاء أن أباء النبى " ﷺ " في كل عصر كانوا من هؤلاء الأناس الذين عاشوا بالفطرة النقية ، الموحدة ، **ذلك أن الخيرية ، والأفضلية تقوم أساساً على التوحيد والتقوى .**

ومن الواجب التسليم بهذا ، لأن الأفضلية إذا لم تقم على التوحيد، وقامت على المال أو الكثرة ، أو السلطان مثلاً ، فإن الشرك يعلو التوحيد ، ويفضل المشرك

---

[1] الحاوى للفتاوى ج٢ ص ٣٦٧ بتصرف .

المؤمن، وهذا غير صحيح ، فوجب بمجموع هاتين المقدمتين أن يكون أباء النبي " ﷺ " أفضل الخلق في زمانهم على التوحيد ، أصل التفضيل ، وأساسه ، لأن القول بغير ذلك يؤدى إلى أحد أمرين ؛ لا يسلم بهما أو بأحدهما عاقل .

الأمر الأول : أفضـــلية المشرك على المسلم ، وهذا أمر غير صحيح ، ولا يقره مسلم ، ولم يقل به أحد من العقلاء .

الأمر الثاني : أن يكون هناك من هم أفضل من آباء النبي " ﷺ " ، وهذا معارض بما ثبت في المقدمة الأولى التي سبق ذكر أدلتها .

يقول الإمام السيوطي : (**يجب أن يكون أباء النبي موحدين ، لاشرك فيهم ليكونوا من خير أهل الأرض ، كل في قرنه**) [١] .

وفي الدراسة السابقة عن المقدمة الأولى أوضحت أن أباء النبي هم خيار الناس من لدن آدم " عليه السلام " إلى محمد " ﷺ " ، وبذلك ثبتت المقدمة الأولى .

وإثبات المقدمة الثانية بعد ذلك أمر مسلم ، لأن الناس كانوا على الإسلام منذ آدم إلى نوح " عليه السلام " ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [٢] وفى الآية بيان أن الناس جميعاً بعد آدم " عليه السلام " كانوا على دين واحد هو الإسلام .

فعن أبي أمامة " رضي الله عنه " أن رجلاً قال : **يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟**

قال " ﷺ " : نعم نبي مكلم .

فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح " عليه السلام " ؟

قال " ﷺ " : عشرة قرون [٣] .

---

[١] الحاوى للفتاوى ج٢ ص ٣٦٨ .

[٢] سورة البقرة آية (٢١٣) .

[٣] فتح البارى شرح صحيح البخارى ج٦ ص ٣٧٢ .

وهكذا استمرت البشرية على دين الإسلام عشرة قرون ، وبعد هذه المدة بدأ الشرك في الظهور ، واختلف الناس ، فبعث الله رسله مبشرين ، ومنذرين ، بلاغاً وإرشاداً ، ولذلك بعث شيث " عليه السلام " ، وإدريس " عليه السلام " نصراً لأهل الحق ، ومحافظة على دين الله القويم .

يروى عن قتادة " رضي الله عنه " أنه قال :(**ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله نوحاً** " عليه السلام ")[١] .

وعن ابن عباس : (**أنه كان بين آدم ونوح " عليهما السلام " عشرة قرون كلهم على الإسلام**)[٢] .

وهذه الآراء بيان لاستمرار الإسلام في الناس منذ آدم إلى نوح " عليهم السلام " ، فلما اختلفوا ، وانقسموا جاء رسل الله، وعلى رأسهم نوح " عليه السلام " .

والتعبير بالاختلاف في الآية بيان لتمسك فريق من الناس بالإسلام الذى كانوا جميعاً عليه ، حين أرتد فريق منهم ، وعبدوا الأصنام ، وأشركوا في الألوهية ، وبذلك وجد الاختلاف ، والتفرق بدليل أن الله توعد هؤلاء المشركين الذين أشركوا وضيعوا وحدة الأمة ــ وتجمعها على الدين الحق ، يقول تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩** ﴾[٣] .

ومع الاختلاف على الدين الحق قبيل نوح " عليه السلام " نرى أن والد نوح كان مؤمناً ، موحداً ، امتداداً لآبائه من قبله ، دليل ذلك أن نوحاً " عليه السلام " دعا لأبيه كما

---

[١] الحاوى ج٢ ص ٣٧٢ .

[٢] تفسير الطبرى ج٤ ص ٢٧٥ .

[٣] سورة يونس آية (١٩) ودلالة الآية أن الله توعد المختلفين ، والله لا يتوعد إلا بسبب كفر أو معصية .

في قوله تعالى ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [١] والنبي " ﷺ " لا يستغفر لكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [٢] وبذلك تكون الآية صريحة في إيمان والد " نوح " وهو " سام " لأنه لو لم يكن مؤمناً لما دعا له ، وأيضاً فإن دعوة نوح لأبيه كانت بعد الطوفان ، ولم ينج من الطوفان إلا المؤمنون .

هذا عن الفترة من آدم إلى نوح " عليهم السلام " ..

أما ما بعد نوح " عليه السلام " ، فقد روى ابن عباس أن نوحاً " عليه السلام " لما أهبط ومن معه من السفينة هبطوا إلى قرية ، فبنى كل رجل منهم بيتاً ، فسميت القرية سوق الثمانين نسبة لعدد الناجين فلما ضاقت بهم القرية تحولوا إلى بابل فبنوها فلم يزالوا على الإسلام وهم ببابل، أما من كفر فقد غرق وهلك، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [٣] ومفهوم الآية يوضح أن ذرية من كفروا غرقوا بغرق آبائهم ، ولم يبق إلا المؤمنون ، الموحدون كما يفيده ضمير الفصل الموجود في الآية .

وقيل إن المؤمنين مع نوح كانت لهم ذرية مؤمنة نجت مع الناجين إلا أنها ماتت بأجلها ، ولم يبق إلا أبناء نوح .

وقيل : إن المؤمنين من ذرية الآخرين تلحق بذرية نوح في البقاء بسبب إيمانهم [٤] .

---

[١] سورة نوح آية (٢٨) .

[٢] سورة التوبة آية (١١٤) .

[٣] سورة الصافات آية (٧٧) .

[٤] فتح القدير ج٤ ص ٤٠٠ .

واستمر إيمان آباء النبي " ﷺ " من نوح إلى إبراهيم " عليهم السلام " ، غير أن ما ورد عن والد نبي الله إبراهيم " عليه السلام " (**آزر**) يتعارض مع هذا حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [١] ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾[٢] ، وفي هذه الآيات تصريح واضح بكفر أب إبراهيم " عليه السلام " وقد رد العلماء هذا التعارض بأن إبراهيم " عليه السلام " كان يخاطب عمه (**آزر**) أما والده فهو (**تارح**)، واللغة العربية تطلق اسم الأب على العم ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [٣] فأطلق سبحانه على إسماعيل اسم الأب ليعقوب " عليه السلام " مع أنه كان عمه .

وبعد نجاة إبراهيم " عليه السلام " من النار أمره الله تعالى بأن يهاجر إلى بلاد الشام فهاجر حيث أمره الله تعالي ، وأخذ معه المؤمنين ، وكانوا ثلاثة ، هم زوجته ساره وابن خالته لوط ، وأبوه تارح [٤] ولو كان أبوه مشركاً ما اصطحبه معه في رحلة الهجرة من موطنه إلى بلاد الشام ... وأيضاً فلقد دعا إبراهيم " عليه السلام " لأبيه بعد هلاك عمه بمدة طويلة،ولو كان مشركاً ما دعا له، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم" عليه السلام ": ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [٥]

---

[١] سورة الأنعام آية (٧٤) .

[٢] سورة مريم آية (٤٢) .

[٣] سورة البقرة آية (١٣٣) .

[٤] الكامل لابن الأثير ج١ ص ٩٦

[٥] سورة إبراهيم آية (٤١) .

أما آباء النبي محمد " ﷺ " بعد إبراهيم فهم على النحو المذكور لسائر الآباء

يقـــول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1] .

فقـــد أخبر الله تعالى بأنه بقدرته سبحانه وتعالى جعل كلمة الهدي والتوحيد باقـــية ، متـــنقلة في عقب إبراهيم " عليه السلام " تنتقل من واحد إلى من بعده في عقبه ، والعقب أبناء الرجل الذكور ، دون الإناث .

يقول المفسرون : الكلمة هي شهادة التوحيد ، جعلها الله مستمرة في ذرية إبراهيم " عليه السلام " يعقب كل جيل ما سبقه ، بحيث لايزال في ذريته من ينطق، ويؤمن بها .

ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2] وقد دعا إبراهيم " عليه السلام " في الآية بدعوتين:

أحدهما أن يجعل مكة بلداً آمناً، في المقام، والمعاش .

والثانية أن يجنبه ، وبنيه ، وذريته عبادة الأصنام ، وقد استجاب الله له ، فأكرم مكة بجعلها حرماً آمناً، ورزق أهلها ثمرات كل شئ ، كما استجاب الله سبحانه الدعوة الثانية لإبراهيم في أولاده فنجاهم من عبادة الأصنام وجعل النبوة والكتاب فيهم خاصة .

وقد جاءت أحاديث مسندة تفصل ما جاء في الآيات : ـــ

يقول النبي " ﷺ " : **(لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم)** [3] .

ويقول النبي " ﷺ " : **(لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين)** [4]

---

(1) سورة الزخرف الآيات (٢٦ ــ ٢٩) .

(2) سورة إبراهيم آية (٣٥) .

(3) طبقات بن سعد ج١ ص ٥٨ . (4) الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

ويقول النبى " ﷺ " : **(لا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً)** [١] .

ويقول النبى " ﷺ " : **(لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً)** [٢] .

وقد رأينا من كلمات آباء النبى " ﷺ " ووقفنا على معانيها الدالة على العقل والحكمة ، وروح الإيمان ..

يقـول السـهيلى : **(وكعب بن لؤى أول من جمع يوم العروبة ، فكانت قـريش تجـتمع إليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ، ويذكرهم بمبعث النبى " ﷺ " ، ويعلمهم أنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به)** .

وعبد المطلب هو الذى قابل أبرهة وقال له : للبيت رب يحميه ..

أمـا أباء النبى " ﷺ " القريبون إليه فهم : كلاب ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وعبد الله ، فإنهم شيوخ مكة ، وحماة الكعبة ، وإليهم يرجع الفضل في تنظيم أمور البيت الحرام ، والانفاق على الحجيج ، وفى حياتهم إشارات إلى عقيدتهم الدينة .

يقول عبد الله : أما الحرام فالممات دونه .

ويقول عبد المطلب : للبيت رب يحميه .

وقـد تمـيز هاشم ، وعبد مناف بالحكمة ، وكرم الأخلاق ، ودور قصى وكلاب مع الكعبة وأهل مكة لا يخفى ، ولذلك كان " ﷺ " يفتخر بآبائه ويقـول " ﷺ " : **(أنا ابن الذبيحين)** يريد بهما عبد الله وإسماعيل " عليهما السلام " ، وفى يوم حنين قال : ـــ

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ويقول " ﷺ " : أنا خيار من خيار من خيار .

---

[١] الحاوي ج٢ ص ٣٨٠ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

وحديث النبي " ﷺ " عن آبائه لتعريف منازلهم ، وبيان مراتبهم ، والإشارة إلى نعم الله تعالى التي أحاطه ، وأحاطهم بها .

يقول أبو الحسن الماوردي : (أنبياء الله صفوة عباده، وخيرة خلقه، لما كلفهم من القيام بحقه، والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم العناصر ، واجتباهم بمحكم الأواصر ، فلم يكن لنسبهم من قدح ؛ ولمنصبهم من جرح ، لتكون القلوب لهم أصفى ، والنفوس لهم أوطأ ، والناس إلى إجابتهم أسرع ؛ ولأوامرهم أطوع ، وإن الله استخلص رسوله " ﷺ " من أطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة ، وقد قال ابن عباس في تأويل قول الله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي تقلبك من أصلاب طاهرة، من أب بعد أب إلى أن جعلك نبياً ، فكان نور النبوة ظاهراً في آبائه ، ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده نهاية ، فيزول عنه أن يشارك فيه، ويماثل فيه ، فلذلك مات عنه أبواه في صغره ، فأما أبوه فمات وهو حمل ، وأما أمه فماتت وهو ابن ست سنين . وإذا خبرت حال نسبه، وعرفت طهارة مولده، علمت أنه من سلالة آباء كرام ، ليس في آبائه مسترذل ، ولا مغموز مستبذل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب، وطهارة المولد من شروط النبوة)[1] .

ويقول الشهرستاني : (ظهر نور النبي " ﷺ " في أسارير عبد المطلب بعض الظهـــور ، وببركة ذلك النور ألهم النذر في ذبح ولده ، وببركته كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور ، وببركة ذلـــك الـــنور كان يقول في وصاياه : إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب في ذلك

---

(١) الماوردي جـ٢ ص ٣٨٥ .

ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسئ بإساءته ، وببركة ذلك النور قال لأبرهة : إن لهذا البيت رباً يحفظه)[١] .

ومع سلامة النسب النبوى وأصالته أرى توضيح أمرين : —

الأمر الأول : يتصل بتوحيد آباء النبى " ﷺ " لأن منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من كان بعيداً عنهم ، أما من كان نبياً أو عاصر نبياً ، فإنه كان على التوحيد الخالص ، الواضح الذى جاء من عند الله تعال ، بكل ما يلزمه من اعتقاد وشريعة وأخلاق ، أما من بعد منهم عن زمن الأنبياء فإنه كان على توحيد يبعده عن تألية الصنم ، وعبادته ، مع غياب تعاليم الرسالة السابقة ، ولذلك لم يكن لهم دين واضح بتعاليمه ، وتفصيلاته .

إنهم لم ينغمسوا في الشرك ، ولم يكونوا سدنة الأصنام ، ولا كهنة الآلهة ، مع ما لهذه الأعمال من أهمية في الحياة الجاهلية ، ومع مترلتهم في قبائل مكة، التى تمكنهم من الحصول على ما يريدون ، ولو كانوا من الكهنة ما منعهم أحد ، لكن الله أنقذهم منها .

إن بعدهم الزمنى عن رسالات الله أنساهم كثيراً من الحقائق الدينية ، شأنهم في ذلك شأن الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ورأوا ضرورة وجود إله واحد قدير ، واهتموا في البحث عن دين إبراهيم " عليه السلام " ، ولذلك لم تكن لآباء النبى " ﷺ " دعوة دينية ، ولم يقوموا بنشر عقيدتهم في الناس ، إلا أن الله أكرمهم بالتوحيد ، وخصهم بالخيرية ، وفضلهم على الناس ، ليذكر الرسول لهم ، وحتى لا تلحقه منقصة بسببهم ، يعيره بها المشركون والكافرون .

الأمر الثانى : أهل الفترة وآباء النبى : يراد بالفترة المدة الزمنية بين رسولين ، وبخاصة إذا طالت المدة ، وغابت تعاليم الرسول السابق كلياً ، أو جزئياً .

---

[١] الحاوى ج٢ ص ٣٨٢ .

ودرس العلماء ،والفقهاء أحكام أهل الفترة لأنهم بعدوا عن الرسالة السابقة و لم يأتهم رسالة جديدة ، وهذا حال يرفع عنهم المسئولية أمام الله تعالى عند جمهور العلماء.

والعرب من الأمم التى طالت الفترة بهم ، و لم يأتهم رسول منذ إسماعيل " عليه السلام " يبين الله ذلك لمحمد " ﷺ ":﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [١]

وصلة هذا المبحث بآباء النبى " ﷺ " تلمس الإنصاف لهم لأن آباءه القريبين ابـتداء من كلاب لم يكن لهم دور دينى واضح ، مع ثبوت عدم تأليههم للأصنام وسبب ذلك أنهم كانوا من أهل الفترة التى لا وجود فيها لدعوة دينية ... وأقصى ما كانوا فيه أنهم من الحنفاء الموحدين ، الباحثين عن الحقيقة ، التى تجلت أمامهم بمبعث النبى " ﷺ " .

يذهـــب جمهور العلماء إلى أن أهل الفترة ناجون ، لأنه لا تكليف قبل البعثة بدلالة الآيات التالية : ــ

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [٢] والآية أساس للجمهور الذين يرون أن وصول الرسالة إلى الناس شرط للمسئولية ، يقول قتادة : (إن الله ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتيه من الله بينة) [٣] .

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] والآية واضحة فى ثبوت العذر لأهل الفترة على عدم إيمانهم ، ودلالتها على ضرورة تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح عن طريق رسول الله، أو بواسطة من يكلفه من الدعاة

---

[١] يس آية (٦) .

[٢] سورة الإسراء آية (١٥) .

[٣] تفسير القرطبى ج ١ ص٢٥١ .

[٤] سورة القصص آية (٤٧) .

وعلى هذا فآباء النبى " ﷺ " القريبون كانوا من الحنفاء، على أقل تقدير وليس بضرورى أن يكونوا على رسالة دينية كاملة (عقيدة وشريعة) وأما الأبوان الشريفان فهما من أهل الفترة بإجماع ، لتأخر زمانهما ، وبعد ما بينهما وبين الأنبياء السابقين [١]، فآخر نبى بعث للعرب هو إسماعيل ، وبينه وبين محمد " ﷺ " ثلاثة آلاف سنة ، ولم يعمرا طويلاً ، وكان العرب في جهل بالنسبة للرسالة لدرجة أنهم تعجبوا،حين بعث الله تعالي نبيه محمداً "ﷺ" وقالوا ما حكاه الله تعالى : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [٢] ، وقالوا أيضاً ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [٣]وقد صور الله تعالى أحوالهم متعجباً فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [٤] .

وهذا محمد " ﷺ " لما حبب إليه الخلاء ، كان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، وكانت عبادته على ما بقى من دين إبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " ، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك .

إن تباعد الزمان بين رسالة إسماعيل " عليه السلام " وآباء النبي القريبين غيب عنهم حقيقة رسالة الله بكمالها ، وتمامها ، ولكنهم تمسكوا بما أبقاه الله بينهم ، فلم يعبدوا غير الله ، ولم يشركوا معه إلهاً آخر .

ومن هنا نرى أن توحيد الحنفاء كاف في القول بإيمان آباء رسول الله " ﷺ "

***

---

[١] أرجح الرأى القائل بأن أبا النبى " ﷺ " من أهل الفترة على الآراء الأخرى ، هذا وقد فصل السيوطى الآراء كلها بأدلتها فى كتابه الحاوى .

[٢] سورة الإسراء آية (٩٤) .

[٣] سورة فصلت آية (١٤) .

[٤] سورة المؤمنون آية (٦٩) .

المسألة الثالثة

صلة بني هاشم بسائر بطون العرب

تعـــرف أسرة النبى " ﷺ " بالأسرة الهاشمية نسبة إلى هاشم بن عبد منا
وهى أسرة عربية يمتد نسبها إلى إبراهيم " عليه السلام " .

فرســـول الله " ﷺ " واحد من العرب يتصل مع كل عربى بنسب، وط
لأنهم جميعاً أبناء إسماعيل ، وعروبة النبي ثابتة موطناً ، وجنساً ، ولغة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَ
أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [1] وفى هذا بيان لقرية النبى " ﷺ " التى أخرج
وهى مكة ، موطنه الذى أجبر على تركه ، والهجرة منه إلى يثرب ، المدينة التى
هجرته " ﷺ " إليها ، يقول قتاده وابن عباس : (**لما خرج النبى " ﷺ " من مك
المدينة التفت إلى مكة وقال : اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأنت أحب
إلى ولولا المشركون أهلك أخرجوني ما خرجت منك**) [2] .

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [3] ، ويقـــول : ﴿ ٱلَّ
يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [4] وعلى هذا فالنبى أمى ، أى عربى ، لأن ا
صفة ، ومسمى للعرب قبل المبعث فى مقابل أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل [5]

وجاء الإسلام بلغة العرب ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا ع
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [6] ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [7] فهذه الغر

---

[1] سورة محمد آية (١٣) .

[2] الحديث صحيح ، رواه الثعلبى ، تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٥ .

[3] سورة الجمعة آية (٢) .

[4] سورة الأعراف آية (١٥٧) .

[5] الملل والنحل ج ١ ص .

[6] سورة يوسف آية (٢) .

[7] سورة مريم آية (٩٧) .

الثابتة لرسول الله تؤكد قرابته العامة لكل عربي ، وتؤيد التقاءه مع كل منهم في نسب بعيد أو قريب .

وقد وضح ابن حزم الأسباب النسبية التي ربطت النبي " ﷺ " بقبائل العرب جميعاً ، فقال : (وفي عبد المطلب يجتمع معه " عليه السلام " : بنو علي ، وجعفر ، وعقيل – بني أبي طالب – ، وبنو العباس ، وبنو الحارث ، وبنو أبي لهب .

وفي عبد مناف يجتمع معه : بنو أمية ، وسائر بني عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل، وبنو عبد المطلب .

وفي قصي يجتمع معه : بنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، الذين منهم حجبة الكعبة .

وفي كـــلاب يجتمع معه : بنو زهرة ، وأمه منهم ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة .

وفي مرة يجتمع معه : بنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة .

وفي كعب يجتمع معه : بنو عدي ، وبنو جمح ، وبنو سهم .

وفي لؤي يجتمع معه : بنو عامر بن لؤي .

وفي غالب يجتمع معه : بنو تيم الأدرم .

وفي فهر يجتمع معه : بنو الحارث ، وبنو محارب ، وفهر هذا : هو أبو قريش كـــلها ، مـــن لم يكن من ولده فلا نسب له في قريش ، ومن كان من ولد فهر فهو قرشي .

وفي كنانة يجتمع معه : كل من ينتمي إلى كنانة من بني عبد مناة ، وملك ، وملكان ، وحدال ، وعمرو بن كنانة .

وفي خزيمة يجتمع معه : بنو أسد ، والقارة ، وهم بنو الهون بن خزيمة .

وفى مدركة يجتمع معه : بنو هذيل .

وفى اليأس يجتمع معه : بنو تميم وإخوتهم ، وبنو ضبة ، ومزينة ، والرباب وخزاعة ، وأسلم ، فأما الرباب فهم : تيم ، وعدي ، وثور ، وعكل .

وفى مضر يجتمع معه : قبائل قيس كلها : سليم ، ومازن ، وفزارة ، وعبس وأشجع ، ومرة ، وسائر بني ذبيان ، وغطفان : وعقيل ، وقشير ، والحريش ، وجعدة والعجلان ، وكلاب ، والبكاء ، وهلال ، وسواءة ، وبنو جشم ، وبنو نصر وثقيف ، وسعد ، وسائر هوازن ، ومحارب ، وعدوان ، وفهم ، وباهلة ، وغني والطفاوة ، وسائر قيس .

وفى نزار يجتمع معه : قبائل ربيعة ،وهم بكر، وتغلب ، وعنز بني وائل وعبد القيس وقبائلها ، وعنزة ، والنمر بن قاسط .

وفى معد يجتمع معه : إياد .

وفى عدنان يجتمع معه : بنو عك) [١] .

هذه واحدة ..

وأخرى وهي أن جميع بطون مكة قبيل البعثة كانت ترتبط ببني هاشم بقرابة ورحم ، فعن ابن عباس (**أن النبي " ﷺ " لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله فيه قرابة**) [٢] وبسبب هذه القرابة ترى القرآن الكريم يكرر في معرض دعوته لأهل مكة أن الرسول "منكم" و"من أنفسكم"و " منهم " يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [٣] ، ويقول سبحانه : ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [٤]

---

(١) جوامع السيرة ص ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢) صحيح البخاري ـــ باب المناقب ج٤ ص ٢١٧ .

(٣) سورة التوبة اية (١٢٨) .

(٤) سورة آل عمران آية (١٦٤) .

ويقول : ﴿ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ [١] ، فالرسول " ﷺ " منهم ، وهم أقرباؤه ، ومع ذلك فدعوته للعالم كله ، وعليهم أن يؤمنوا به ليؤكدوا تشرفهم بحمل الرسالة ، وتبليغها للعالمين .

إن بطون قريش يرتبطون بقرابة مع رسول الله فهم أخواله وأعمامه ، وله منهم عمات، وخالات،كما يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ [٢] ودلالة هذه الآية صريحة في وجود أعمام ، وأخوال ، وعمات ، وخالات له " ﷺ " في مكة ، وأنه " ﷺ " تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي " ﷺ " القرشيات نجد أنهن لسن من بني هاشم ، ولكنهن من بقية بطون مكة ..

فعائشة من بطن : تيم " ، وتلتقي برسول الله في جده مرة .

وحفصة من بطن " عدى " ، وتلتقي برسول الله في جده كعب .

وأم حبيبة من بطن " بني أمية " ، وتلتقي برسول الله في جده عبد مناف .

وأم سلمة من بطن " بني مخزوم " ، وتلتقي برسول الله في جده كلاب .

وسودة من بطن " بني عامر " ، وتلتقي برسول الله في جده لؤى .

وزينب من بطن " بني أسد " ، وتلتقي برسول الله في جده خزيمة .

وهذا يثبت القرابة القريبة لرسول الله مع بطون مكة جميعاً ، فهم أعمام وعمات وأخوال وخالات ، أقرباء لمحمد " ﷺ " .

إن قرابة النبي " ﷺ " لبطون مكة تعود لعدة أجيال قديمة ، وهي حقيقة لا شك فيها

---

[١] سورة النحل آية (٥٠) .

[٢] سورة الأحزاب آية (٥٠) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القرابة فى مجال حث أهل مكة على الإيمان حيث يقول تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [١] .

فهى تشير إلى القرابة المعروفة بين رسول الله " ﷺ " وأهل مكة ، والتى يجب أن تدفعهم إلى الإيمان بالإسلام أداء لحق المودة ، والقرابة مع رسول الله " ﷺ " .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [٢] ..

والآية تتضمن ــ كما هو ظاهر ــ دلالة قاطعة على أن النبى " ﷺ " كان له فى مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، مع التحام هذا البطن الخاص بوشائج القربى مع سائر بطون قريش ، والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة و ملك جانباً عزيزاً بين الناس .

لقد أمر النبى " ﷺ " كثيراً من المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش ، لمتابعتهم النبى " ﷺ " وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، فى حين أن النبى " ﷺ " ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل يقوم بدعوته قوياً، صريحاً، واضحاً فى الإنكار ، والتخويف ، والإنذار بلسان القرآن ، معتمداً على الله تعالى الذى جعل له من أقربائه أنصاراً رغم أنهم لم يؤمنوا بالإسلام [٣] .

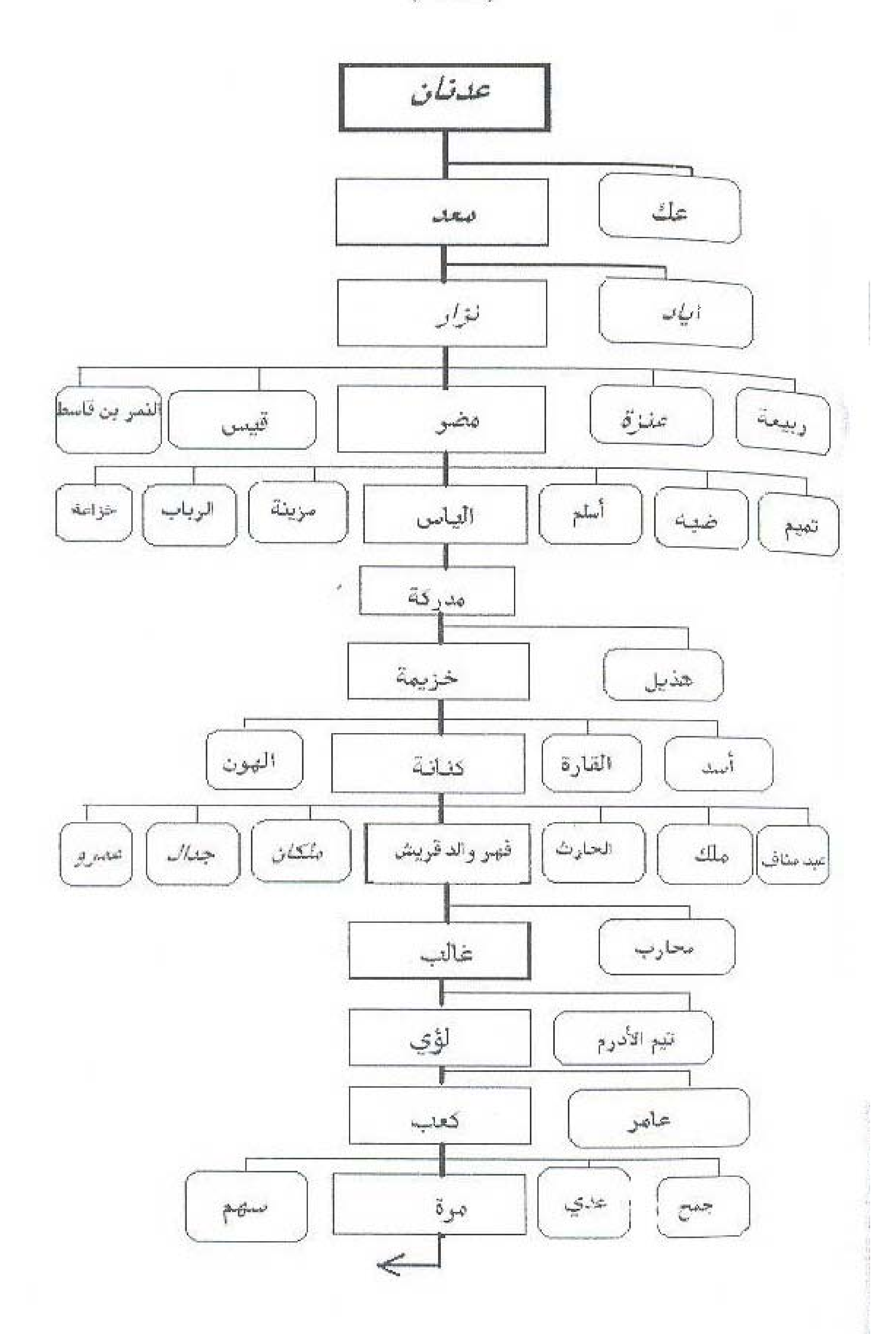
---

[١] سورة الشورى آية (٢٣) .

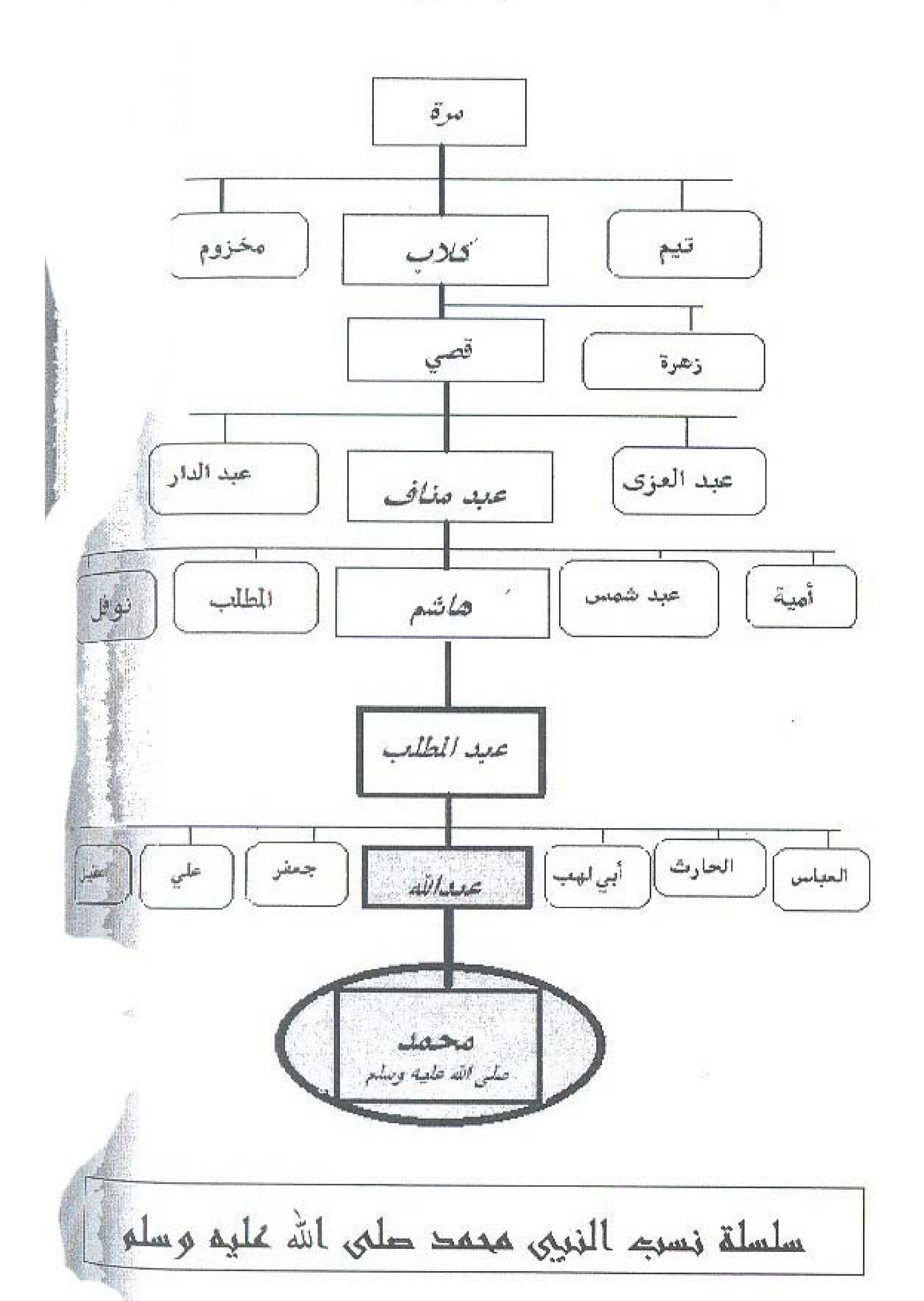
[٢] سورة الشعراء آية (٢١٤) .

(٣) يــراجع فى هذه القضية مواقف عمه أبى طالب الذى عاش حياته مدافعاً عن محمد " ﷺ " مع أنه لم يؤمن، وقصـــة إسلام حمزة التى قامت دفاعاً عن محمد " ﷺ " ، واشتراك بنى هاشم والمطلب مع المسلمين فى حصار الكفار لهم .. وكلها تدل على ما كان للقرابة والعصبية من نصرة ومساندة .

ويجــب أن يــنظر إلى أن الهجرة إلى الحبشة كانت للمحافظة على روح وقوة الجماعة المسلمة ، ولإيصال الإسلام خارج جزيرة العرب .



عدنان
عك
معد
أياد
نزار
ربيعة
عنزة
مضر
قيس
النمر بن قاسط
تميم
ضبه
أسلم
الياس
مزينة
الرباب
خزاعة
مدركة
هذيل
خزيمة
أسد
القارة
كنانة
الهون
عبد مناف
ملك
الحارث
فهر والد قريش
ملكان
جدال
عمرو
محارب
غالب
تيم الأدرم
لؤي
عامر
كعب
جمح
عدي
مرة
سهم



سلسلة نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم

وفى نهاية هذا المبحث أجد شبهة تستحق أن نرد عليها ، فلقد عرض الدكتور / محمود علي مراد لأحداث السيرة في المرحلة المكية في رسالته للدكتوراه ، ورأى أن أغلب مروياتها وضع تمجيداً لبني هاشم ، أجداد العباسيين ، الذين دونت السيرة في عهدهم ، ولذلك جاءت أحداث سيرة ابن اسحق وبخاصة في الفترة المكية تمجيداً لبنى هاشم خدمة للعباسيين على حساب الأمويين أعدائهم .

ويرى أن النصوص التى تصور عبد المطلب مؤمناً غير صحيحة ، ولا تتناسب مع بعض الشواهد التى ذكرها الدكتور في مؤلفه ، فقصة حفر عبد المطلب لزمزم ، ومواجهته لأبرهة ، وإصراره على الوفاء بنذره ، بذبح أحد أبنائه العشرة .

هـذه الأحـداث يردها الدكتور ويستدل في ردها برضى عبد المطلب على وضع الأصنام حول الكعبة ، وعدم قيام عبد المطلب بدعوة دينية في قومه ، وتسميته أحد أبنائه بـ " عبد العزي " ، وجحود أبنائه الديني ، حيث لم يؤمن أحدهم بمحمد إلا بعد ثلاث سنوات من البعثة [1] ، مما يدل على عدم توجيههم دينياً .

ونحن لا نرتضي ما ذهب إليه الدكتور لما يلي :ـــ

١. التشكيك في راوي السيرة (ابن اسحاق) غير صحيح فهو من رواة السنة ، وأحاديثه ، ورواياته مقبولة ، وقد وثقه علماء الجرح والتعديل [2] .

---

[1] سيرة رسول الله " ﷺ " ـــ د / محمود على مراد ص ٤٢ بتصرف ، وهى رسالة حصل بها المؤلف على الدكتوراه من جامعة السوربون ، وهى مترجمة من الفرنسية إلى العربية .

[2] محمد بن اسحاق صاحب السيرة التى لخصها ابن هشام من العلماء الثقات يقول عنه البخاري:روي عنه إبراهيم بن سعد سبعة عشرة ألف حديث ، ومن أشهر مشائخه عاصم بن قتادة ، والزهري ، وعبد الله بن أبى ، وهشام وعمرو ابنى عروة بن الزبير ، وإبان بن سعيد .

يقول ابن هشام عنه : هذا أعلم الناس بالمغازي ، ويقول عاصم بن عمر : لا يزال في الناس علم ما بقى ابن اسحاق ، ويقول ابن معين عنه : إنه ثقة ، حسن الحديث .

وقد جرح بعض العلماء ابن اسحاق لإكثاره في الرواية ، واتهامه بالقدر ، وتتبعه لأولاد اليهود الذين رووا أحاديث الغزوات ، وهي أسباب ردها علماء الحديث ، وينحصر نقد ابن اسحق عند إمامين جليلين ـــ هما الإمام مالك بن أنس ، وهشام بن عروة ، بناء على أسباب وجدوها فيه ، وهي :

٢. لأجـداد الأمويين والعباسيين أمجاد ، ومزايا ، فلم نتهم ابن إسحاق [illegible]
أمجاد العباسيين مع أن إيرادهم هنا مع أحداث السيرة ضرورة علمية لما [illegible]
من صلة مباشرة بصاحب السيرة رسول الله " ﷺ " ؟ ! !

ولم لم نفهـم سبب سكوته عن أمجاد الأمويين ، مع أن مجال الدراسة بعيد
عنهم ، ولم يشر ابن إسحاق إلى الأمويين بأي سوء .

٣. رد الأحاديـث المروية اعتماداً على العقل وحده لا يكـفي ، لأن [illegible]
عـبد المطلب لم يكن بصورته التامة ، فهو يشبه الحنفاء كما قلنا .. لكن
الدكتور يتصوره رسولاً ، وينقد على هذا الأساس .

٤. تشـكك ابن هشام في صحة القصائد التي عزاها بن إسـحاق إلى [illegible]
عبد المطلب ، وقد أبرز الدكتور هذا التشكيك ، واستشهد به ، فهل [illegible]
ابن هشام صادقاً هنا .. وغير صادق في مروياته الأخرى عن عبد المطلب ؟

الأول : حرصه على الإكثار من الرواية، وهو أمر كرهه الإمام مالك في حياته ، قال عبد الرحمن بن مهدي [illegible]
مـالك : (يا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم ـــ أي بالمدينة ـــ أربعمائة حديث في أربعين يوماً ، ونحن في [illegible]
نسـمع هذا كله ـــ أي بالعراق ـــ فقال له : يا أبا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التي عندكم ؟ دار [illegible]
تضربون بالليل ، وتنفقون بالنهار) .

الـثاني : إتهامـه بـالقدر ، وهي تهمة اتهم بها كثير من المحدثين و لم تنل منهم ، وقد أخرج مسلم [illegible]
صحيحة عن بعضهم .

أخرج الخطيب عن أبي زرعة الدمشقي قال : (ومحمد بن إسحاق رجل قد أجمع الكبراء من أهل [illegible]
على الأخذ منه منهم سفيان ، وشعبة ، وبن عيينه ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وقد [illegible]
أهل الحديث فرأوا صدقاً ، وخيراً ، مع مدحة بن شهاب له ، وقد ذاكرت دحيما قول مالك في ابن إسحاق [illegible]
أن ذلك ليس للحديث ، إنما هو لأنه اتهمه بالقدر) .

وقـال الجرجاني : الناس يشتهون حديثه، وكان يرمي بغير نوع من البدع ، وقال موسى بن هارون
سمعت محمد بن عبد الله بن نمير يقول : كان محمد بن إسحاق يرمي بالقدر وكان أبعد الناس منه .

الثالث : تتبعه لغزوات النبي " ﷺ " من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وغيرها .
(أنظر : مع الرسول " ﷺ " ص ١٢٤ ـــ ١٢٥ بتصرف) .

المبحث الثاني

إرهاصات الميلاد والرأى فيها

الإرهـــاص أمر خارق للعادة يظهره الله قبيل مبعث نبى ما ، وهو يختلف عن خوارق العـــادات الأخرى ، لأن **المعجزة** تظهر على يد مدعى النبوة تصديقاً له ، **والكرامة** تظهر على يد عبد صالح تكريماً له ، **والمعونة** تظهر لعبد صالح معونة له .

وقد أورد مؤرخو السيرة المحمدية ، عدداً من الإرهاصات ذكروا أنها وقعت عند ولادته " ﷺ " .

من هذه الإرهاصات :ـــ

- مـــا رواه محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت ، قال : **(والله : إنى لغلام يفعـــة ، ابـــن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصـــرخ بأعلى صوته على أطمة بـــ (يثرب) : يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك؟ ! مالك ؟ !**
- قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به)[١] .
- وعـــن أسامة بن زيد قال : **(قال زيد بن عمرو بن نفيل ، قال لى حبر من أحـــبار الشام : قد خرج في بلدك نبى ، أو هو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه ، واتبعه)**[٢] .
- مـــا رواه ابـــن سعد بسنده عن ابن عباس أن **آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به ، تعنى رسول الله " ﷺ " ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع عـــلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع**

---

[١] صحيح السيرة ص ١٤ .

[٢] المرجع السابق ص ١٦ .

رأسه إلى السماء ، وقالت أيضاً : لما ولدته خرج منى نور أضاء له قصور
الشـــام ، فولدتـــه نظيفاً ، ولدته كما يولد السخل ما به قذر ، ووقع إلى
الأرض وهو جالس على الأرض بيده [1] .

● ويـــروى بن سعد أيضاً أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله
ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس
تخمـــد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى **الموبذان** إبلاً صعاباً
خـــيلاً عـــراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح كسرى أفزعه
ذلـــك، فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم
تاجه ، وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده .

قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ ! .

قالوا : لا إلا أن يخبرنا الملك .

فبيـــنما هـــم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غماً إلى غمه
أخبرهم بما رأى ، وما هاله .

فقال **الموبذان** وأنا ــ أصلح الله الملك ــ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قص
رؤياه في الإبل ، فقال أى شئ يكون هذا يا موبذان ؟

قال حدث يكون في ناحية العرب ــ وكان أعلمهم من أنفسهم ــ فكتب عند ذلك
كتاباً من كسرى ملك الملوك، إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد فوجه الى برجل عالم
أريـــد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني
فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

فقـــال : لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبره
بمن يعلم .

---

[1] البداية والنهاية ج٢ ص ٢٦٤ .

فأخبره بالذى وجه به إليه فيه .

قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح .

قال : فأته فأسأله عما سألتك عنه ، ثم ائتنى بتفسيره ، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح، وقد أشفى على الضريح ، فسلم عليه وكلمه ، فلما سمع سطيح قوله، رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان رأى إبلاً صعاباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساواة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته [1] .

والإرهاصات التى ذكرها مؤرخو السيرة عديدة ، وكلها تشير إلى حدوث أمر جديد يتأثر به العالم كله ، ويصل خيره ، ونفعه إلى كل مكان في أرض الله تعالى.

أدرك من شاهد هذه الإرهاصات ، أو بعضها حدوث هذا التغيير، لكنه لم يرتبط في أذهانهم بالمولود الجديد ، اللهم إلا نفر قليل من أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون الكتاب ، ويرون صفة رسول الله ، الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، وسار العلماء القدامى على تصديق كل أثر صح سنده ، فلم يبحثوا عن علة الأثر ، أو غايته ، لأنهم رأوا أن من الأخبار ما هو متصل بأمر خارق للعادة ، لا يصل العقل إلى كنهه ، وحقيقته ، مما جعلهم يقفون عند حد ثبوت النص ، وتصديقه والعمل به ، ورأينا العلماء القدامى يروون إرهاصات النبوة في مؤلفاتهم ، ودروسهم ، ولم يعلقوا عليها ، مما يدل على أنهم راضون عنها ، سعداء بذكرها .

---

[1] البداية والنهاية جـ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

إلا أننا في العصر الحديث وجدنا عدداً من المستشرقين ، والمسلمين الذين كتبوا في السيرة ، يرفضون الإرهاصات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى السند أو مصدر رواية الحدث .

فمنهم من رفض هذه الإرهاصات بحجة أن الإسلام لا يحتاج إليها في حركته وانتشاره ، لأنه يحمل عوامل التصديق به في ذاته ، كما أن هذه الإرهاصات لم تؤد إلى إسلام أحد ، ولم تكن دليلاً على صدق الرسالة يوم بعث محمد " ﷺ " وأيضاً فلقد ولد مع النبي " ﷺ " في يوم مولده غيره ، ومن الممكن أن يدعى أهل هؤلاء الأبناء ، وقومهم أن هذه الإرهاصات بسبب ميلاد أبنائهم .

إن هذا الفريق لايصرح بكذب الإرهاصات ، ولا يقول بها، لأنها لا يرى أمامه فائدة تذكر للدعوة الإسلامية .

يقول عباس العقاد : علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة وهي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها ، فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟ ..

وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟ وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، وإلا فلأى شئ خلق ؟ .. ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ؟ وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ ..

إن المؤرخين يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية يسردون ما أكده الرواة منها، وما لم يؤكدوه، وما قبله الثقات منها، وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث، أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة، أو عارضته ، ويتفرقون في الرأى والهوي بين تفسير الإيمان ، وتفسير العيان ، وتفسير المعرفة ، وتفسير الجهالة ؟

فهل يستطيعون أن يختلقوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد ، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة ، واستفاض أمر الإسلام ؟ ..

لا موضع هنا لاختلاف ، فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي " ﷺ " بالرسالة .

ولم يكن ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ، ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شئ ، أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة، وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبى " ﷺ " أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين، إلا بعد عشرات السنين ، يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين، غنية عن شهادة الشاهدين، وإنكار المنكرين ، أما العلامة التي لا التباس فيها، ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة الكون ، وعلامة التاريخ ، قالت حوادث الكون : إن الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ محمد" ﷺ " هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ[1] ؟ ؟ .

ومنهم من رأى ضرورة عرض هذه الإرهاصات على العقل ، فهو ميزان القبول والرفض لأى قول ، في إطار الأسس العلمية ، التي أخذوها من المستشرقين ، حيث يعتمدون علي العقل اعتماداً كاملاً فى إدراك كل شئ .

وحتى تظهر النظرة العقلية في صورة الحياد العلمي عند أصحاب هذا الاتجاه نراهم يعرضون المرويات على القرآن الكريم أحياناً ، فما اتفق معه منها قبل ، وما لم يتفق فمصيره الرفض وعدم القبول،مع أن القرآن يتحدث عن الخوارق المعجزة وغيرها

---

[1] مطلع النور ص ١١ ـــ ١٣ .

وعلى أساس فكرهم هذا رفضوا كثيراً من الإرهاصات ، كما رفضوا كثيراً من أحداث السيرة لخروجها على عادة العقل ، وسكوت القرآن عنها ، ولربما خالفوا لموضعها في القرآن الكريم ، وأولوه ، بما يؤيد موقفهم الرافض لمرويات السيرة والتاريخ ، وذلك كموقفهم من شق الصدر وغيرها .

وحين ننظر إلى هؤلاء ندرك الفرق بينهم، فكلاهما يرفض الإرهاصات المروية، إلا أنهما يختلفان في سبب الرفض، حيث يذهب الفريق الأول في سبب رفضه إلى عدم فائدتها للدعوة ، بينما الفريق الثاني ينكر وجودها لعدم تسليم العقل بها .

وقبل أن نرد عليهم أشير إلى أن أحداث هذه الإرهاصات جاءت على غير ما ألفه الناس ، وأقل ما تتركه في عقولهم البحث عن فاعلها ، وعن أسباب وقوعها بهذه الصورة الخارقة ، وهذا كاف في توجيه أنظارهم إلى التفكير ، والتدبر ، وإن لم يهتدوا لشيء .

إن الفريقين على خطإ فيما ذهبا إليه لأسباب كثيرة أهمها :ـــ

أولا : ضرورة التفريق بين الجانب العقلي ، والصورة النبوية ، لأن النبوة وحي مستمد من الله تعالى ، وقدرة الله تعالى مطلقة ، تعلو كثيراً عن نطاق العقل البشري ، وطاقته .

وإذا كانت النبوة محاطة بخوارق العادات ، فكيف تدرك حقائق هذه الخوارق بالعقل المحدود .

لقد حاول كفار مكة مواجهة النبوة بعقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [1] وحجتهم فيما طلبوه أن الأمر رئاسة ، وقيادة ، وجدير بها العظماء المشهورون بالغنى ، والجاه ، والسطوة ، ولذلك طلبوها لأحد عظماء مكة ، أو الطائف .

---

(1) سورة الزخرف آية (٣١) .

ولو عرضنا هذا المنطق على العقل وحده لكان منطقاً مسلماً ، فالعظيم بماله يعطي ويسود ، وبجاهه يأمر ويطاع ، وبقوته وسطوته يوجه ، ويسيطر ، ويحكم .

أما لو عرضناه على منطق النبوة والوحي فإن الأمر يختلف كما قال الله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[١] .

إن النبوة رحمة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاه ، واختاره ، ولا دخل للعقل فيها ، لأن العقل محدود التصور ، محدود الإدراك ، فكيف له أن يتدخل في رحمة الله وعطائه بالرأى ، والتوزيع ، والنقد ؟ !! ..

إن العقل يعجز في إدراك شأن صاحبه ، ولا يستطيع له أمراً ، فأمور الدنيا تجري بقدر الله تعالى ، ولا يمكن لإنسان أن يخرج عن هذه القدرة الإلهية .

إن الغني والفقر ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والتيسير ، والتعسير .. كل ذلك وغيره قدر لا دخل للإنسان فيه ... فأين العقل إذاً في هذه الحالات ؟ ! ..

إن القدر الإلهي قد يرفع إنساناً ، ويعطيه ، وحينئذ يستخدم كثيراً من العقلاء الموهوبين ، مع أن حظه في العبقرية قليل ، مما يدل على أن الأمر بيد الله رب العالمين.

إن العقل البشري قد يتصور العظمة في الأمور الظاهرة ، كالغني ، والوظيفة والسلطان ، وتثبت الأيام والتجارب أن العظمة الحقيقية في الجوانب المعنوية ، المستورة التي يعلمها الله تعالى وحده ، ولذلك كانت النبوة قدراً إلهياً ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

---

[١] سورة الزخرف آية (٣٢) .

لقـــد استعمل القرشيون عقلهم أيضاً أمام الوحي، والقدرة الإلهية في حادثة الإسراء والمعراج، وأنكروا على رسول الله "ﷺ" ما قاله لهم، وقالوا له: إنا نضرب لها أكباد الإبل شهراً وتزعم أنك تأتيها في ليلة واحدة ؟! ..

لقد أملي عليهم عقلهم استحالة ما سمعوا من رسول الله؛ لأن العقل لا يسلم أبداً بأن يسافر إنسان ما في زمان النبوة والبعثة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ويعود في ليلة واحدة، ونسوا أن الذي أسرى برسول الله هو قدر الله تعالى، والقدرة هو الله، يقـــول تـــعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [1] ،والنبي "ﷺ" (يقـــول أسرى بي الليلة) [2] ولم ينسب الفعل لنفسه .

إن أصـــل الخلاف بين الرسول وأهل مكة في هذه الحادثة هو مصدر العلم والتصور؛ فأهل مكة يعتمدون على عقولهم، بينما الرسول ينطلق من الوحي والإيمان.

لقـــد ذهب الكفار إلى أبي بكر "ﷺ" ليكون معهم في تصورهم العقلي وينكر معهم الإسراء والمعراج ..

لكنه "ﷺ" بمنطق الإيمان بالنبوة والرسالة يرد عليهم قائلاً: إن قال فقد صدق؛ إنه يخبرني أن الوحي يأتيه من السماء في لحظة وأنا معه فأصدقه، أفلا أصدقه هنا ؟!.

إن الـــبعض قـــد يتصور أن إيمان أبي بكر في شأن حادثة الإسراء والمعراج وغيرها ــــ قد بني على غير تفكير، أو على أساس الإيمان فقط، وهذا تصور خاطئ؛ إنه قد علم الجميع درساً فائقاً؛ في كيفية استعمال العقل، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها .

---

(١) سورة الإسراء آية (١) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ــــ باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٠ .

إن العقـل له أن يفكـر في قـول الرسول إنه رسول، فإذا ثبت لديه صدق الرسول فالنتيجة الحتمية، الموافقة لأى منهج عقلي ، أن يؤمن بكل ما صدر عن ذلك الرسول بدون تدخل للعقل ، لأن الرسالة ، مستمدة من الله عز وجل ، وقدرة الله صالحة لكل فعل يخالف العقل ، أو توافق معه ، وذلك هو جوهر القياس العقلي الذي أجراه أبو بكر أمام المشركين ، لقد قال لهم : إنه يقول لي إن الخبر يأتيه من السماء في لحظة فأصدقه ، فأى غرابة في منطق العقل والعلم أن يصدقه بعد ذلك في أنه قد أسرى به إلى بيت المقدس ما دامت القدرة التى أنجزت هذا الفعل هى قدرة الله عز وجل .

فليخجل أتباع المدرسة العقلية من أنفسهم وليتعلموا ذلك الدرس العظيم على يد أبي بكر في كيفية استخدام العقل [1] .

يقول ابن عطاء الله السكندرى : زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد " ﷺ "

وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيدَ ؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد ؟

فقال : نعم : سمعته يقول : (**من زارني لا تحرقه النار**) .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى " ﷺ " وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى " ﷺ " ، إنما رأى (يتيم أبي طالب) ولو رآه " ﷺ " رسولاً لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أى إنه لم يره بالتعظيم والإكرام، والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا المعني لتغير حاله ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

---

[1] السيرة النبوية ص ٥٧ ، ٥٨ .

ومـــا كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في ذلك لهذه النزعة ، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يـتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم في ذلك ليسوا تقدميين ، ولا تطوريين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرهم إلى ما قبل خمسة عشر قرناً مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !! !!

لـيس هناك إذن اجتهاد، وخطأ، وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله ، مبيناً طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، ورأفته الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، لفساد طويتهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة : أن الإنسان يميل إلى التركيز على " بشـر " أو على " يوحـى إلى " حسـب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشـرية، والعقل، والمنهج الوضعي ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على: "يوحى إلى" ، كلما ازداد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى مستوى ألا يرى، أو لا يكاد يرى إلا " يوحى إلى "

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس،طرف" بشراً" أو ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وطرف : ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾أو " رسولاً " ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً .

إن مقـياس الإيمان قوة وضعفاً ، ومقياس درجة الإيمان الذى لا يخطئ، إنما هـو ما وقر في القلب، أو غلب عليه ، من " البشرية " أو من " يوحى إلى " ، إنهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان .

إن النبوة اصطفاء إلهي ، واختيار رباني ، لا يدرك سرها إلا القادر العظيم؛ ومن الضروري أن توضع في موضعها ، ويقف العقل عند حده ، وبذلك يتميز جانب

النبوة عن جانب البشرية فى التصور الإنسانى .

ثانياً : التفرقة بين الجانب الإلهي ، والجانب البشري تكريم للإنسان ، واحترام للعقل ، لأن الإنسان إن أدرك حقيقة ذاته وعرف حقوقه ، وواجباته ، وتمكن من القيام بما هو مسئول عنه،ونال ما هو محتاج إليه فى كمال ودقة،كان هذا تكريماً له .

وحينما يكلف العقل بما هو ممكن، وحينما يعيش في إطار قدرته الذاتيه ينال رضي نفسه،ويحسن تفكره ، وتدبره،ويصير مصدر السعادة ، والخير لذاته ولصاحبه .

وحينما يخرج الإنسان عن طاقته،ويتمادى العقل بعيداً فوق مداركه، واستعداداته،فإنه يضل،ويزيغ عن الحق ، ويجلب على صاحبه الاضطراب ، والضياع .

من أين للإنسان أن يتصل بقدرة غيبية بعيداً عن ميزان النبوة ؟ ! ومسالكها ؟ !

ومن أين للعقل أن يدرك الغيب الخفي ، مجرداً عن أدواته ومصادره ؟ ؟ ..

إن العقل ليس هو النبوة ، ولذلك يجب أن يكون عقلاً فقط ، ويجب أن يؤمن العقل بالنبوة ليعرف ويعلم ، ويؤمن ويهتدى .

ثالثاً : يتصور القائلون بالعقل أنهم تقدميون ، يسلكون منهجاً علمياً معاصراً ، وما دروا أنهم حين أعملوا العقل في مقابل النبوة ، والإرادة الإلهية ، رجعوا إلى عصور سحيقة ، وتشبهوا بمخلوقات قديمة ، اعتمدت على عقلها ، وبذلك أثبتوا رجعيتهم ، وتخلفهم .

ألم يقف إبليس بعقله أمام الوحي والنبوة ، حين أمره الله بالسجود لآدم " عليه السلام " ، حيث أبى وقال :﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .. وتمسك برأيه ، وتصور صوابه ، مع أنه قائم على الضلال ، والهوي ..

على هؤلاء القائلين بالعقل فقط أن يروا مدي رجعيتهم، وتخلفهم، ويعلموا أنهم تشبهوا مع أمثالهم الذين وجدوا مع آدم " عليه السلام " في القول والتوجيه .

رابعاً : يرى المنكرون للإرهاصات النبوية غرابة فيها لا يستسيغها العقل، ولذلك سارعوا إلى إنكارها،أو السكوت عنها، ومن عجب أن هؤلاء المنكرين أغلبهم من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام والذين يدينون بالمسيحية،ولذلك نسألهم :

أيها أكثر غرابة في عقولكم امرأة تحمل بلا زوج ، أم انطفاء نار ؟

وأيها أقرب للعقل اهتزاز قصر ، أم ولادة طفل بغير أب ؟ ! . .

إن المسلم يصدق بكل هذا ، لأنه يؤمن بالله ، وبنبوة عيسى " عليه السلام " . .

ولكـــن السؤال نوجهه لهؤلاء الذين يحاولون تفسير الإسلام تفسيراً غريباً بعيداً عن بيئته ، وطبيعته .

لو وقفنا أمام كل غريبة من الغرائب ، ولم نسلم بها ، وأخذنا نعرضها على التجربة والقواعد العقلية ، فسوف نهدم كثيراً من وقائع الحياة التي نعيشها ، فكم فيها من الغرائب والعجائب ؟ ! !

إن كـــون الله معجز كله ، وتصور إيجاده فوق مستوى العقل كسائر أسرار الله في الخلق .

كيف وجد العقل ؟ وكيف يتصور ، ويفهم ، ويحكم ؟

كيف للقلب أن يعمل ؟ ومتى ينشط ؟ ومتى يتوقف ؟

كيف تقوم الجوارح ، والأحاسيس ، والعواطف بوظائفها ؟

إن كل ذلك وغيره قدرة إلهيه ، لا يدرك العقل حقيقتها ، وكنهها ...

نقول لهؤلاء : متى تقفون بالعقل عند طاقته ، وحدوده ؟ ... متى ... ؟ ؟

خامساً : المنكرون للإرهاصات ، والأحاديث يحكمون القرآن الكريم حينما يتصورون تعارض الأحاديث ومرويات السيرة معه، لأنهم لا يريدون تكذيب القرآن ــ كما يزعمون ــ ولكنهم يردون السنة فقط ،حتى يظهروا بمظهر الإنصاف ...

ألم يعلموا أن السنة الصحيحة لها حجة شرعية كحجية القرآن الكريم ؟

يقول النبي " صلى الله عليه وسلم " : **(ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)** .

والأمـــر المهم هنا ، هو سؤالهم لم صدقتكم بالقرآن الكريم وهو وحى صادر عن الغيب ؟ وهل دفعكم تصديق القرآن الكريم إلى الإيمان بما جاء فيه ؟ وقد جاء فيه ضرورة الإيمان بالنبوة ، والوحى ، وتسليم الأمر لله رب العالمين .

إن إنكار الوحي الغيبي إنكار للإسلام كله ، يقول الدكتور / سعيد البوطي : إن الهمس الذى يدعو المسلمين إلى ثورة علمية إصلاحية في شئون العقيدة الإسلامية يستهدف في الحقيقة نسف الإسلام كله ، لأن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، يعني حشـــوه بـــأمور عقلية غريبة عنه، لأن الوحي الإلهي ــ وهو ينبوع الإسلام ومصـــدره ، يعد قمة الخوارق والحقائق الغيبية كلها ، ولا ريب أن الذي يسرع إلى رفض ما جاء في السيرة النبوية من خوارق العادات بحجة اختلافها عن مقتضى سنن الطبيعة ومدارك العلم الحديث، يكون أسرع إلى رفض الوحي الإلهي كله، بما يتبعه، ويتضمنه من إخباراته عن النشور، والحساب،والجنة ، والنار بالحجة الطبيعية ذاها .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج إلى مصلح ، يتدارك شأنه ولا يحتاج إلى إصلاح يغير من جوهره .

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم لـــو كانوا يتمتعون بحقيقته ، وينسجمون مع منطقيته، ولكن أعينهم غابت في غمرة إنبهارها بالنهضة الأوربية الحديثة ، وما قد حف بها من شعارات العلم، وألفاظه، فلم تبصر من حقائق العلم والمنطق إلا عناوينها، وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة إلى فهم كامل لما وراء تلك العناوين، وإلى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات [١] .

سادساً : من الحقائق المسلمة أن عديداً من الأطفال ولدوا يوم مولد محمـــد " ﷺ " لأن هذه من الضرورات المعلومة .

---

[١] فقه السيرة للبوطى ص ٣٩ .

ومـــع ذلـــك فلا تعارض بين كثرة المواليد، وهذه الإرهاصات، لأن القائلين بـ لا يـــتخذونها دلـــيلاً على معرفة الله ، والتصديق بالرسالة ، وإنما يتصورونها رمزاً قـ لإعـــلان جـــزء من القدرة المتحكمة في هذا الكون ، وتهيئة العقول لاستقبال رمز البشرية ، ومحرر الإنسان من ظلمات الطغاة ، وغيث العابثين ، المرسل من الله العز الحكيم .

وحـــين تقـــول ـــ والقول حق ـــ إن أيام مولد النبى " ﷺ " شهدت رمز فـــريداً لا يمكن للعقل تصوره، مع أنه حقيقة ثابتة، وهو هلاك جيش أبرهة بحـ الحصـــى تـــنزل على الرءوس فتجعلها كعصف مأكول ... نعم العقل لا يتصور أ حـــبات الحصـــي الصغيرة تملك قوة فكرية تمكنها من اختراق الرأس، وتقتل بعد تتحرك كل حصاة نحو من تريد قتله ! !، بلا أدنى خطأ وهل يمكن لحصاة صغيرة أ تدبر وتقتل وتفعل كل هذا ! ؟ !.

إنها حادثة فوق مستوى العقل ... ولكنها حدثت لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

وكان حدوثها بعد ميلاد النبي " ﷺ " بخمسين يوماً على الأرجح .

وما الذى يمنع أن تكون هذه الحادثة من إرهاصات المولد النبوى ..

إن القضية في النهاية ليست منهجاً علمياً ، أو عقلياً ، بقدر ما هى قضية إيمان وتسليم .. فالمؤمن يصدق بالخبر إذا اشتمل على صدق روايته ، ويكذبه إذا تأته الرواية صحيحة ، مقبولة، أما غير المؤمن فإنه ابتداء لا يصدق ، وبعدها يبحث عن مبرر يؤيد مقالته وتكذيبه .

سابعاً : الوجود كله خضع ، واستسلم لله تعالى، إلا أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تمرد عن الحق، ولعب به الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ ...

أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

والآية توضح هذه الحقيقة التي يجب أن تعرف معرفة من رأى وشاهد، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. هذه الحقيقة تبين ما يلي :ـــ

١. كل من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، صغيراً أو كبيراً، خاضع ومستسلم لله تعالى .

٢. المخلوقات الكبرى المنتظمة في عملها كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال والشجر، والدواب، خاضعة ، خاشعة لله رب العالمين .

٣. أنقسم الناس إلى قسمين ، **قسم** خشع وخضع لله ، وهو القسم الفائز الناجي أما القسم الثاني فهو قسم متمرد ، ضال، ولذلك حق عليه العذاب ، ووجبت له اللعنة ، ولحقه الهوان ، لأنه مطرود من رحمة الله تعالى .

إن هذه الحقيقة بعناصرها المذكورة تؤكد حاجة الكون إلى التوازن بعودة الإنسان إليه ، وائتلافه معه في حركته ، ونشاطه .

ألا يحق لهذا الكون أن يسعد يوم ميلاد رسول الله " ﷺ "الذى سيبعث لإعادة التوازن بين سائر عناصره ، وليضع الإنسان في إطار الطاعة لله رب العالمين .

يقول الشيخ / محمد متولي الشعراوى : (نقرأ في كتب السيرة أنه حدث في يوم مولده " ﷺ " : أن انشق إيوان كسرى ، وغاضت بحيرة ساوه ، وخمدت نيران فارس .. إلى آخره ، وهذه هي المعروفة بإرهاصات النبوة .

نجد بعض الناس يرددها بأسلوب التأدب مع سيرته " ﷺ " ولكنه لا يتعرض لها بالنفى، أو التأييد، وإن كان يقترب من الرفض ، وربما ذهب بعض الناس الذيـــن

---

[1] سورة الحج آية (١٨) .

لا يريدون الإقرار بهذه الظواهر، أو المعجزات الكونية إلى أن الرسول " ﷺ " ليس في حاجة إلى هذه المعجزات الكونية .

أما وقد وضح أن الرسول " ﷺ " جاء ليعيد إنسجام الإنسان مع الكون الساجد ، وأن كل ما في الوجود يسجد ويسبح لله ، غير أن الجنس البشرى هو الذى يشذ بعضه عن الإجماع في الخضوع والسجود لله ، فإن هذه الظواهر الكونية المخبوة لله، والعابدة له بلغتها كما أثبتها القرآن ليس مستبعداً أن تفرح، وأن تبتهج بمثل هذا المولد ، مولد الإنسان الأعظم " ﷺ " الذى جاء ليعيد إلى الإنسانية رشدها .

فإذا عرضت لنا السيرة أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول " ﷺ " أو حدثت منها أشياء، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسبح لله ، عارف بحق الله ، وأيضاً لسنا نحن المطلوبين بأن نؤمن بهذا ، ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها ، وهم الذين سمعوا عنها ، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم ، ونحن نتلقى عنهم الخبر فإن كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه ، وإن لم يتسع ظننا لتوثيقهم في خبرهم فنحن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق ، ولكن منطق الوجود ، لا يمنع حدوث شئ من ذلك أبداً ، فإذا ذكر أن إيوان كسرى قد انشق ، فماذا في ذلك من الدهشة ؟، وماذا في ذلك من العجب ؟ .

أنستبعد أن يوقت شق الإيوان بالميلاد المحمدى ؟ ولم يكون هذا الاستبعاد ؟.

أننكر على الله أن يطفئ نار فارس التى تعبد من دونه، وأن يوقت ذلك بالميلاد المحمدى ؟ وما سبب الإنكار ؟

أنتصور أن لاتغيض بحيرة ساوة مع الميلاد المحمدى؟، ولماذا هذا التصور ؟ [1] .

ألم ينشق القمر نصفين معجزة لرسول الله " ﷺ " ؟

ألم يفض الماء من بين أصابعه الشريفة " ﷺ " ؟

ألم يحدثه الحجر ، والشجر ؟

---

[1] السيرة النبوية ص ٦٣ .

أم .. ؟ أم .... ؟ أم .. ؟

وقد يرد هنا سؤال :

وهل تدرك الكائنات ؟

نعم الكائنات مدركة عابدة لربها ..

لنقرأ قول الله تعالي حكاية عن سليمان " عليه السلام ": ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾[1] ونقرأ قوله تعالى وهو يحكي حديث النمل والهدهد ، يقول تعالي : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3] ..

ألا يدل ذلك على أن الكون يدرك ، فللطير منطقه ، وللنمل فكره وحذره ، وللهدهد تخطيط ، وفهم ، وعمل .

ثامناً : ونحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود المنبهات الموقظة قبل عرض الشيء الهام ، لينتبه الغافلون ، ويستيقظ النائمون .. وهذه قضية علمية معاصرة.

---

[1] سورة النمل آية (١٦) .

[2] سورة النمل آية (١٨) .

[3] سورة النمل الآيات (٢٠ — ٢٢) .

ألا يدفعنا استيعاب هذه القضية إلى اعتبار أن هذه الإرهاصات جاءت من الله للتنبيه ، وليعلم من يعقل أن لا دوام لمخلوق ، وما يلحقه النقص ، والتغير والزوال ، وكل ما يلحقه العجز ، والهلاك ، والانتهاء ، فهو مخلوق لله رب العالمين .

***

المبحث الثالث

ميلاد اليتيم محمد " ﷺ "

ولـد محمد " ﷺ " يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سن عام الفيل ، بمكة المكرمة، في دار أبيه التي كانت موجودة بشعب بني هاشم ، وقيل : إنه ولد بدار عند الصفا ، كانت لمحمد بن يوسف ، أخو الحجاج ، اشترتها زبيدة زوجة هارون الرشيد، وبنت مكانها مسجداً [١] وهي اليوم بناء صغير ، موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم الشريف ، وبها مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة الحرم المكي.

ومما يدل علي ولادته يوم الاثنين ما روي أن أعرابياً قال : يارسول الله ، ما تقول في صوم يوم الإثنين ؟

قال " ﷺ " : ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو وأنزل على فيه [٢] .

ويشهد لولادته " ﷺ " عام الفيل حديث قيس بن مخرمة الذى قال فيه : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل) [٣] .

يقول محمد بن اسحاق : (ولد رسول الله " ﷺ " يوم الإثنين عام الفيل لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول) [٤] .

كما يروى الترمذى بسنده عن قيس بن مخرمة بن عبد مناف قال : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل ، كنا لدين) [٥] .

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ١٨٤ .

[٢] صحيح مسلم بشرح النوى ــ كتاب الصيام ــ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج ٨ص ٥١.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٧٥ .

[٤] سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ١٧١ .

[٥] سنن الترمذى ــ كتاب المناقب ج٥ ص ٥٨٩ .

وروى عن أبي الحويرث قال : (سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني ، ثم الليثي : يا قباث : أنت أكبر أم رسول الله " ﷺ " . قال قباث : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله " ﷺ " عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل أخضر محيلاً أعقله)[١]

يقول ابن عباس " ﷺ " : (ولد نبيكم يوم الإثنين)[٢] .

وجمهـــور المؤرخـــين ، وعلماء السيرة يجمعون على أن رسول الله " ﷺ " ولد يوم الإثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلع الفجر[٣] .

وقـــد مات أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكانت وفاته بالمدينة عند أخوالــه من بني النجار حيث دفن بدار عدي النابغة ، يقول ابن كثير : (خـــرج عـــبد الله بن عبد المطلب إلى الشام ، إلى غزة ، في عير من عيران قريش ، يحملون تجاراتهم ، فلما فرغوا من تجاراتهم مروا بالمدينة ، وعبد الله يومئذ مريض .

فقـــال : أتخلـــف عند أخوالي بني عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً . ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله .

فقالوا : خلفناه عند أخواله في المدينة وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه ، وأخبره)[٤] ، وكان وقع خبر وفاته على أبيه ، وإخوته مؤلماً .

وكان عمر عبد الله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة على الصحيح[٥] .

---

[١] البداية والنهاية ج٢ ص ٢٦٢ .

[٢] الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

[٣] الســيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ١٩٩ ، وهناك أقوال ضعيفة تشير إلى غير هذا التاريخ لكنها معارضة لما عليه جمهور العلماء ، ومؤلفي التاريخ والسيرة .

[٤] طبقات بن سعد ج١ ص ٦١ ، وهذا رأى الجمهور .

[٥] المرجع السابق ج١ ص ٦١ .

يذهب أغلب علماء التاريخ ، وكتاب السيرة ، إلى أن عبد الله والد النبي " ﷺ " مات ، والرسول حمل في بطن أمه ، يقول ابن إسحاق : (ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله حامل به) [١] ولم يترك عبد الله مالاً يورثه لزوجه ، وولده، اللهم إلا جاريته أم أيمن ، وخمسة جمال ، وقطعة من غنم [٢] .

ولذلك ولد النبي يتيماً ، فقيراً لحكمة أرادها الله تعالى ..

إن اليتم في حد ذاته ، منقصة للوليد ، وبخاصة في مجتمع يفتخر بالأنساب ، والأحساب ، والقبيلة ، والجماعة ، إن الوليد في نشأته بعيداً عن أبيه يعيش منعزلاً ، لا يحسن معاملة الناس ، وينمو ضعيفاً في بدنه ، وسلوكه ، لا يتمكن من مواجهة مصاعب الحياة ، وإذا وجد مع اليتم الفقر ، فإن الصغير يعيش مهملاً ، لا يهتم به أحد ، وإن اهتم به أحد فلتسخيره ، واستغلاله .

من أين لليتيم بأبوة حانية ؟ ! .. تتعهده غلاماً ، وتربيه طفلاً ، وتوجهه شاباً يافعاً ، وتدفعه إلى غمار الحياة رجلاً مسئولاً .

وأين لليتيم من رعاية شاملة ؟ تحافظ عليه في نومه ، ويقظته ، وسكونه ، وحركته ، وراحته ، وعمله ؟ ..

ومن أين لليتيم من ينصره ، ويعينه في مواجهة الخطوب ، والحوادث ؟

فإذا ما انضم إلى اليتم الفقر ، فالنتيجة أسوأ ، وأظلم ..

إن اليتيم الفقير لا ينال التعليم الذى يريده ، ولا يتمكن من نيل الأعمال التى يرغبها ، لأن غيره أسبق إليها منه ، وله من يساعده ، أما اليتيم الفقير فإن الجميع ينصرفون عنه ، ولا يهتمون بشأنه ! ! ! .

ذلك هو منطق الواقع والحياة .

فاليتيم ضعيف ، مهمل ، منعزل ، تؤثر معيشته في خلقه ، وسلوكه ..

---

(١) سيرة النبي ج١ ص ١٥٨

(٢) سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٤٠٠ .

ولذلك كانت وصية الله باليتامى من أجل إسعاد هذا الإنسان ، ليجعل المسلم يراقب الله في معاملتهم ، ويطيع الله في حسن رعايتهم ، والإحسان إليهم .

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ ﴾ [1] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ ﴾ [2] .. ويقول الله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ ﴾ [3] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ ﴾ [4] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [5]

ويقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ ﴾ [6]

ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [7]

...

[1] سورة الضحى آية (٩) .

[2] سورة الفجر الآيات (١٧ ، ١٨) .

[3] سورة الماعون الآيات (١ ، ٢) .

[4] سورة البلد الآيات (١١ - ١٦) .

[5] سورة الأنعام آية (١٥٢) .

[6] سورة الإنسان آية (٨) .

[7] سورة البقرة آية (٢٢٠) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[1] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2] ..

والآيات كثيرة ، والأحاديث معها مبينة ، وشارحة ، وكلها تدور حول الاهتمام باليتيم حتى لا يضيع في مجتمع يهمله .

إن الآيات تدعوا إلى حسن معاملة اليتيم ، وعدم القسوة معه ، وترك دعه وزجره ، وظلمه ، حتى يجد من المؤمنين من يعوضه فقدان الأب والأم ...

كما تدعو الآيات إلى ضرورة المحافظة على مال اليتيم ، وتنميته بالحق والعدل ، والابتعاد عن أكله بالباطل ، أو الاستيلاء عليه بأى وجه من الوجوه .

وتدعو الآيات إلى العمل على إصلاح اليتيم ، والعناية بتربيته ، وتوجيهه نحو الخير والفلاح .

وتدعو الآيات إلى أهمية رعاية اليتيم مالياً، إن كان في حاجة للمال ، حيث الآيات وضحت أن إعطاء اليتيم من المال له أثر كبير على المعطى ، إنه بهذا العطاء يتخلص من العقبة، ويدخل الجنة ، ويشرب السلسبيل ، ويقرب من الله تعالى .

إن الإسلام واجه واقع اليتيم بشريعته العادلة ، لنشر الخير بين الناس أجمعين .

وتعامل مع طبيعة البشر ، ومع ميولهم الفطرية ليترقى بها فى رفق ولين .

هذا في الإسلام .. وبالإسلام وحده .

أما في الجاهلية حيث لا دين ، ولا شريعة ، فإن الأمر يختلف ..

---

[1] سورة النساء آية (٢) .

[2] سورة النساء آية (١٠) .

لكن الأمر مع الأنبياء فى صغرهم له وضعه الخاص ، لأن الله يصطفيهم بعلمه وإرادته ، ويربيهم بقدرته ومعونته .

ومع قدرة الله تعالي تتوقف سنن الكون ، وتنعدم التأثيرات المادية ، ويقف العقل مستسلماً ، مصدقاً ، وليس له إلا أن يؤمن، ويصدق، بعدما يرى المعجزة يحياها المصطفون الأخيار .

هذا هو موسى " عليه السلام " ، ولدته أمه وخافت عليه أن يذبحه فرعون ، فأمرها الله تعالي أن تضعه في صندوق ، وترميه في النهر ، وتترك الأمر بعد ذلك لله .. وتنتظر وهي تتساءل عن مصيره .. وهل سيموت غريقاً ؟ وهل ستأكله الحيتان والأسماك ؟ وكيف يحيا بلا رضاعة ؟ وكيف الطريق لإرضاعه ؟ ..

أسئلة لا يجيب عليها العقل .. لكن مسار القدر مدهش عجيب، وقد أجاب بأوامر إلهي حكيم ، لقد وصل الصندوق إلى بيت فرعون ، واتخذ فرعون وزوجته موسى ولداً لهما ، وأعاداه لأمه فأرضعته ، ثم سلمته لفرعون يربيه تربية ملكية خاصة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [1]

من كان يتصور أن الإلقاء في اليم هو سبب النجاة ؟ ومن يعقل أن فرعون الذي يحذره هو الذي ربي موسى " عليه السلام " ؟ وخلصه من الضعف ، واليتم ، والحاجة . وهكذا الأنبياء جميعاً ! ! !.

— أين تربي يوسف " عليه السلام " ؟ وهل رباه أبوه مع أنه كان حياً يرزق ؟ !

— وكيف ولد عيسى " عليه السلام " ، وتربى ، وليس له أب أصلاً ؟ !

إن الأنبياء صناعة ربانية ، ولذلك يوجدهم الله في قوالب معينة ، بعلمه ، وحكمته ، ومشيئته .

---

[1] سورة القصص آية (٦) .

ومن هنا كان في يتم محمد " ﷺ " حكمة يريدها الله تعالى ، ويتفضل بها على رسوله الأمين " ﷺ " ..

يجمل الله تعالى هذا التفضل على محمد " ﷺ " بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ ﴾[1] حيث يشير إلى أن محمداً " ﷺ " ولد في رعاية الله تعالى ، برغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل ، فأحبه كل من رآه ، بدءاً بمراضعه ومروراً بمن شاركهم في طفولته، وشبابه، ورجولته .

فهو إيواء يتضمن الرعاية ، والاهتمام ، والمعاملة ، والتضحية في مودة صادقة أغنت محمداً " ﷺ " عن رعاية الوالد الحنون .

وفى ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً إشارة إلى بعض الحكم الإلهية ، التي يمكن استنباطها في العصر الحديث ، ومن أهم الحكم المستنبطة ما يلى :ـــ

١. أراد الله تعالى أن ينشأ محمد " ﷺ " محاطاً بالرعاية الإلهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده في الدنيا،وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه ، أو أمه، أو بتأثير ماله وغناه ،.. ولو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه ، ولداته، لأدركوا شيئــاً عن هذه العناية الإلهية بمحمد " ﷺ " .

٢. في ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً رد لأى شبهة يمكن أن يختلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا : إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه،أو من أمه ، حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم ، وعاداتهم ، واهتماماتهم في أبنائهم ، بل إن الابن يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه ، ويجتهد في حمل فكره ، ومذهبه .

لقد زعم كفار مكة أن محمداً " ﷺ " يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب قالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ

---

(1) سورة الضحى آية (٦) .

ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾ [1] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [2] .

لقد بحث كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله " ﷺ " ليزعموا أنه مؤلف الوحي ، وأن محمداً يأخذ منه ، وقد بين الله كذبهم ، وضلالهم فيما يزعمون.

فلو كان عبد الله والد النبي حياً ، لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده ، وأن الوحي من كلامه ، وتأليفه ... لكن الله تعالي قطع عنهم هذا الطريق بوفاة عبد الله ، وميلاد محمد بعد وفاته .

٣ ــ في ولادته " ﷺ " يتيماً تأكيد لحقيقة غائبة عن الكثير من الناس ، وهي أن الأمور كلها بقدرة الله تعالي ، وليس للإنسان في عمله إلا الكسب والنية ، والله خالق كل شئ .

ولو عقل الناس لعاشوا مؤمنين حقاً ، عن اقتناع ، ورضي ، ولسلموا بالقدر ، وعاشوا مؤمنين .

إن العقل سوف يتساءل أسئلة توصل إلى اليقين،والإيمان، ومن هذه الأسئلة :ــ

- من أين وجد الإنسان ؟ ومن يقدر على هذا الإيجاد ؟
- هل يمكن تصور المستقبل من ناحية الصحة ، والغني ، والسعادة أم أن ذلك مجهول أمام الإنسان ؟
- هل تجرى الأحداث وفق تقدير العقل ، أم أن أحداث الحياة تجعل العقل عاجزاً عن تفسير اتجاهاتها غالباً ؟

---

[1] سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

[2] سورة النحل آية (١٠٣) .

- هل الإنسان يعلم ظواهر الأشياء ، وبواطنها ، أم ماذا ؟

إن النظر في هذه القضايا تدفع الإنسان إلى التسليم بقدرة الله تعالى ، وحين نقارن محمداً " ﷺ " بسائر الناس مع إدراك يتمه ، وفقره، نتأكد أنه صناعة قدرية ، ربانية ، والعلم هذه الحقيقة يشير إلى بعض أسرار يتم محمد " ﷺ " ..

إن الحكمة الإلهية التي أحاطت بمحمد " ﷺ " أحاطت بكافة جوانب مولده " ﷺ "

فبالنسبة للأشخاص الذين أحاطوا به ، وجرياً على أن للإنسان من اسمه نصيباً، نرى أنهم مثلوا مع محمد عدة معان نبيلة ، فمن أمه آمنة كان الأمن والهدوء ، ومن قبلته الشفاء كانت العافية والصحة ، ومن حاضنته أم أيمن كان اليمن والبركة ، ومن مرضعته حليمة السعدية الحلم ، والسعد ، ومن جده العبودية ، ومن عمه التوجه إلى القادر والطلب منه ، وكأن الله تعالى أوجد في حياة محمد " ﷺ " هذه المسميات لتتحول في حياته إلى خلق وسلوك .

وبالنسبة لتسميته فلقد ألهم الله جده عبد المطلب حين أخبرته السيدة آمنة بوضع حملها أن يسميه محمداً .

يقول السهيلي : (سئل عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟

فقال : محمداً .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك .

فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

وكـــان ذلـــك لرؤيا كان رآها في منامه، كأن سلسلةمن فضة،خرجت من ظهره، لها طرف في السماء،وطرف في الأرض،وطرف في المشرق،وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب، كأنهم يتعلقون بها ، فقصها،فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً .

وذكروا أن أمه حدثته بأنه قد قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمـــة ، فإذا

وضعتيه فسميـــه محمداً) [١] .

وكان النبي " ﷺ " يذكر فضل تسميته محمداً ويقول : (**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمماً ، وأنا محمد**) [٢]

يقـــول القاضي عياض : (وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً، وأحمد ، فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه ، فطوي أثناء ذكره عظيم شكره ؛ فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد، وتكرره فهو " ﷺ " أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين ، وأحمـــد الحامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتم له كمال الحمد، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد ، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده ؛ يحمده فيه الأولون والآخرون ، وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته ، ومن أن الله عز وجل حمى اسمه أن يسمي بهما أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أتي في الكتب،وبشرت به الأنبياء،فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى أحد غيره،ولا يدعي به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب، أو شك.

وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده " ﷺ " وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمي قوم من العرب أبناءهم بذلك، رجاء أن يكون أحدهم،وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعة السلمي ، لا سابع لهم ، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره حتى تحققت السمتان (الحمد والثناء) له " ﷺ " ولم ينازع فيهما) [٣] .

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ١٨٢ .

[٢] صحيح البخاري ج٦ ص ٤٣٥ .

[٣] الشفا للقاضي عياض ج١ ص ٢٢٩ ـــ ٢٣١ .

وبالنسبة لولادته يوم الاثنين فإنه كان لارتباط هذا اليوم بعدد من الأفعال الخيرة التي قدرها الله لكونه المخلوق في هذا اليوم ، فلقد ورد الحديث من أن الله تعالي خلق الشجر يوم الاثنين ، يقول بن عباس " ﷺ " : **(ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبئ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وفتح مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين)** [٢] ، وفي ذلك إشارة إلى ارتباط الحوادث العظيمة بيوم الاثنين ، ومنها مولده " ﷺ " ..

إن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه ، والخيرات التي يمتار بها بنو آدم، ويحيون ويتداوون، وتنشرح صدورهم لرؤيتها، وتطيب بها نفوسهم، وتسكن خواطرهم ، لتحصيل ما يبقى حياتهم ، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالي ، كل ذلك كان في يوم الاثنين ، فولادته " ﷺ " في هذا اليوم إشارة إلى ما وجد من الخير العظيم والبركة الشاملة للناس أجمعين ببعثته " ﷺ " [٣] .

وبالنسبة لولادته في شهر ربيع الأول فلم في هذا الشهر من خيرات تتوافق مع خيرات مجيئه إلى الدنيا ، حيث الازدهار ، والجدة ، والحسن ، والنفع العام .

ففي الربيع تبدو خيرات الله تعالي في الكون ، حيث ينبت الزرع ، ويفيض الضرع ، ويأتى الحب والنوى ، وتنتشر الخضرة الجميلة فى ربوع الأرض كلها ، وفى السهول والجبال ..

والجو في الربيع معتدل المناخ لا حرارة فيه ، كما تقل فيه العلل والأمراض بفضل الله تعالي .

وفى مجئ محمد " ﷺ " ومبعثه تحقيق لهذه المعاني ، فلقد أتى " ﷺ " بما يسعد الناس في الدنيا والآخرة .. ورسالته " ﷺ " قائمة على الاعتدال ، والاستقامة، دائمة العطاء ، شاملة لكافة الخلق ، سهلة ، ميسرة .

---

[١] الفتح الرباني ج٢٠ ص ١٨٩ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٤٠٦ .

وبالنسبة لميلاد المصطفى في عام الفيل ، لأنه " ﷺ " ولد قبل ...
الحادثة بخمسين يوماً فمن أجل أن يدرك الناس أن قدرة الله الغائبة عنهم تفعل كل
موجود ، وكل ما في الكون قدر إلهي محض ، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون
حتي إذا جاءهم محمد " ﷺ " علموا أنه المبعوث لهم من الله تعالي .

ومن أين للناس أن يدركوا هذه الأسرار في يوم مولده " ﷺ " ؟

إن هذه الحكم، وهذه الأسرار لم ترتبط وقتها في أذهان من رأوها ببعثة محمد " ﷺ "
ورسالته ، ولا يراد منها ذلك ، ويكفي أنها تحرك الأذهان نحو عدم تأليه من يزول
ويتغير مثل النار المنطفئة، أو البيوت المكسورة ، أو الأصنام المهتزة ، وليتأكدوا
وجود قوة قاهرة تحقق أعمالاً، لا يقدر عليها الناس ، ولا يمكنهم تفهم أسرارها .

وذلك أثر ممكن الحدوث ، وبخاصة أن أهل الكتاب ، وحكماء العرب كانوا
يؤمنون ببعث نبي بشرت به الكتب المنزلة، يقول الله تعالي : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[1]
ويقول سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ
فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[2]

يقول ابن كثير: يخبر الله تعالي أن أهل الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون
أبناءهم، ويعرفون أنه صادق، وقد جاء وصفه مكتوباً مدوناً في التوراة والإنجيل، ومن
أساسيات دعوته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث

---

[1] سورة البقرة آية (١٤٦) .

[2] سورة الأعراف آية (١٥٧) .

[1] تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ بتصرف .

إن العالم كله قبيل بعثة النبى " ﷺ " ، وقبيل مولده كان في انتظار رسول جديد يجمع العالم على الحق ..

وعلى هذا فإن حدوث الميلاد محاطاً بهذه الحكم ، يمثل عوامل تصديق رسالة الرسول بعد مبعثه ، وتعد دوافع إيمانية للعقلاء الذين يعرفون أن النبوة صناعة ربانية ، ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحو خارق لعادة الناس .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .

***

المبحث الرابع

محمد " ﷺ " في

ديار بني سعد

بعدمـــا وضعت السيدة آمنة بنت وهب حملها أرسلت إلى جده عبد المطلب وأخـــبرته بولادة حفيده ، فسر به كثيراً ، وأخذه ودخل به الكعبة ، ودعا له ، وسمـــاه محمـــداً ، فلما سئل عن سبب هذه التسمية مع أنها لم توجد في آبائه أو أقربائه ، قال : أردت أن يحمد في السماء عند الله ، وفي الأرض عند الناس [١].

يذكر السهيلي أن التسمية كانت لرؤيا رآها عبد المطلب توافقت في دلالتها مع ما حدثته به أمه " ﷺ " [٢].

يروى ابن عساكر أن عبد المطلب سر بولادة محمد كثيراً،وعق عنه بكبش، وقد عاش الوليد في كنف أمه سبعة أيام أرضعته فيها ومعها قابلته" الشفاء "، وفرح أعمامه بميلاد ابن لأخيهم الذي فقدوه صغيراً ، لدرجة أن أبا لهب أعتق جاريته ثويبة عندما أخبرته بميلاد محمد " ﷺ " ، فذهبت إلى أمه"آمنة" ، وأرضعته معها [٣].

أقبلـــت آمنة على وليدها بالحنان، والرفق، في انتظار مرضعة تستلمه لتتولى تربيـــته في البادية ، حيث الخلاء الواسع ، والطبيعة الجميلة ، وبساطة الحياة وفطرة الـــناس ، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم ، لمرضعات من البادية لقاء أجر ، ورزق .

وأتفق أن جاءت المراضع من بني سعد يلتمسن أبناء الأغنياء ، طمعاً في الرزق والبر ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) الروض الأنف ج١ ص ١٨٣ .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح الباري ـــ كتاب . النكاح باب . ما يحرم من الرضاع ج٧ص ١٢ ، وثويبة التي أرضعت عمه حمزة ، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ليكون لهما أخ في الرضاع .

ومروا جميعاً على آمنة، فرأوا ولدها يتيما، فقيراً، فتركنه لقلة الأجر، وضآلة العطاء المنتظر من يتيم فقير .

ووجـد النسـوة عند أبناء الأثرياء ما يأملون، ماعدا حليمة السعدية، فإنها كانت فقيرة ضعيفة ، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائهم ، فلبنها قليل ، وجسدها نحيل ، وأتانها هزيل ، والفقر باد عليها، فانصرفوا عنها إلى غيرها .

ووجـدت حليمة نفسها مضطرة لأخذ محمد " ﷺ " حتى لا تعود لديارها خاوية الوفـاض ، فكان في أخذها له الخيرة والبركة، وظهر ذلك فى كافة جوانب حياتها ، وأسرتها ، ونعمت بهذا الخير هى وقومها بعد ذلك .

وحليمة هى بنت أبى ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن سعد من هوازن ، وتعرف بحليمة السعدية ، وكنيتها أم كبشة .. وزوجها هو الحارث بن عبد العزي بن رفاعة من هوازن كذلك، ويكنى بأبى كبشة .

وقد شرفها الله تعالي بإرضاع محمد " ﷺ " ، فصارت له أماً ، وصار زوجها له أباً ، وصار أبناؤها إخوته وهم ، عبد الله بن الحارث ، وحفص بن الحارث ، وأمية ابـن الحارث ، والشيماء، وهى خذامة بنت الحارث ، وقد أكرمها الله تعالي، ففاض الخير في كـل جوانب حياتها ببر كته " ﷺ " ، رغم أنها لم تكن راغبة فيه ، ولولا انصراف الوالدات عنها ما أخذته .

تحكـي حليمة قصتها مع رضاعة رسول الله " ﷺ " فتقول : خرجت في نسـوة من بني سعد بن بكر ، نلتمس الرضعاء بمكة ، على أتان لى قمراء قد أدمت بالركـب ، وخرجنا في سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئاً ، ومعي زوجى الـحارث بن عبد العزي ، ومعنا شارف لنا، والله إن يبض علينا بقطرة من لبن ، ومعي صبى لي ما نـام ليلنا أجمع ، من بكائه من الجوع ، مافى ثديي ما يمصه ، وما فى شارفنا من لبن

تغذوه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفـــرج ، فخرجت على أتاني تلك ،فشق ذلك علينا ضعفاً ، وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فمـــا منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله " ﷺ " فتأباه،وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة،من والد المولود ، فكنا نقول يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه ؟وما يصنع جده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً .

قال : لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت إلى رحلي [1] .

وقـــد رأت حليمة فضل الله عليها عقب عودتها إلى رحلها بمحمد " ﷺ " تقـــول : (فلما وضعته في حجري ، أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي .

ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا لبنها حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا ليلتنا تلك بخير ليلة شباعاً، رواءاً وقد نام صبيانا .

يقـــول أبوه ـــ يعني زوجها ـــ والله يا حليمة ما أراك إلا أصبت نسمة مباركة، قد نام صبيانا ورويا .

فقلت : والله إني لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتاني ، وحملته عليها معي ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟

---

[1] مع الرسول ص ١٨٩ .

فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي هي .

فيقلن : والله إن لها لشأناً .

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا ، وتروح أغنامهم جياعاً هالكة ما بها من لبن ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، كان " ﷺ " يشب في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة فبلغ ستاً وهو غلام جفر) [(١)] .

إن رعاية الله تعالي مستمرة مع رسول الله تعالي،وها هي بركاته تحل بحليمة حيث أخصبت أرضها الجدباء،ودر لبن إبلها الجاف،وصارت ترى النعيم في كل شئونها .

وقد أجمع مؤرخو السيرة على رواية ما حكته حليمة عن قصة إرضاعها محمداً " ﷺ " وهي بما روت تضيف فصلاً جديداً من تكريم الله لعبده ، ورسوله محمد " ﷺ " ..

ولما بلغ عمره " ﷺ " سنتين فصلته حليمة ، وعادت به إلى أمه في مكة ..

ويرجع السبب في عادة أثرياء مكة إرضاع أولادهم ، وتنشئتهم في البادية إلى أمور نتلمس بعضها فيما يلى : ـــ

(١) تتميز البادية بالنقاء والصفاء ، حيث الخلاء الواسع ، والفضاء الرحيب ، وهذا يساعد في اتساع الأفق ، وبعد المدارك ، ويؤدى إلى هدوء الطبع ، واستقرار النفس ، فالناس في البادية يعيشون بين الخضرة اليانعة ، والطبيعة الخلابة ، مع الطمأنينة ، والهدوء ، فلا اشتغال لهم بقضايا السلطة والإدارة ،

---

(١) مع الرسول ص ١٨٩ .

ولا عناء معهم في السعي والتجارة ، ولا تعب في الترقي والصناعة حياتهم الرتيبة تصنع الهدوء ، والاستقرار .

(٢) تصنع البادية من أبنائها رجالاً يعتمدون على أنفسهم ، فليس لهم جيش يحميهم ، ولا رجال أمن يحرسونهم ، وإنما يعتمد كل على نفسه ، وبالتالي ينشأ البدوي على الجرأة والشجاعة ، ويتعود الإقدام ، وعدم الخوف ويعتمد البدو على أنفسهم في الدفاع ، والنصرة ، والحماية .

(٣) يعيش أبناء البادية في مجتمع مغلق ، لا يأتيهم غريب ولا يعيش بينهم أجنبي وهذا الوضع ساعدهم على المحافظة على الفطرة الطبيعية ، واللغة الفصيحة والنسب الصريح ، والقوة البدنية ، في ترابط الأقارب ، ومودة المحبين .

إن الآباء قصدوا تربية أبنائهم في البادية لينشأوا أقوياء البنية ، فصحاء اللسان حسني الأخلاق ، يتميزون بهدوء الطبع ، وشجاعة السلوك ، وحب التعاون والتودد وتلك عوامل أرادها الله لرسوله " ﷺ " فأرضعته حليمة السعدية ونشأ في ديار بني سعد ، ليستفيد بما أراده الله له .

عادت حليمة السعدية بمحمد إلى أمه السيدة آمنة بعد تمام إرضاعه ، وفصاله وذلك على عادة سائر المراضع مع أبنائهن ، ولم تكن حليمة سعيدة بعودته لأمه لأنها تخاف توقف الخير الذى تدفق عليها ، تقول حليمة : (**فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نري من بركته**)[1] .

عرضت حليمة على آمنة أن تعود بمحمد " ﷺ " إلى ديارها مرة ثانية لتستمر بركته ، ولتبتعد به عن وباء كان بمكة يومذاك ، فوافقتها آمنة ، وأعادته معها مرة ثانية إلى ديار بني سعد ، وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة ، وأملت أن يزداد محمد نضارة ، وازدهاراً ، ونمواً في بدنه وعقله ، وشخصيته ، ليشب رجلاً له قدره ومنزلته

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ .

ويقوم بدوره مع جده وأعمامه ، وقومه .

وأخذتـه حلـيمة وعـادت به سعيدة مرة ثانية ، وفرحت بذلك ، إلا أنها اضطرت إلى إعادته لأمه حين بلغ عمره خمس سنوات وشهراً ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين ، **الأولى** : بعد تزويجه " ﷺ " خديجة ، **والثانية** : يوم حنين ، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالي .

وكانت آمنة قد أوصت حليمة بمحمد ، وعرفتها بما حصل معها ، في حملها وولادته، وبينت لها ما رأت، وما شاهدت من كرامات صاحبت مولده، وقالت لها : احفظي ابني هذا ، واحذري عليه الرهبان ، والكهان ،.

تقول حليمة : مر بي بعض اليهود فقلت لهم : ألا تحدثوني عن ابني هذا ؟ ! فإني حملته كذا"، ووضعته كذا" ، ورأيت كذا ! كما قالت أمه .

تريد حليمة بذلك أن تعرف شيئاً عن الأسرار المتصلة بهذا الغلام المبارك .

تقول حليمة : لما رآه اليهود ، قال بعضهم لبعض : اقتلوه .

وسألوها : أيتيم هو ؟

فقلت لهم : لا ، هذا أبوه ، وأنا أمه .

فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه .

فذهبت به حليمة وقالت : كدت أخرب أمانتي [١] .

يقـول ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن الذى أهاج أمه السعدية على إعادته لأمه أن نفراً من نصاري الحبشة رأوه معها ، حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكـنا ، وبلدنـا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره .. يقول ابن إسحاق : إنها لم تكد تنفلت به منهم [٢] .

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ٧١ .

[٢] سيرة النبى ج١ ص ١٦٧ .

وعاد محمد " ﷺ " إلى أمه ليبدأ مرحلة جديدة من قومه وعشيرته ..

وفاء النبي لأيام حليمة :

عـــاش النبي " ﷺ " أيامه الأولى عند حليمة السعدية ، ونما جسده فلينها وصفا لسانه بلغات بني سعد ، وصاحب عديداً من الناس .

وعاش محمد ، وهو في ديار حليمة ، مع قبيلة بني سعد ، حيث أحبه كل من رآه ، وأحاطوه بالرعاية الحسنة ، والتكريم الجميل .

وحفظ " ﷺ " لحليمة وأسرتها هذا الجميل ، وكان يذكره ، ويشيد به .. يقول النبي" ﷺ ": (**أنا أعربكم، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد**) [١]

يقـــول محمد بن المنذر : استأذنت امرأة على النبي " ﷺ " كانت أرضعته، فلما دخلت عليه ، سر بها، وقال : أمي ، أمي ، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه [٢] ، وعرف أصحابه بأنها حليمة .

يروى ابن سعد بسنده أن حليمة قدمت على النبي " ﷺ " بمكة بعد زواجه خديجة " رضى الله عنها " ، وشكت إليه جدب البلاد ، وهلاك الماشية ، فكلم رســول الله " ﷺ " خديجة في شأنها ، فأعطتها أربعين شاة ، وبعيراً ، وانصرفت لأهلها[٣] .

وأخـــرج أبو داود بسنده عن ابن الطفيل " ﷺ " قال : (**رأيت رسول الله يقسم لحماً بالجعرانة ـــ وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور ـــ إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : هذه أمه " ﷺ " التى أرضعته**) [٤] .

---

[١] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـــ كتاب المناقب ـــ باب في حليمة ج٩ ص ٤١٥ .

[٢] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٣ .

[٣] المرجع السابق ج١ ص ١١٤ .

[٤] سنن أبي داود ـــ كتاب الأدب ـــ باب في بر الوالدين ج٢ ص ٦٣٠ .

وهكذا كان تقدير النبى " ﷺ " لمرضعته حليمة ، وفاء لحقها ، وبراً بأمومتها وتكريماً لوفادها .. لم ينسه تغير الحال ما أسدى له من جميل ..

ولم يتصور أن ما أخذته من أمه أجراً كافياً في حقها ، بل كان " ﷺ " يقدر زوجها، وأبناءها ، فهم أبوه، وإخوته، في الرضاعة ، أخرج أبو داود عن عمر ابن الحارث أن عمر السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله " ﷺ " ، كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله فأجلسه بين يديه [١] .

وبعد فتح مكة كانت غزوة حنين ، وأسر النبي " ﷺ " عدداً من هوازن قبيلة حليمة ، فجاء وفدهم إلى رسول الله " ﷺ " وهو بالجعرانة لفك أسراهم ، وكان رأس القوم ، والمتكلم فيهم "أبو صرد زهير بن صرد" فقال : إن في هذه الحظائر (مكان الأسري) أخواتك، وعماتك، وخالاتك، وبنات عمك، وبنات خالاتك وأبعدهن قريب منك ، بأبى أنت وأمي ! إنهن حضنك في حجورهن، وأرضعنك بثديهن ، وتوركنك على أوراكهن وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله " ﷺ " : إن أحسن الحديث أصدقه، وعندى من ترون من المسلمين أفأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟

فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا، وأموالنا ، وما كنا لنعدل بالأحساب شيئاً فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال النبى " ﷺ " : أما ما لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ؛ فإنى سأقول لكم :ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٤.

لكم الناس فلما صلى رسول الله " ﷺ " ، الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي قال لهم رسول الله " ﷺ " ، فرد عليهم رسول الله " ﷺ " ، وقال لهم : ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وهنا تأثر المهاجرون ، والأنصار ، وقالوا مثل ما قال رسول الله " ﷺ " ، ثم اتفقوا على قول واحد وقاموا بتسليم الوفدجميع ما أخذوا، وهم راضون ، سعداء ، وأطلقوا سراح ما في أيديهم من سبي هوازن إلا قوماً تمسكوا بما في أيديهم فأعطاهم الرسول " ﷺ " إبلاً عوضاً عن ذلك ، وفك أسرهم جميعاً [١] .

إن الإنسان العظيم لا ينسي جميلاً أسدي إليه، أو أسدى لأحد من صحابته ، ودائماً يحفظ الفضل لأهله ، وعلي رأس العظماء رسول الله " ﷺ " الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، لقد تذكر جميل آل حليمة في وقت عسرهم ، وضعفهم فما خذلهم وما أهانهم ... بل أكرمهم جميعاً ، وأعادهم إلى ديارهم أحراراً .

وهكذا حافظ رسول الله على الخلق الكريم،فوفى لحليمة "رضى الله عنها "يوم أتت إليه، وأكرم أهلها وقومها " ﷺ "، يوم أن وقعوا أسرى عند المسلمين ، وقد أسلموا بعد ذلك ، وحسن إسلامهم . .

***

---

[١] الطبقات الكبرى ج٨ ص ١١٥ .

المبحث الخامس

شق الصدر

وتتواصـل إرهاصات النبوة مع رسول الله "ﷺ" وهو عند حليمة بعد عودته معها مرة ثانية،ومن هذه الإرهاصات حادثة شق الصدر، الثابتة بالروايات الصحيحة .

يـروي مسلم بسنده عن أنس بن مالك " ﷺ " : (أن رسول الله " ﷺ " أتـاه جـبريل " عليه السلام " وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـــ يعني : ظئره ـــ فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره)[١] .

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله " ﷺ " .

قالوا له : يارسول الله ! أخبرنا عن نفسك .

قال : نعم،أنا دعوة أبي إبراهيم،وبشرى أخي عيسى،ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام .

واسترضـــعت في بني سعد بن بكر،فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا،إذ أتاني رجلان ـــ عليهما ثياب بيض ـــ بطست من ذهب،مملوء ثلجاً،ثم أخذاني فشقا بطني،واستخرجا قلبي فشقاه،فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي،وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه،ثم قال أحدهما لصاحبه:زنه بعشرة من أمـته،فوزنني بهم فوزنتهم،ثم قال:زنه بمئة من أمته،فوزنني بهم فوزنتهم،ثم قال زنه بألف من أمته،فوزنني بهم فوزنتهم،فقال:دعه عنك ،فو الله لو وزنته بأمته لوزنها)،

---

[١] صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب الإسراء ج١ ص ٣٩٢ .

وإسناد هذا الأثر جيد قوى [١] .

ويروي أحمد وأبو نعيم في الدلائل عن عتبة بن عبد : أن رجلاً سأل النبي " ﷺ " فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟

قال : كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْم لنا ، ولم نـأخذ معنا زاداً ، فقلت : يا أخي ! اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي وكنت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟

فقال : نعم ، فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني للقفا ، فشقا بطنى ، ثم استخرجا قلـبي فشـقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء وثلج ، فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد ، فغسلا به قلبي ، ثم قال : ائتني بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خِطه ، فخاطه ، وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة ، واجعل ألفاً من أمته في كفـة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق ، أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا فتركاني ، وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمـي (حليمة)فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بي ، فقالت أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها ، وحملتني على الرحل ، وركبت خلفي ، حتى بلغنا إلى أمـي ، فقالـت : أديت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي لقيت ، فلم يرعها وقالت : إني رأيت نوراً خرج مني أضاء قصور الشام) [٢] .

وقـد تناولـت كتب السيرة حادثة شق الصدر ، فهي في سيرة ابن هشام وطـبقات ابـن سـعد ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، والبداية والنهاية ، والخصائص

---

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٥ ورواه الحاكم وصححه .

(٢) تهذيب ابن عساكر ج١ ص ٣٩ والحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

الكبرى للسيوطي ،ودلائل النبوة للبيهقى ، وسير أعلام النبلاء ، وسائر المؤلفات الحديثة ، وأشارت إليه بعض كتب التفسير ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾ [١] ، وعند تفسير أول الإسراء .

وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله " ﷺ " منذ الطفولة المبكرة ، تكررت معه بعد ذلك أكثر من مرة ، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن عساكر ، عن أبي بن كعب أنا أبا هريرة سأل رسول الله " ﷺ ":يا رسول الله ! مـــا أول ما رأيت في أمر النبوة ؟

فقال النبى " ﷺ " : إنى لفي صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ ، قال : نعم ، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما هامساً ، فقال أحدهما للآخر : أضجعه ، فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم، ولا وجع ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة،فإذا مثل الذى أدخل يشبه الفضة،ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال : اغد وأسلم،فرجعت بها أغدو رقة على الصغير،ورحمة للكبير، وهذه هي المرة الثانية .

وتكررت مرة ثالثة قبيل البعثة ، يروى أنس بن مالك ويقول : لما حان أن ينبأ رسول الله " ﷺ " كان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها فأتاه جبريل وميكائيل ، فقالا بأيهم أمرنا ، فقالا أمرنا بسيدهم ، ثم ذهبا وجاءا من القابلة وهم ثلاثة ، فألفوه وهو نائم فقلبوه لظهره ، وشقوا بطنه ، ثم جاءوا بماء زمزم فغسلوا ما كان فى بطنه ، ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً وحكمة

---

[١] سورة الشرح آية (١) .

فملئ بطنه وجوفه إيماناً وحكمه [١] .

وتكررت مرة رابعة لما جاوز النبي " ﷺ " الخمسين من عمره ، فعن مالك ابن صعصعة أن رسول الله " ﷺ " حدثهم عن ليلة أسري به ، قال : (بينما أنا في الحطيم ـــ أو قال في الحجر ـــ قال : فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم أحشائي ،ثم أعيد ..) [٢] .

وقصة شق الصدر هذه تشير إلى تعهد الله ـــ عز وجل ـــ نبيه " ﷺ " منذ صغره ، وعلى امتداد عمره " ﷺ " وإبعاده عن مزالق الطبع ، ووساوس الشيطان ، وتلك حصانة حسية للرسول الكريم أضفاها الله عليه ، ليعيش طاهر الظاهر والباطن بتوفيق الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى ـــ وقد شاءت إرادته ـــ منذ الأزل ـــ أن يكون محمد خاتم المرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الأعلى، للإنسان السوي، الذي يسمو نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس .

ولما شب رسول الله " ﷺ " كانت مكة تعج بمختلف أنواع اللهو، والفساد والملاذ الشهوانية الدنسة .

كانت حانات الخمر منتشرة ، وبيوت الريبة وعليها علامات تعرف بها ، ووجود المغنيات ، والماجنات ، والراقصات ، من الأمور العادية الموجودة في ذلك المجتمع تتوجها عبادة الأصنام والأوثان .

وكان المجتمع المكي يومذاك يقر ذلك ، ويعتبره جزءاً من حياة الناس ..

والله سبحانه وتعالي برأ رسوله ، واختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم اختاره لحمل أكمل رسالات السماء إلى أمم الأرض ، ولذلك أحاطه بكل أنواع الرعاية والحفظ .

---

[١] حجة الله علي العالمين ص ٢٧٢ .

[٢] أخرجه مسلم ، واحمد ج٣ ص ١٢١ ، والحاكم ج٢ ص ٦١٦ .

وأحاديث شق الصدر صحيحة بالسند ، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة فلا مجال للشك في سندها .

وأحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله " ﷺ " بعد مبعثه، فهي بذلك من الوحي المنزل على رسول الله " ﷺ " الذى لا ينطق عن الهوى أبداً .

ولا يصح لمسلم أن يشكك في هذه الروايات الصحيحة ، ويدعى أن محمداً قال بها، وهو طفل صغير لا يتحمل الرواية .

إن شق صدر النبي " ﷺ " كان لإخراج حظ النفس، والشيطان من قلبه ، لقد كان بوسع القدر الإلهي أن يضع في محمد ما يشاء الله له من فضل، وخير، بصورة معنوية ، غير مدركة بالحواس ، لكن الله أراد له هذه الصورة الحسية، ليشهد الناس على هذه العجيبة الخالدة التي جعلت من محمد إنساناً قوياً ، شجاعاً ، طاهراً ، نظيف الظاهر والباطن ... ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي أو غدة معينة ، لأن هذا مما يستحيل تحديده .

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق صدر محمد " ﷺ " من عناية الله به ليترقى في الطهر ، ويسمو في السلوك ، ويعلو في روحانيته وشفافيته ، ويقترب في نورانيته من الروح ، والملأ الأعلي .

ومن العجب أن رأينا من ينكر حادثة شق الصدر من العلماء المسلمين ، فها هو الدكتور / محمود مراد يتحدث عن طفولة النبي " ﷺ " وشق صدره وغيرها من الإرهاصات فيقول : (يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع ، في قصص ساذجة لا تشبه ما ورد في النص من أحاديث محكمة عن عبد المطلب)[1] .

فشق الصدر في رأيه كلام ساذج يتضمن أعجوبة لا يتصورها الواقع ، ولا يسلم بها ، فهي عنده قصة مردودة .

---

[1] محمد رسول الله " ﷺ " للدكتور / محمود مراد ص ٤١ .

والدكتور / محمد حسنين هيكل يرد حادثة شق الصدر بضعف السند ، وبأن محمد رواها وهو طفل صغير ، وبأنه لا حاجة إليها في إثبات الرسالة ، وبأن الإسلام أقام دعوته على العقل الذى يتعارض مع تصور هذه الحادثة [١] .

والمنكرون لشق الصدر فريقان ، **فريق** ينكره إنكاراً تاماً ، ويبحث عن مبررات تؤيد إنكاره ، فإن كان مسلماً يذهب إلى ضعف سند روايات شق الصدر ، وعدم تحمل الصغير للرواية ، وإن لم يكن مسلماً لجأ إلى التحليل العقلي والواقع التجريبي ليصل الجميع إلى إنكار وقوع شق الصدر ، ويرى هذا الفريق أن شق الصدر ليس ضرورياً ، لأن الله قادر على إنفاذ ما يرى؛ بدون هذه التصورات المزعومة ، وبخاصة أن حظ الشيطان في النفس لا يسكن في عضو ما ، وإنما هو يجرى في الجسد كله مجرى الدم .

والفريق الثانى ينظر إلى حادثة شق الصدر ، ويري صحة الأحاديث الواردة التي يؤكدها قوله تعالي : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ فقد نزلت هذه الآية لتأكيـــد شق الصدر كما يقول الإمام الخازن في تفسيره [٢] ، ولذا يبحث عن مخرج لإنكاره بعدما سلم بصحة أحاديث شق الصدر .

رأى هذا الفريق صحة الأحاديث ، وعلم أنها كانت بعد البعثة، إذ تحدث به " ﷺ " حين سئل عنها،فذهب إلى تأويل شق الصدر،بأنه يعني التطهير المعنوي لرســـــول الله " ﷺ " .

إن حادثة شق الصدر وقعت بصورة حسية،وتكررت مع رسول الله " ﷺ " والروايات الصحيحة تؤكد ذلك ، فقد جاء فى بعضها : فشق من النحر إلى مراق البطن .

---

[١] أنظر : حياة محمد ص ١٢٨ ــ ١٢٩ بتصرف .

[٢] تفسير الخازن جـ٧ ص ٢٦٢ ، وذكر الخازن أن الشق أحد معاني شرح الصدر .

وفى بعضها : إلى أسفل بطنه .

وجاء فى إحداها : فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته .

وفوق ذلك كله فأنس بن مالك ــ" ﷺ " يقول : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط ، فى صدره [١] .

يقول الدكتور / محمد سعيد البوطي في رده على كلا الفريقين : رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة .

وليست الحكمة من هذه الحادثة ــ والله أعلم ــ استئصال غدة الشر في جسم رسول الله " ﷺ " إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم، أو علقة في بعض أنحائه لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هى إعلاء أمر الرسول " ﷺ " وتهيئته للعصمة، والوحي، منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته .

إنها إذاً عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ، ليكون ذلك الإعلان الإلهي ظاهراً بين أسماع الناس وأبصارهم ، وعلى مستوى تصوراتهم .

وأيا كانت الحكمة ، فلا ينبغي ــ وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً ــ محاولة البحث عن مخارج لصرف الحديث عن ظاهرة، وحقيقته، والذهاب إلى التأويلات الممجوجة البعيدة، المتكلفة ، ولن نجد مسوغاً لمن يحاول هذا ــ رغم ثبوت الخبر وصحته ــ إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية، وصحتها، فإذا ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله، موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالات اللغة العربية وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل

---

[١] السيرة النبوية فى الصحيحين ص ١٢٤ .

باحث وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات المجازية، ليتخير من بينها ما يروق له ؛ لانشلت قيمة اللغة، وفقدت دلالتها، وتاه الناس في مفاهيمها.

إن الدكتور / محمود مراد يصف رواية الإرهاصات بالسذاجة ويصف قصة عبد المطلب بالإحكام ، مع أنه لا فرق بينهما في التركيب اللغوى، أو الدلالات اللفظية والمعنوية .. **لكنه الغرض والمرض ! !** .

وكلام الدكتور / هيكل مردود، لصحة السند الذى جاء بشق الصدر على نحو ما أوردته،وقد قال النبى أحاديث شق الصدر وهو نبى مرسل،حين سئل عنها، وأيضا فإن خوارق العادات جاءت للناس ليسلموا بما جاءهم به الرسول " ﷺ "،ومن الممكن أن يخلق الله في عباده التسليم،والإيمان من غير معجزة،أو خارقة للعادة،وتلك مشيئة الله.

ولو فرضنا أن هذه الخوارق لم تقع لرأينا من يطالب بها لتكون دليلاً له على التصديق ، كما حدث من أهل مكة ، فلقد دعاهم النبى " ﷺ " بالقرآن الكريم وبكافة الحجج الموجودة فيه ، إلا أنهم طالبوا بخوارق للعادات ، يقـول الله تـعالى ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [٢] .

إن إرهاصات النبوة لم تكن ليؤمن الناس بالإسلام ، فقد ظهرت قبل البعثة بزمن طويل ، ولم يبرزها النبى للناس بعد مبعثه ليجعلها دليلاً لهم ، وإنما جاءت هذه

---

[١] فقه السيرة للبوطي ص ٥٣ .

[٢] سورة الإسراء الآيات (٩٠ ـــ ٩٣) .

الإرهاصات تنبيهاً للعقلاء ، ليروا عجائب القدرة ، وليعلموا أن الله محيط بخلقه ، ولله الأمر كله ، ولتبعث في عقولهم البحث عن أسرار ما يشاهدون .

إن الأمر في النهاية عقل ونبوة ، وفكر بشرى ووحى إلهي ، والفرق بينهما كبير .. والمؤمن يعطي كل جانب حقه .. أما غيره فإنه ينادى بسيادة العقل ، وليس له في تصور النبوة والوحي نصيب .

يقول ابن حجر : (إن جميع ما ورد في شق الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك مما يجب التسليم له ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شئ من ذلك) [1] .

والبشرية كلها تعلم أن النبوات قائمة علي خوارق العادات ، الخارجة عن مألوف العقول ، وطبائع الأشياء ، فمن آمن بالنبوة لزمه الإيمان بالخوارق ، ومن أنكر الخوارق أنكر النبوة من أساسها .. والله أعلم .

***

---

(1) فتح الباري جـ١٥ ص ٥٢ .

المبحث السادس

محمد " ﷺ "

في مرحلة الصبا

عاد محمد " ﷺ " من ديار بني سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمرة الثانية والأخيرة، وسرت أمه بقدومه ، وأخذت في توجيهه ، وتنشئته ، تساعدها أم أيمن، ويعاونها جده عبد المطلب الذي رأي في محمد صورة ابنه عبد الله .

لاحظت آمنة أن محمداً يتمتع بقوة بدنية ، وعقلية ، تفوق أقرانه من الأطفال ورأت أن تذهب به لزيارة أخوال أبيه من بني عدى بن النجار ، وليعرف قبر أبيه الذى دفن في دارهم ، وليعلم أصوله من جهة أمه كما علمها من جهة أبيه .

وأخذته " ﷺ " ورحلت به على ناقتين لها، ومعهما أم أيمن ، ومكثت في المدينة شهراً كاملاً ، ليتمكن وليدها الصغير من التعرف بالمكان ، وأهله ، ويرى ما هم فيه من عادات ، وأديان ، وأعمال ، من خلال لعبه مع الصغار ، أو جلوسه مع الكبار .

وعند عودة آمنة من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء [1] ودفنت بها ... ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا آمنة، فاستقبلها عبد المطلب ، وضم حفيده إليه ، فكفل محمداً " ﷺ " ومعه حاضنته " أم أيمن " تخدمه .

وبقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله " ﷺ " طوال حياته لأنه " ﷺ " لما هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة، نظر إلى أطم [2] بني النجار وقال : (كنت ألاعب " أنيسة " (وهى جارية من الأنصار) على هذه الأطم، وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نطير طائراً كان يقع علينا ، وأحسنت العوم في بئر بنى عدى بن النجار ،وقال : وفى دار بنى عدى نزلت مع أمي،وفيها قبر أبي) [3]

---

[1] الأبواء : قرية صغيرة بين مكة والمدينة ، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً .

[2] الأطم : الحصون ، ومفردها أطمه .

[3] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٦ .

إنما ذكريات باقية بصورتها ، وحقيقتها ... وكان " ﷺ " يذكر حاضنته أم أيمن ويقول : (**أم يمن أمي بعد أمي**) [١] .

وقد زار النبي " ﷺ " بعد البعثة أيضاً قبر أمه فبكي ، وأبكي ، فلما سئل : ما يبكيك يا رسول الله ، قال : تذكرت رحمتها فبكيت [٢] .

وبموت آمنة فقد الرسول أبويه، ووجد نفسه وحيداً ، فريداً، حرم من الآباء ، والإخوة ، ولو كان غير محمد لأصابه الكثير،إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه " ﷺ " حيث قام عبد المطلب بكفالته بعد رجوعه إلي مكة مباشرة ، وشمله بعنايته واهتمامه ، وكان يرعاه أكثر من أبنائه .

كما أحاطته أم أيمن " رضي الله عنها " بالرعاية والخدمة ، وكانت تخاف عليه من أى أذى يلحق به ، وبخاصة أنها رأت من يهود المدينة ما جعلها تخاف عليه منهم ، تقول " رضي الله عنها " : (**وكان قوم من اليهود يختلفون إليه ، وينظرونه ويتفرسون فيه ، تقول أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبى هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم**) [٣] ، وبقيت هذه الحادثة في ذاكرتها ولذلك نراها بعد عودتها إلى مكة ، تذهب به إلى جده عبد المطلب ليكفله، فكفله مرحباً به، وقربه منه ، ولما قارب أجله ، وصى ابنه " أبا طالب "ليكفله من بعده ، وهكذا عاش " ﷺ " مع جده ، ومن بعده مع عمه، مكرماً ، مصاناً .

عناية عبد المطلب بحفيده :

عاد محمد " ﷺ " وحيداً إلى جده ، فضمه إليه ، وقربه من نفسه ، ورق عليه رقة لم ينلها أحد من ولده ، وكان يتفقده إذا خلا ، وإذا نام .

قال قوم من بني مدلج لعبد المطلب : احتفظ بابنك هذا فإن له شأناً ، وإنا لم

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٦ .

[٢] المرجع السابق ج١ ص ١١٧ .

[٣] المرجع السابق ج١ ص ١١٨ .

نـــر قدماً أشبه بقدم إبراهيم الذي في المقام منه ، فسر كثيراً ، وأتى بولده أبي طالب وقـــال له : إسمـــع ما يقول هؤلاء ، فسمع منهم ، واحتفظ بما سمع إقراراً بضرورة الاهتمام بمحمد " ﷺ " .

وجاء عبد المطلب لحاضنته " أم أيمن " وكان اسـمها " بركـة " وقال لها : يا بركة لا تغفلي عن ابني هذا ، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وأن أهل الكتاب يرون أن له شأناً .

وقـــد عمـــد عبد المطلب أن ينشئ حفيده نشأة الرجال الكبار ، يقول ابن إسحاق : (وكان رسول الله " ﷺ " مع جده عبد المطلب بن هاشم،وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة،فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إلـــيه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، يقول ابن إسحاق : فكان رسول الله " ﷺ " يأتي ، وهو غلام جفر ، يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب حين رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فو الله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع) [١] .

ويـــبدو أن هذه الواقعة تكررت مع غير أبناء عبد المطلب ، فلقد روى ابن جريج ، قال : (كنا مع عطاء ، فقال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أبي يقول : كان عبد المطلب أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجهاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه ، وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه معه أحد ، وكان الأنـــداد من قريش، حرب بن أمية فمن دونه، يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رســـول الله " ﷺ " وهو غلام لم يبلغ، فجلس على المفرش ، فجبذه رجل فبكى ، فقال عبد المطلب ، وذلك بعد ما كف بصره : ما لابني يبكي ؟

قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .

---

(١) الروض الأنف ج١ ص ١٩٥ .

فقال : دعوا ابني يجلس عليه ، فإنه يحس من نفسه شرفاً ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده [١] .

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا ناداه ليأكل معه ، ويقول لمن حوله : علي بابني ، فيؤتى إليه ، ويأكل معه .

يروى كندير بن سعيد عن أبيه قال : حججت في الجاهلية ، فإذا رجل يطوف بالبيت ، ويرتجز ، ويقول :ـ

يارب رد لي راكبي محمداً   يارب رده واصطنع عندي يدا

فقلت : من هذا .

قالوا : هذا عبد المطلب ، ذهبت إبل له ، فأرسل ابن ابنه محمد في طلبها ، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها ، وقد احتبس عليه هذه المرة ... يقول الراوي : فما برحت حتى أنظر ما يحدث ، فلما جاء محمد " ﷺ " بالإبل ، قال له جده : يابني لقد حزنت عليك حزناً ، لا تفارقني أبداً [٢] .

وكان هذا الاهتمام بمحمد هو شأن عبد المطلب منذ مولد رسول الله ، حتى عرف ذلك عنه ، ولذلك حينما افتقدته حليمة السعدية مرة ، لم تجد سوي جده ، فأتت إليه ، وأخبرته بضياعه ليبحث عنه ..

يقول ابن إسحاق : (إن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس ، وهي مقبلة به نحو أهله ،فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب، فقالت له:إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة،فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فو الله ما أدرى أين هو ؟ !

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، يقول ابن إسحاق: وجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش، فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له : هذا ابنك

---

(١) سير أعلام النبلاء ج١ ص ٥٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ج١ ص ٥٤ .

وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فحمله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوذه ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة)[1] .

ولما شعر عبد المطلب بدنو أجله ، وصى ابنه أبا طالب بكفالته[4] فكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، **وعمر النبى " ﷺ " ثماني سنوات** ، وقد اشترك في دفن جده ، وسار خلفه وهو يبكي ، وقد دفن عبد المطلب بالحجون[3] .

يقـول ابـن سعد : (ومات عبد المطلب فدفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين .

وسئل رسول الله " ﷺ " : أتذكر موت عبد المطلب ؟

قال : نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين .

قالت أم أيمن : رأيت رسول الله " ﷺ " يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب)[4] .

عناية أبى طالب بابن أخيه :

عـاش النبى " ﷺ " في كفالة عمه أبي طالب ، تحيطه رعاية الله الذى حفظه من ذل اليتم ، وضرر الفقر .

وتهيـئة أبي طالب لكفالة محمد قدر إلهي خالص ، لأن أبا طالب كان كثير العيال ، فقير الحال ، وكان الطعام يقدم لأولاده ، فيتطاولون عليه لقلته ، وكان الفقر بـاد عليهم ، يقول السهيلى : كانوا يصبحون غمضاً ، رمضاً ، مصفرة ألوانهم من الجوع .

ومع هذا الحال فإن أبا طالب أهتم بوصية أبيه ، وضم محمداً لأبنائه ، وخصه بالرعاية والتوجيه ، وكان يجالسه ، ويناقشه .

---

(1) سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ١٦٧ .

(2) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٢ .

(3) سير أعلام النبلاء ج١ ص ٥٦ .

(4) اختار عبد المطلب ولده أبا طالب ووصاه بمحمد دون بنيه ، لأن أبا طالب هو الشقيق لعبد الله من الأب والأم فأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم ، وكان جميع أبناء عبد المطلب يهتمون بمحمد " ﷺ ".

ومـن رعايـة الله بمحمد " ﷺ " وهو في بيت أبي طالب أنه كان إذا وضع الطعـام لأولاد أبي طالـب سبقوه إليه ، ويتقاصر هو ، وتمتد أيديهم ، وتنقبض يده تكرماً ، واستحياء ، وقناعة ، ومع ذلك يصبح صقيلاً ، دهيناً ، كأنه في أنعم عيش ، وأعز كفاية ، لطفاً من الله عز وجل .

رأى محمـد رغم صغره حاجة عمه أبي طالب للمال ، فأخذ على عاتقه أن يعمل ، ويكتسب شيئاً يعين به عمه .

وأراد الله لمحمد " ﷺ " أن يخرج إلى الناس ، ويختلط بهم ، ويتعامل معهم ، في بيئته ، وبعيداً عنها .. لينال أهلية الرسالة بصورة عملية ، تطبيقية .

إن التربية العملية لها دور رئيسي في بروز الشخصية السوية ، وكلما اختلط الصغير بالناس اكتسب خبرة ، ومعرفة .. وكلما سافر ، ورحل عرف المزيد .

لهذا نرى ــ والله أعلم ــ أن الله هيأ لحبيبه محمد " ﷺ " مجالاً رحباً لهذه التنشئة ..

لقد عاش في بادية بني سعد خمس سنوات ، اختلط بالناس وقام بالعمل والنشاط تقول حليمة : (بينما هو " ﷺ " يلعب وأخوه خلف البيوت يرعيان بهما لنا) [١] .. ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها .. وأقام بالمدينة شهراً .

وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ، ورجالاتها ..

ومع عمه أبي طالب رأى حنان الأب ، واهتمامه ، حيث كان يصطحبه معه أينما ذهـب ، وكان يحبه حباً شديداً ، لا يتركه ينام إلا بجواره ، ولا يخرج إلا في معيته ، ولا يطعم أبناءه إلا وهو معهم .

وكـان عمه لا يطمئن عليه إلا وهو معه، ولذلك كانت ملازمته له دائمة ومستمرة.

---

[١] سير أعلام النبلاء ج١ ص ٥١ .

وهيأ الله لمحمد " ﷺ " أسباب الاتصال بالناس ، والالتقاء بهم ، مع اختلاف المذاهب ، والاتجاهات ، والعادات ، فقام بأعمال عديدة ذكرها مؤرخو السيرة ومنها ما يلي :ـ

ـ أولا ـ

الرحلة الأولى إلى الشام

وقصة بحيرى الراهب

أراد أبو طالب أن يسير في ركب الشام للتجارة ، فلما عزم على السفر تعلق به محمد " ﷺ " قائلاً له : أي عم إلى من تخلفني ها هنا ؟ فرق له قلب عمه ، وأخذه معه ، وأردفه خلفه على بعيره ، واتجهوا صوب الشام مع القافلة .

وكان للنصارى عدد من الأديرة في الطريق ، يسكنها الرهبان المنقطعون للعبادة ، وهم الذين يعلمون ما بقى من دين عيسى " عليه السلام " ، ويبدوا أن هؤلاء الرهبان كانوا على علم بأوصاف النبى المنتظر، ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [١]، وكما يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [٢]

لقد وصلت هذه المعرفة لديهم أن علموا ضرورة أن يكون النبى يتيماً ، وأن يكون موسوماً بخاتم النبوة ، وأن خوارق الطبيعة تحيط به ، وكانوا يعلمون أن هذا النبى سيلقى كراهية اليهود لأنهم يرغبون في أن تكون النبوة لهم ، ومنهم .

ويبدوا أن هذه المسألة كانت معلومة لعديد من الرهبان والقسس، لأن ركب أبي طالب ومحمد نزل أولاً في دير قريب بشمال الحجاز، فالتقوا مع صاحبه فنظر صاحب الدير لمحمد ، وقال لأبي طالب : **ما هذا الغلام منك ؟**

---

[١] سورة الأعراف آية (١٥٧) .

[٢] سورة البقرة آية (١٤٦) .

فقال أبو طالب : هو إبني .

فقال الراهب : ما هو إبنك ، وما ينبغى أن يكون له أب حي .

قال أبو طالب : ولم ؟

قال الراهب : لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عين نبي .

فقال أبو طالب : وما النبي ؟

فقال له الراهب : الذي يوحي إليه من السماء فينبئ أهل الأرض ، فاتق عليه من اليهود .

لقد كانت هذه الأديرة أماكن يستريح بجوارها المارة ، الذاهبون إلى الشام ، أو العائدون منها ، ففيها من أسباب الحياة ما يشجع على الراحة عندها .

وكان أبو طالب يسمع من راهب الدير الذى يترل عنده ما سمعه من غيره ، فقال للنبي " ﷺ " : يا أبن أخي ، ألا تسمع ما يقولون ؟

فقال له محمد : أى عم لا تنكر لله قدرة ! !

وكانت الوقفة الكبرى حين بلغ الركب مدينة بصرى ، فترل الجميع وجلسوا تحت شجرة قريبة من دير " بحيرى " .

يقول ابن إسحاق : (فلما نزل الركب أرض الشام ، وبها راهب يقال له ، بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلا يكلمهم ، ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك عن شئ رآه ، يذكرون أنه رأى رسول الله " ﷺ " وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا ؛ وغمامة تظله من بين القوم ، تتحرك بحركته،ثم أقبلوا فترلوا في ظل شجرة قريباً من بحيرى ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله " ﷺ " حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، وقد أمر بالطعام فصنع ، ثم أرسل إليهم ،

فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش،وأحب أن تحضروا كلكم، صغيركم

وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا بنا ،

وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ !

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن

أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله " ﷺ " من بين القوم ، لحداثة سنه ، فبقي في رحال

القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف،ويجدها عنده ،

فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي .

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث

القوم سناً ، فتخلف في الرحال .

فقال : لا تفعلوا ، أدعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزي ، أن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن

عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه ، وأحضره ،وأجلسه

مع القوم .

فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان

يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ،

فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزي إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنما

قال له بحيرى ذلك وحلف باللات والعزى، لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال له رسول الله " ﷺ " : لا تسألني باللات والعزي شيئاً ، فو الله ما أبغضت شيئاً

قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال له : سلني عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه، وهيئته، وأموره، فجعل رسول الله " ﷺ " يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ؟

قال : إبني .

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلي به .

قال : صدقت ، فأرجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده) [1] .

وقد أورد الإمام الترمذى هذه الحادثة وزاد فيه، حين سأله أشياخ من قريش عن سبب ما فعل قال لهم : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر، ولا حجر،إلا خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو في رعي الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فئ الشجرة عليه .

---

[1] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ، يقول البيهقى هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي ، ويقول ابن حجر : رواتها ثقات .

فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ، وبينما هو قائم عليهم، يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟

قالوا : جئنا لهذا النبي الذي أظلنا زمانه ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس منا ، وإنا قد بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما اخترنا خيرتنا لك ، لطريقك هذا .

قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟

قالوا : لا .

فلما رد الرومان قال لأبي طالب ومن معه : أنشدكم الله أيكم وليه ؟

قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب) [١] .

ويبدو أنها حادثة أخرى ، لأن رواية ابن إسحاق كان التحذير من اليهود، والتحذير في هذه الحادثة كان من الروم ، وأيضاً فإن الحادثة الأولى حددت اسم الراهب وهو بحيرى ، بينما هذه الحادثة لم تذكر اسماً معيناً .

وخلاصة هذه المرويات تثبت هذه الرحلة لرسول الله " ﷺ " ومصاحبته لعمه،ومعرفة أهل الكتاب بقرب مبعثه،وكراهيتهم لعروبة هذا النبي المبعوث الذي تمنوه منهم،يقول الله تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [٢] .

---

[١] الجامع الصحيح سنن الترمذي ج٥ ص ٥٩٠ .

[٢] سورة البقرة آية (٨٩) .

وقد روى الهيثمي عدداً من الآثار تشهد على علم أهل الكتاب بأمر نبوة محمد " ﷺ " ، وهذا تأكيد لما جاء في القرآن الكريم .

يروى سلمة ابن سلامة بن وقش ، وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من اليهود في بنى عبد الأشهل،فخرج علينا يوماً من بيته، قبل مبعث النبي " ﷺ " بيسير ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، على بردة ، مضطجع فيها بفناء أهلى فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ، والميزان ، والجنة ، والنار .

قال ذلك لقوم أهل أوثان وأصحاب شرك ، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم ، إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذى يحلف به ، لود أن له بدل تلك النار أعظم تنورٍ في الدنيا يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وإنه ينجو من تلك النار غداً .

قالوا : ويحك وما آية ذلك ؟

قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن .

قالوا : ومتى نراه ؟

فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى نبيه " ﷺ " وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا له ، ويلك يا فلان أليس قلت لنا فيه ما قلت ؟

قال : بلى وليس به أومن)[١] .

وكان عمر رسول الله " ﷺ " يوم أن سافر مع عمه اثنتي عشرة سنة [٢] ...

---

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد جـ٨ ص ٤٢٠ .

(٢) أنساب الأشراف جـ١ ص ٩٦ .

الأمر الذى مكنه من استيعاب كل ما رأى ، وما سمع ، مما جعل الرحلة تربية عملية ، واستفادة تجريبية من المعاشرة والاختلاط ، والنظر ، والتحليل ، والفهم ، والتدبر .

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء الممتدة الواسعة ، وتعلقتا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ، ووادى القرى ، وديار ثمود ، وتستمع أذناه إلى حديث العرب ، وأهل البادية ، وأخذ يتأمل هذه المنازل ، وأخبارها ، وماضى نبئها .

وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغناء ، وعرف أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعن مناوأة الفرس (عباد النار) لهم ، وانتظارهم الوقيعة بهم .

لقد كان له " ﷺ "من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ، ودقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وغير ذلك من صفات حباه القدر بها ما مكنه من معرفة الواقع الحياتى لكل من قابله، تمهيداً للرسالة العظيمة التى أعده الله لها ، الأمر الذى جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسائلها : أين الحق من ذلك كله ؟ .

ويبدو أن أبا طالب لم يستفد من رحلته مالاً كثيراً ، فعاد إلى مكة ، ولم يرجع لمثلها بعد ذلك ، وبقى في مكة ، يقنع بالقليل ينفقه على أبنائه الكثيري العدد .

***

ـ ثانيا ـ

رعي الغنم

عاد النبي " ﷺ " إلى مكة ، ورأى قلة مال عمه ، وكثرة أولاده ، فرغب في مساعدته ، وهداه الله للعمل بأجرة لأهل مكة ، فرعي لهم غنمهم .

عن أبي هريرة " ﷺ " أنه قال : (**قال رسول الله " ﷺ " : ما بعث الله نبياً إلا رعي الغنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**)[1] .

والقيراط عملة فضية تمثل جزءاً من الدينار ، أو الدرهم .. ومن قال إنها جزء من الأرض فقد وهم ، لأن قيراط الأرض لم يعرف إلا في مصر .

عن أبي سعيد الخدري قال : (**أفتخر أهل الإبل والشاة ، فقال رسول الله " ﷺ " : بعث موسي وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا راعي غنم ، أرعاها لأهلي بأجياد**)[2] .

وعن جابر بن عبد الله " ﷺ " قال : (**كنا مع النبي " ﷺ " بمر الظهران ، ونحن نجني الكباث ، فقال النبي " ﷺ " عليكم بالأسود منه ، فإني كنت أجنيه إذ كنت أرعي الغنم ، فقلنا يا رسول الله : كأنك رعيت الغنم ، قال : نعم ، وهل من نبي إلا وقد رعاها ! !**)[3] .

ومن المعلوم أن محمداً " ﷺ " رعي الغنم لحليمة مع غلام لها ، كما سبق في حديث شق الصدر ، حين جاءه الملكان وشقا صدره .

وللمرء أن يتساءل ،**وما الحكمة في رعي الغنم؟حتي يقدرها الله لأنبيائه جميعاً ؟ ..**

---

[1] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب الإجارة ـ باب رعي الغنم على قراريط ج٤ ص ٤٤١ .

[2] المسند ج٣ ص ٤٢ ، وفتح الباري ج٤ ص ٤٤١ .

[3] صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الأشربة ـ باب فضيلة الأسود من الكباث ج ٤ ص ٥ ، والكباث ثمر الأراك النضيج .

أرى ـــ والله أعلم ـــ أن الحكمة في رعي الغنم هي تربية الأنبياء على ما سيكونون عليه حين تكليفهم بالنبوة ، وليتعلموا حسن التعامل مع الناس .

وأهم هذه الفوائد ما يلي : ـــ

١ - التعود على المسئولية :

إن ثقل التكليف يحتاج إلى طاقات بشرية تتحمله ، والنبوة تكليف شاق لأنها تعني إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإنقاذ البشر من ضلالات الهوى ليسعدوا بنور الإيمان ، وبرد اليقين ، إن النبوة قمة الأمانة ، والمسئولية، وحاجتها إلى رسول يتحمل مشاقها ، ومصاعبها ضرورة لابد منها .

ورعي الغنم عمل شاق،يكفي في تصور مشقته أن الراعي يعيش واقفاً ومتحركاً،طوال الوقت،حيث تسرح الغنم،وتمرح،وهذه أعمال في حد ذاتها تحتاج إلى قوة ، وطاقة ،ولذلك كان رعي الغنم مقدمة للنبوة لما فيهما معاً من مشقة وتعب .

٢ - تعليم الصبر والتحمل :

تحتاج النبوة إلى التخلق بالخلق الكريم ، والاتصاف بالحلم والصبر ، وذلك أمر يحققه رعي الغنم، لأن القطيع يرعى وهو مطلق السراح ، فيتوزع هنا . وهنا، وكلما يجمعه الراعي يعود من حيث أتى ، وذلك أمر يحتاج إلى الصبر ، والتحمل ، وبدون ذلك لا يمكن للراعي رعي الغنم ..

ومن رعي الغنم إذاً تعلم الأنبياء الصبر والتحمل في دعوة الناس ، لأن المدعوين ليسوا على اتجاه واحد ، وإنما لكل اتجاهه ، ومذهبه ، وجدله ، والنبي مسئول عن تبليغ الدعوة للناس على الوجه الصحيح،ولذلك وجب أن يكون صابراً حليماً .

يقول ابن حجر : (إن مخالطة الغنم يحقق الحلم، والشفقة ، لأن النبي إذا صبر على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع ، وسارق وغير ذلك، ألف من ذلك الصبر على الأمة ، وتحمل

اختلاف الطبع ، وتفاوت العقول ، ويكون تحمله لمشقة ذلك أسهل بعد تدريبه عليه) [١] ..

٣ـ شمول الرعاية :

راعي الغنم يحتاج إلى سعة الأفق وهو يدير أمر غنمه، لتعدد جوانب الرعاية التي تحتاج إليها ، ففيها الصغير المحتاج للرضاعة ، وفيها الذكر ، وفيها الأنثى ، كما أنها تحتاج دائماً إلى البحث عن مصادر أكلها، وغذائها ، ولا بد لها من حراسة تحميها من الذئاب واللصوص ، ومن الضروري المحافظة عليها من شدة الحر ، وقسوة البرد ، وكثيراً ما تنتابها الآلام والأوجاع ، وعلى الراعي متابعة ذلك ، ومن مسئوليات الراعي تدبير أمر مبيتها في الخلاء ، أو في البناء .

إنها مسئوليات عديدة ، لا يصلح لها ضيق الأفق ، العاجز عن حمايتها ، وإعداد كافة الجوانب التي تحتاج إليها .

ولذلك كان رعي الغنم تدريباً عملياً على مباشرة أعمال النبوة لتعدد المسئوليات النبوية ، فعلى النبي أن يعلم حدود ما كلف به ، ويحسن فهم من سيدعوهم ، ولغة من سيخاطبهم، حتى إذا سئل أجاب ، وإن عورض رد ، وإن واجه عدواً قاومه بالحسنى .. كل ذلك في قوالب عديدة ، وصور كثيرة .

إن تعدد المسئولية في رعي الغنم باب يعلم النبي ضرورة قيامه بالأمر، والدعوة إليه بصورة كاملة ، تامة ، شاملة .

٤ـ التسوية والعدل بين الناس :

يحتاج النبي إلى تبليغ الدعوة لسائر الناس على وجه يتناسب مع كل واحد منهم ؛ لا يقدم واحداً ، ويترك غيره ، ولا يهتم بغني على حساب فقير ، ولا يتصور أن الخير في هذا أو في ذاك فيفضله على غيره .

---

[١] فتح الباري ج٤ ص ٤٤١ .

ورعـــي الغنم يحقق هذا الخلق ، لأن الراعي عليه أن يرفق بالضعيف، ويخصه بعنايته ، فلو ولدت نعجة في الطريق فعليه حمل المولود بيده ، ولذلك نراه يسير خلف القطيع ليكون في عون الضعفاء ، ويراعي الأقوياء .

٥ ـ تعليم التواضع :

إن قيام الأنبياء برعي الغنم يعودهم التواضع ، وترك الكبر ، لأن رعاية الغنم والحرص عليها يحتاج إلى العمل الدءوب بعيداً عن الخيلاء ، حيث لا فخر بعمل كله تعـــب ، ومشـــقة، تحت حر الشمس ، أو في برد الشتاء ، والنبوة في حاجة إلى هذا التواضـــع الـــذي يجعل الأنبياء يتعاملون بالخلق الكريم مع كافة الناس ، مع الرجال والنســـاء ، مع الأغنياء والفقراء ، مع الكبير والصغير ، مع العظيم والحقير ، وبذلك كانوا أمثلة عليا ، وقدوة سامية .

وفي ذكر النبي " ﷺ " بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله أنه رعى الغنم دليل علي عظيم تواضعه ، واعترافه بفضل ما من الله عليه به .

٦ ـ التعامل مع الناس :

يقتني الغنم عديد من الناس ، ورعاها كثيرون ، وكل راع يجد نفسه يتعامل بالضرورة مع كثير من أقرانه الرعاة ، حيث يجلسون في وقت الراحة ، ويتسامرون ، ويتناقشـــون ، وفي ذلك فرصة للأنبياء يتعرفون بها علي الناس، لتتم دعوتهم بعد ذلك بما يناسبهم ، ويفيدهم .

٧ ـ الشجاعة :

الراعي يعمل علي حماية غنمه من الذئاب واللصوص ، وغيرها ، وهو لذلك يحـــتاج إلى شـــجاعة تعيـــنه على هذه الحماية ليلاً ، ونهاراً ، والأنبياء وهم يقومون بـــالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الأنس والجن ، وهم محتاجون للشجاعة والجرأة ، حتى يمكنهم القيام بواجب الدعوة .

٨ـ التأمل والتفكير :

وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفي تلألؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يبتغي أن يرى ما وراءها ، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه .

أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه لمات ! ..

أليست تحييه أشعة الشمس، ويغمره ضياء القمر، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً ؟ ! ..

هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه ، متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم ، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ! !

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية ، فأي انتباه، وأية قوة تحافظ على نظام العالم كله مع إحكامه الموجود ! ! ..

إن رعي الغنم مدرسة تحتاج إلى قوة البدن ، وقوة العزيمة ، والهدوء والأناة ، مع الصدق والإخلاص ، وقصد الاستفادة ، والتعلم .

وقد جعل الله رسله رعاة للغنم ليتعلموا منها الكثير ، في إطار معونة الله ورعايته لهم .

ولكن :

لم كانت الفوائد في رعي الغنم خاصة دون سائر الأنعام كالإبل ، والبقر وغيرها ؟ ..

وأرى أن السر في اختيار الغنم لذلك ــ والله أعلم ــ ، كثرة عددها، وسرعة حركتها ، وسهولة تفرقها، لعدم ربطها أو تقييدها ، أما الإبل ، والبقر ، والخيل ، فعددها قليل وربطها وتقييدها بالحبال أمر عادي، وكأن الله تعالى يعلم رسله " عليهم السلام " حسن التعامل مع الناس ، وهم أحرار .

وأيضـــاً فـــإن السيطرة على الغنم المتفرقة سهل ، وانقيادها للراعي لا يحتاج لجهـــد كـــبير ، لأنها بنداء واحد أو بإشارة بالعصا تعود لمكانها، أما البقر، والخيل، والإبل فلا .

ومن هنا كان اختيار الغنم يرعاها الأنبياء ليتعلموا قيادة أشتات من الناس، ومخاطـــبة العديد من العقول ، والتفاهم مع كافة لغات، ولهجات المدعوين، الذين يصيخون للحق ، ويؤمنون به .

وهكذا رعي النبي " ﷺ " الغنم في مكة ..



- ثالثا -

حرب الفجار

الإجـارة عـند العرب عهد لا يمكن الفكاك منه ، وهو وعد يعطيه العربي لضعيف يلجأ إليه ، ويلتزم بإنفاذه له ، وكان الضعفاء، أو المحتاجون يلجأون إلي من لديه قوة للحماية، والنصرة فيجيرهم ، ويعلن ذلك للناس ، وبعدها تلتزم قبيلته معه في إنفاذ ما وعد به مهما كلفهم ذلك ، وبخاصة إذا كان من المقدمين فيهم .

وقدتقع الحرب بين القبائل بسبب هذه الحماية،وكثيراً ما وقعت.

وحروب العرب هي أيامهم التي كانوا يتواعدون عليها ، وكثيراً ما جعلوها قريبة من البيت مع أوقات أسواقهم وتجاراتهم .

ومـن أشهر أيام العرب التي وقعت بسبب الإجارة حرب الفجار (بكسر الفـاء وفـتح الجيم الممدودة) التي هاجت بين العرب ، واستمرت خمسة أعوام ، واشترك فيها محمد " ﷺ " وعمره خمسة عشر عاماً .

وسـبب وقوعها أن النعمان بن المنذر أتى مكة بإبل تحمل الحرير والعطر ، ويسميها العرب "لطيمة" ، أتي بها لبيعها في سوق عكاظ ، فلما نزلت عنـد بـئر "أوارة" أراد الـبراض بن قيس ، وكان صعلوكاً ، خليعاً ، أن يستولي على اللطيمة لضـعف صـاحبها المنذري ، وبعد قومه عن مكة ، فاستجار النعمان بـ " عروة الرحال بن ربيعة " ليقوي ضعفه ، ويصد عنه عدوان كنانة ، فأجار عروة اللطيمة ، وأصبح العدوان عليها عدواناً على عروة ، وقبيلته .

فجـاء الـبراض بن قيس أحد بني ضمرة يعاتب عروة ، ويقول له : أتجير اللطيمة على كنانة ؟ ! !

فقال عروة : نعم ، وأجيرهم علي الخلق كلهم .

وأدت هـذه المواجهـة الساخنة بين الرجلين إلي أن خرج عروة الرحال في سفره فتبعه البراض بن قيس ، يطلب غفلته لينال منه ، حتي إذا وصلا إلي " تيمن ذي

ظـلال " وهـو واد بعالية نجد [١] غفل عروة ، وهو ابن ربيعة بن جعفر بن كلاب فوثـب علـيه البراض ، وقتله في شهر شوال، وهو من الأشهر الحرم ، وتعرف هذه الحرب بـ " **فجار البراض** " .

أدي مقـتل عـروة إلي قيام حرب الفجار (بكسر الفاء ، وفتح الجيم) [٢] وسماها العرب بهذا الاسم بسبب وقوعها في الأشهر الحرم ، لأنهم لما تقاتلوا لم يأبهوا بحـرمة الأيـام ، ولا بحرمة المكان وقالوا : قد فجرنا وارتكبنا ذنباً عظيماً ، وبذلك سميت الحرب بهذا الاسم [٣] .

وقيل إنما سميت بذلك لأن كلا الطرفين استحلا من المحارم بينهم ما لم يكن يقع في أيام العرب الأخري [٤] .

وقد جاء خبر مقتل عروة إلي قريش، وهي بعكاظ فتركت السوق ، ورحلت حيث عروة،وهوازن لا تشعر،وانفض السوق و لم يقم بعكاظ سوق هذا العام .

علمـت هوازن بعد ذلك أن قريشاً ذهبت تيمن ذى ظلال ، فاتبعتها وراءها راجعة إلي مكة ، وأدركتها قبل أن تدخل الحرم ، فاقتتلوا حتي جاء الليل .

فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن فوقفت الحرب ، ولكنهم تواعدوا علي اللقاء في عكاظ من العام القادم حيث كان يوم شمطة ، وقد استمرت أيامهم بعد ذلك مدة طويلة .

وانـتظم الفريقان خلال اقتتالهما تحت قيادة واحدة لكل قبيلة ، حيث كان لكل بطن من قريش، وكنانة رئيس منهم ، ولكل قبيلة من قيس رئيس منهم ؛ وعلى القبائل جميعاً عند كل طرف رئيس واحد ، وبهذا التنظيم يلتزم كل فرد بما يوجبه عليه العرف القبلي ، حفاظاً على وضع القبيلة ، وحماية لها من الذل والهوان .

---

[١] معجم البلدان ج٢ ص ٦٨ ، وتيمن ذي ظلال : ليس تيمن الموجودة بين جرش ، وتباله من مخالفي اليمن .

[٢] أنظر : لسان العرب ـــ مادة فجر ج٦ ص ٣٥٤ ـــ ط . الدار المصرية للتأليف .

[٣] الروض الأنف ج١ ص ٢١١ .

[٤] سيرة ابن هشام ج١ ص ١٨٦ .

ولذلـك أشـرك أبناء عبد المطلب محمداً " ﷺ " معهم في حرب الفجار ، وكانت هذه المشاركة تجربة عملية ، عاشها مع أعمامه ، وأقرانه من غير أن يكون منه عدوان أو ظلم ، وبخاصة إذا علمنا أن أيام العرب كانت نادرة الدم ، فهي عبارة عن تدريب ويقظة ، وحراسة مستمرة، ومواجهة ينشغل بها أبناء القبيلة جميعاً ، حتى لا يتركوا غفلـة لخصومهم ، وكانوا يحددون لحروبهم أياماً يتقابلون فيها في مكان معـين ، وفي موعـد معـين وكأنها مباراة دورية ، ومبارزة تنتهي بانتصار طرف ، وانسحاب الفريق المنهزم ، وبعدها يحددون موعداً جديداً في مكان يتفقون عليه ، وأغلب أيام الفجار كانت في عكاظ .

يـدل علي ندرة الدم في أيام العرب أن هوازن حين عرض الصلح عليها ، أخـذت أربعين رجلاً من قريش رهينة لديها حتى تأخذ دية قتلاها ، الذين بلغوا هذا العدد طوال أيام الفجار التي استمرت خمسة أعوام .

إن حرباً تقع بين قريش وكنانة بقبائلهما ، وبطونهما .. وبين هوازن بكل ما تشـتمل علـيه ، وتستمر خمسة أعوام ، ويقتل من هوازن أربعون رجلاً ويقتل من قريش عشرون رجلاً فقط ، لدليل علي قلة القتلي في أيام العرب .

والجانب الضعيف هو جانب هوازن، حيث انتصر القرشيون في يوم الشرب أكبر أيامهم ، وانتصرت هوازن في يوم الحريرة انتصاراً جزئياً لأن بني نصر من قريش ثبتوا فيها ، ولم ينسحبوا ، مع أن هذه الأيام كانت تقع قرب ديار هوازن عند عكاظ وقد دفعت قريش لهوازن دية عشرين قتيلاً وهو العدد الزائد عن قتلاهم .

وأيام حرب فجار البراض هذه [1] ستة هي : —

---

[1] لفجـارات العرب أربعة : الفجار الأول : بين كنانة وهوازن ، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر ، أحد بني عقـال بـني مليـك من كنانة ، جعل له مجلساً بسوق عكاظ ، وكان حدثاً منيعاً في نفسه ، ثم كان أن افتخر في السوق وتصدي له الأحيمر بن مازن أحد بني دهمان ، ثم تحاور الحيان عند ذلك حتي كاد أن تكون بينهما الدماء ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير .

(١) **يوم نخلة** : وهـــو يـــوم مقتل عروة حيث ذهبت قريش لعروة فتبعـــتهم هوازن ، وأدركتهم قبل دخولهم الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن، فكان كفافاً لا علي هؤلاء ، ولا علي هؤلاء .

(٢) **يوم شمطة** : وهـــي الوقعة الثانية للفجار ، والمؤرخون يعدونها الأولي ، لأن اليوم الأول تم بصورة تلقائية كرد فعل علي قتل عروة وأتصورهم يعدون الأيام التي يتم التواعد فيها ، وكان النصر في يوم شمطة لقريش ، وكنانة ، أول الأمر ثم انقلب لهوازن آخره .

(٣) **يوم العبلاء** : وهـــو جبل صغير قرب عكاظ ، صخره أبيض وقعت فيه الواقعة ، وكان النصر لهوازن . .

(٤) **يوم الشرب** : بفتح الشين مشددة وكسر الراء ، وبها كانت بعض الفجار العظمى التي يقع للقرب مثلها، وفي هذا اليوم قيد حرب بن أمـــية ، وسفيان ، وأبو سفيان أنفسهم كيلا يفروا ، ولذا سموا بـــ (العنابس) أي الأسود لشجاعتهم ، وكان النصر في هذا اليوم لقريش .

(٥) **يوم الحريرة** : والحريرة تصغير حرة ، واد بين الأبواء ومكة قرب نخلة ، وفيه انهزمت قريش ما عدا بني النصر ، فقد ثبتت ولم تنهزم

الفجار الثاني : وكان بين قريش وهوازن ، وكان الذي هاجه فتية من قريش ، تعرضوا لامرأة من بني عامر بن صعصعة ، فهاجت الحرب ، وكان بينهم قتال ، ودماء يسيرة ، تحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجـــار الثالث : كان بين كنانة وهوازن ، وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دية لرجل من بـــني نصر ، فأعدم الكناني ، فعير النصراني ذلك قومه بسوق عكاظ ، فقام إليه كناني فضربه ، ثم تهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم تراجعوا .

الفجار الرابع : ويعرف بفجار البراض ، وهي التي اشترك فيها رسول الله " ﷺ " قبل المبعث ، وهي أخطرها لأن الفجارات الأخري لم يحدث فيها قتال ، وإنما كانت تنتهي بالصلح ، والحوار، والبحث هنا يتناول هذا الفجار الرابع

(٦) **يوم عكاظ** : وهو اليوم الذي تصالحوا فيه .

وقد استغرقت تلك الأيام خمس سنوات [١] .

قصة الصلح بعد هذه الفجار :

تواعدت هوازن وكنانة على التقابل في عكاظ، وحضروا في الموعد المحدد ، وقبيل التراشق بالسهام ، وجد الصفان بينهما عتبة بن ربيعة ، وكان حرب بن أمية رئيس قريش ، وكنانة ، قد ضربه ، ومنعه من الخروج شفقة عليه ليتمه وصغره ، لأنه لم يكن قد أتم الثلاثين بعد ، إلا أنه خرج سراً ، لم يشعر به أحد ، وفوجئ به حرب علي بعيره بين الصفين ينادي : **يا معشر مضر علام تفانون** ؟ .. وإنما ناداهم باسم مضر لأنه الجد الجامع لقريش وهوازن وكنانة .

فقالت هوازن : ما تدعو إليه ؟ .

قال عتبه : أدعوكم إلي الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ، وتعفوا عن دمائنا

قالوا : وكيف ذاك ؟

قال : ندفع لكم رهناً منا .

قالوا : ومن لنا بهذا ؟

قال : أنا .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

فرضوا ، ورضيت كنانة ، ودفعوا إلي هوازن أربعين رجلاً ، منهم حكيم بن حزام ، بعد أن عدوا قتلاهم وقتلى قريش وكنانة ، وجعلوا رجلاً برجل ، ثم أخذوا دية من زاد منهم ، فأخذوا دية عشرين رجلاً .

فلمارأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء،وانقضت حرب الفجار [٢]

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ٢١٢ . [٢] الروض الأنف ج١ ص ٢١١ . [١] سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٠ .

إشتراك محمد " ﷺ " في حرب الفجار :

هاجت حرب الفجار وعمر محمد " ﷺ " خمسة عشر عاماً ، وانتهت بعد في العشرين من عمره .

والروايات عن إشتراك محمد " ﷺ " في هذه الحرب كثيرة ، يذكر ابن هشام أن رسول الله " ﷺ " إشترك في هذه الحرب دفاعاً عن أعمامه، حيث يقول " ﷺ " (كنت أنبل علي أعمامي) أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها [1] .

ويقول ابن سعد : إن محمد حضر الحرب مع أعمامه ، ورمي بالسهام [2] .

وأري ــ والله أعــلم ــ أن إشــتراك النبي " ﷺ " في حرب الفجار كان لمســاعدة أعمامه بإعداد النبال لهم ، والدفاع عنهم ، من غير عدوان علي أحد من خصوم قومه ، أو محاولة النيل منهم علي غرة ، **ومع ذلك كان " ﷺ " يقول : (لوددت أني لم أكن فعلت)** [3] .

إن الله الــذي صرف محمداً "ﷺ" في شبابه عن كل ما كانت الجاهلية تفعله هو سبحانه الذي أبعده عن الفجور في هذه الأيام،وإنما كان إشتراكه ــ والله أعلم ــ لتحقيق بعض الفوائد ، ومن أهمها :ــ

(١) مخالطــة قــبائل العــرب ، بسائر أفرادها ، الكبار والصغار ، حين تجمعهم لــلحرب والقــتال ، لمعرفة أحوالهم ، وطبائعهم ، وطرق تفكيرهم في هذه الظروف العصيبة .

(٢) معــرفة كيفــية نظم الحرب التي يباشرها العرب ، حيث سيحتاج إلى هذه المعرفة فيما بعد .

---

(٢) الطبقات الكبري ج١ ص ١٢٨ .

(٣) الطبقات الكبري ج١ ص ١٢٨ .

(٣) التدرب علي أعمال الحرب الشاقة ، حيث الحاجة إلي جهد كبير ، في الليل والنهار ، وتحت ظروف مناخية متقلبة ، وفي ظروف قد ينعدم فيها الطعام ، ويندر الماء .

(٤) المساهمة مع قومه في أعمالهم ، وأداء حق القرابة لهم ، لأنه قريباً سيطالبهم بحق القرابة له ، والمحافظة علي ما للقربي من مودة ، وتعاون ، ونصرة .

هذا بعض ما يمكن تصوره في مجال الفوائد التي اكتسبها النبي " ﷺ " باشتراكه في حرب الفجار ... مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالي نجاه من العدوان والظلم فيها ، ... وقصر نشاطه علي خدمة أعمامه والنبل عنهم .

***

ـ رابعاً ـ

حلف الفضول

مــــن أعظم ما فعل العرب قبل الإسلام حلف الفضول (بضم الفاء) . ولا شاهده النبي " ﷺ " وعمره عشرون سنة ، لأنه كان في ذي القعدة بعد إنتهاء حرب الفجــار في شوال ، قبل المبعث بعشرين عاماً ، والحلف يعني العهد ، والبيعة ، وأخذ الميثاق بين أفراد، أو جماعات ، حول موضوع ما .

وأول من تكلم في هذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله " ﷺ " ، وكـــان سـببه أن رجلاً من زبيد ، قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن وائل السهمي وكان ذا قدر وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى علـيه الزبـيدي الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، فأبوا أن يعينوا الزبـيدي على العاصي بن وائل ، وزبروه ، ونهروه ، فلما رأي الزبيدى الشر ، رقي عـــلي جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلي صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـــه	ببطن مكة نائي الدار والنفـر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمـه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال :ماهذا مترك ؟

فاجتمعـــت بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسيد بن عبد العزي ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا في ذى القعدة في شــهر حرام ، قياما ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتي يؤدي إليه حقه ، ما بل بحر صوفة، وما رساحراء وثبير مكانهما ، وعلى التآسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف " حلف الفضول " ، ثم مشوا إلــى

ـ خامسا ـ

الرحلة الثانية إلى الشام

التجارة لخديجة

بلغ محمد " ﷺ " خمساً وعشرين سنة ، وكان يهتم بأحوال عمه أبي طالب، وبكـثرة عـياله ، لما بلغ هذا السن وجد أن رعي الغنم لم يعد يناسبه ، ودخله من الرعي قليل ، لا يفي بحاجته وعمه ، فأخذ يفكر في عمل آخر يحقق له ما يتمنى .

ولم يطل به البحث إذ قال له عمه أبو طالب : ياابن أخي أنا رجل لا مال لي وقـد أشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهـذه عـير قومك قد حضر أوان خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجـالاً من قومك في عيراتها ، فيتجرون لها في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها ، وعرضت نفسك عليها ، لأسرعت إليك ، وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك.

فقال الرسول " ﷺ " لعمه : فلعلها ترسل إلي في ذلك [١] .

وخديجـة " رضـي الله عنها " أمرأة قرشية ، كثيرة المال ، عريقة الأصل ، حسيبة ، نسيبة ، كانت تتجر بمالها ، وترسل عيراتها مع القوافل برجال تستأجرهم أو تضـاربهم بجزء من الربح ، وقد أشتهرت مكة بالتجارة حيث لا زرع فيها ، ولا صـناعة ، وكـل ما فيها من بضاعة فهو مستورد من الشام ، أو من اليمن ، أو من غيرهمـا ، وعـادة التجار البحث عن الرجل الأمين ، يتعاملون معه ، صيانة للمال ، ومحافظـة علـيه من الضياع .. وقد رغب أبو طالب من محمد ابن أخيه أن يذهب لخديجة ليتاجر لها في مالها ، لشدة ثقته في ابن أخيه ، ولم أشتهر به في مكة بالأمانة ، والصدق ، ولما عرف عن خديجة من حسن المعاملة ، والمسارعة في إعطاء الحقوق ،

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٢١٤ .

وكان يرى أن خديجة ستعطى محمداً من الأجر الكثير بعدما ترى منه الصدق والأمانة ، وحسن المعاملة .

لكن محمداً " ﷺ " أنفت نفسه أن يذهب لخديجة، باحثاً عن عمل في أموالها ولذلك قال لعمه : لعلها ترسل إلي .

لم ينتظر أبو طالب أن ترسل خديجة لمحمد مخافة أن تولي رجلاً آخر ، أو تظنه لا يقبل العمل لديها ، ولذلك ذهب بنفسه إلي خديجة وقال لها : يا خديجة : هل لك أن تستأجري محمداً ؟

فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين ، ولن نرضي لمحمد دون ذلك .

فقالت خديجة : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب [1] ! ! . .

عاد أبو طالب لمحمد ، وأخبره بما جري مع خديجة ، وقال له : هذا رزق ساقه الله إليك .

وقالت خديجة لميسرة لما تأهب ومحمد للسفر ، قالت له : لا تنقض له أمراً، ولا تخالف له رأياً،لعلمها بحسن إدارته،وقوة شخصيته ، وإتقان ما يقوم به من عمل.

وأخذ عمومته يوصون أهل العير بابن أخيهم ، ولولا الحاجة ما أخرجوه [2]..

لكن الله تعالي أخرجه من مكة تاجراً هذه المرة، ليجوب أرض الله مكتشفاً، وليخرج من تجارته تلك بما يغنيه ، ويرضيه .

وكانت رحلة مباركة امتلأت بالعجائب التي قدرها الله لحبيبه ، ومصطفاه..

فقد توالت الإرهاصات ، وكان ميسرة يري رسول الله " ﷺ " إذا اشتدت الهاجرة ، وقوي الحر ، يظله ملكان وهو علي بعيره ، ولما دخل مكة في وقت الظهيرة ذهب إلي خديجة فرأت الملكين فوقه .

---

(١) الطبقات الكبري ج١ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج١ ص ١٣٠ .

وتقابل النبي " ﷺ " في هذه الرحلة مع عــدد من رهبان أهــل الكتــاب ، وكلهم نظروا إليه ، وعلموا خبره ، ومآله .

نزل في سوق بصري في ظل شجرة قريباً من صومعة راهــب يــقــال لــه " نسطورا " فلما رآه الراهب قال لميسرة : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هــذه الشجرة ؟ . .

قال ميسرة : رجل من قريش .

فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، أفي عينة حمرة يا ميسرة ؟.

فقال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو ، هو [(١)] !! .

● أخــتلف مــرة مع أحد التجار حول سلعة ، فقال الرجل : إحلف باللات والعزي . .

فقال رسول الله " ﷺ " : ما حلفت بهما قط .

فقال الرجل : القول قولك .. ثم نظر إلي ميسرة ، وقال له : هذا نبي هذه الأمة .

وبالنسبة للتجارة فقد ربحا ربحاً وفيراً لم تره خديجة منذ أربعين سنة ، فأحبه ميسرة وأطاعه ، كأنه عبده ، وقدرته خديجة لمهارته ، وأمانته .

ولما كانا (محمد وميسرة) عائدين بمر الظهران ، قال ميسرة للنبي " ﷺ " : هل لك أن تسبقني إلي خديجة، فتخبرها بالذي جري لعلها تزيدك بكرة إلي بكراتك ، فركب النبي " ﷺ " قعودا أحمر ، فتقدم حتي دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في علية لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله " ﷺ " حين دخل وهو راكب علي بعيره، وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك ! ! .

ودخل عليها رسول الله " ﷺ " وأخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك .

وقالت : أين ميسرة ؟

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٨٨ .

قال : خلفته في البادية .

قالت : عجل إليه ليعجل بالإقبال ، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره .

فركب رسول الله " ﷺ " وصعدت خديجة تنظر، فرأته علي الحالة الأولي، فاستيقنت أنـــه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، وأخبرها بقول الراهب نسطور وبقول الآخر الذي خالفه في البيع .

يقـــول ابن إسحاق : فلما رأت خدية أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمت من البكرات .

وأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل بما رأت ، وبما سمعت ، فقال لها ورقـــة : يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة أمر ينتظر [١] .

وهكـــذا مرت الرحلة ببركاتها مع محمد " ﷺ " ، وعاد بالبكرات إلى عمه سعيداً راضياً ، وقد أحبه ميسرة حباً جماً ..

لقـــد أدت هـــذه الرحلة عدداً من النتائج الهامـــة التي أرادهـــا الله تعالى لمحمد " ﷺ ".

***

---

[١] السيرة النبوية ج١ ص ١٨٩ .

المبحث السابع

زواج محمد " ﷺ "

خديجة " رضي الله عنها "

سمعت خديجة " رضي الله عنها " ما وقع لمحمد " ﷺ " في رحلة التجارة ، وشاهدته بنفسها ، فعادت بذاكرتها إلي ما قاله اليهودي لنساء مكة ، يوم أن اجتمع به في المسجد الحرام،قال لهن : يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي،فأيكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبه النساء ، وقبحنه ، وأغلظن له ، ما عدا خديجة فإنها فكرت فيما سمعت ، ووقر في نفسها صدقه ، فلما تاجر محمد في مالها ، ورأت منه الآيات والبركات تذكرت ما قاله اليهودي وقالت : ما ذلك إلا هذا [١] .

وخديجة أمرأة قرشية ، أشتهرت بين قومها ، بالمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، ومكارم الأخلاق ... وهي من المكيات القليلات اللائي عملن بالتجارة ، حتي صارت من أثرياء مكة الكبار ، تزوجت قبل رسول الله " ﷺ " من رجلين مخزوميين هما : —

الأول : هو عتيق بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وولدت له عبد مناف ، وهندا .

الثاني : هو أبو هالة ، وهو زرارة بن النباش من بني عدي ، وولدت له هالة ، وهندا ، والطاهر [٢] .

وبعد ترمل خديجة بوفاة زوجها الثاني، رفضت الزواج، فلها أولادها ، وقد جاوزت الأربعين ، وأبي لها برجل يكافئها ، عقلاً ، وخلقاً ، وأصالة ! ! ، وقد رغبها صناديد مكة فأبت .. لكنها بعدما رأت محمداً " ﷺ " ، وتذكرت ما سمعته

---

[١] سبل الهدي والرشاد ج٢ ص ٢٢٢ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

عـنه مـن اليهودي ، ومن ابن عمها ورقة ، تمنته زوجاً ، وسعت في ذلك بحكمة وهـدوء ، وعملت علي اختبار التعامل معه ، والتأكد من المزايا التي تصورتها فيه ، وهيأ لها القدر ما أرادت حين أتاها أبو طالب يطلب منها أن يتاجر لها في مالها ، ولقد رحبت بهذا الطلب ترحيباً كبيراً ، وقالت لعبد المطلب : لقد سألته لقريب حبيب .

وتاجر محمد " ﷺ " في مال خديجة وهو في قوة الشباب ، ورشد الرجولة ، إلا أنه لم يفكر في الزواج بعد بصورة مطلقة لما هو فيه من فقر ، وعيلة .. إنه يعمل ليسد رمقه ، ويعين عمه ، وما لمثله أن يفكر في الزواج .

وإذا فكـر في الـزواج كشأن الشباب ، فلن يفكر في الزواج من خديجة لما بينهما من فروق ، ولأنها رفضت الزواج من كبار القوم ، وأغنيائهم ..

إن فـارق السن بينهما خمسة عشر عاماً ، فهي في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين ، ولها أولادها من زوجيها السابقين .

والفارق المالي كبير فهي من أغني أغنياء مكة ، ومحمد يعمل بالأجرة ليعيش ، وشخصيتها ، وتجارتها ، وحياتها العملية ، وسيرتها الشريفة جعلها في مصاف كبار مكة ، وعظمائها .

إن عديـداً من عظماء مكة حاولوا الزواج منها ، فرفضتهم جميعاً ، وليس لمحمـد " ﷺ " أن يفكر في زواجها ، والكل يعلم موقفها من الزواج ! ! ..

لهذا لم يفكر النبي " ﷺ " في الزواج منها .. وما دري أن القدر يخبـئ له ما قدره الله تعالى .

وعزمت خديجة علي أن تتزوج محمداً " ﷺ " مع صغره ، وفقره، لتنال معه الشـرف العظيم،وتفضل به سائر الناس،فاحتالت لذلك بأكثر من طريق،وكان الذي سفر بينها وبين محمد " ﷺ " نفيسة بنت منية،وهي ابنة أمية بن عبيدة الحنظلي،كما سفر بينهما ميسرة ، وأختها،ومولاة مولدة،وإحدي الكاهنات في قريش [1] .

---

[1] إمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص ١٠ .

- فعن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر أن أبا مجلز حدث أن خديجـــة **قالت لأختها** : أنطلقي إلي محمد فاذكريني له [١] ، وأنهما تواطآ أن يتزوجها محمد " ﷺ " .
- وأرسلت مرة أخري ابنة خالتها **نفيسة بنت منية** لتوجه محمداً نحو الزواج من خديجة ، وتزيل من أمامه العقبات التي تمنعه من الزواج منها ، ومن غيرها ..

تقول نفيسة : كانت خديجة بنت خويلد أمرأة حازمة ، جلدة ، شريفة مـــع ما أراد الله بها من الكرامة ، والخير ، وهي يومئذ من أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً علي نكاحها ، لو قدر علي ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيسة إلي محمد ، بعد أن رجع في عيرها من الشام .

فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما أتزوج به .

قلت له : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلي الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لي بذلك ؟

قلت : عليّ .

قال : فأنا أفعل [٢] .

- يروي النبي موقفاً له مع ميسرة ، يقول " ﷺ " : قلت لصاحـــبي :

---

[١] الطبقات الكبري ج١ ص ١٣٢ .

[٢] الطبقات الكبري ج١ ص ١٣١ .

انطلق بنا نتحدث معاً عند خديجة ، فجئناها ، فبينما نحن عندها إذ دخلت علينا كاهنة من مولدات قريش ، فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لخاطباً ؟

قلت : كلا ... حياء وخجلاً ! !

فلما خرجت أنا وصاحبي ، قال لي : أمن خطبة خديجة تستحي ؟ فو الله ما من قرشية إلا تراك لها كفؤاً .

فرجعت أنا وصاحبي مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك الكاهنة ، فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي يحلف به إن جاء لخاطباً .

فقلت على حياء : أجل ، .. ولم تخالف خديجة ولا أختها [١].

إن المرء ليحار أمام هذا التوافق الذي وضع القدر خيوطه ، حتى التأم وتم ..

وهل كانت رحلة التجارة اختباراً من خديجة ؟ ! أم إظهاراً لمقام محمد ؟

وهل رفض خديجة للزواج قبل ذلك جعلها تنتظر الشرف العظيم الذي ظهر لها في محمد " ﷺ " ؟ فرغبت في الاقتران به .

وما الذي جعل محمداً يرحب بالزواج من خديجة مع أنه كان لا يملك مطالب الزواج ونفقات الحياة ؟ ! !

وما الذي جعل خديجة الرافضة للزواج أن تبحث عنه في شاب يصغر عنها بخمسة عشر عاماً ؟

إنها أسئلة تؤكد الحكمة الإلهية التي خبأها الله سبحانه وتعالى لهذين الزوجين الكريمين ..

إن القدر الذي دفع كلاً من خديجة ومحمد ليسعى كل لصاحبه لتتكون بهما خير أسرة ظهرت في حياة المسلمين .

زوجة تشهد لزوجها بالعظمة،وهى تقول :(ووالله لا يخزيك الله أبداً ..) [٢]

---

[١] دلائل النبوة ج١ ص ٩٠ .

[٢] السيرة النبوة ج ١ ص ١٨٨ .

وزوج يشـــهد لزوجته بعد مماتها ويقول: (والله ما رزقني الله خيراً منها ..)

ويقول " ﷺ " عنها : (لقد رزقت حبها) [١] .

ويذهب محمد " ﷺ " إلي أعمامه يخبرهم بنبإ خطبة خديجة فيسرون جميعاً ، ويحضر محمد " ﷺ " مع عمه أبي طالب ، وعشرة رجال من قومه ، ويخطبها عمـه أبو طالب من عمها عمرو بن أسد ، فيقول وهو يخطبها : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً، ونبلاً، وفضلاً، وعقلاً وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأعظيم، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق، حكمكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا .

فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدع أنفه ، وأنكحها منه .. [٢]

ومـا روي من أن أباها هو الذي زوجها ، وهو لا يدري لسكره فمردود ، لأن أباها خويلد ، هلك قبل حرب الفجار .

ويقـال إن الـذي أنكحها هو ورقة بن نوفل ، وقيل هو أخوها عمرو بن خويلد ... والأظهر أنه عمها .

يمتن الله تعالي علي محمد " ﷺ " بزواجه من خديجة ، حيث يقول له سبحانه بعد المبعث : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [٣] .

حيث كنت فقيراً فأغناك بمال خديجة الذي تنازلت عنه لك، راضية، سعيدة ..لتتفرغ للمهام الكبري ، وتعيش الأسرة معك راضية ، مطمئنة ، ويرزقكم الله الأبناء عدداً ..

---

[١] صحيح مسلم ـــ مناقب خديجة ج١٥ ص٢٠١ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ٢١٣ .

[٣] سورة الضحى آية (٨) .

وأول مـــن ولـــد لرسول الله "ﷺ" القاسم ، وبه كان يكنى "ﷺ"
ولـــدت له "ﷺ" زينـــب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، وكلهم
الإسلام ، أما عبد الله فقد ولد في الإسلام ، فسمي بالطاهر ، والطيب ، وكل
من خديجة .

وكانـــت خديجة تعق عن كل مولود لها ، عن الذكر بشاتين ،
بشاة واحدة ..

وقد مات القاسم بعد ولادته بعامين ..

ومات عبد الله قبل الهجرة ..

أما رقية وأم كلثوم فخطبهما عتبة ، وعتيبة ابنا جدهما أبي لهب (
الله) ، لكنهما تركاهما بعد بعثة محمد "ﷺ" كفراً برسالته ، فتزوجهما
عفـــان "ﷺ" الواحـــدة بعد الأخرى ، حيث تزوج أم كلثوم بعد وفاة
فاطمـــة فقـــد تزوجت علي بن أبي طالب " رضي الله عنهم أجمعين " ،
العـــاص بن الربيع بن عبد شمس ابن خالته زينباً بنت رسول الله "ﷺ" "رضـــي
عنهم" ..

وأولاده "ﷺ" كلهم من خديجة ، ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية
أهداهـــا المقوقس للنبي "ﷺ" فأسلمت ، وتزوجها "ﷺ" .. وولدت له
المنورة بعد الهجرة .

***

المبحث الثامن

بناء الكعبة

الكعبة المشرفة هي البناء المربع المجوف المقام وسط المسجد الحرام ، وهي تتوسط العالم كله .

وهي أول بناء وضع في الأرض ، بنتها الملائكة بصورة بسيطة ، وكثيراً ما كانت تتأثر بالنار فتحترق ، وبالسيول فتتصدع ، وبغير ذلك من عدوان الناس .

ولذلك تكرر بناؤها قبل الإسلام وبعده ، فلقد بنتها الملائكة أولاً ، فعن أبي ذر " رضي الله عنه " قال : **(قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بنيها ؟ قال : أربعون سنة)** [١] .

ثم توالي البناء فبلغ عدداً ذكرها المؤرخون علي اختلاف بينهم ، إلا أنهم مجمعون علي مرات ثلاث لثبوت أدلتها ، وهي بناء إبراهيم " عليه السلام " ، وبناء قريش ، وبناء عبد الله بن الزبير " رضي الله عنهم " .

وفي إطلاق عبارة البناء تجوز واضح ، فإن بعضها كان جداراً واحداً كبناء الحجاج ، وبعضها كان ترميماً وإصلاحاً .. وهكذا .

والبنايات التي ذكرها المؤرخون للكعبة كثيرة ..

منها بناء الملائكة " عليهم السلام " :

ومنها : بناء آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء أولاد آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء العمالقة .

ومنها : بناء جرهم .

ومنها : بناء قصي بن كلاب .

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الخلق ج٤ ص ١٧٧ ، ط . الشعب .

ومنها : بناء الخليل إبراهيم " عليه السلام " .

ومنها : بناء قريش .

ومنها : بناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي " رضي الله عنه " .

ومنها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفي .

فأما بناء الملائكة للكعبة : فذكره الأزرقي في تاريخه ، وذكر أن ذلك كان قبل خلق آدم " عليه السلام " واستدل على ذلك بخبر رواه عن زين العابدين ، وجزء ثم رواه من حديث ابن عباس " رضي الله عنهما " وكلاهما يدل على بناء الملائكة للكعبة .

وأما بناء آدم " عليه السلام " : فقد ذكره البيهقي قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " (**بعث الله جبريل إلي آدم وحواء فقال لهما : إبنيا لي بيتاً ، فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر، وحواء تنقل التراب؛ حتي أجابه الماء فنودي من تحته : حسبك يا آدم ، فلما بنياه أوصي الله إليهما أن طوفا به**) [١] .

وأما بناء أولاد آدم للكعبة : فذكره الأزرقي ، حيث روي بسنده إلي وهب ابن منبه قال : رفعت الخيمة التي عزي الله ـــ عز وجل ـــ بها آدم " عليه السلام " من حلة الجنة ، حين وضعت له بمكة في موضع البيت ، وبعدما مات آدم " عليه السلام " بنى بنو من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة ، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتي كان زمن نوح " عليه السلام " فنسفه الغرق، وغير مكانه حتي بوئ لإبراهيم " عليه السلام "

وأما بناء الخليل " عليه السلام " : فهو ثابت كما في القرآن العظيم، والسنة الشريفة،وهو أول من بني البيت بعد نوح " عليه السلام "، وحدد قواعده ، ورفعه،ونظمه، عن ابن إسحاق " أن الخليل " عليه السلام " لما بني البيت جعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً، من الركن الأسود إلي الركن الشامي، الذي

---

[١] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص ١٧٦ .

عنده الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلي الركن الغربي اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلي الركن اليماني أحداً وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض سقفها اليماني من الركن الأسود إلي الركن اليماني عشرين ذراعاً ، وجعل بابها بالأرض ، وحفر جباً في بطن البيت علي يمين من دخله يكون خزانة للبيت ؛ وكان إبراهيم "عليه السلام" يبني وإسماعيل ينقل له الحجارة علي رقبته، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾[1]

وأما بناء العمالقة وجرهم للكعبة : فذكره الأزرقي ، لأنه روي بسنده عن علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " قال في خبر بناء إبراهيم " عليه السلام " للكعبة : ثم انهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش .

وأما بناء قصي بن كلاب : فقد جزم به الماوردي في " الأحكام السلطانية " ، لأنه قال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم " عليه السلام " قصي بن كلاب ، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل .

وأما بناء قريش الكعبة : فهو ثابت كما في السنة الشريفة الصحيحة عن النبي " ﷺ " ، وحضره " ﷺ " ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، كما جزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء .

وأما بناء ابن الزبير " رضي الله عنه " للكعبة فإنه ثابت مشهور ، ويرجع سبب اهتمامه ببنائها إلى ما حدث فيها من هدم لسببين :ـ

السبب الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير " رضي الله عنهما " بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعاندته يزيد بن معاوية ، ومبايعة أهل مكة والمدينة له خليفة للمسلمين .

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٧) .

السبب الثاني : احتراق الكعبة ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابــن الزبير "رضي الله عنهما" في خيمة له ، حيث طارت الرياح بلهب تلك النار فأحرقت كسوة الكعبة ، كما أحرقت الساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضــعفت جدران الكعبة ، حتي إنها لتنقض من أعلاها إلي أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها من الوهن ، والضعف .

ولما زال الحصار عن **ابن الزبير** " رضي الله عنهما " لإدبار **الحصين بن نمير** من مكة، بعد أن بلغه موت **يزيد بن معاوية** ، رأي ابن الزبير"رضي الله عنهما" أن يهدم الكعبة ويبنــيها،فوافقه علي ذلك نفر منهم جابر بن عبد الله ، وكره ذلك نفر ، منهم ابن عباس " رضي الله عنهما " .

وكــان هــدم ابن الزبير للكعبة فى يوم السبت في النصف الأول من جمادى الآخرة سنة أربع وستين للهجرة .

وقــد بناها ابن الزبير علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " وأدخل فيها ما أخرجه مــنها قريش في الحجر ، وزاد في أرتفاعها علي بناء قريش نظير ما زادته قريش علي بناء الخليل " عليه السلام " وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً وهي ســبعة وعشرون مدماكا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض ، أحدهما بابها الموجود الــيوم ، والآخــر المقابل له من الجهة الغربية المسدود الآن، واعتمد فى ذلك على ما أخبرته به خالته عائشة " رضي الله عنها " .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشامي يصــعد منها إلي سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها روازن للضوء [١] .

والبناء المقصود من هذا المبحث ، هو البناء الذي قامت بــه قريش ، والذي

---

[١] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٦ . .

اشترك فيه محمد " ﷺ " يوم أن كان عمره خمساً وثلاثين سنة .

والكعبة ليست هي المسجد الحرام،وليس هي الحرم،لأن المراد بالمسجد الإتساع المحيط بالكعبة،الذي يصلي فيه الناس ، والحرم هو المكان الذى يشمل مكة وما حولها من جميع الجهات إلي الأماكن المعروفة المحددة،التي تفصل بين الحل والحرم ، من كافة نواحي مكة،وهى المعروفة بالمواقيت المكانية،التي يحرم منها أهل مكة بالعمرة

وبناية قريش للكعبة كان قبل الإسلام بخمس سنوات، وهى المرة التي اشترك فيها النبي " ﷺ " ، وعمره خمس وثلاثون سنة [١].

وسبب قيام قريش ببنائها ما أصابها من حريق نال منها بسبب شرارة صدرت من أمرأة عربية ، وهي تقوم بتجمير الكعبة، ولدخول السيل فيها، وتصدع جدرانها ، ولأنهم لاحظوا أن نفراً تمكنوا من الدخول فيها ، وسرقوا حلياً وذهباً منها .

أرادت قريش أن تتغلب علي هذه المثالب فاتفقوا علي بناء الكعبة سوياً ، وقاموا بتقسيم جدر الكعبة أجزاء ، ووزعوها علي سائر القبائل، لتنال كل قبيلة شرف المساهمة في بناء الكعبة .

فكان شق الباب لبني عبد مناف ، وزهرة ، وهو الجدار الشرقي ..

وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وهو الجدار الجنوبي .

وكان ظهر الكعبة لبني جمع وبني سهم ، وهو الجدار الغربى .

وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزي بن قصي ولبني عدي بن كعب ، وهو الحطيم [٢] الواقع فى الجهة الشمالية .

وقد اشترك النبي " ﷺ " مع قومه في بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة ، وهم يضعون أزرهم علي عواتقهم، ويحملون الحجارة ، ففعل محمد مثلهم ، فبانت عورته،

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ٢٢١ ، وهذا أصح الأقوال .

[٢] السيرة النبوية ج١ ص ٢٢٦ هامش الروض الأنف .

فنودي ، عورتك ، عورتك ، فما رؤي لرسول الله عورة بعد ذلك [١] .

وجـاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله " ﷺ " قال : (لما بنيت الكعبة ذهب النبي " ﷺ " وعمه العباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي " ﷺ " : اجعل إزارك على رقبتك ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، فقال : أرني إزاري ، فشده عليه) [٢]

وتجمع قبائل مكة في بناء الكعبة ، واشتراك الكبار والصغار دليل على منزلة الكعـبة في قلـوب ، وعقول سائر القبائل ، لأنهم كانوا يرون أنها بيت الله تعالى والـذي بناها هو إبراهيم " عليه السلام " ، وإسماعيل " عليه السلام " ، وأنها وديعة الله في أرضه للناس ، وهم مسئولون عنها .

وإن المـرء لـيحار وهو يري هذا الاهتمام بالكعبة ، ويري في نفس الوقت الأصنام وقد وضعوها حولها ...

فهل هذا اهتمام بالأصنام حيث وضعوها في هذا المكان المقدس ؟ !

أم هو اهتمام بالكعبة آملين أن تفيض علي أصنامهم ببعض ما فيهامن خير،وبركة ؟ !

لقد أدت روح العصبية في القبائل إلي أن تبحث كل منها عن تميز لها تعلو به عـلي غيرها من القبائل .. فلعب الشيطان بهم ، ووجههم إلي تعدد الآلهة ، وأعمي عقولهم عن الحق ، والصواب .

لقد كادت هذه العصبية أن توقع الحرب بين القبائل يوم بناء الكعبة ..

فبرغم أنهم جزأوا جدران الكعبة ، وجعلوا لكل قبيلة جزءاً ، تقوم ببنائه ، إلا أنهم لما ارتفعوا بالبناء إلي مستوي الحجر الأسود ، ويسمونه بالركن ، من باب تسمية الشئ باسم محله، لأنهم يضعون الحجر في ركن الكعبة ، لما بلغوا هذا المستوي اختلفوا فـيمن يرفعه بيده ، ويضعه في مكانه .. يقول ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش

---

[١] البخاري ــ كتاب الحج ــ باب فضل بناء الكعبة ج ٣ ص ٤٣٩ .

[٢] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ــ كتاب الحج باب فضل مكة وبنائها ج٣ ص ٤٤٢ .

جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع علي حدة ثم بنوها ، حتي بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلي موضعه دون الأخري ، حتي تحاوزوا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

ووصـــل الأمـــر بهم إلي أن بني عبد الدار أعدت جفنة ، وملأوها دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب علي الموت ، وأدخلوا أيديهم في جفنة الدم ، إيذاناً بإستعدادهم للقتال حتي الموت .. ولذلك سموا " لعقة الدم " ، وكل ذلك من حمية العصبية[١] .

ثم إن أهـــل مكة فكروا في مصير مكة إذا وقعت الحرب ، واشتركت فيها القبائل جميعاً وأخذوا في تدبر الأمر ، والبحث عن حل مقبول .

وتوقف العمل خمس ليال بسبب هذا التنافس، إلا أنهم في النهاية اجتمعوا في المسجد الحرام ، ورأوا تحكيم أسنهم ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فـــتدبر في الأمـــر ، ثم قال لهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه ، يريد به بـــاب "بـــني شيبة" ، وكان يسمي في الجاهلية "باب عبد شمس" ، وهو في الإسلام "باب السلام" ، فوافقوه علي رأيه وانتظروا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله " ﷺ " .

فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهي إليهم ، وأخبروه الخبر قـــال " ﷺ " : هلموا إلي ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قـــال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وليمثلها شيخها ، ولما فعلوا كان في ربع عـــبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود بن المطلب ، وفي الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وفي الرابع أبو قيس بن عدى[٢] .

---

[١] البداية والنهاية ج١ ص ٣-٣ ـــ ط. دار الفكر العربي .

[٢] المرجع السابق ج١ ص ١٩٦ ، ويرى معاوية أنه العاص بن وائل .

فجـــاء الأربعة ، وحملوا الثوب ، ورفعوه حتى إذا بلغ الحجر الأسود

حملـــه " ﷺ " بيده ، ووضعه حيث هو الآن ، وبني عليه ، واستمروا في البناء

في جهته حتى ارتفع البناء ثماني أذرع ، ثم كسوها بالقباطي والبرود [١] .

يصـــور الأزرقي ما حدث يوم بناء الكعبة في حوار واضح تذكر فيه

الصـــحابه ما كان يوم بناء الكعبة ، يقول الأزرقي : (اجتمـــع عنـــد

أبي ســـفيان وهـــو خلـــيفة ، نفر من قريش منهم جعدة بن هبير ، وعبد

الحارث بن هشام، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن زمعة بن

فتذاكروا أحاديث العرب .

فقـــال معاوية :من قال حين اختلفت قريش في بنيان مقدم البيت :

قـــريش لا تنافسوا ، ولا تباغضوا ، فيطمع فيكم غيركم ، ولكن جزءوا البيت

أجزاء ، ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً ؟ .

قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة .

قال : هكذا كنت أسمع أبي يقول .

قـــال : فمن القائل حين اختلفت قريش في وضع الركن حكموا بينكم

من يطلع من هذا الباب ؟

قال : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : نعم .

قال : فمن النفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله " ﷺ " ؟

قال : جدك عتبة ابن ربيعة أحدهم، في الربع الأول .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان من الربع الثاني ؟

قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب .

---

[١] القباطي : ثياب مصنوعة من القطن ، والبرود : الثياب المصنوعة من الصوف .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الثالث ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الرابع ؟

قالوا : أبو قيس بن عدي السهمي .

قال : هذه واحدة قد أخذها عليكم ، إنما هو العاصي بن وائل .

قال : فمن قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : هذه أخري قد أخذها عليكم ، إنما القائل هذا، والمتكلم به أبو أحيحة سعيد بن العاصي .

قال : فأسكت القوم) [1] .

وهذه الحادثة تدل علي ما تميز به محمد بالصدق ، والأمانة في قومه، وقد سمي فيهم بالصادق الأمين ، حتى أن هذه الأسماء إذا أطلقت بينهم تنصرف في أذهانهم تلقائياً إلي محمد " ﷺ " ، وتدل كذلك علي ما قدره الله لمحمد " ﷺ " فلقد نال الشرف الذي بحث عنه الجميع ، فهو الذي وضع الحجر الأسود علي الثوب ، وهو الذي رفعه من فوق الثوب ، ووضعه في موضعه ، وهو الذي بني فوقه ... وقد رضي الجميع ، وأطمأنوا إلي تصرف محمد " ﷺ " فيهم ..

ولم يغب إبليس عن هذا الحدث ، فلقد حاول إفساد خطة الصلح ، فجاء في صورة رجل نجدي ، وحاول مناولة النبي " ﷺ " حجراً يشد به الركن .

فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحاه ، وناول العباس رسول " ﷺ " حجراً فشد

---

[1] أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٢ ـــ ١٧٣ .

به الركن .

فغضب التجدي حيث نحى .

فقال النبي " ﷺ " : إنه ليس يبني معنا في البيت إلا واحد منا .

فقال النجدي : يا عجباً لقوم أهل شرف، وعقول، وسن، وأموال، عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم ، وحرزهم ، كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ! [١] ..

ولما بنى القرشيون الكعبة قصرت بهم النفقه ، و لم يتمكنوا من بنائها على قواعد إبراهيم ، وأهم التغييرات في بناء قريش للكعبة ما يلي : ـــ

(١) كان باب الكعبة علي الأرض ، فلما هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، ردموا وسط الكعبة بمخلفات الهدم ، فارتفعت أرض الكعبة ، وبالتالي أرتفع بابها ، وقد استحسنوا ذلك حتي لا يدخلها إلا من أرادوا له الدخول ، وبخاصة أن بعض اللصوص كان يدخلون الكعبة لسرقة بعض المجوهرات التي أهديت إليها ، يروي الأزرقي بسنده عن أبي جعفر أنه قال : كان باب الكعبة على عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حين بنتها الملائكة ، كما يروي أن أبا حذيفة ابن المغيرة قال : يا معشر قريش إرفعوا باب الكعبة حتي لا يدخل عليكم أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم ، ففعلت قريش ذلك ، وردموا الردم الأعلي ، وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها [٢] .

(٢) جعلوا للكعبة باباً واحداً ، هو الباب الشرقي ، وهو الموجود الآن وسدوا الباب الغربي.

(٣) تركوا بناء الحجر بطول ستة أذرع ونصف ، مع أنه جزء من الكعبة ، لأن النفقة الطيبة قصرت بهم ، فأبوا أن يدخلوا في بنائها مالاً خبيثاً ، وأطاعوا

---

[١] الطبقات الكبري ج١ ص ١٤٦ .

[٢] أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١٧٣ .

نصيحة أبي أحيحة سعيد بن العاص حين قال لهم : لا تدخلوا في بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم [١] .

(٤) أرتفعـوا بالبناء تسعة أذرع ، فصار إرتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، حيث رغبوا في إطالتها ، رمزاً لرفعتها .

(٥) قاموا بتسقيفها ، حيث كرهوا أن تكون بغير سقف ، ولعلهم لاحظوا أهمية السـقف في حمايتها من الأتربة ، والفضلات التي تحملها الرياح إلي جوف الكعبة .

(٦) أقاموا داخل الكعبة ست دعائم في صفين يجاوران الجانب الشرقي ، والجانب الغربي لتكون أساساً يقوم عليه السقف ، وقد بنيت هذه الدعائم من الحجر والخشب .

(٧) أقـاموا داخــل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلماً حلزونياً يمكن بواسطته الصعود إلي سطح الكعبة .

(٨) جعلـوا سطح الكعبة مستوياً يميل نحو الحجر ، وأحاطوا السطح بسور يبلغ إرتفاعه ذراعاً ، وجعلوا فيه ميزاباً يصب ماء المطر في الحجر .

(٩) أدخلوا جميع جدران الكعبة بعيداً عن قواعد إبراهيم " عليه السلام " بمقدار نصف ذراع ، حيـث أقيم عليه " الشاذوران " فيما بعد وهو البناء البارز الموجود أسـفل الجدر حالياً، ويشبه الوزرة، وهو حجارة مائلة ملتصقة بجدر الكعبة مـن خارجها ، والشاذوران من بناء السلطان مراد العثماني عام ١٠٤٠هـ وقد جعل إرتفاعه أحد عشر سنتيمتراً من الأرض ، وعرضه أربعين سنتيمتراً. وهو بناء مائل علي هيئة مثلث قائم الزاوية إرتفاعه ملاصق للكعبة من جهاتها الثلاث ، أما جهة الحجر فهو علي هيئة درجة واحدة مسطحة .

وجمهور الفقهاء أجمعوا علي أن الشاذوران من البيت خلافاً لأبي حنيفة [٢] .

---

[١] أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١٧٣ .   [٢] في رحاب البيت الحرام ص ١٢٦ : ١٢٧ .

وقد أخبر النبي " ﷺ " عائشة " رضي الله عنها " بأن قومها لم يقيموا الكعبة علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " .

ـ عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : قال رسول الله " ﷺ " ألم ترى إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم " عليه السلام " قلت يا رسول الله أفلا تردها علي قواعد إبراهيم ؟

قال عبد الله بن عمر : فو الله لئن كانت عائشة سمعت ذلك من رسول الله " ﷺ " ما أري رسول الله " ﷺ " ترك الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يقم علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " إرادة أن يستوعب الناس الطواف بالبيت كله من وراء قواعد إبراهيم " عليه السلام " [1] .

ـ عن عائشة "رضي الله عنه" قالت: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخذ رسول الله " ﷺ " يدي فأدخلني في الحجر فقال لي صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت [2] .

ـ عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : إن رسول الله " ﷺ " قال لها لولا أن قومك حديث عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين، باباً شرقيا، وباباً غربيا، وزدت فيها من الحجر ستة أذرع، فإن قريشاً أقتصرتها حين بنت الكعبة [3] .

عبد الله بن الزبير وبناء الكعبة :

قام عبد الله بن الزبير حين ولي أمر مكة والمدينة ، معارضاً ليزيد بن معاوية

---

(١) الفتح الرباني ج١٢ ص ٤٩ .

(٢) الفتح الرباني ج١٢ ص ٥٠ .

(٣) الفتح الرباني ج١٢ ص ٥١ .

بناء الكعبة ، وسبب بنائه لها يرجع لأمرين : ـــ

الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير " رضي الله عنهما " بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعاندته يزيد بن معاوية .

الثاني : مـــا أصابها مع ذلك من الحريق ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابن الزبير " رضي الله عنهما " في خيمة له ، فطارت الرياح بلهب تلك النار فأحرقت كسوة الكعبة ، والساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضعفت جـدران الكعبة ، حتي إنها لتنقض من أعلاها إلي أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها [١] .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير " رضي الله عنهما " لإدبار الحصين بن نمير من مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأي ابن الزبير " رضي الله عنهما " أن يهدم الكعبة ويبنـيها ، فوافقـــه علي ذلك نفر قليل ، وكره ذلك نفر كثير ، منهم ابن عـباس " ﷺ " .

فلما رأي ابن الزبير هذا الخلاف بين الصحابة قال لهم : لو أن بيت أحدكم احترق لا يرضى له إلا بأكمل صلاح ، ولا يكمل صلاح الكعبة إلا بهدمها وإقامتها علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " كما بينها النبي " ﷺ " لعائشة وسمعها ابن الزبير منـــها " رضـي الله عنها " ، فهدمها اجتهاداً منه بناء علي أحاديث رسول الله " ﷺ " لأن الـنفقة موجـودة وقد بعد الناس عن الجاهلية ، وما أري رسول الله " ﷺ " قواعد البيت لعائشة إلا لحكـمة فهـم ابن الزبير منها جواز بناء البيت علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " ، وقد وافقه بعض الصحابة فى هذا الاجتهاد .

وكان هدم ابن الزبير " ﷺ " لها يوم السبت في النصف الأول مـــن جمادي

---

[١] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص ١٨٥ .

الآخـــرة ســنة أربع وستين ، وبعد هدمها تماماً بناها علي قواعد إبراهيم " عليه السلام "،
وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها علي بناء قريش نظير
مـــا زادته قريش في ار تفاعها علي بناء الخليل " عليه السلام " وذلك تسعة أذرع ، فصار
ارتفاعهـــا ســبعة وعشرين ذراعاً ، وهي سبعة وعشرون مدماكاً ، وجعل لها بابين
لاصـــقين بالأرض ، أحدهما بابها الموجود اليوم ، والآخر المقابل له المسدود حالياً،
واعتمد في ذلك، وفي إدخاله في الكعبة ما أخرجته قريش منها في الحجر علـــى
ما أخبرته به خالته عائشة" رضي الله عنها " .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشامي
يصـــعد منها إلي سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها روازن
للضوء [١] .

فلما قتل ابن الزبير ، وكانت ولايةُ عبد الملك بن مروان أمر بإعادة البيت إلي
مـــا كـــان عليه في بناء قريش ، ظناً منه أن ابن الزبير أخطأ في اجتهاده ، أو شك في
الأحاديث التي اعتمد عليها ابن الزبير ، ولذلك قام الحجاج بأمر من الخليفة عبد الملك
بإخراج الحجر من الكعبة ، وإلغاء الباب الغربي ، وأبقي علي ما عدا ذلك من بناء ابن
الزبير ، ولما أتم الحجاج ما أمر به عبد الملك وفد علي عبد الملك الحارث بن عبد الله
ابن أبي ربيعة المخزومي ، **فقال له عبد الملك : ما أظن أبا خبيب ــ يعني ابن الزبير
ــ سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة .**

فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة .

قال عبد الملك : سمعتها تقول ماذا ؟

قال الحارث : سمعتها تقول : وذكر الأحاديث .

قال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ، قال : نـــعم يا أمير المؤمنين ال

---

[١] المرجع السابق ج١ ص ١٨٦ .

سمعت هذا منها ، قال فجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ، ثم قال وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك [١] .

وقد أراد أبو جعفر المنصور أن يعيد بناءها علي بناء ابن الزبير فأبي عليه الإمام مالك وقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك،يغيره من يريد تغييره،فتذهب هيبته من القلوب فأنصرف المنصور عما أراد [٢] .

الكعبة والمسجد الحرام :

جاء ذكر المسجد الحرام خمسة عشر مرة في القرآن الكريم وهي : ـــ

(١) ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [٣] .

(٢) ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ ﴾ [٤] .

(٣) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [٥] .

(٤) ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٦] .

(٥) ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٧] .

(٦) ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ ﴾ [٨] .

---

[١] أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ٢١١ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ٢٢٢ .

[٣] سورة البقرة آية (١٤٤) .

[٤] سورة البقرة آية (١٤٩) .

[٥] سورة البقرة آية (١٥٠) .

[٦] سورة البقرة آية (١٩١) .

[٧] سورة البقرة آية (١٩٦) .

[٨] سورة البقرة آية (٢١٧) .

(٧) ﴿ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [١] .

(٨) ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٢] .

(٩) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٣] .

(١٠) ﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٤] .

(١١) ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [٥] .

(١٢) ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٦]

(١٣) ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ [٧]

(١٤) ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [٨] .

(١٥) ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [٩] .

وحين ننظر في هذه الآيات نري أن المراد ببعضها الكعبة خاصة وهي قولـه تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ويراد ببعضها الآخر مكة ، وهي قوله تعالي : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

---

[١] سورة المائدة آية (٢) .

[٢] سورة الأنفال آية (٣٤) .

[٣] سورة التوبة آية (٧) .

[٤] سورة التوبة آية (١٩) .

[٥] سورة التوبة آية (٢٨) .

[٦] سورة الإسراء آية (١) .

[٧] سورة الحج آية (٢٥) .

[٨] سورة الفتح آية (٢٥) .

[٩] سورة الفتح آية (٢٧) .

الأقصا ﴾ حيث روي أن النبي " ﷺ " أسري به من بيت أم هانئ ، ويراد بها في موضع آخر الحرم كله ، وهو قوله تعالي : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ .

فالمسجد الحرام غير الكعبة المشرفة ولذلك يقول القائل : خرجت من المسجد الحرام ، واعتكفت به ، وهكذا ...

ولذلك كان الحديث عن بناء الكعبة خاصاً بها ، أما المسجد فلم يقع له بناء وظل عبارة عن فسحة واسعة محيطة بالكعبة ، وكان حول الكعبة خلاء كبير ، لأن القبائل كانوا يسكنون في شعاب مكة الموجودة بين الجبل ، حيث عرف كل شعب بمن كان يسكنه ، واستمر الأمر علي ذلك حتي استولي قصي علي مكة ، وأمر قومه أن يبنوا لأنفسهم حول الكعبة ، وقـال لهـم : إن سكـنتم حـول الكعبة هابكم الناس ، وخافوا من قتالكم ، والهجوم عليكم ، وبدأ هو أولاً بالبناء فاتبعوه .

وكانت أبواب البيوت مفتوحة تجاه الكعبة ، ومحيطة بها ، ولم يتركوا للطائفين إلا مساحة ضيقة بمقدار مطافهم ، حتي عد مكان الطواف مدخل البيوت.

وتقديراً للكعبة جعلوا بين كل دارين طريقاً إليها ، واشترطوا أن لا يعلو بناء ما عن الكعبة حتي تري من جميع نواحيها .

واستمر حال المسجد علي ذلك في زمن رسول الله " ﷺ " ، وزمن أبي بكر " ﷺ " ، فلما ولي الخلافة عمر بن الخطاب " ﷺ " رأي أن الناس قد ضيقوا علي المسجد ، وألصقوا دورهم به، مع أنه صار مقصداً للناس ، يشد المسلمون إليه الرحال من كل مكان ..

لما رأي ذلك عمر" ﷺ " قال لأهل مكة : إن الكعبة بيت الله ، ولابد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل عليكم ، فاشتري تلك الدور من أهلها ،

وهدمها ، وبني سوراً للمسجد وفتح في السور أبواباً في أماكن الطرق التي كانت بين الدور ، وسمي كل باب باسم الطريق المقابل له،وهذا تعددت الأبواب في السور.

ولما ولي عثمان " ﷺ " ، إشتري دوراً أخري ، وأغلي في ثمنها ، وزاد في سعة المسجد [١]، وزاد فى عدد الأبواب .

فلما كانت خلافة ابن الزبير " ﷺ " عمر المسجد الحرام بعد أن انتهى من عمارة الكعبة المعظمة وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية واشتري دوراً كثيرة وسقف المسجد أيضاً [٢] .

وتوالت الزيادة في المسجد الحرام ، وأشهرها الزيادة العثمانية حيث تركوا مكاناً خالياً للطواف ، وأحاطوه ببناء دائرى ، مقام على أعمدة رخامية ، ومسقف بقباب فى جميع نواحيه .

وكان آخرها في العصر الحديث حيث الزيادة السعودية في عهد الملك سعود بن عبد العزيز وفى عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز ، جزاهم الله خير الجزاء .

***

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ٢٢٤ .

[٢] في رحاب البيت الحرام ص ١٩٩ .

المبحث التاسع

المقدمات العملية للبعثة النبوية

بعدما تزوج محمد " ﷺ " من خديجة " رضي الله عنها " لم يعد محتاجاً لمال بسعي لتحصيله، أويتشغل في العمل من أجل كسبه ، فلقد أغناه الله بمال خديجة " رضي الله عنها " ، وأغناه كذلك برضي النفس ، وهدوء البال ، وأغناه بالميل نحو التأمل ، والتفكير ، أكثر من ميله للكسب المادي،وبذل الجهد والعمل .

ولذلك نراه " ﷺ " يبدأ حياة التأمل ، ويتفرغ للتحنث بعيداً عن صخب الحياة ، وضجيج العمل ، وفي فترة ما قبل البعثة عاش محمد " ﷺ " ، وعاش العالم كله مقدمات البعثه ، المتمثلة في النقاط التالية : ــ

ـ أولا ـ

كثرة المبشرات

تمتلئ كتب السيرة والتاريخ بالمبشرات الكونية والإنسانية ، التي أشارت إلى قرب ظهور نبي في بلاد العرب ، يبعث للعالم كله ، لنشر العدل ، وتحقيق الأمن والسلام ، وقد أتت أغلب هذه المبشرات من أحبار اليهود ، ورهبان النصاري ، وكهان العرب .

وسوف أورد هنا شيئاً منها ، لثبوتها بتصديق القرآن الكريم لها ، ولأن ثبوت صدقها إثبات للإرهاصات العديدة التي صاحبت مولد محمد " ﷺ " ، ونشأته ، وحياته كلها .

إن مبشرات أهل الكتاب من اليهود والنصاري ، هي مبشرات صحيحة لشهادة القرآن الكريم، حيث بين الله تعالي بصورة قاطعة معرفة الأحبار،والرهبان، برسالة محمد " ﷺ " ، وتحديد مواصفاته ، ومكان ظهوره ، وطبيعة رسالته العالمية .

يقول الله تعالي : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١] ودلالة الآية صريحة في أن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصاري ، يعرفون محمداً ،ورسالته معرفة تفصيلية ، ومع ذلك فقد جحد فريق منهم نبوة محمد " ﷺ " ، وكتم ما يعرفه، وأنكر ما هو صحيح لديه.

جاء في تفسير الطبري أن أحبار اليهود ، وعلماء النصاري كتموا أمر محمد " ﷺ "وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فأخبر الله نبيه محمداً " ﷺ " وأمته بكتماهم ذلك عن علم ومعرفة ، وليس لهم ذلك [٢] .

وإنما شبه معرفتهم له " ﷺ " بمعرفتهم بأبنائهم ، ولم يشبهه بمعرفتهم بأنفسهم لأن الوالد يعرف إبنه في كل وقت ، وفي كل حال ، وقد يغفل عن نفسه أحياناً ، وأيضاً فإن المعرفة الكاملة للنفس أمر مستحيل بينما المعرفة للولد تكون أكمل.

قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف إبنك ؟

قال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه، إلي أمينه في أرضه، بنعته، فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه [٣] ! ! .

ويقول الله تعالي:﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [٤]

فهو " ﷺ " موجود في التوراة ، والإنجيل بوصفة ورسالته .

يروي البخاري بسنده أن عطاء ابن يسار لقي عبد الله بن عمرو بن العاص " ﷺ " وقال له : أخبرني عن صفة رسول الله " ﷺ " في التوراة .

---

[١] سورة البقرة آية (١٤٦) .

[٢] تفسير الطبري ج ٣ ص ١٤٦ ط. دار المعارف .

[٣] تفسير القرطبي ج٢ ص ١٦٣ ــ ط. دار الكتب .

[٤] سورة الأعراف آية (١٥٧) .

فقال عطاء : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأميين ، ، أنت عبدي، ورسولي،سميتك المتوكل ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوبا غلفاً [1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ ﴾ [2] والآية تبين أن عيسى " عليه السلام " بشر أتباعه ، وعلي رأسهم الحواريون برسالة محمد " ﷺ " ، وحدد لهم اسمه ووصفه .

ويقول سبحانه وتعالي : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩ ﴾ [3] والآية صريحة في أن الله تعالي بين لأهل الكتاب رسالة محمد ووضحه لهم بالتمثيل والتشبيه الذي يقرب المعني ، ويسهل المفاهيم الصعبة ، فمثل محمد وأصحابه في التوراة أنهم متعاونون، يحب بعضهم بعضا ، ويواجهون الكفار بقوة وشدة،وأنهم عابدون لله،راكعون،ساجدون،في وجوههم

---

[1] صحيح البخاري ــ كتاب البيوع ــ باب كراهية السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

[2] سورة الصف آية (٦) .

[3] سورة الفتح آية (٢٩) .

علامات السجود ، وهم يدعون ربهم ، ويطلبون منه الخير ، والفضل دائماً... ومثلهم في الإنجيل كزرع يانع ، بلغ غاية النمو والثمر ، بمنظر بهيج،وفائدة واضحة، ينفع نفسه وغيره .

وضرب المثال بعد التصريح لزيادة التعريف والتوضيح ، ولذلك كان عتاب الله لأهل الكتاب لكفرهم بمحمد " ﷺ " وإنكارهم آيات الله التي جاءت معه " ﷺ " ولا عذر لهم في ذلك ...

يقول الله تعالي : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] ؟ ! !..

ويقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[2] ؟ ! !..

وقد جاءت الآيتان بصيغة الإستفهام الإنكاري لإظهار خطإ أهل الكتاب فيما هم فيه من الكفر ، والعناد ، بعد ما رأوا الآيات الدالة علي صدق محمد " ﷺ " وصدق دعوته ، وقد رأوها بأعينهم ، وتيقنوها بأفئدتهم .

لقد كان اليهود في المدينة المنورة يخوفون الأوس والخزرج قبل الهجرة، بقرب ظهور نبي يتبعونه ، ويتقوون به ، حتي يتمكنوا من قتل العرب قتل عاد وإرم ، الأمر الذي دفع أهل المدينة إلى الإسراع في الدخول في الإسلام ، وإتباع محمد " ﷺ " حتى لا يسبقهم اليهود إلي الإيمان به .

يروي إبن إسحاق أن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه أنهم قالوا : إن مما دعانا إلي الإسلام ، مع رحمة الله تعالي وهداه لنا ، ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك، وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا

---

[1] سورة آل عمران آية (٧٠) .

[2] سورة آل عمران آية (٧١) .

وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ؛ فلما بعث الله رسوله " ﷺ " أجبناه ، حين دعانا إلي الله تعالي ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ..

وخلاصة المبحث هو تأكيد صدق أحبار اليهود،ورهبان النصاري في البشارات العديدة التي تحدثوا عنها ، وأكدوا ضرورة وقوعها في شخص رسول الله " ﷺ " مع أنهم لم يؤمنوا بدعوة محمد " ﷺ " حين جاءهم ، حقداً ، وحسداً ..

ـــ يقول سفيان بن حرب :إن أمية بن أبي الصلت، ذهب إلي عالم من علماء النصاري، إنتهي إليه علم الكتاب ، وسأله عن النبي المنتظر .

فقال له : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر .

فأجابه : هو رجل من العرب .

قال له : من أي العرب ؟

فأجابه : من أهل بيت يحجه العرب من إخوانكم من قريش .

قال له : صفه لي .

فأجابه : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدء أمره يجتنب المظالم، والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها ، وهو محوج، كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده الملائكة [2] .

ـــ ويروي ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : سافرت إلي اليمن

---

(1) سورة البقرة آية (١٤٦) .

(2) سبل الهدي ج٢ ص ٢٥٦ .

قبل مبعث النبي " ﷺ " بسنة ، فنزلت علي عثكلان بن عواكن الحميري ، وكان شيخاً كبيراً، وكنت لا أزال إذا قدمت اليمن أنزل عليه، فيسألني عن مكة، وعن الكعبة، وزمزم ويقول : هل ظهر فيكم رجل له ذكر ؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم ؟ فأقول : لا ، حتي قدمت المرة التي بعث فيها رسول الله " ﷺ " فوافيته قد ضعف، وثقل سمعه، فنزلت عليه، فاجتمع عليه ولده، وولد ولده، فأخبروه بمكاني وأتوني له، وقد شدت عصابة علي عينيه ، وأسند فقعد ، فقال لي : انسب يا أخا قريش .

فقلت : أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عدي بن الحارث بن زهرة .

قال : حسبك يا أخا زهرة ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة ؟

قلت : بلي .

قال : أنبئك بالمعجبة،وأبشرك بالمرعبة ، إن الله تعالي بعث في الشهر الأول من قومك نبياً، ارتضاه صفياً، وأنزل عليه كتاباً، وجعل له ثواباً ، ينهي عن الأصنام، ويدعو إلي الإسلام، يأمر بالحق ويفعله، وينهي عن الباطل ويبطله .

فقلت : ممن هو ؟

قال : لا من الأزد و لاثمالة ، ولا من سرو ولا تبالة ، هو من بني هاشم ، وأنتم أخو اله يا عبد الرحمن أحسن الوقعة، وعجل الرجعة، ثم امض وآزره ، وصدقه[2] .

ــ ويقول عروة بن مسعود الثقفي : بلغت نجران وكان أسقفها صديقاً لي . فلما رآني ، قال لي : يا أبا يعفور هذا حين خروج نبي من أهل حرمكم، يهدي إلي الحق ، وحق المسيح إنه لخير الأنبياء، وآخرهم، فإن ظهر فكن أول من يؤمن به[1] .

ــ ويروي أن أبا ثور عمرو بن معدى كرب " ﷺ " قال : فزعنا إلي كاهن

---

(١) سبل الهدي ج٢ ص ٢٥٨ .

(٢) سبل الهدي ج٢ ص ٢٥٩ .

لنا في أمر نزل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج، والريح ذات العجاج ، إن هذا لإمراج ، ولقاح ذي نتاج .

قالوا : وما نتاجه ؟

قال : ظهور نبي صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام ذالق .

قالوا : أين يظهر ؟ وإلام يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح، ويدعو إلي فلاح ، وينهي عن الراح، والسفاح، وعن كل أمر قباح .

قالوا : ممن هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم، حافر زمزم، ومطعم الطير المحوم، والسباع الضرم .

قالوا : وما اسمه ؟

قال : محمد ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد [١] .

ــ ويروي ابن هشام : أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرياسة إلي غيره، ختم علي تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي قبله، ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان علي عهد النبي " ﷺ " يمشي فعثر فقال ابنه : تعس الأبعد ، يريد النبي " ﷺ " ، فقال له أبوه : لا تفعل، فإنه نبي، واسمه في الوضائع ــ يعني الكتب ، فلما مات لم يكن همه إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد ذكر النبي " ﷺ " فأسلم وحسن إسلامه [٢] .

وهكذا نري كثرة المبشرات ، وانتشارها في كل أرجاء الأرض ، وكلها تشير إلي نبوة محمد " ﷺ " .

وكان الأمل أن يسارع أهل الكتاب إلي الإيمان والتصديق برسالة محمد" ﷺ " فهم العارفون بها، ويصدقها،وقد بشروا الناس بها،لكن الحقد أعمي قلوبهم ، وصرفهم

---

[١] سبل الهدي ج٢ ص ٢٦٠ ، وصلاح اسم من أسماء مكة .

[٢] سبل الهدي ج٢ ص ٢٦٢ .

عن إتباع الحق، وكبر في نفوسهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ..

ومع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد " ﷺ " فقد أبقوا في أفهام الناس هذه المبشرات وهيأوا العقول الصالحة للإيمان، مما جعل الكثير ينتظر هذا النبي المبعوث بدين الله تعالى

وقد سبق ذكر ما قاله كاهن عمورية لسلمان الفارسي ، وما قاله بحيري لأبي طالب ، وما قاله نسطورا لميسرة [1].

هذا بعض ما قاله الرهبان . .

ومما قاله الأحبار ما رواه ابن سعد بسنده عن أبي بن كعب ، قال : لما قدم تبع المدينة، ونزل بقناة، بعث إلي أحبار اليهود وقال لهم : إني مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلي دين العرب ، فقال له سامول اليهودي ، وهو يومئذ أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولده بمكة اسمه أحمد ، وهذه دار هجرته [2] .

ـــ وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كان الزبير بن باطا ، وكان أعلم اليهود ، يقول : إني وجدت سفراً كان أبي يختمه عليّ ، فيه ذكر أحمد نبي يخرج بأرض القرظ صفته كذا وكذا [3] .

ـــ وعن ابن عباس " ﷺ " قال : كانت يهود قريظة، والنضير، وفدك وخيبر يجدون صفة النبي " ﷺ " ، عندهم قبيل أن يبعث ، ويعلمون أن دار هجرته بالمدينة ، فلما ولد رسول الله " ﷺ " ، قالت أحبار اليهود ، ولد أحمد الليلة : هذا الكوكب قد طلع ، فلما تنبئ قالوا ، قد تنبئ أحمد ، قد طلع الكوكب الذي يطلع كانوا يعرفون ذلك، ويقرون به، ويصفونه لولا الحسد والبغي [4] .

---

[1] أنظر ص ٨٧ ،

[2] الطبقات الكبري ج١ ص ١٥٩ .

[3] الطبقات الكبري ج١ ص ١٥٩ .

[4] الطبقات الكبري ج١ ص ١٥٩ .

ـــ وعن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيته، فأقرئه مني السلام ، وسأخبرك ما نعته حتي لا يخفي عليك .

قلت : هلم !

قال : هو رجل ليس بالطويل، ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر، ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منه، ويكرهون ما جاء به، حتي يهاجر إلي يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود والنصاري، والمجوس، يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره ، يقول عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رســـول الله " ﷺ " قول زيد ابن عمرو وأقرأته منه السلام ، فرد عليه السلام ورحمة الله عليه وقال ، قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً [١] .

* * *

---

[١] الطبقات الكبري ج٢ ص ١٦١ .

ـ ثانيا ـ

إنتشار العلم

بخاتم النبوة

من مقدمات البعثه أن محمداً " ﷺ " تمتع بعلامات عرفت بخاتم النبوة ، وقد رأها أهل الكتاب وغيرهم قبل مبعثه " ﷺ " وأكثروا الحديث عنها .

وخـــاتم النـــبوة عبارة عن بضعة لحم مرتفعة عن الجسد ، وجدت في ظهره الشـــريف " ﷺ " عند أسفل عظم كتفه اليسري ، وقد تكلم العلماء عن الحكمة في وضعه مع الخاتم خلف ظهره ، وفي هذا المكان المواجه للقلب .

يقـــول ابن دحيه ـــ رحمه الله ـــ : الحكمة في وضع الخاتم بين كتفي رسول الله " ﷺ " : إشارة إلي أنه لا نبي بعدك يأتي من ورائك [١] .

وقال في الفتح : السر في ذلك أن القلبَ في تلك الجهة [٢] .

وقال العلامة السهيلي في الروض الأنف : وحكمة وضعه ـــ أي الخاتم عند النغض ـــ من الكتف اليسري ـــ عصمته من وسوسة الشيطان ، ولأن ذلك الموضع منه يدخل الشيطان ، فكان ذلك حفظاً له من الشيطان [٣] .

وروي ابن عبد البر بسند قوي إلي ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أن رجـــلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأري جسده ممهى (يري داخلـــه مـــن خارجه) وأري الشيطان في صورة ضفدع ، عند كتفه حذاء قلبه له خـــرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلي قلبه ، يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالي العبد خنس .

قال في الفتح : وهو مقطوع، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلي وابن

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب المناقب ـــ باب خاتم النبوة ج ٦ ص ٥٦١ .

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى ج٦ ص ٥٦٢ .

(٣) الروض الأنف ج١ ص ١٩١ .

عدى ولفظه : (إن الشيطان وضاع خطمه على قلب ابن آدم) [١] .

ميعاد ختم النبي بهذا الخاتم :

اختلف العلماء في موعد ختم النبي " ﷺ " بخاتم النبوة وذكروا أوقاتاً تتفق غالباً مع الأوقات التي ذكروها لشق صدره " ﷺ " وهي : —

ـ قال بعضهم : ختم حين مولده " ﷺ " .

ـ وقال آخرون : ختم يوم شق صدره عند حليمة .

ـ وقال غيرهم : ختم قبيل المبعث .

ـ وقيل : ختم ليلة الإسراء والمعراج

ولكل دليله ، وحجته . .

ورجح ابن حجر أن الختم كان يوم شق صدره عند حليمة ، وقطع به القاضي عياض ، لأن الذين رأوه وشاهدوه ذكروا أن رؤيتهم للخاتم كانت قبل البعثة بوقت طويل .

ولا مانع من القول بأن الله تعالي كرر الختم لرسول الله في كل هذه المرات إعمالاً للأحاديث كلها ، وزيادة في البركة والعون .

وسميت هذه العلامة بالخاتم جرياً علي عادة الناس في إثبات صدق ما يكتبون بخاتم معين ، فكأن هذا الخاتم دليل علي صدق محمد " ﷺ " .

والأحاديث المثبتة لخاتم النبوة كثيرة منها : —

ـ عن السائب بن يزيد " رضي الله عنه " يقول : ذهبت بي خالتي إلي النبي " ﷺ " فقالت يا رسول الله : إن ابن أختي وجع، فمسح " ﷺ " رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلي الخاتم بين كتفيه، فإذا هو مثل زر الحجلة [٢] .

---

[١] فتح الباري ج٦ ص ٥٦٣ .

[٢] صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب الوضوء — باب فضل استعمال وضوء الناس ج١ ص ٢٩٦ .

ـــ وعن سماك قال : حدثني جابر بن سمرة " ﷺ " قال : رأيت خاتماً في ظهر رسول الله " ﷺ " كأنه بيضة حمام .

ـــ وفي روايـــة أخرى قال : رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة حمـــام يشبه جسده [١] .

ـــ وعن ابن زيد الأنصاري " ﷺ " قال : قـــال لي رســـول الله " ﷺ " : يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري، فمسحت ظهره ، فوقعت أصابعي على الخاتم.

قلت : وما الخاتم ؟

قال : شعرات مجتمعات [٢].

ـــ عـــن عبد الله بن سرجس " ﷺ " قال : رأيت النبي " ﷺ " وأكلت معه خبزاً ولحماً أو قال ثريداً ،

فقلت له : هل استغفر لك النبي " ﷺ " ! ؟.

قال : نعم ولك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

قال : ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند نغض كتفه اليسرى جمعاً عليه خيلان كأمثال الثآليل [٣].

ـــ وعن أبي نضرة العوفي " ﷺ " قال : سألت أبا سعيد الخدري عن خاتم رسول الله " ﷺ " ، يعني : خاتم النبوة ، فقال : كان في ظهره بضعة ناشزة [٤].

وللعلماء في وصف خاتم النبوة أقوال : ـــ

ـــ يصفها الحاكم في كتابه بأنها شعر مجتمع .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ـــ كتاب الفضائل ـــ باب شيبة النبي " ﷺ " ج ١٥ ص ٩٧ .

[٢] قال الألباني في الشمائل : رواه الترمذي والحاكم وأحمد وابن حبان ـــ بسند صحيح رقم (١٧).

[٣] الثآليل : جمع ثؤلول ، وهو بثر صغير صلب مستدير يظهر على الجلد كالحمصة أو دونها ، والحديث رواه مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب إثبات خاتم النبوة ج ١٥ ص ٩٩ .

[٤] ناشزة : مرتفعة ، والحديث قال الألباني عنه في الشمائل ، رواه الترمذي بسند حسن رقم (١٩).

ـ وفي كتاب البيهقي : بصقة ناشزة .

ـ وفي حديث عمرو بن أحطب (كشئ يختم به) .

ـ وفي تاريخ ابن عساكر (مثل البندقة) .

ـ وفي الترمذي (كالتفاحة) .

ـ وفي الروض كرأس الحجم الغائص على اللحم .

ـ وفي تاريخ ابن أبي خيثمة شامة خضراء محتفرة في اللحم .

ـ وفيه أيضاً شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكبات كأنها عرف الفرس .

ـ وفي تاريخ القضاعي ثلاث مجتمعات .

ـ وعن عائشة " رضي الله عنها " كتينة صغيرة تضرب إلى الدهمة [١] .

واختلاف العلماء في وصف خاتم النبوة ليس من قبيل التنافي والتضاد ، وإنما هي باعتبار أن كلا منهم شبه الخاتم ، بما سنح له ، وبما ظهر أمامه ، لأنه " ﷺ " كان يستره بثوبه، فواصف الخاتم رآه بنظرة خاطفة ، أو أري له فجأه ، مع وجود عوامل الهيبة والدهشة، في هذا الموقف العجيب ،ومن الملاحظ أن الأقوال متقاربة في وصف الخاتم من ناحية صورته ، وحجمه ومكانه .

ووجود الخاتم النبوى مندرج في خوارق العادات التي أحاط الله بها النبوات ، ويجب التسليم بها .

***

---

[١] دلائل النبوة للبيهقى ج١ ص ٢٦٠ هامش ، فتح البارى ج٦ ص ٥٩٣ .

- ثالثا -

منع الجن من الاستماع

الجن خلق لله تعالي أوجدهم من النار ، وقدر لهم أن يعيشوا علي نحو أراده لهم ، فهم أجسام معنوية ، هائمة في الدنيا ، سريعة التنقل والحركة ، قوية الإدراك، يرون الناس من حيث لا يرونهم .

وهـــم خلق مكلفون برسالات الله ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ؛ وقصة وجودهـــم تبدأ بقصة إبليس مع آدم " عليه السلام " حيث أخرجهما الله من الجنة ، وقدر لهمـــا التناســـل والتكاثر ، وأهبطهما الأرض ليعيش كل طرف وذريته في عداوة مع الطرف الثاني وذريته إلي يوم القيامة .

وقـــد تمكن كل طرف بالإستعانة بأفراد من الطرف الآخر ، والتعاون معهم فيما هو عليه من اتجاه وعمل .

واستطاع كهان الإنس أن يستعينوا بأفراد من الجن فزادوهم ضلالاً ، وخبالاً ، يقول تعالي : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [1] وذلك أن الرجل من الإنس كان إذا نزل بمكان مخوف يقول : أستعيذ بسيد هذا المكان من شر سفهائه ، فزادوهم طغياناً ، وضلالاً، وبعداً عن الله تعالى .

وكان الجن يقومون باستماع الخبر من السماء ، وبما يسمع الكهان من الناس ، فيضيفون إليه من عندهم ، ويتحدثون به كذباً وبهتاناً، تقول السيـــدة عائشة " رضي الله عنها " : سأل أنـــاس رســـول الله " ﷺ " عن الكهان .

فقال لهم رسول الله " ﷺ " : (ليسوا بشئ) .

قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً .

فقال رسول الله " ﷺ ": (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني ، فيقرها في أذن وليه

---

[1] سورة الجن آية (٦) .

في الزجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)[١] .

ويروي البخاري بسنده عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : إن الملائكة تنزل في العنان ــ السحاب ــ فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه إل الكهان فيتحدثون به[٢]

وبهذا الطريق علم الكهان خبر مبعث محمد " ﷺ " فتحدثوا بها للناس ..

ومن أقوال الكهان ما قاله خطر بن مالك وهو أعلم كهان العرب ، قال :

أري لقومي ما أري لنفسي　　　أن يتبعوا خير بني الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس　　　يبعث في مكة دار الحمس

بمحكم التنزيل غير اللبس

فقلنا له : يا خطر ، وممن هو ؟

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما في حلمه طَيش ، ولا في خلقه هيش ، يكون في جيش ، وأى جيش ! من آل قحطان وآل أيش .

فقلت له : بين لنا : من أي قريش هو ؟

فقال : والبيت ذي الدعائم ، والركن والأحاتم، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر كرائم يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ثم سكت وأغمي عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة[٣] .

ــ يقول عبد الله بن كعب : سمعت عمر بن الخطاب يحدث الناس ويقول : والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية، في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قسمه، ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل

---

[١] صحيح البخاري ــ كتاب الطب ــ باب الكهانة ج٧ ص ٢٠٨ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب بدء الخلق ج٤ ص ٧٩ .

[٣] الروض الأنف ج١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شهرين ، يقول : يا ذريح أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول : لا إله إلا الله [١] .

ــ ويقول الكاهن " سطيح " لربيعة بن نصر ملك اليمن لما سأله عن تأويل رؤياه قال له الكاهن : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت أرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة ، فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف ما بين الحرتين من حنش .. لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين إلي جرش .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتي هو كائن ؟ أفي زماني أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين، أو سبعين ، يمضين من السنين ! .

قال : أيدوم ذلك في ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلي ذلك من أمر قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذو يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه، أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي !

قال : وممن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلي آخر

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢١٠ .

الدهر .

وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقي فيه المسيئون .

قال : أحق ما تخبرني ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبئك به لحق ! [١] .

ـ وسأل ربيعة بن نصر كاهناً آخر هو " شق " فأجابه بمثل ما أجاب سطيح ..

ـ ويروي النويري في نهاية الإرب أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلي حي من تميم ، فإذا هم مجتمعون إلي كاهنة تقول : العزيز من والاه ، والذليل من خالاه ، والموفور من مالاه ، والموتور من عاداه ..

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت: صاحب حل وحرم ، وهدي وعلم ، وبطش وحلم ، وحر وسلم ، رأس رءوس ، ورائض بسوس ، وماحي بوس ، وماهد وعوس ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

قالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلي الأحمر والأسود بكتاب لا يفند ، اسمه محمد .

قال سفيان : لله أبوك ! أعربي هو أم عجمي ؟

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان ، إنه لمن معد بن عدنان ، فقدك يا سفيان [٢] .

---

[١] النبي محمد " ﷺ " ص ٢١٨ .

[٢] المرجع السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، بوس أى البؤس ، والوعوس أى الصعب .

إن أخبار الكهان تشبه أنباء الأحبار والرهبان في أنها جميعاً تدخل في جملة المنبهات الحسية التي تسبق الأمور الهامة ، لتتيقظ العقول لهذا الجديد القادم .

إنها ليست دعوة إلي دين الله ، وليست تكليفاً بشريعة ، ولكنها مقدمة لأمر له شأنه،ينبه الأفهام ، ويوقظ العقول، وقد فطر الله الناس علي أن عظائم الأمور تسبق بتمهيد يشير إليها، ويجذب الأفهام نحوها .

وقد عرفنا الله تعالي بما كانت تقوم به الجن من استماع حديث الملائكة، وحديث الله عنهم حيث يقول تعالي : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾[1] وذلك حين كان يمكن للجن أن يجلس في السماء في مكان يسمع فيه ، وفجأة تغير الحال ، وتبدل ونظرت الجن إلي السماء التي كانوا يتحركون خلالها للتصنت والاستماع ، بلا عائق، أو مانع، فوجدوها علي غير ما كانت عليها ، يصور الله ذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾[2] لقد امتلأت السماء بالحرس القوي من الملائكة تمنع الجن من الإقتراب . فإذا أقترب أحدهم يرمي بالشهب الملتهبة .

وقد كان الجن يتحايل في الاستماع، حيث كانوا يجلسون واحداً فوق واحد فإذا احترق الأعلي طلع الذي تحته، حتي يتمكنوا من استماع شئ ، فإذا ما استرقوا كلمة ألقوها إلي الكهان أشياعهم ليتحدثوا بها مع إضافة مائة كذبة إلي الكلمة الواحدة المسروقة[3] .

فلما كانت بعثة محمد " ﷺ " منع الجن من الاستراق ، يقول الله تعالي علي لسان الجن : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ وحينئذ رأت الجن أن ذلك

---

(١) سورة الجن آية (٩) .

(٢) سورة الجن آية (٨) .

(٣) فتح الباري ــ كتاب التفسير ــ باب قل أوحي إلي ج ٨ ص ٦٧١ .

الحدث مقدمة ضرورية لأمر ضروري سوف يقع وقالوا عن ذلك:﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [1] إنهم لم يحددوا ما سيحدث للناس ، ولكنهم أكدوا خطـورته وأهميته .

ولما رأت قريش الشهب في السماء توقعوا أمراً جللاً حتى تصوروه الفناء ، يقول أبي بن كعب : رأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوا يسيبون أنعامهم ، ويعتقون أرقاءهم، يظنون أنه الفناء ، وفعلت ثقيف مثل ذلك .

فبلغ عبد ياليل فقال : لا تعجلوا ، وانظروا ، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف ، فهو عند أمر قد حدث .

فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال : هذا عند ظهور نبي .

فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبـو سفيان بـن حـرب فقال : ظهر محمد ابن عبد الله يدعي أنه نبي مرسل .

فقال عبد ياليل : فعند ذلك رمي بها [2] .

يروي ابن عباس أن رسول الله " ﷺ " قال لهم : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمي به في الجاهلية ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمي بها : مات ملك ، ملك ملك ، ولد مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله " ﷺ " : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالي كان إذا قضي في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتي ينتهي إلي السماء الدنيا فيسبحوا .

ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟

فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم .

---

[1] سورة الجن آية (١٠) .

[2] سبل الهدي ج٢ ص ٢٦٧ .

فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟

فيقولون مثل ذلك حتي ينتهوا إلي حملة العرش فيقال لهم : مم سبحتم ؟

فيقولون : قضي الله تعالي في خلقه كذا، وكذا، للأمر الذي كان فيهبط به

سماء، إلي سماء حتي ينتهي إلي السماء الدنيا، فيتحدثون به ، فتسرقه الشياطين

علي توهم، واختلاف ، ثم يأتون به الكهان فيحدثوهم فيخطئون بعضاً ، ثم

تعالي حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها، فانقطعت الكهانة

فلا كهانة [1].

وهكذا ..

كثرت البشائر ، والمنبهات مقدمة لبعثة محمد " ﷺ " وإرساله بدين الله تعالي

أجمعين . .

***

---

[1] صحيح مسلم ـ كتاب السلام ـ باب تحريم الكهانة ج٤ رقم ١٧٥٠ ، ١٧٥١ .

ـ رابعاً ـ

تكامل شخصية

محمد " ﷺ "

مع بلوغ محمد " ﷺ " سن الأربعين [١] ، تكاملت شخصيته في كافة جوانبها البشرية ، فوصل إلي التمام في صورته، وخلقه ، وعقله ، وروحه ، وذلك بفضل الله ، وعنايته .

إن النبوة تكليف إلهي ، يصنع الله لها رجالاً من خلقه، علي نحو يريده سبحانه وتعالي ، ويوحي إليهم ، وبذلك توجد النبوة في النبي ، وتتلاقي الرسالة والرسول في إنسجام ، وتناغم ، وتوازن .

إن النبي صناعة إلهية ، يقول الله عن موسي " عليه السلام " : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [٢]، ويقول سبحانه علي لسان عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [٣]، وهكذا الأنبياء جميعاً في تكوينهم ، وتنشئتهم ، وحياتهم ، حيث نلقاهم جميعاً محاطين بالرعاية ، والعناية ، تحفهم خوارق العادات التي تمثل جزءاً من حياتهم ونشاطهم قبل النبوة .

ويخطئ بعض الناس حيث يقفون أمام الإرهاصات ، والمبشرات موقف الإنكار، والدهشة، لأنها خوارق للعادة جرت قبل البعثة ، ويسلمون بخوارق العادات بعد النبوة لأنها معجزة تصدق الرسول في نبوته .

وبعض آخر من الناس ينكر هذه المبشرات لخروجها عن مألوف عقولهم ، ومعارضتها لتصوراتهم للكون والحياة .

---

[١] شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

[٢] سورة طه آية (٤١) .

[٣] سورة مريم آية (٣٠) .

والواجب أن يدرك الجميع أن خوارق العادات تحيط بالرسول قبل بعثته ، بل وقـبل مولده ، كما تكون معه بعد مبعثه ، لأنها جميعاً من الله ، ولكل منها وظيفته ودوره .

والخـارق للعادة مطلقاً لا دخل للعقل فيه ، فما بال فريق من الناس يؤمن بالبعض ، ويكفر بالبعض الآخر .

إن العقل عاجز لا يمكنه تغيير مسار الأمور العادية القدرية كحركة الأفلاك ، وتكوين الجنين ... وغيرها ، والعقل حين يعجز عليه أن يسلم بما يري .

هذا في الأمور العادية . . .

وواجـب أن يكون التسليم في كل قدر الله وبخاصة ما جاء خارقاً للعادة مطلقاً .

لقـد أحاطت عناية الله محمداً " ﷺ " من كافة النواحي ، من ناحية نسبه ، وحمل أمه به ، وإرضاعه ، ونشاطه ، ورحلاته ، وقد سبق ذكر صور لهذه العناية التي أثمرت شخصية متكاملة في واحد من الناس يريد الله له أن يكون رسولاً نبياً .

وقـد تجـلي هـذا الكمال البشري في شخصية محمد " ﷺ " قبل مبعثه في الجوانب التالية :ـ

١ ـ سمو السلوك :

عاش محمد " ﷺ " حياته كلها فى أعمال فاضلة ، وسلوك سليم ، ولم يؤثر عـنه ريبة قط ، بل كان فى كل حالاته ، وأحواله رجلاً فاضلاً ، ممتازاً ، حتى عرف فى مكة بحسن العمل ، وسمو السلوك .

ومـع خروج النبي " ﷺ " إلى مجتمع مكة ، واختلاطه بشبابها ، وتعامله مع رجالها كانت عناية الله معه ، فصار رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسـباً ، وأحـبهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم أمانة ،

وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، ما رئى ملاحياً، ولا ممارياً أحداً، حتى عرفه قومه بالأمين، الصادق ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

صرف الله عنه كل ما يسوء ، ويشين ، فعن علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " عنه قال : (سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهيمون به من الغناء إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن في رعاية غنم أهلنا، هيا بنا نسمر كما يسمر الشباب ،وقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان .

فقال : بلي، فدخلت حتي إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً، وغرابيل، ومزامير .

قلت : ماهذا ؟

قيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله علي أذني ، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلت له ليلة أخري : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر ، وضرب الله علي أذني فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت .

فقلت : لا شئ ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

فو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتي أكرمني الله بنبوته) [1] .

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٢٥١ .

وعـــن أم أيمن " رضي الله عنها " قالت : (كان بوانة صنماً تحضره قريش يومـاً في السنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله " ﷺ " أن يحضر ذلك معه، فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن علـيه وقلـن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً ، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً، فزعاً .

فقالت عماته : ما دهاك ؟

قال : إني أخشي أن يكون بي لمم

فقلـن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟

قال : إني كلما دعوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم) [١] .

وعن علي " ﷺ " قال :(قيل للنبي " ﷺ " : هل عبدت وثناقط ؟ .

قال : لا .

قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟

قـال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ..) [٢] .

يقـول ابن إسحاق : وكان رسول الله " ﷺ " ـــ فيما ذكر لي ـــ يحدث عمـا كـان يحفظه الله به في صغره، وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قـريش نـنقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعري ، وأخذ إزاره

---

[١] الخصائص الكبرى ج١ ص ٢٢١ .

[٢] دلائل النبوة لأبى نعيم ص ١٤٦ .

فجعله علـــى رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك، وأدبر ، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك .

فأخذتـــه وشددته عليّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي .

يقول السهيلي : ورد مثل هذا الحديث الصحيح في بنيان الكعبة ، وفيه أن رسول الله " ﷺ " كان ينقل الحجارة مع قومه ، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم قسوة الحجارة ، وكان رسول الله " ﷺ " يحملها على عاتقه، وإزاره مشدود عليه ، فقـــال له العباس " ﷺ " : ياابن أخي لو جعلت إزارك على عتقك ، ففعل فسقط مغشياً عليه ، ثم قال إزارى ، إزارى،فشد عليه إزاره،وقام يحمل الحجارة [1] .

ولا مانع من تكرار هذا التوجيه القدرى ليبقى محمد " ﷺ " فى طهارته وسموه .

يـــروي ابـــن سعد أن رسول الله " ﷺ " كان يتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام لما عرف عنه من العقل ، والحكمة ، ولذلك لما بعث ناداهم، وسألهم عن خلقه ، وصدقه ، فأقروا له بما علموا منه .

يروي البخاري بسنده عن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : (لما نـــزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [2]، خرج رسول الله " ﷺ " حتي صعد الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .

فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟) [3] .

---

[1] سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ .

[2] سورة الشعراء آية (٢١٤) . [3] صحيح البخاري بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ــ باب تبت يدا ج ٨ ص ١٣٧ .

ولقد اشتهر رسول الله " ﷺ " قبل مبعثه بالأخلاق الكريمة ، وتمتع بالصفات الفاضلة ، وجاء قول الله تعالي في وصف خلقه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] لتصف أخلاقه بالعظمة التي اتصف بها بصورة شاملة قبل المبعث ، حتي سماه قومه بالأمين ، ووصفته السيدة خديجة بما كان فيه يوم أن جاءها مرتعشاً ، خائفاً ، قالت له : **والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين علي نوائب الحق** [2] .

وصدقت السيدة " رضي الله عنها " في شهادتها ، ونطقت بالحق ، وكان تعبيراً ناطقاً عن المستقبل ، إذ أكرم الله محمداً " ﷺ " ، وأختاره رسولاً للعالم كله .

٢ ـ جمال الخلقة :

أضفي الله تعالي بفضله ، وكرمه علي رسوله محمد " ﷺ " الحسن والجمال الذي تميز به قبل النبوة . . وحين نورد شيئاً من جمال خلقته " ﷺ " فليس أمامنا إلا مصادر السيرة ، والحديث ننقل عنها .

يـــروي البخاري بسنده عن أبي هريرة أنه قال : (**كان النبي " ﷺ " أحسن الناس وجهاً** ، حتي قال أنس " ﷺ " : **لم أر بعده ولا قبله مثله**) [3] .

ولما سئل " البراء " " ﷺ " : **أكان وجه النبي " ﷺ " مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر ،وكان مستديراً ، وورد أنه كان " ﷺ " مليح الوجه** [4] . **وكان عظيم الفم ، طويل شق العين** [5] .

---

(١) سورة القلم آية (٤) .

(٢) صحيح البخاري ـــ كتاب المناقب .

(٣) البخاري ٧ / ٥٨ ـــ كتاب اللباس ـــ باب الجعد ، ومسلم ٤ / ٨١٩ ، كتاب الفضائل ، باب في صفة النبي " ﷺ " وأنه كان أحسن الناس وجهاً .

(٤) صحيح البخاري ـــ كتاب الفضائل ـــ باب كان النبي " ﷺ " أبيض مليح الوجه ج٦ ص ٢٨.

(٥) صحيح البخاري ـــ كتاب الفضائل ـــ باب صفة فم النبي " ﷺ " وعينيه وعقبيه ج٦ ص ٢٨.

أما شعره فليس بالجعد القطط ، ولا بالسبط، بل كان رجلاً [١] .

كـــان له جمة عظيمة تصل إلي شحمة أذنيه وأحياناً تضرب منكبيه وأحياناً ثالثة تكون بين أذنيه وعاتقه ، كما كان " ﷺ " كثير شعر اللحية [٢] .

وإذا كان البياض في شعره قد شمل العنفقة ،والصدغين،وفي الرأس نبذ،فلم يكن ذلك البياض كله يبلغ عشرين شعرة [٣] .

أما الحمرة في بعض شعره فكانت من آثار الطيب [٤] .

وكان أبيض اللون،ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق،ولا بالآدم،وإنما كان أزهر اللون [٥] .

ولم يكن " ﷺ " بالطويل البائن،ولا بالقصير ، بل كان مربوعاً ، وكان مقصداً [٦] .

وكـــان " ﷺ " بعيد ما بين المنكبين، وكان ضخم اليدين والقدمين،وبسط الكفين ، وكان لين الكف ، حتي قال أنس : ما مسست خــزة ولا حريرة ألين

---

(١) صـــحيح البخارى ـــ كتاب اللباس ـــ باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ ، ومسلم ج١٥ ص ٩٢ ، كتاب الفضائل ـــ باب في صفة النبى " ﷺ " ومبعثه وسنه ،ومعني (رجل) أي لم يكن شديد الجعودة ، ولا البسوطة ، بل بينهما (النهاية ج٢ ص ٢٠٣) .

(٢) صحيح البخارى ـــ كتاب اللباس ـــ باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ رواية البراء ، وابن عمر ، وأنس " رضى الله عنهم " ؛ وصحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٢ ـــ كتاب الفضائل .

(٣) صـــحيح مسلم ج١٥ ص ٩٥، ٩٦ ـــ باب شيبة " ﷺ " ، صحيح البخارى ـــ كتاب المناقب ـــ باب صفة النبى " ﷺ " ج ٦ ص ٢٦ ـــ ط. الأوقاف ، العنفقة : هى ما تحت الشفة السفلى .

(٤) صحيح البخارى ج٦ ص ٢٧ ـــ ط . الأوقاف .

(٥) صحيح البخارى ـــ كتاب اللباس ـــ باب الجعد ج ٩ ص ١٩٠ .

(٦) المـــرجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩١ ، قال فى النهاية : كان أبيض مقصداً ، هو الذى ليس بطويل ، ولا قصير ، ولا جسـيم ، كــأن خلقه نحي به القصد من الأمور ، والمعتدل الذى لا يميل إلى أحد طرفى التفريط والإفراط (النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ٤ ص ٦٧) .

مـــن كف رسول الله " ﷺ " [١] ، وكان منهوس العقبين [٢] .

يروى الترمذي بسنده عن الحسن بن علي " ﷺ " أنه قال : سألت خالي هند ابن أبي هالة ، وكان وصافاً ، عن حلية رسول الله " ﷺ " فقال : كان رسول الله " ﷺ " فخماً مفخماً [٣] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع وأقصـــر من المشذب [٤] ، عظيم الهامة [٥] ، رجل الشعر [٦] ، إذا انفرقت عقيقته فرقها وإلا فلا [٧] ،يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره [٨] ،أزهر اللون [٩] واسع الجبين [١٠] ، أزج الحواجب [١١] ،سوابغ في غير قرن [١٢] ،بينهما عـــرق يـــدره الغضب [١٣] ،أقنى العرنين [١٤] ،له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم [١٥] .

---

(١) صحيح البخاري ج٩ ص ١٦٢ .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٨٢٠ ، وقد فسر أحد رواة الحديث (منهوس العقبين) فقال : قليل لحم العقب .

(٣) أي عظيماً في نفسه ، معظماً في الصدور والعيون عند كل من رآه " ﷺ " .

(٤) الـــربعة والمـــربوع : هو الوسط ، بين القصير والطويل على حد سواء ، والمشذب : هو الطويل البائن الطول ، والمراد : أنه ﷺ أطول من المربوع عند إمعان النظر ، وأما في بادئ النظر يرى ربعة .

(٥) الهامة : بتخفيف الميم هي الرأس ، وعظم الرأس المتناسب مع الجسم : دليل قوة العقل والمدارك .

(٦) أى فى شعره " ﷺ " شئ من الجعودة .

(٧) المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعني : أن شعر رأسه الشريف " ﷺ " إن قبل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفا عن اليمين ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا : أي : فلا يفرق شعره بل يتركه علي حاله .

(٨) أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق " ﷺ " .

(٩) أي : هو " ﷺ " أبيض اللون بياضاً نيراً مشرباً بحمرة .

(١٠) أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معني رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة .

(١١) الزجج : تقوس في الحاجب مع طول من طرفه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما .

(١٢) القرن ـــ بالتحريك ـــ هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو من البلج ، والمعني : أن حاجبيه " ﷺ " لم يتصلا ببعضهما ، أبو البلج ، وأما ما ورد في حديث أم معبد " كان أزج أقرن " فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل ، فإنه " ﷺ " أبلج في الواقع .

(١٣) أي : بين حاجبيه " ﷺ " عرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً .

(١٤) قال العلامة المناوي في شرح الشمائل : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلي الأنف واحدداب الوسط .

(١٥) أي : للعرنين ـــ وهو ما صلب من عظم الأنف ـــ نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم : من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف ، مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة .

كـث اللحية [١] ، سهل الخدين [٢] ، ضليع الفم [٣] ، مفلج الأسنان [٤] دقيق المسربة [٥] ، كأن عنقة جيد دمية في صفاء الفضة [٦]، معتدل الخلق [٧] ، بادن ، متماسـك [٨] ، سواء البطن والصدر [٩] ، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس [١٠] .

أنور المتجرد [١١] ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط [١٢] ، عاري الثديين والبطن مما سوي ذلك [١٣]،أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر [١٤] طويل الزندين ، رحب الراحة [١٥] ، شثن الكفين والقدمين [١٦] ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف [١٧] .

---

[١] أي : عظيم اللحية " ﷺ " .

[٢] أي غير مرتفع الخدين ، وهو أكمل وأجمل .

[٣] أي : عظيم الفم ، وليس بضيق الفم ، فإن سعة الفم تعطي فصاحة في الكلام ، وبيانا مخارج الألفاظ ، ولا شك أن جميع ذلك على تناسب كامل بين أعضاء جسمه الشريف كلها " ﷺ " .

[٤] يعني : أن أسنانه الشريفة " ﷺ " منتظمة ومنفرجة ، وليست متراصة ومتضايقة فوق بعضها .

[٥] المسربة : هي الشعر بين الصدر والسرة ، والمعني : أن تلك المسربة دقيقة .

[٦] الجيد : هو العنق ، والمراد : كأن عنقه " ﷺ " في استوائه واعتداله وحسن هيئته وجماله ، كأنه عنق صورة ، ولكن من حيث اللون هو في صفاء الفضة وبياضها البهيج اللامع .

[٧] يعني : أن جميع أعضاء جسمه الشريفة " ﷺ " خلقها الله تعالي كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

[٨] والمعني : أنه " ﷺ " ممتلئ الجسم ، ليس بالنحيل ولا بالهزيل ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقواها ، وليست متراخية .

[٩] والمعني : أن بطنه وصدره الشريفين مستويان ، لا ينتأ أحدهما عن الآخر .

[١٠] الكراديس جمع كردوس ، وهو رأس العظام ومجمعها ، كالركبة والمنكب ونحوهما ، والمعني : أنه " ﷺ " كان عظيم رؤوس العظام ومجامعها وقويها ، ويدل ذلك علي كمال قواه " ﷺ " .

[١١] يعني : أنه " ﷺ " أنور العضو المتجرد عن الثوب وشديد بياضه .

[١٢] اللبة : هي النقرة فوق الصدر ، والسرة ما بقي بعد القطع ، وأما الذي يقطع عند الولادة فهو السر .

[١٣] أي : خالي الثديين والبطن من الشعر .

[١٤] أي : كثير شعر هذه المواضع الثلاثة .

[١٥] أي : واسع الكف .

[١٦] أي : ضخم الكفين والقدمين ، كما جاء في رواية ، والمعني : أنه " ﷺ " ممتلئ الكفين والقدمين ، وليس بالضعيف النحيل .

[١٧] الشك من الراوي ، والمعني : أنه " ﷺ " كان مرتفع الأطراف بلا احديداب ولا انحناء .

خمصان الأخمصـين [١] ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [٢] ، إذا زال قلعاً [٣]

يخطو تكفياً [٤] ويمشي هوناً [٥] ، ذريع المشية [٦] ، إذا مشي كأنما ينحط

من صبب [٧] ، وإذا التفت التفت جميعاً [٨] .

خـافض الطرف [٩] ، نظره إلي الأرض أطول من نظره إلي السماء [١٠]

جل نظره الملاحظة [١١] .

يسوق أصحابه [١٢] ، ويبدر من لقي بالسلام [١٣] .

---

[١] تثنية أخمص ، وأخمص القدم هو الموضع الذي لا تمس الأرض عند وطئها من وسط القدم ، ومعني خمصان الأخمصين : أنه ﷺ شديد تجافي الأخمصين عن الأرض ، لكن علي وجه لا يخرجه عن حد الاعتدال والجمال .

[٢] أي : أملس القدمين ومستويهما بلا تكسر ، ولذلك ينبو عنهما الماء أي يتباعد عنهما الماء ، يعني أنه " ﷺ " إذا صب عليهما الماء مر سريعاً ؛ لأنهما مستويتان .

[٣] يعني : أنه " ﷺ " إذا مشي رفع رجليه بقوة ، كأنه يقتلع شيئاً ، ولا يجرهما علي الأرض ، لا تمشي مشية المختال الذي يقارب خطاه تبختراً .

[٤] يمشي مائلاً إلي سنن المشي ، وهو ما بين يديه .

[٥] الهون : الرفق واللين ، والمعني : أنه " ﷺ " كان إذا مشي يرفع رجليه عن الأرض بقوة ، كما دل عليه قول ابن أبي هالة : إذا زال قلعاً ، وإذا وضعهما علي الأرض وضعهما برفق وتؤدة ، وهذا معني : يمشي هوناً ، فهو يشير إلي كيفية وضع رجليه علي الأرض وأنه " ﷺ " يمشي بسكينة ووقار ، وحلم وأناة ، دون أن يضرب برجله الأرض ، أو أن يخفق بنعله ، وقد أثني الله تعالي علي الذين يمشون هذه المشية ، ويسلكون هذه الخطة ، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

[٦] أي : واسع الخطوة خلقة بلا تكلف .

[٧] أي : كأنما ينزل في موضع منحدر .

[٨] أي : لا يسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة ، كما يفعل ذلك الطائش الخفيف .

[٩] المراد بالطرف هنا : العين ، والمعني : أنه " ﷺ " إذا لم ينظر إلي شئ ، يخفض بصره ، وهذا شأن المتأمل المفكر .

[١٠] والمعني : أن نظره " ﷺ " إلي الأرض حال السكوت وعدم التحدث ، أطول من نظره إلي السماء ، وأما في حال التحدث فيكثر النظر إلي السماء ، وكما ورد في سنن أبي داود أنه " ﷺ " كان إذا جلس يتحدث ، يكثر أن يرفع طرفه إلي السماء .

[١١] قال العلامة المناوي في شرحه : والمراد أن أكثر نظره " ﷺ " في غير أوان الخطاب الملاحظة ، والملاحظة : هي النظر بلحاظ العين وهو شق العين مما يلي الصدغ ، وأما الذي يلي الأنف فالموق والماق .

[١٢] والمعني : أنه " ﷺ " يقدم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم ليرعاهم ويختبر حالهم ، ويعين ضعفائهم ، وليترك ظهره للملائكة ، كمـا روي الدارمي بإسناد صحيح أنه " ﷺ " قال : (خلو ظهري للملائكة) وأخرج الإمام أحمد عن جابر " ﷺ " قال : كان أصحاب النبي " ﷺ " يمشون أمامه ويدعون ظهره للملائكة كذا في جمع الوسائل .

قال الإمام النووي : وإنما تقدمهم ــ أي تقدم أصحابه في قصة جابر يوم الخندق ــ لأنه " ﷺ " دعاهم إليه فجاءوا تبعاً له ، كصاحب الطعام إذا دعا طائفة يمشي أمامهم .

[١٣] وفي رواية : ويبدأ ، والمعني : أنه " ﷺ " يبادره ويسبق من لقيه من أمته بتسليم التحية .

٢ . عظمة الخلق :

كما أتصف "ﷺ" بجمال الخلقة أتصف بعظمة الخلق ، يصفه أنس بن مالك "ﷺ" فيقول : خدمت النبي "ﷺ" عشر سنين فما قال لي : أف قط ! !ولا لم صنعت كذا ؟ ، ولا ألا صنعت كذا ؟ [١] .

وهذه الخدمة والملازمة من أنس للنبي "ﷺ" لم تكن في الحضر وحده ، أو في السفر وحده ، وإنما كانت ــ كما يقول أنس ــ في الحضر والسفر [٢] .

ولم يكن هذا الخلق الحسن قصراً علي خدمه ، وإنما كان هذا ديدنه مع كل من كان يأتي إليه ، ويتعامل معه ، فكان مثالاً للصبر ، والحلم ، والرفق ، وتعليم الجاهل ، وهذه نماذج منها : ــ

عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي "ﷺ" وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلي صفحة عاتق النبي "ﷺ" ، قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء ! ! [٣] .

وجاء أعرابي ، ورسول الله "ﷺ" وأصحابه في المسجد ، فقام يبول في المسجد ، فزجره الصحابة (مه مه) فنهاهم عن ذلك، وقال : (لا تزرموه ، دعوه) فتركوه حتي بال .

ثم دعاه النبي "ﷺ" ، فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ، ولا القذر ، إنما هي لذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، ثم دعا بدلو من ماء فشنه عليه [٤] .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب حسن الخلق والسخاء ج ١٥ ص ٦٩ .

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب حسن خلقه "ﷺ" ج ١٥ ص ٧٠ .

(٣) صحيح البخاري ــ كتاب فرض الخمس ــ باب ما كان النبي "ﷺ" يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ج٥ ص ٢٣٤ .

(٤) صحيح مسلم ــ كتاب الطهارة ــ باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ج٣ ص ١٩٠ ومه اسم فعل بمعنى إكفف ، لاتزرموه : أي لا تقطعوه ، وشنه أي صبه .

وجـــاء في إحدي روايات البخاري في آخرها : (.. فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) [١] .

وعن أنس قال : كان رسول الله " ﷺ " من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله " ﷺ " ، فخرجـــت من طريق حتي أمرّ علي صبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله " ﷺ " قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك .

فقال : يا أنيس ! أذهبت حيث أمرتك ؟ .

قلـــت : نعم أنا أذهب يا رسول الله [٢] .

وهـــذا الصـــبر والـــرفق يزينه التواضع في خلقه ، والمزاح ـــ أحياناً ـــ مع أصحابه ، فالأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي " ﷺ " ، فتنطـــلق بـــه حيث شاءت [٣] ، والقاصد إليه في بيته لا يجد على بابه بوابين [٤] .

أمـــا مزاحه " ﷺ " ، فكان تسرية لأصحابه عند همومهم أحياناً ، ومداعبة لأطفالهم أحياناً أخري ، إلي غير ذلك من مقاصده الحميدة في هذا المزاح ، ونذكـــر كمثال علي ذلك موقفه مع علي ـــ ﷺ " حينما غاضب زوجته فاطمة " رضي الله عنها " فخرج على " ﷺ "فاضطجع إلي جدار المسجد ، فتبعه النبي " ﷺ " ، فإذا هو مضـــطجع ، وقـــد امتلأ ظهره تراباً ، فجعل النبي " ﷺ " يمسح التراب عن ظهره ، ويقول : (إجلس يا أبا تراب) [٥] .

ويقول أنس " ﷺ " : إن كان النبي " ﷺ " ليخالطنا حتى يقـــول لأخ صغير

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب الوضوء ـــ باب صب الماء علي البول في المسجد، ج ١ ص ١٦٤ .

[٢] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٠ ، ٧١ .

[٣] صحيح البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب الكبر ج٩ ص ٢٤٣ .

[٤] صحيح البخاري ـــ كتاب الأحكام ـــ باب ما ذكر أن النبي " ﷺ " لم يكن له بواب .

[٥] البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب التكني بأبي تراب ، وإن كانت له كنية أخرى ج١٠ ص ٣٨.

لي إذا رآه : (يا أبا عمير : ما فعل النغير ؟ !) [١] .

وإلى جانب صفاته في الرفق ، والتواضع ، والمزاح ، فهو موصوف بالشجاعة في السلم والحرب ، وشجاعته " ﷺ " في الحرب معروفة ، أما في السلم فنذكر منها قصة الفزع الذي أصاب أهل المدينة ذات ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فإذا رسول الله " ﷺ " قد سبقهم إليه ، وتلقاهم راجعاً ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، وفي عنقه السيف،وهو يهدئ ثائرهم ويقول: (لم تراعوا، لم تراعوا ما رأينا من شئ) [٢]

وكان من خلقه " ﷺ " حسن التعامل ، وحسن القضاء ، فقد استقرض من رجل سناً من الإبل ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : (أعطوه) ، فطلبوا سنه ، فلم يجدوا له إلا سناً فوقها ، فقال : (أعطوه) ، حتى قال الرجل : أوفيتني أوفى الله بك ، ثم قال " ﷺ " : (**إن خياركم أحسنكم قضاء**) [٣] .

وفي رواية : إن ذلك لرجل أغلظ للنبي " ﷺ " القول ، فهم به أصحابه فقال لهم : (**إن لصاحب الحق مقالاً**) ، ثم قال لهم : (**اشتروا له سناً ، فأعطوه إياه** فقالوا : إنا لا نجد إلا سناً هو خير من سنه ، قال : (**اشتروه وأعطوه إياه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء**) [٤] .

ومن صفاته : الجود ، والكرم ، فهو أجود الناس [٥] ، وما سئل رسول الله " ﷺ " شيئاً قط ، فقال لا [٦] ، ولهذا غضب الصحابة " رضوان الله عليهم " من ذلك الرجل الذي طلب من النبي " ﷺ " أن يكسوه البردة التي أهدتها إليه أمرأة

---

[١] صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب الانبساط إلى الناس ـ وباب الكنية للصبي ، وقبل أن يولد للرجل ج١٠ ص٩ ، والنغير : تصغير نغر ، وهو طائر صغير كالعصفور .

[٢] صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ، ج٥ ص ٩٩ .

[٣] صحيح البخاري ـ كتاب الوكالة ـ باب وكالة الشاهد والغائب جائزة ج٤ ص ١٤٠ .

[٤] صحيح البخاري ـ كتاب الاستقراض ـ باب لصاحب الحق مقال ج٤ ص ٢٠٠ .

[٥] صحيح البخاري ـ كتاب الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله " ﷺ " ج١ ص١١ .

[٦] صحيح البخاري ج٤ ص ٢٩ .

وكانت قد نسجتها بيدها ، وكان " ﷺ " محتاجاً إليها ، ومع ذلك طواها وأرسلها إليه،فقال له الصحابة:ما أحسنت ، سألتها إياه ، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً ؟ [١]

وهذه الجود والكرم منه " ﷺ " كان سبباً في دخول أقوام في دين الله ، ومن ذلك : قصته مع الرجل الذي جاءه يسأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر [٢] .

ولهـــذا قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها ! ! [٣] .

بـــل لقـــد كـــان هذا الجود منه " ﷺ " مثار عجب ، وسبب مودة ، حتى لأعدائه ، يقول صفوان بن أمية بعد أن أعطاه النبي " ﷺ " مائة من النعم ، ثم مائة من غنائم حنين : والله لقد أعطاني رسول الله " ﷺ " ما أعطاني ، وإنه لأبغض الناس إلي فما برح يعطيني ، حتى إنه لأحبّ الناس إليّ ! ! [٤] .

ولفـــرط جـــوده " ﷺ " ، ومعرفة الناس به علقت الأعراب ـــ منصرفه من حـــنين ـــ يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : (أعطوني ردائـــي ، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ، ولا كذوباً ،ولا جباناً) [٥].

وقال عمر " ﷺ " : قسم رسول الله " ﷺ " قسماً ، فقلت : والله يا رسول الله لغـــير هؤلاء كان أحق به منهم ، قال : (إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش ، أو يبخلوني ، فلست بباخل) [٦] .

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب البيوع ـــ باب ذكر النساء ج٤ ص ٢٩.

[٢] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب في سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٢ .

[٣] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٧٢ .

[٤] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٣ .

[٥] صحيح البخاري كتاب الجهاد ـــ باب ما كان بعطى المؤلفة ج ٥ ص ٢٣٤ .

[٦] صحيح مسلم ـــ كتاب الزكاة ـــ باب إعطاء المؤلفة ج ٧ ص ١٤٦.

ولم يقتصر ذلك الجود على المؤلفة قلوبهم ، ومن يطمع في إسلامهم،بل شمل جوده وكرمه صحابته المؤمنين ، فعبد الله بن عمر " ﷺ " كان مع النبي " ﷺ " في سفر ، وكان على بكر صعب لأبيه (عمر) ، وكان هذا البكر يغلب عبد الله ، فيتقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ، ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ، ويرده ، فقال النبي " ﷺ " لعمر : (بعنيه) ، فقال : هو لك يا رسول الله (أى هبة)، قال رسول الله " ﷺ ": بعنيه ، فباعه من رسول الله " ﷺ " ، فقال " ﷺ " : (هو لك يا عبد الله بن عمر ، تصنع به ما شئت) ! ![1] .

وجابر بن عبد الله " ﷺ " يكون مع النبي " ﷺ " في غزاة ن ومعه جمل ثقال قد أعيا به ، وخلفه في أخريات القوم ، حتى زجره النبي " ﷺ " ، فأسرع به ، فطلب منه بيعه عليه فقال : هو لك يا رسول الله ، قال : (بعنيه) فاشتراه منه ، وقال : (لك ظهره إلي المدينة) ، فلما قدم المدينة أوصى بلالاً أن يقضيه ، ويزيد له عن ثمنه ، ثم رد عليه جمله والثمن ! ![2] .

وفوق ما تقدم من كريم خلقه " ﷺ " ، فلم يكن بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح[3] .

ولم يكن " ﷺ " سباباً ، ولا فحاشاً ، ولا لعاناً[4] ، وهو القائل لعائشة " رضي الله عنها " : (يا عائشة ، متي عهدتيني فحاشاً) ؟ ![5] .

وهو الموصوف بالتوراة ببعض صفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وتذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ـــ

---

[1] صحيح البخاري ـــ كتاب البيوع ـــ باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا ـــ ج٤ ص ٤١ ، ٤٢ .

[2] صحيح البخاري ـــ كتاب البيوع ـــ باب شراء الدواب والحمير ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ .

[3] صحيح البخاري ـــ كتاب البيوع ـــ باب كراهة السخب في السوق ج٤ ص ٤٦ .

[4] صحيح البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب لم يكن النبي " ﷺ " فاحشاً ولا متفحشاً ج٩ ص ٢٢٨.

[5] صحيح البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب لم يكن فاحشاً ـــ ج ٩ ص ٢٢٨ .

ليس بفظ ولا غليظ ..) [١] .

وكـــان الصـــدق في الحديث خلقاً من أخلاقه " ﷺ " ، عرفه بذلك العدو والصـــديق ، فأمـــية بن خلف حينما قال له سعد بن معاذ : سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك .

قال : إياي ؟

قال : نعم .

قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث .

وكذا زوجة أمية لما أعلمها بالخبر قالت : فو الله ما يكذب محمد ! ! [٢] .

وأبو سفيان لما سأله هرقل:هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجاب قائلاً:لا،وعندها ردّ هرقل، لم يكن ليذر الكذب على الناس،ويكذب على الله [٣] .

ومشركو قريش كانوا يعرفون هذا الخلق للنبي " ﷺ " فحينما صعد الصفا واجتمع إليه الملأ من بطون قريش قال لهم : (**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي**) ؟ **قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقاً** [٤] .

وفي رواية ، قالوا : ما جربنا عليك كذباً [٥] .

ولم يكن من خلقه " ﷺ " الغدر والخيانة ، بل كان من خلقه الأمانة والوفاء بالعهد ، وهذه أيضاً اعترف بها أبو سفيان للنبي " ﷺ " أمام هرقل [٦] .

---

[١] صحيح البخاري ــ كتاب البيوع ــ باب السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب علامات النبوة في الإسلام ج ٦ ص ٦٦ .

[٣] صحيح البخاري ــ كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

[٤] صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ج٧ ص ٣٦٠.

[٥] صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ باب تبت يدا ج٨ ص٩٣.

[٦] صحيح البخاري باب بدء الوحي ج١ ص١١ .

والتزام النبي " ﷺ " بهذا الخلق جعله يرد أبا بصير ، وأبا جندل عام الحديبية ؛ ـــ مع كرهه والمسلمين لذلك ـــ لأنه عاهد قريشاً على رد من يأتي إليه منهم [١] .

٤ـ حلاوة المنطق :

تميز " ﷺ " بحسن اللفظ ، وجمال المنطق وحلاوة الحديث ، يقول أبو هالة كان رسول الله " ﷺ " متواصل الأحزان [٢] ، دائم الفكرة ، ليست له راحة [٣] طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة [٤]، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى [٥] ويتكلم بجوامع الكلم [٦] ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير [٧] ، ليس بالجافي ولا المهين [٨] ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً، ولا يمدحه [٩] ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدي الحق [١٠]، لم يقم

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب الصلح ـــ باب الصلح مع المشركين ج٤ ص٤٠١ .

[٢] لم يكن حزنه " ﷺ " من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى ، ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته " ﷺ " وتخفيف شدة الأسى عنه .

[٣] والمعنى : أنه " ﷺ " كان دائم التفكر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ، ومن ثم ليست له راحة .

[٤] يعني : أنه " ﷺ " كان طويل الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيتحرز عن الكلام الذي لا فائدة منه ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ .

[٥] والمعنى : أن كلامه " ﷺ " كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدءاً وانتهاءً .

[٦] أي : بكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعان كثيرة .

[٧] يعني : أن كلامه " ﷺ " فاصل بين الحق والباطل ، ومفصل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس ، لا يكثر فيمل ، ولا يقصر فيخل

[٨] أي : ليس هو " ﷺ " بالجافي الغليظ الطبع ، السيئ الخلق ، ولا بالمهين لخلق الله تعالى ، ولا بالمهين أي : المبتذل الذليل ، بل هو الضخم ، المفخم ، الموقر ، المعظم " ﷺ " .

[٩] فهو " ﷺ " يعظم نعم الله تعالى الكبيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه " ﷺ " لا يذم ذواقاً ـــ أي مذوقاً ـــ من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في الذم كفران النعمة ، وهو شأن الترفين المتكبرين ، كما وأنه " ﷺ " لا يمدح ذواقاً ، لأن ذلك شأن ذوى الشره والنهمة المذمومة .

[١٠] أي : فإذا تعدى أحد الحق وجاوزه إلي الباطل ، غضب " ﷺ " غضباً لا يقاومه شيء،ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق بالحق .

لغضبه شئ حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها [١] ، وإذ تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى [٢] .

وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه [٣] ، جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام [٤] .

٥- كمال العقل : لما بلغ النبي " ﷺ " سن الأربعين تميز بكمال العقل ، وحسن تقدير الأمور ، واتخاذ القرار السديد ، ولعل فيما حباه الله به من عمل وترحال ، وأحداث وأهوال ، أثرا في تكامل عقله " ﷺ " .

ومما يدل على هذا الكمال قراره يوم بناء الكعبة ، إذ حكم بين الذين اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه في موضعه حكماً أرضاهم جميعاً مع بساطته ، ويسره .

ومن رجاحة عقله " ﷺ " أنه تمكن من التعامل مع كافة طبقات الناس ، وأنواعهم ، وأجناسهم ، في البيئات المختلفة ، فأقروا له جميعاً بكمال عقله ، وسمو خلقه .

---

[١] والمعنى : أنه " ﷺ " كان إذا أشار إلى شئ : إنسان أو غيره ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمحتقرين لغيرهم ، وإذا تعجب " ﷺ " من أمر ، قلب كفه ، كما هو شأن كل متعجب .

[٢] يعني أنه " ﷺ " إذا تحدث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وزيادة إيضاحه بإشارات الكف ، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اعتناءً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لنفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

[٣] أي إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وأشاح : أي بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه " ﷺ " وإذا فرح " ﷺ " من شئ ، غض طرفه ، ولا ينظر له نظر شره وحرص .

[٤] أي : معظم ضحكه " ﷺ " إنما هو التبسم ، ويفتر : أي يضحك ضحكاً حسناً كاشفاً عن سن مثل حب الغمام في البياض والصفاء ، وحب الغمام هو البرد ـ بفتحتين ـ الذي يشبه اللؤلؤ ، فكان " ﷺ " إذا تبسم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

وكان " ﷺ " صاحب دين ومبدإ لم يفعل شيئاً نهى الله عنه فيما بعد أبداً ، ولم يترك شيئاً أمر به .

ولو تأملنا سائر أعماله " ﷺ " قبل النبوة وبعدها ، نري كل واحدة منها تشهد بكمال العقل ، وحسن التقدير .

وباتصاف محمد " ﷺ " بهذه الصفات التي أكرمه الله بها ، صار مؤهلاً ليكون رسولاً للناس أجمعين ..

***

ـ خامسا ـ

تحبيب الخلاء

لمحمد " ﷺ "

لم تغب ذكريات الماضي عن فكر محمد " ﷺ " ، بل كان يختزنها في باطنه ويغفل عنها لانشغاله بأعماله ، وأسفاره ، فلما تزوج خديجة " رضي الله عنها " ، ورفع الله تعالى عن كاهله عناء الفقر ، ومسئوليات المعاش ، بدأ يعيش حياة الراحة الهادئة ، والطمأنينة السعيدة ، ويستعد للمسئوليات الجسام .

ومن خصائص النفس أنها تكون مشغولة مع صاحبها دائماً ، فهي معه في مسئولياته ، وقضاياه ... فإن استراح وسكن ، وخلا من المهام شغلته هي بما يحركها ويشغلها .

إن النفس البشرية قادرة على التذكر ، والتخيل ، والتفكير ، وهي في حركتها لا تعرف حدود الزمان ، والمكان ، ولا توقفها حواجز السلطة ، والطغيان ويساعدها في حركتها الدائمة السريعة ما يأتيها من عالم الشعور ، وعالم اللاشعور .

وعلماء التربية يرشدون إلي ضرورة إشغال النفس بالحق وتوجيهها نحو النافع المفيد ، وذلك بإيجاد حيز من الدوافع التي تدفع النفس نحو فكر معين مقصود .

لقد بدأ الماضي يعاود محمداً بعد زواجه من خديجة ، وأخذت الذكريات تتحرك أمامه ، وتشغل فكره ، وتدعوه إلي التأمل فيها ، وفيما وراءها .

لقد عاش في ديار بني سعد ، وشق صدره .. ورعي الغنم ، وعاشر الرعاة ، وعاش الخلاء ، وسمع كلام الأحبار ، والرهبان ، والكهان ، وسافر للمدينة وللشام ، وباع ، واشتري .

وقابل أشتاتاً من الناس ، وسمع ألواناً عديدة من الأفكار والمذاهب ، والأديان .

ورأي في مكـة بعض الحنفاء ينكرون علي العرب ما هم فيه من بعد عـن دين إبراهيم " عليه السلام " ، لقـد عـاش " ﷺ " حياة عملية ممتلئة بالحوادث ، والاتجاهات ، وقد عادت نفسه لذلك كله، وتذكره عقله " ﷺ " في تحليل نظرى ، وتأمل فكري للوصول إلي شئ من أسرار ذلك كله .

والخلـوة ، والبعد عن الناس من الأمور غير المحببة في حياة البشـر لأن الإنسـان مـدني بطبعه ، يحب الأنس ، ويعشق ملاقات الآخرين ، ويحب التعامل والسمر معهم ، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لوجود هذا الطبع فيه .

والخلاء مع هذا عامل تربوي ، يعلم الصمت والسكون ، ويدفع إلي التأمل والتفكير ، ويساعد علي الطهارة والسمو ، ولذلك كانت العبادة في جوف الليل من عظـائم الأمور ، وكان قرآن الفجر مشهودا ، وذلك لمن جعل خلوته لخدمة القيم والخلق .

وقـد حبـب الله لمحمـد الخلاء ، فكان يخرج من مكة بعيداً عن الصخب والضـجيج ، ويمكـث وحيداً في غار حراء ، ومعه زاده وعدته ، مدة تضم الليالي ذوات العدد ، حيث يقضي شهر رمضان في خلوته ، وانقطاعه عن الناس .

يقول الخطابي : والخلوة يكون معها فراغ القلب ، وهى معينة على الفكر ، وقاطعـة لدعاوى الشغل الفطرى، والبشر لا ينفك عن طباعه ، ولا يترك مألوفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة ، والمعالجة الشديدة ، فلطف الله تعالي بنبيه محمد " ﷺ " في بداية أمره فحبب إليه الخلوة ، وقطعه عن مخالطة البشر ، ليتناسي المألوف من عاداتهم ويستمر علي هجران مالا يحمد من أخلاقهم ، وألزمه شعار التقوى ، وأقامه في مقام التعـبد بين يديه ، ليخشع قلبه ، وتلين عريكته ، فيجد الوحي منه حين وروده مراداً سهلاً ، ولا يصادفه حزناً وعرا ، فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أرصـد له من هذا الشأن ليرتاض بها ، ويستعد لما ندب إليه ، ثم جاءه التوفيق والتبشير ، وأخذتـه

القوة الإلهية ، فحبرت منه النقائص البشرية ، وجمعت له الفضائل النبوية [١] .

وقد كان من عادة مفكري أهل مكة أن ينقطعوا عن الناس مدة كلما جد لهم أمر ، يلجأون خلالها إلي آلهتهم ، وإلي عقلهم بحثاً عن حل لهذا الأمر الذي يشغلهم .

ووجد محمد " ﷺ " في هذا المسلك طريقاً يعيشه في خلوته ، يلتمس أثنائها إشباع مـا يتمني الوصول إليه، ووجد في جبل حراء شمال مكة غاراً يأتيه المكبون فأحـبه ، وأخـذ ينقطع فيه وحيداً ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فكان إذا جاء رمضان يحمل طعامه وشرابه ، ويمكث فيه ، بعيداً عن الصخب والضوضاء . يلتمس الحق ..

وحـــراء جبل بأعلي مكة ، على بعد ثلاثة أميال منها ، على يسار المار إلي مني،ولهذا الجبل قمة مشرفة على الكعبة،وفي قمة الجبل غار عرف بـــ ((غار حراء)) وهو على هيئة حجرة ضيقة ، مستطيلة منحوته داخل قمة الجبل ، أرضها مسطحة وسقفها مقوس ، والغار مفتوح من جهتيه الشمالية والجنوبية ، ويمكن للجالس فيه أن يري الكعبة ، وبخاصة قبل وجود البنايات الحديثة العالية .

إن الخلوة في غار حراء تؤدى إلي القرب من الله،والنظر إلي الكعبة ، ولذلك كان أهل مكة يعظمون هذا الغار ، ويقصدونه بين الحين والحين ، ويربطون بينه وبين الكعبة .

وكـــان " ﷺ " يطوف بالبيت قبل أن يذهب إلي الخلاء ، وكان أول ما يبدأ به إذا انصرف من خلوته أن يطوف بالبيت قبل أن يدخل بيته [٢] .

إن حياة التأمل والتفكير تعرف الإنسان بنفسه ، وترقق مشاعره ، وتبعده عن شواغل المادة ، وتجعله يلتمس القوة في غير سائر المخلوقات ، لأن كل مخلوق ضعيف ومحتاج .

---

[١] سـبل الهـدى والرشاد ج٢ ص ٣١٩ .

[٢] لم تنازع قريش محمداً في خلوته بغار حراء ، لأن عبد المطلب أول من كان يخلو به وكـان لعبد المطلب منزلة فيهم ، فلما خلا محمداً بالغار جعلوه مكان جده .

إن تحبيب النبي " ﷺ " في الخلاء تدريب على تخليه عن الناس ، واتصاله بالملأ الأعلي ، وهو يتلقي وحي الله تعالي ، والذي سوف يتكرر كثيراً ، ويدوم طويلاً .

والخلاء يعلم الإنسان التجرد عن الماديات ، والشهوات المتصلة بها ، وتشعره بقيمة المعنويات والروحانيات الغائبة عن الحواس .

تقــول أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " : (... **ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن يترع إلي أهله ، ويتزود لذلك**) [١] وجاء تعبير الحديث بلفظ (حبب) المبنى للمجهول إشارة إلي أن حب محمد للخلاء لم يكن من بواعثه البشرية ، وإنما كان من الوحي والإلهام [٢] .

يقول ابن هشام : كان رسول الله " ﷺ " يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله " ﷺ " جواره من شهره ذاك ، كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره الذهاب إلي الكعبة ، قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلي بيته [٣] .

وكــان " ﷺ " يطيل النظر في الكون المحيط به في السماء ونجومها، وقمرها وشمسها، وأفلاكها ، ومجراتها ، وصورتها في الليل ، وفى النهار .

ويــتأمل الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، وســاعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر ، أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى .

وينظر في أهل مكة والحياة تشغلهم ، ويتأمل فى الآتين لمكة ، وهم يطوفون بالبيت ، والأصنام أمامهم ! ! ..

كان " ﷺ " يتأمل في كل ذلك وفى غيره يلتمس معرفة هذا الــوجود ، وما

---

[١] صحيح البخاري ــ كتاب بدء الوحي ج١ ص ٢١ .

[٢] فتح الباري علي صحيح البخاري ج١ ص ٢٢ .

[٣] السيرة النبوية ج١ ص ٢٣٦ .

وراءه من سبب وغاية ! ! ! ..

في هذا الكون المتحرك كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون ، وليخترق الحجب وصولاً إلي مكنون سره .

ولم يكـــن في حاجة إلي كثير من التأمل ليرى أن ما يباشره قومه، من شئون الحياة وما يتقربون به إلي آلهتهم ليس حقاً .

فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر تصيبه !

وما هبل،واللات، والعزى ؟ ! ! ..

وكيف تكون آلهة ، وهي مصنوعة بأيديهم ؟ ! !

وما كل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، إنها لم تخلق يوماً ذبابة ، ولا جادت مكة بخير ! .

ولكن !

أين الحق إذاً ؟

أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه، وسماواته، ونجومه ؟

أهـــو في هـــذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلي الناس النور، والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ، وتأتي للناس ، ولأهل الأرض كافة من خلائق ، أسباب الحياة من الماء ، والهواء ، والنور ، والدفء ؟

كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء .

أهو فيما يتصوره وراء هذه الأفلاك من أثير لا حد له ، ولا نهاية له ؟

ولكن ما الأثير؟

وما هذه الحياة التي تحيا اليوم فتنقضي غداً؟ ، ما أصلها؟ ! وما مصدرها ؟ !

أمصادفة تلك التي أوجدت الأرض ؟ ! وأوجدتنا عليها ؟

لكن للأرض وللحياة سنناً ثابتة لا تبديل لها، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها .

وما يأتي الناس من خير أو شر ، أفيأتونه طواعية واختياراً ؟ ! !، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ ! !

لقد رأى محمد " ﷺ " بثاقب فكرة أن عناصر الكون خاضعة لقوة مجهولة هي أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ، واحدة هي بالضرورة لا تتعدد ، عالمية ، شاملة ..لأن الوجود كله واحد .

إن عناصر الكون تشغل فكره ، وديمومتها المستمرة تدفعه إلى النظر ، والتدبير فيسائل نفسه ، ويعاود النظر ، هنا تارة ، وهناك تارة أخرى .

ها هى الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور هنا وهناك، فتصيره جواهر تتلألأ ، وأضواء تبرق ، وجمالاً ينساب بين الكائنات، فينشغل بها ! ! .

ثم هـا هى الشمس في كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل بأثواب الضوء البراقة لتنشرها على الأرض في حسن ، وشمول، فيأخذه بهاؤها ! ! .

وهـا هى ذى الأرض هامدة، ساكنة، مستسلمة، كجثة لا حياة فيها .. ثم ماذا ؟ ! ..

وها هى أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها ، في سخاء ، وهدوء، وتنسحب كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغيبها بلا استئذان..وتنتهى ! !

ثم هـا هـو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألوان الطيف السبعة ، ويتألق في وسطه القمر الذى يزهو بما يصدر عنه من شرر، يتحول إلى الآلاف المؤلفة من النجوم، والكواكب، ليخلف القمر حتى الصباح ! ! .

وها هى تلك الأعمدة المختالة تتلهى بها الرمال ، عند هدوء الجو ، بإقامتها ثابتة تحت القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير، وبعثت بالأتربة من بطون الوديـان قاذفة بها في هجوم عنيف، على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ، هكذا بعد الهدوء ! ! .

وهـا هـى ذى قوافل الغيم ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حتى تبعدها عن قمم الجبال ، فتضطر إلى الهجرة قبل أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها ، بلا خيار ، ولا قصد ، ولا معرفة ! ! ..

وها هى تلك العواصف الممطرة تتفجر شآبيبها الهطالة، فتصب على الجبال العريانه أنهاراً من المياه ، عنيفة جارفة ، لها دوى ، ولها زئير .

أمـام هذه العناصر الكونية الهائلة، العاتية، التى لم تجرؤ قط ، رغم جبروتها على عدم الخضوع ، ولو شروى نقير ، للقوانين التى تسيرها والتى فرضتها عليها القوة السامية العليا .. إن كل عنصر في فلكه يسبح ، وكل عنصر لا يملك إلا الاستسلام ، والخضوع ... وهكذا رأى الكون فى جملته قوياً ، شديداً ، وفى نفس الوقت وجده خاشعاً ، ذليلاً .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وهوانها ! !..

ولكم بدا له غرور العقل ، وضلاله ! ! . .

ولكـم رأى خـداع الحس بالمحسوس ، وخيبة الاستدلال بالماديات ! ! ..

أجـل ، وكـم من سخرية في أن تثق الإنسانية بالمحسوسات ، مع أنها ترى السراب صورة براقة من موجات الأثير الفائر ليشهدها بذلك على غرورها المطلق !

في مـثل هذه الأمور النفسية وغيرها كان محمد "ﷺ" يفكر أثناء انقطاعه، وتعـبده بغار حراء ، إذ ليس أمامه إلا هذا التدبير .

وكـان يتمنى رؤية الحق فيها ، وفي الحياة جميعاً ، وكان تفكيره يملأ نفسه وفـؤاده، وضـميره، وكل ما في وجوده ، ويشغله لذلك عن هذه الحياة، وصبحها ومسـائها فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلي خديجة، وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله ، تريد أن تطمئن إلي أنه بخير وعافية .

ولكن . .

بأى نسك كان محمد يتعبد أثناء تحنثه ذاك، وعلى أى شرع بذاته كان يعمل ؟

هذا أمر اختلف العلماء فيه ، وقد روى ابن كثير في تاريخه طرفاً من آرائهم في الشرع الذى كان يتعبد عليه .

فقيل : كان " ﷺ " يتعبد بشرع نوح " عليه السلام " وقيل كان يتعبد بشرع إبراهيم " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع موسى " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع عيسى " عليه السلام " .

وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به .

ولعل هذا القول الأخير أقوم من غيره ، فهو الذى يتفق، وما شغف محمد به من التأمل ، ومن التفكير ، وما عرف عن غياب الشرائع يومذاك ، حتى أن كثيراً من الحنفاء لم يصلوا إلى شئ رغم ما بذلوا من جهد للوصول إلى دين حقيقي .

واستمر محمد على عادته تلك في حب الخلاء ، والانقطاع له ، ومداومة البحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليه بنزول الوحي ، وبدء الرسالة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[1] .

يذهب المفسرون في بيان المعنى المراد من الضلال إلى معان كثيرة :ـ

ـ فهو بمعنى الغفلة عما يراد بك من أمر النبوة .

ـ وبمعنى عدم معرفة دين وشرع ما ، فهداك الله للإسلام وشريعته .

ـ وبمعنى في وسط ضلال قومك وكفرهم فهداهم الله بك .

ـ وبمعنى الحيرة فيما ترى ، فعرفك بالصواب والحق[2] .

وهذه المعاني تلتقي في معنى عام واحد ، وهو أن الرسول " ﷺ " كان يبحث عن طريق الحق والهدى ، وسط قومه الغافلين ، ولم يكن يتصور أن النبوة ستأتيه ،

---

[1] سورة الضحى آية (٧) .

[2] أنظر : تفسير القرطبي ج٢٠ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وكثيراً ما أضنته الحيرة ، والقلق حتى جاءه جبريل " عليه السلام " فأرشده إلى صراط المستقيم .

والمعاني تدور مع أحوال محمد " ﷺ " قبل المبعث ، ومع بحثه الدءوب الحقيقة التي هداه الله إليها ، وعرفه بها ، فكانت الرسالة والبعثة .

* * *

المبحث العاشر

بدايات الوحي

وبلغ محمد " ﷺ " سن الأربعين ، وكمل في ذاته ، وأصبح مستعداً لتكميل الآخرين ، وهنا جاءه وحي الله ، كما هو الشأن مع جميع الأنبياء ، والمرسلين [١] يروي البخاري عن ابن عباس " رضي الله عنه " أنه قال : (**أنزل الوحي علي رسول الله " ﷺ " وهو ابن أربعين سنة**) [٢] .

لقد حاول محمد " ﷺ " الوصول إلي الحقيقة المتصلة بالوجود ، والحياة ، وطال تفكره وتدبره ، ولم يصل إلي ما يتمني ، ويريد .

إنه يسمع عن دين الله ، وأنبياء الله ، لكنه لا يعرف حقيقة الألوهية ، وحقوقها ، ويجهل كل ما يتصل بالنبوة ، والرسالة ، وإدراكه للملإ الأعلي ساذج وبسيط ، والأسرار من حوله تتكاثر ، وتتعدد ، وكلما طال تأمله تشعبت مناحي النظر ، وبعدت عنه الأسرار ، والغايات .

والعقل مهما سما إدراكه ، ومهما دق فكره ، ومهما تعمقت تأملاته ، ونظراته ، لا يمكنه أن يصل إلي شئ من حقائق هذا الوجود ، ولا بد له من وحي الله يكشف له الأسرار التي يحتاج إليها .

ومحمد " ﷺ " مع صفاء نفسه ، وكمال عقله ، وسمو روحه يحتاج إلي فيوضات الله تهديه للحق ، وتنقذه من الحيرة ، وتعرفه بالحقائق الدينية التي لا يمكن للعقل أن يصل إليها .

كما يحتاج لرحمة الله مراعاة لجانب البشرية فيه ، حتي لا تفاجئه روحانية الوحي ، وغرائب الملإ الأعلي .

---

(١) شرح النووي علي صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

(٢) صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب صفة النبي " ﷺ " ج ٦ ص ٢٦ .

ويحتاج كذلك إلي تعلم كيفية الاتصال بخالقه، والتعامل مع الملائكة، واستقبال الوحي بمختلف صوره وأشكاله .

وقد تجلت فيوضات الله تعالي علي محمد " ﷺ " بصورة رقيقة ، شفيفة عمادها الرحمة والمودة ، وعناصرها الترقي ببشرية محمد ليكون نبياً ورسولاً .

وكانت رحمة الله مع محمد " ﷺ " حين جاءه وحي الله تعالي ، إذ كلفه بالنبوة أولاً ، وجاءه الوحي ينبئه ، ومن المعروف أن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلما خبر " ﷺ " الوحي ، ورأى صوره، وأنواعه، وأصبح متآلفاً مع لقائه جاءته الرسالة ، فصار رسولاً نبياً .

والنبوة أخص من الرسالة ، لأن النبوة تعني نزول الوحي من عند الله، إلى من يختاره الله تعالي من الناس، ليعلم، ويعمل بما أوحى به ، وهي تعليم لمن تنبأ خاصة، أما الرسالة فإنها الوحي يأتي للشخص المختار علي أن يعلمه ويقوم بتبليغه للناس ويعمل به، فهو رسول الله إليهم .

وعلي هذا فكل رسول نبي ، وليس بلازم أن يكون النبي رسولاً ...

ولقد نبئ محمد " ﷺ " وجاءه الوحي من عند الله ، واستمر علي ذلك مدة تعد تمهيداً لإرساله ، أراد الله أن يهيئه خلالها للتعامل مع الملائكة ، والاتصال بالله، ويعرفه كذلك بكل ما تحتاجه الرسالة من أمور لابد منها للرسول المختار .

إن الرسول بشر يتصل بالله ، وبالناس ، ولا بد له أن يتصف بصفات ذاتية ترتقي به إلي درجة الكمال البشري ، والسمو الروحي ليسهل عليه الاتصال بالملإ الأعلي بجانبه الروحي ، والتعامل مع الناس بجانبه البشري في توازن ، وإنسجام .

وقد بدأت نبوة محمد بأوليات الوحي كما أرادها الله تعالي ، ولم يكلف بالرسالة إلا بعد أن أصبح مؤهلاً لها ، مستعداً للقيام بواجبها [1].

---

[1] أنظر : أعلام النبوة للماوردى ص ١٧٥ ـــ ١٨٠ ؛ ويرى الماوردى أن الوحي تدرج مع رسول الله مرة بعد أخرى ، فبدأ بالرؤيا ثم بالنداءات ، ثم بالنبوة ، ثم بالرسالة .. إلخ .

لقد كان " ﷺ " في مرحلة النبوة يخاف من الوحي يأتيه بإحدي صوره ، ولذلك كان يأتي لخديجة شاكياً ، ويقول لها : " خشيت علي نفسي " ويصف الرجل الذي يظهر أمامه (ويقول : سطاً علي الرجل) وكان يجري منه محاولاً الهرب من أمامه ، أما في مرحلة الرسالة فكان يأنس بالوحي ، ويتعجله ، ويخاف أن يتركه ولا يأتيه ..

ولقد اختلف الوحي مع محمد " ﷺ " في فترة النبوة عن الوحي في فترة الرسالة ، يقول القاضي عياض : وإنما بدأ الوحى مع رسول الله " ﷺ " بالرؤيا ، لئلا يفجأه الملك ، ويأتيه بصريح النبوة بغتة ، فلا تتحملها قواه البشرية ، فبدئ بأوائل خصال النبوة ، وتباشير الكرامة ، من صدق الرؤيا ، وما جاء من رؤية الضوء ، وسماع الصوت ، وتسليم الحجر ، والشجر، عليه بالنبوة ، حتي يستشرف عظيم ما يراد به ، ويستعد لما ينتظره ، فلم يأته الملك إلا بأمر عنده مقدماته [1].

يقول ابن كثير : وبدء الوحي بصورة التدرج يهدئ القلب ، ويطمئن النفس ..

ومن صور الوحى في بدايته ما يلى : —

١ ـ الرؤيا الصادقة :

إذا نام الإنسان انقطع عن عالم الناس ، وعاش مع باطنه ، وإدراكاته اللاشعورية ، وخلال النوم تهيم نفس النائم في رؤى تتضمن أفكاراً ، وأحداثاً ، لا يمكن له أن يتصور حدوثها في حالة اليقظة ، ولذا كانت الرؤى المنامية تدريباً للإنسان وهو في عالم اللاشعور ، على ما سوف يراه في عالم الإدراك والشعور .

إن علماء النفس المعاصرين يزرعون في الإنسان مبادئهم الضارة، وقيمهم المادية، وهو نائم،وذلك بوضع تسجيل صوتى تحت رأسه وهو نائم تحببه فيما يرغبون ، وتتحدث عن مزايا ما يدعون إليه ، فإذا ما استيقظ الإنسان يجد عقله مشغولاً بما سمعته روحه أثناء نومه ، من غير إدراك سبب هذا الانشغال .

---

[1] الشفا ج ١ ص ٣٦٠ بتصرف .

إن هذه المقدمة بيان لأهمية الرؤى ، وإبراز لدورها في تهيئة الإنسان لأحداث عالم اليقظة ، وبخاصة إذا كانت الأحداث غريبة مدهشة .

ولقد كان من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة تقـول السـيدة عائشة "رضي الله عنها": **(أول ما بدئ به رسول الله " ﷺ " من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم،فكان لا يري رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)**[1] وبذلـك كان الوحي يعلم رسول الله وهو نائم بما يريده الله تعالي في رؤى صادقة ، صالحة ، خالية من الضغث ، والوهم ، وكانت رؤى الوحي في وضوحها، وظهورها تشبه ضوء الصبح في بيانه ، وسطوعه .

جـاء في فتح الباري أنه ثبت في مراسيل عبيد بن عمير أنه "ﷺ" أوحي إليه أولاً في المنام حتي أتاه الملك بعد ذلك في اليقظة على الصورة التي أتاه بها في المنام[2] وقد تعددت الرؤى المنامية لرسول الله " ﷺ " ، وكان يندهش لذلك ... ومنها[3] .

ـــ رأي أن آت أتاه ، ومعه صاحبان له ، فنظروا إليه فقالوا : هو ، هو ، ثم ذهبوا... فهاله ذلك ، وتساءل عما رأى ، وعن حديثهم أمامه ، فقال له عمه أبو طالـب : يا ابن أخي ليس بشئ .

ـــ وأتـاه هذا الآتي مرة أخري ، فجاء لعمه ، وقال له : يا عم سطا بي الرجل الذي ذكرت لك، فأدخل يده في جوفي حتي أني أجد بردها ، فخرج به عمه إلي رجل من أهل الكتاب يتطيب بمكة، فحدثه حديثه ، وقال عالجه، فصوب به، وصعد، وكشف عـن قدمـيه ، ونظر بين كتفيه ، وقال : يا ابن عبد مناف ابنك هذا طيب طيب، لـلخير فـيه علامات ، إن ظفرت به يهود قتلته ، وليس الرائى شيطاناً ، ولكنه من النواميس الذين يتحسسون بها القلوب للنبوة ، فرجع به .

---

(١) صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الوحي ج١ ص ٥ .

(٢) فتح الباري ـــ كتاب الوحي ج١ ص ٢٢ .

(٣) أنظر : سبل الهدي والرشاد ج٢ ص ٣١٠ ـــ ٣١٢ .

- رأى في منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبه، وأدخل فيه سلم من فضة ، ثم نزل إليه رجلان ، فأراد أن يستغيث فمنع من الكلام ، فقعد أحدهما إليه ، والآخر إلي جنبه ، وأدخل أحدهما يده في جنبه فنزع ضلعين منه ، وأدخل يده في جوفه ورسول الله " ﷺ " يجد بردها، فأخرج قلبه، فوضعه علي كفه، وقال لصاحبه : نعم القلب قلب رجل صالح ، فطهر قلبه وغسله ، ثم أدخل القلب مكانه، ورد الضلعين ، ثم ارتفعا، ورفعا سلمهما ، فإذا السقف كما هو ، فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد فقالت له : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً ، هذا خير فأبشر .

- ورأي في منامه جبريل ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال له : إقرأ .

فقال له : ما أقرأ .

فغته به حتي ظن رسول الله " ﷺ " أنه الموت ، ثم أرسله فقال : إقرأ .

قال " ﷺ " : ما أقرأ .

فغته به حتي ظن رسول الله " ﷺ " أنه الموت، ثم أرسله فقال له : إقرأ.

قال " ﷺ " : ماذا أقرأ ، ما قال ذلك إلا افتداء منه أن يعود إليه بمثل ما صنع .

قال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ .

فقرأها رسول الله " ﷺ " ثم انتهي فانصرف جبريل، وهب رسول الله " ﷺ " من نومه ، قال : فكأنما كتب في قلبي كتاباً فذكر ذلك لخديجة فقالت : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً .

وهكذا . . .

تعددت الرؤى ، وركزت علي قضية إعلام الرسول بنبوته ، وتطهيره ، وإعلامه ما ينتظره من أحوال ، وأعمال ، حتي لا يفجئه الملك علي صورته الحقيقة ، فيصاب بالخوف ، والاضطراب .

٢ ـ نداءات الملائكة :

من صور الوحي الذي بدأ برسول الله " ﷺ " نداء الملائكة عليه ، وإعلامهم إياه بنبوته، وهو لا يعرف المنادى ولا يمكنه تحديد مصدر النداء . .

من ذلك ما رواه ابن كثير بسنده أن رسول الله " ﷺ " قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر .

قالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك، فو الله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

فلما دخل أبو بكر ، قالت له خديجة: يا عتيق أذهب مع محمد إلي ورقة [1].

فلما دخل رسول الله " ﷺ " أخذ أبو بكر بيده ، فقال : انطلق بنا إلي ورقة .

قال : ومن أخبرك ؟

قال : خديجة .

فانطلقا إليه ، وقال رسول الله " ﷺ " له : إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفي يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض .

فقال له : لا تفعل إذا أتاك فاثبت ، حتى تسمع ما يقول لك ، ثم ائتني فأخبرني .

فلما خلا ناداه يا محمد قل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قل لا إله إلا الله ، فأتى محمد ورقة فذكر له ذلك ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ، وإنك علي مثل ناموس موسى ، وإنك نبي مرسل [2] .

ويقول النبي " ﷺ " : (خرجت مرة حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى

---

(1) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة " رضى الله عنها " ، آمن بمحمد يوم أن جاءه يسأله ، فلما توفي قال الرسول " ﷺ " عنه : لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب بيض ، لأنه آمن بي ، وصدقني ، ويقول " ﷺ " : لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين (سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨) .

(2) البداية والنهاية ج٣ ص ٩ .

السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، فرفعت أنظر إليه فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم ، أمامى، وما أتأخر ورائى، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكانى ذلك، ثم انصرفت راجعاً إلى أهلى .

حتى أتيت خديجة فجلست إليها فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فو الله لقد بعثت رسلى في طلبك، فبلغوا مكة، ورجعوا إلىّ ! ! .

ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذى نفسى بيده إنى أرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، فأخبرته بما أخبرها به. فقال ورقة : قدوس قدوس ! ، والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولى له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله " ﷺ " فأخبرته بقول ورقة .

وفى مرة تالية قضى رسول الله " ﷺ " جواره، وانصرف يصنع كما كان يصنع ، حيث بدأ بالكعبة فطاف، فلقيه ورقة عند الكعبة، قال له : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فلما أخبره قال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتقاتلنه ولتوذينه ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه .

ويقول " ﷺ " لخديجة : لما قضيت جوارى، هبطت فنوديت، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً، فنظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً بين السماء والأرض فقلت : دثرونى دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً [1] ..

---

[1] صحيح البخارى ـــ كتاب التفسير ـــ باب سورة المدثر ج ٨ ص ٦٢ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢ ، ١٣.

إن نـــداءات الملائكة لرسول الله ، وتعجبه مما يسمع دفعه إلى معرفة شئ من أسرار ما يسمع ، ولذلك كان يرجع لخديجة يقص عليها ما رأى .

وكانت خديجة " رضي الله عنها " خير معين لرسول الله " ﷺ " ، تسمع منه وتجتهد في معرفة أسباب ذلك ، وتسأل أهل الكتاب عن خبر ما يسمع، وتخبر زوجها رسول الله " ﷺ " بما يسر ى عنه ، ويطمئنه .

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه ، وتطمئنه " رضى الله عنها " قالت له مرة : يا ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم .

قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل ، فقال رسول الله " ﷺ " : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني .

فقالت : قم يا ابن عمى فأجلس على فخذى اليسرى .

فقام رسول الله " ﷺ " فجلس عليها ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالـــت : فتحول فاقعد على فخذى اليمنى ، فتحول رسول الله " ﷺ " فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

فحسرت فألقت خمارها ورسول الله " ﷺ " جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يابن عم اثبت وأبشر فو الله إنه لملك، ما هذا شيطان [١] .

٣ ـ كلام الشجر والحجر :

يروى ابن سعد بسنده أن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله كرامته، وابتداءه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضى إلى الشعاب ، وبطون

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٤ ؛ البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ ، ١٦ .

الأودية ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى أحداً [١].

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : إني أعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن [٢].

وقال محمد بن عمر بسنده عن برة بنت تجراة قالت : إن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله تعالى كرامته، وابتداءه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد، حتى تحسر عنه البيوت، ويفضى إلي شعاب مكة، وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر، ولا شجر، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله " ﷺ " خلفه، وعن يمينه، وعن شماله فلا يرى إلا الشجر ، وما حوله من الحجارة ، وهي تحييه بتحية النبوة : السلام عليك يارسول الله [٣].

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالي أن رسول الله " ﷺ " قال : يا خديجة إني أرى ضوءاً ،وأسمع صوتاً ، لقد خشيت أن أكون كاهناً ، فقالت : إن الله تعالي لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم [٤].

٤ـ لقاء الملائكة :

من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن أخذ يهيئه للقاء ملك الوحى ، وذلك بإرسال الملائكة إليه ، تعلمه كلمة، أو شيئاً ما ، ليستعد بذلك على ملاقاة جبريل " عليه السلام " .

---

[١] طبقات ابن سعد ١ / ١٥٧ .

[٢] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل باب تسليم الحجر عليه ج ١٥ ص ٢٦ .

[٣] طبقات ابن سعد ج١ ص ١٥٧ .

[٤] المرجع السابق ج١ ص ١٩٥.

يروى ابن سعد أن رسول الله " ﷺ " لما نزلت عليه النبوة كان يأتيه " إسرافيل " واستمر معه يعلمه الكلمة ، والشئ ، ولم ينزل شئ من القرآن على لسانه [١] ، يقول أبو شامه : إن " إسرافيل " كان يأتي النبي وهو في غار حراء، فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة ، ولا يقيم معه ،تدرجاً وتمريناً ..

وأحياناً كان يأتيه جبريل بصحبة ملك آخر ، يقول ابن عباس " ﷺ " : كان رسول الله " ﷺ " ذات يوم وجبريل على الصفا فقال رسول الله " ﷺ " يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق، ولا كف من سويق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله " ﷺ " : أ أمر الله القيامة أن تقوم ؟

فقال جبريل : لا ولكن أمر الله إسرافيل فنزل إليك، حتى يسمع كلامك .

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله تعالى بعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض إليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة، فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأوما إليه جبريل : أن تواضع .

فقال رسول الله " ﷺ " : بل نبياً عبداً ، ثلاثا [٢] .

ويقول البراء بن عازب " ﷺ " : أتاه جبريل وميكائيل ، فنزل جبريل وبقى ميكائيل واقفاً بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه ، أهو هو ؟

قال : هو هو .

قال : فزنه برجل ، فوزنه به فرجحه رسول الله " ﷺ " .

قال : زنه بعشرة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بمائة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بألف ، فوزنه فرجحهم .

---

[١] طبقات ابن سعد ج١ ص ١٩١ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٣١٠ .

ثم جعلوا يتساقطون عليه من كفة الميزان .

فقال ميكائيل : تبعته أمته ورب الكعبة ، ثم أجلسني على بساط كهيئة الدرنوك ، فيه الياقوت، واللؤلؤ ، فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه ، فشقه، فأخرج منه مغمز الشيطان، وعلق الدم فطرحها ، فقال أحدهما لصاحبه : أغسل بطنه غسل الإناء ، وأغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خط بطنه ، فخاطه ، ، ثم أجلساه فبشره جبريل برسالة ربه حتى اطمأن النبي " ﷺ " [١] .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس " ﷺ " قال : بينما النبي " ﷺ " جالس ، وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق ، فرفع جبريل بصره إلي السماء فقال : يامحمد هذا ملك قد نزل ، لم ينزل إلي الأرض قط .

فأتي النبي " ﷺ " فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته [٢] .

٥ـ مجئ جبريل بالقرآن :

استمر الوحي بمقدماته مع رسول الله " ﷺ " على النحو المبين ، وأدرك محمد " ﷺ " أن أمراً عظيماً ينتظره ، وسمع من زوجته ، ومن ورقة ، ومن غيرهما أن الذى يراه ، ويسمعه هو الوحي الذى كان يأتي موسى ، وعيسى والأنبياء من قبله " عليهم صلوات الله وسلامه " .

وشيئاً فشيئاً بدأ يطمئن لما يرى، ويثق فيما يسمع حتى جاءه جبريل " عليه السلام " بأول آية قرآنية أمره الله تعالي أن يقرئه بها ، تصور السيدة عائشة " رضى الله عنها " نزول جبريل بأول آية قرآنية على رسول الله " ﷺ " فتقول " رضي الله عنها " :جاءه الملك (أى جبريل) وهو في غار حراء ، فقال : إقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

---

[١] انظر ص ١٩٠ وما بعدها .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ .

يقول النبي " ﷺ " : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ ﴾ .

فرجع بها رسول الله " ﷺ " ترجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد " رضي الله عنها " فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

ثم قال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة له : كلا ، أبشر ، فو الله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة لأبيها ، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي والعبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد عمي في شيخوخته .

فقالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره النبي " ﷺ " خبر ما رأى .

فقال له ورقة: هذا الناموس الذى انزل الله على موسى، ياليتنى فيها جذعاً، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله " ﷺ " : أو مخرجي هم ؟

فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى [١] .

ومع أن النبى " ﷺ " كان يبحث عن الهداية التى جاءته ، ومع أنه كان على يقين بالفوز العظيم بمجئ جبريل ، ولذلك قال لخديجة : أرأيتك الذى كنت أخبرتك أن رأيته في المنام ؟ فإنه جبريل ، استعلن لى ، وأرسله إلى ربى . . . ومع كل ذلك فإنه " ﷺ " أصيب بالروع ، وخشى على نفسه .

وهذا الخوف الذى عاشه النبى " ﷺ " في لقاء جبريل " عليه السلام " جعل البعض يتساءل عن سبب هذا الخوف لأن المقام مقام سرو،ورضى،وليس مقام رهبة، وهلع .

وقد تناول العلماء هذه المسألة، ورأوا أن الخوف لم يكن من النبوة ، أو من الوحى ، وإنما كان من تصوره أذى يأتى من الغط الشديد . أو من ثقل المسئولية ، أو لأن الحوار لم يكن عادياً . فلقد أمر جبريل"عليه السلام" محمداً " ﷺ" بالقراءة ثلاث مرات،وغطه بشدة ثلاث مرات أيضاً،والرسول يقول له : ما أنا بقارئ،وينتشر خبر ذلك عند خديجة،وأبى بكر،وورقة ، ويتحدث عنه أهل مكة ، ليكون حديثهم تعريفاً بمحمد ، وتنبيها على منزلته عند الله، والناس ، فضلاً من الله ونعمة .

يقول الإسماعيلى : إن العادة جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى الله تعالى بإيصاله إلى الخلق أن يتقدمه ترشيح وتأسيس ، وكان ما يراه النبى " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك ، فلما جاءه الملك فجأه بغتة بصورة تخالف العادة والمألوف ، نفر طبعه البشري منه ، وهاله ذلك ، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال ، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه ، وينفر طبعه منه، حتى إذا اندرج عليه، وألفه استمر عليه ، فلذلك رجع إلى خديجة التى ألف تأنيسها له ، فأعلمها بما وقع له ، فهونت عليه خشيته ، مما عرفته من

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الوحى ج ١ ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة ، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة، لمعرفتها بصدقه، ومعرفته، وقراءته الكتب القديمة ، فلما سمع كلامه أيقن بالحق، واعترف له، وأشار الإسماعيلي كذلك إلى أن الحكمة في ذكره " ﷺ " ما اتفق له في هذه القصة: أن يكون سبباً في انتشار خبره ، في بطانته ، ومن يستمع لقوله ، ويصغى إليه ، طريقه في معرفتهم مباينة من سواه في أحواله لينبهوا على محله [1] ويعرفوا مقامه " ﷺ ".

ومع لقاء جبريل برسول الله" ﷺ" وإقرائه أول سورة العلق نلاحظ بعض الملاحظات:

الأولى : غط جبريل رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات، ليجعل التفاته، وفكره إليه وحده، دون الانشغال بغيره، ويعرفه بثقل الرسالة ، وضخامة المسئولية ، ويتعود على التلقي من الوحي فقط .

وليكن صبوراً حين التبليغ .

ويعلم أن تكرار الطلب منهج في نشر دين الله تعالي .

وليتأكد " ﷺ " بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة ، وليست خيالاً أو وهماً .

لقد كان جبريل " ﷺ " في أشد الاشتياق للقاء محمد " ﷺ " ولذلك ضمه إليه ، وقبله أكثر من مرة .

كان من الممكن أن يلقن جبريل " عليه السلام " محمداً " ﷺ " بما يلقنه شفاهة من بعد، ويمضي ، لكنه فعل ذلك بأمر الله تعالى، ليؤكد خطورة الأمر، وأهميته، وضرورة بذل الجهد ، وتحمل المشاق في أداء الواجبات الخطيرة ، وهل هناك أخطر من مهمة الرسالة، والدعوة ؟ ! ! .

وكان من الممكن أن يتم اللقاء مناماً ؛ لكن الله تعالى أراد أن يطلع رسوله الأمين محمد " ﷺ " على صورة روحه الأمين ، كما أراد له أن يعرف أهم صور

---

[1] فتح الباري على صحيح البخاري ج ١٢ ص ٣٦٠ .

الوحي بعد أن عاش الرؤى ، وسمع النداء ، وشاهد الجمادات تناجيه ، وعاش الخلوة بفكره ، أراد الله له بعد ذلك أن يتعود على صورة الوحي التي ستستمر معه ، وقد كان ، فجاء جبريل وأقرأه أول سورة العلق .

الثانية : في بدء الوحي بـ : " إقرأ " بيان لموقف الإسلام من القراءة ، ومن العلم كله ، فالقراءة أساس معرفة الدين ، بها يحفظ القرآن ، وتصان السنة ، وتفهم الشريعة ، وبها تكون الدعوة ، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة ، وتحافظ على الضرورات الشرعية جميعاً ، وتنظم كافة جوانب الحياة .

الثالثة : قدمت خديجة " رضي الله عنها " مع رسول الله " ﷺ " صورة للزوجة العظيمة المثالية ، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة ، بلحظة ، تتمنى له الخير ، تشاركه في كل ما يعن له ، وتهتم بكل ما يهمه .

لقد أعطته مالها فأغنته " ﷺ " به ، وأبعدته عن متاعب الفقر ، ومشاغله ، ولما بدأ الوحي مناماً ، ونداء ، وضوءاً كانت تطمئنه ، ولكنها من ورائه كانت تبحث عن حقيقة ما يرى " ﷺ " خوفاً عليه ، وحذراً .

وكان " رضي الله عنها " إذا غاب عنها ترسل في طلبه من يبحث عنه [(١)] ..

كما ذهبت وحدها إلى ورقة ، وأخبرته بخبر زوجها ، تريد أن تعرف شيئاً عنه ، فقال لها ورقة : قدوس ، قدوس ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة [(٢)] .

ولم تكتف بما سمعت من ابن عمها ورقة ، بل ذهبت مرة أخرى إلي غلام لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، نصراني من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له : يا عداس ، أذكرك الله إلا ما أخبرتني : هل عندكم علم عن جبريل ؟

قال عداس: قدوس ، قدوس،ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان .

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ١٣ .

(٢) أنظر ص ٣١٢ .

فقالت : أخبرني بعلمك فيه .

قــال عداس : هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى " عليهما السلام " (١) .

لــقد تميزت خديجة " رضي الله عنها " بكمال الخلقة ، والخلق ، يقول عنها " ﷺ " : (**خير نسائها خديجة بنت خويلد**) (٢) وقد جعلت عقلها الكامل في خدمة محمــد " ﷺ " ودعوته ، وكانت " رضي الله عنها " خير معين لمحمد " ﷺ " ولذلك بشرها الله ببيت في الجنة (٣) ..

ونلحظ مدى ملاطفتها ، وتقديرها لزوجها في مناداته يا ابن عم .. ولذلك فقد استحقت التقدير من رسول الله " ﷺ "،يقول " ﷺ " : " إني رزقت حبها " (٤)

فتور الوحى :

واطمأن محمد " ﷺ " لصدق ما رأى ، وما سمع ، وتيقن أن الذى كان يأتيه هو وحى الله ، وتأكد أنه فاز بذلك فوزاً عظيما .

وحتى يستــوعب كل ما رأى ، وتهدأ نفسه فتر الوحى ، وانقطع عنه جبريل " عليه السلام " فمكث " ﷺ " أياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً، وأخذ يدور بسببه بين رءوس الجبال عساه يراه ، ويحدثه ، وحاول أن يتردى من رءوس شواهق الجبال من شدة ألمه لانقطاع جبريل عنه .

وقد شق هذا الفتور على رسول الله " ﷺ " لأنه لم يكن خوطب بعد من الله بأنــه رسول الله ، ومبعوثه إلى العباد ، فخاف أن يكون ذلك أمراً بدئ به ثم لا يراد استتمامه ، فحزن لذلك ، ولذلك أتاه جبريل بعد ذلك وأخبره بأنه رسول الله .

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ١٣ .

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب فضائل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

(٤) المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

يقول الزهري : فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال له : يا محمد أنت رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى ذروة الجبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك [١].

يتساءل البعض : **كيف يجوز للنبي " ﷺ " أن يفكر في إلقاء نفسه من ذروة الجبل ؟**

والجواب : أن ذلك كان هما ، لا قراراً .

وكان يظن أن قوته عاجزة عن تحمل ما يتوقعه من أعباء النبوة .

وخوفاً مما قد يحصل له "ﷺ" حين القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ، وعداوتهم .

وذلك كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل، بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً ، حتى إذا تفكر فيما سيكون من العقبى المحمودة صبر ، واستقرت نفسه .

والعلماء يختلفون في تحديد مدة انقطاع الوحى ، فبعضهم يذهب إلى أن الوحى انقطع مدة قاربت السنتين ونصف ، وبعضهم يرى أنها كانت أياماً ، إلى غير ذلك من الآراء ، يرى ابن إسحاق : أنها كانت ثلاث سنوات ، ويرى ابن كثير : أنها كانت سنتين ونصف ، ويرى ابن عباس : أنها كانت أربعين يوماً ، ويذهب ابن الجوزى : إلى أنها كانت خمسة عشر يوماً ، ويرى مقاتل : أنها كانت ثلاثة أيام ، والرأي الأولى بالاعتبار هو فى تقصير مدة الانقطاع لمناسبته مقام الرسول عند ربه، ولأنه من الأمور التى إذا طالت انتشرت ، وعرفت ، واشتهرت ، كما أن الانقطاع مدة طويلة يؤدى إلى ضياع كثير مما تم بناؤه فى دنيا الناس ، وحياة رسول الله " ﷺ "

* * *

---

[١] انظر ص ٣٢٤ وما بعدها .

المبحث الحادي عشر

صور الوحي

تعتـــبر مدة انقطاع الوحى فاصلاً بين النبوة والرسالة،فلقد نبئ "ﷺ" لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة إحدء وأربعين من عام الفيل،ونزل عليه القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس العام،والمدة بينهما هى فترة النبوة . .وبعدها كان الرسالة.

ولقد كان الوحى إلى رسول الله " ﷺ " يأتيه بصور عديدة منها :ــ

الأول : الرؤيا الصادقة في المنام ومثاله رؤية إبراهيم " عليه السلام " ، كما يقول تعالي : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ [1] فدل على أن الوحى كان يأتيهم في المنام كما كان يأتيهم في اليقظة، وما رأى رسول الله " ﷺ " لما بعث رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح .

يروى البخاري بسنده عن عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى [2] ..

الثاني : أن ينفث الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال " ﷺ " : إن روح القدس نفث في روعى ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته [3].

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ [4] هو أن ينفث في روعه بالوحي الذى يخص القلب دون السمع .

---

(1) سورة الصافات آية (١٠٢) .

(2) صحيح البخاري ــ كتاب الوحى ج ١ ص ١١ .

(3) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٥٢ .

(4) سورة الشورى آية (٥١) .

الثالث : أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه ، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك على الأرض .

يروى الشيخان عن عائشة " رضي الله عنها " أن الحارث بن هشام " ﷺ " سأل رسول الله " ﷺ " : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : أحياناً يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول [١] .

وروى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن أبي سلمة الماجشون أنه بلغه أن رسول الله " ﷺ " كان يقول : (كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتينى به جبريل فيلقيه على كما يلقى الرجل الرجل فذاك يتفلت منى ، ويأتينى في شئ مثل صلصة الجرس حتى يخالط قلبى فذاك لا يتفلت منى) [٢] .

الرابع : أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما في ليلة الإسراء على القول بعدم الرؤية .

الخامس : أن يكلمه الله تعالى كفاحاً بغير حجاب على القول بالرؤية ليلة الإسراء .

السادس : أن يكلمه الله تعالى في النوم ، كما في حديث معاذ عند الترمذى : أتانى ربى في أحسن صورة فقال : (فيم يختصم الملأ الأعلى) [٣] ، وهذا النوع يختلف عن الرؤيا المنامية ، لأن هذا كلام الله تعالى .

وذكر بعضهم أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر لما رواه مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله " ﷺ " بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع بصره مبتسماً

---

[١] صحيح البخارى ــ كتاب بدء الوحى ج١ ص ٤ .

[٢] طبقات ابن سعد ١ / ١٩٧ .

[٣] سنن الدارمى ــ باب رقم (١٢) .

فقرأ : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝ ﴾ وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك، على الأصح، وهذه مرة أخرى تنزل فيها السورة لأن القرآن الكريم نزل كله في اليقظة .

السابع : مجئ الوحى كدوى النحل .

روى الإمام أحمد والحاكم ، عن عمر بن الخطاب " ﷺ " قال : كان رسول الله " ﷺ " : (**إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل**)[1].

الثامن : العلم الذى يلقيه الله تعالى في قلبه،وعلى لسانه، عند الاجتهاد في الأحكام .

لأنه اتفق على أنه " ﷺ " إذا اجتهد أصاب قطعاً ، وكان معصوماً من الخطأ وهذا خرق للعادة في حقه " ﷺ " دون الأمة ، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه .

ولقد كان الوحى ثقيلاً كقوله تعالي : ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝ ﴾[2] ويرجع ثقل الوحى إلى ما يتضمنه من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق ، بحيث لا يقدر على حملها ، والعمل بها سوى العقلاء ، الذين يحكمون عقولهم ، ويسيطرون على هواهم ونفوسهم .

ومن دلالات ثقل الوحى ما كان يحدث لرسول الله " ﷺ " حين نزول الوحى عليه الآثار التى رواها أصحابه " رضوان الله عليهم " ، ومنها : —

— يقول زيد بن ثابت " ﷺ " عن عائشة " رضي الله عنها " **أنها قالت : أنزل على رسول الله " ﷺ " وفخذه على فخذى فكادت فخذه ترض فخذى .**

---

[1] مسند أحمد ١ / ٣٤ .

[2] سورة المزمل آية (٥) .

ـ وقالت عائشة "رضي الله عنها ": إن كان ليوحى إلى رسول الله " ﷺ " وهو على راحلته فتضرب بجرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتلت الآية [١]

ـ ويقول أبو أروى الدوسى " ﷺ " : رأيت الوحى يتزل على رسول الله " ﷺ " وإنه على راحلته فترغوا، وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها تنقصم ، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحى، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان [٢] .

ـ ويقول عبادة بن الصامت " ﷺ " : كان رسول الله " ﷺ " إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه [٣] .

ـ ويقول أبو هريرة " ﷺ " : كان رسول الله " ﷺ " إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحى [٤] .

ـ وتقول عائشة "رضي الله عنها" : (ولقد رأيته يتزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً) [٥] .

ـ وتقول أسماء بنت يزيد " ﷺ " : كنت آخذة بزمام ناقة رسول الله " ﷺ " حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد ينكسر عضدها من ثقل السورة [٦] .

ـ ويقـول ابـن عمر " ﷺ " : أنزلت على رسول الله " ﷺ " سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فتزل عنها [٧] .

---

[١] أى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

[٢] طبقات ابن سعد ١ / ١٩٧ .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووى ــ كتاب الفضائل ــ سبل الهدى ج٢ ص ٣٤٤ .

[٤] صحيح مسلم بشرح النووى ــ كتاب الجهاد ــ باب فتح مكة ج ١٢ ص ١٢٨ .

[٥] صحيح البخارى ــ باب بدء الوحى ج ١ ص ٤ ، ومعنى يتفصد : ينفصل .

[٦] سيرة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

[٧] السيرة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

ـ وثبت في الصحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله " ﷺ " وهو على راحلته فكأنه يكون تارة وتارة بحسب الحال [١] .

والآيات التي بدأ الوحي بها بعد فترة الانقطاع هي أوائل سورة المدثر ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ [٢] وهذه الآيات تضمنت في إجمال كل ما يتعلق بالرسالة ..

ففي الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ بيان لعظم مقام الرسول عند ربه كما يتضح من مناداته ، وتسميته بالمدثر الذي يفيد الستر ، والمؤانسة ، والهدوء ، وهي أمور ضرورية ليقوم الإنسان بالمهام التي توكل إليه .

يقول القرطبي : وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : ـ

الفائدة الأولى : الملاطفة ، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب، وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي " ﷺ " لعلي حين غاضب فاطمة " رضي الله عنهما " ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : " **قم يا أبا تراب** " [٣]إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفة له ، وكذلك قوله " ﷺ " لحذيفة : " **قم يا نومان** " وكان نائماً، ملاطفة له ، وإشعاراً لترك العتب والتأنيب ، فقول الله تعالى لمحمد " ﷺ " : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ فيه تأنيس وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية تنبيه لكل متدثر،خائف، لينهض بما كلفه الله به،فالقيام بالواجب أولى،وأحسن من النوم والقعود،والتوكل على الله يساعد على النشاط والعمل .

---

[١] سيرة ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

[٢] سورة المدثر الآيات (١ ـ ٧) .

[٣] صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب فضل علي " ﷺ " ج ٦ ص ١١٦ .

وفى الآية الثانية : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أمر بالقيام والنهوض ، وترك النوم ، والكسل، وضرورة التصميم الجاد ، والسعى المستمر في الدعوة لدين الله تعالي وليكن الإنذار أول الأمر مع الناس، وهو المناسب لهم، تنبيهاً لعقولهم، وتعريفهم بالخطر الذى يترصد الغافلين، السادرين في الضلال،وهذا الإنذار رحمة من الله للناس ، لأنه يعطيهم الفرصة لينقذوا أنفسهم من ضلال الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وتتجلى الرحمة في هذا الإنذار بأنه يأتيهم بواسطة رسول ، يدعو ويبين ، ويكرر، ويصبر ، ويستمر طويلاً في دعوتهم ، عساهم يستجيبون ، ويتأثرون .

والرسول " ﷺ " كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام أكتفى بالإنذار مراعاة لأحوال المخاطبين .

والآية الثالثة : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ توجه رسول الله خاصة لمعرفة مقام الله وعظمته التى تصغر أمامه سائر القوى ، فهو وحده الكبير المتعال ، وبهذا التصور يعيش الرسول " ﷺ " في دعوته الناس آمناً ، لا يتأثر بمعارضاتهم، أو عداوتهم ، لأنه مع الله القوى العزيز .

يقول سيد قطب : ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها، وأهوالها، وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير ، وكما أن مشاق الدعوة، وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ومعايشة هذا الشعور [١] .

والآية الرابعة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " للمحافظة على طهارة الظاهر والباطن ، لأن التلقى عن الملإ الأعلى يتناسب مع هذه الطهارة .

وطهارة الثوب كناية عن طهارة القلب ، والعمل ، والسلوك .

والمحب للطهارة ، المتعود عليها، يعمل أن لا يقع في غيرها .

---

[١] في ظلال القرآن ج٢٩ص ــ ط . دار التراث العربى .

والطهارة عموماً ضرورة لمزاولة مهام الرسالة والدعـوة وسـط الضالين ، المنحرفين ، وبذلك يدعوهم الرسول " ﷺ "ولا يتأثر هم ، وبخاصة أن أهل الباطل ، وأنصار الشيطان يحاولون التغلب على أهل الحق بأخذهم إليهم ، مستعينين بوسائل الهوي ، ومغريات الشهوات ، وبكافة ما يمكنهم من إغراء .

ولذلك كانت الطهارة ضرورة للرسل والدعاة ..

والآية الخامسة : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ والرجز شامل للشرك، ولسائر المعاصى،والرجز معناه العذاب، أطلق على مسبباته للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة للمعصية ، وقد أمر الله تعالى النبى " ﷺ " بالهجر وليس بالترك فقط ، لما في الهجر من ترك ونفور ، وكراهية ، وتباعد ، والرسـول " ﷺ " كان هاجراً للشرك، ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة الانحراف، وبعد عن أنواع المعتقدات الشائهة ، وترك الرجس من الأخلاق والعادات ، ولم يعرف عنه أنه شارك في شئ من هوس الجاهلية وأخطائها، ومع كل هذا كان هذا التوجيه الذى يعنى ضرورة المفاصلة، وأهمية إعلان التميز الذى لا صلح فيه،ولا هوادة معه، فهما طريقـان مفتـرقان لا يلتقيان ، كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز ، ودواعيه .

والآية السادسة : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " إلى عدم المن على الناس ، وعدم استكثار ما سوف يعطيه لهم ، فهو مكلف بالعطاء ، وسيعطى الكثير فى إصلاح الحياة للناس أجمعين ، فعليه البذل ، والعطاء ، بلا من ، وبلا عدد ، وبذلك يعظم العطاء ، ويعظم صاحبه .

إن النبوة فضل إلهى ، وعلى الرسول أن يدوم شاكراً ، عابداً، متحلياً بمكارم الأخلاق ، وليس المن من الخلق الكريم أبداً .

والآية السابعة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ تشتمل على أمر كريم يحتاجه الرسول في مسيرته مع النبوة، والدعوة،وعليه أن يصبر مع نفسه وهو يقاوم شهواتها ، ومع الوحى

وهو يسمعه ويحفظه،ومع الناس وهويعلمهم،ومع الأعداء وهو يقاومهم .

إن المعركة طويلة، والصبر هو الزاد الذى يلائمها ، وهو الذى يحقق الفوز في النهاية .

وهذه الآيات السبعة الأولى في سورة المدثر نزلت في أول الوحى بالرسالة بعد فتور الوحى متضمنة الأسس الرئيسية للحركة بدين الله تعالى ، ولذلك جاءت إعلاناً واضحاً عن أساسيات القيام بالرسالة ، وأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول والدعاة .

وأما أول سورة العلق فقد نزل في مرحلة الوحى بالنبوة التى استمرت ستة أشهر ، ليعرف النبى " ﷺ " ربه ، ويقف على كمال صفاته ، وحقائقها ، ويألف لقاء الملائكة ، وتلقى الوحى من ربه .

يذهب البعض إلى أن أول المدثر نزل أولاً استناداً إلى حديث البخاري الذى رواه بسنده عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟

قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ ..

قلت : يقولون : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله " رضي الله عنه " عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله " ﷺ " قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جوارى، هبطت، فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً،فأتيت خديجة فقلت : (دثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً) قال " ﷺ ": فدثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً ، قال ، فنزلت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ [1].

---

(1) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ــ سورة المدثر جـ٨ ص ٦٧٦ .

ويروى مسلم حديثاً يشير كذلك إلى أن أول المدثر نزل أولاً ، فلقد روى بسنده عن أبى سلمة قال : **أخبرنى جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ، جالساً على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى فقلت : زملونى ،زملونى، فدثرونى ، فأنزل الله تعالي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾** قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ، ثم حمـــى الوحى بعد ذلك وتتابع) [١]، ورواه البخارى من هذا الوجه أيضاً [٢].

يعلق ابن كثير في تفسيره على هذا الاختلاف فيقول ، والأولى القول بأن جبريل نزل بأول سورة العلق في بداية النبوة،وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية الرسالة ، لأن فى حديث نزول أول سورة المدثر الذى رواه مسلم وغيره إشارة إلى المجئ السابق لجبريل ، حيث يقول : (**فإذا الملك الذى جاءنى بحراء**) يوم أن جاءه بأول سورة العلق ، وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحى هى المدثر، وهى أول وحى الرسالة، وعلى هذا فأولية نزول أول العلق أولية مطلقة ، وأولية أول سورة المدثر مقيدة بما بعد فتور الوحى ، وبدء الرسالة [٣] .

ويذهب البعض إلى أن أول سورة المزمل نزل قبل المدثر، لكن هذا الرأى مردود لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإنذار ، وهذا يكون في أول المبعث ، أما أول سورة المزمل ففيها الأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وهذا يقتضى تقدم تشريع

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب بدء الوحى ج٢ ص ٢٠٦ .

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ــ باب وربك فكبر ج ٨ ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٠ .

الصلاة ، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم يتلوها النبي في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، حيث أمر بذلك .

ويذهب البعض إلى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولاً بعد فترة الوحي ، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

لأن أم جميل بنت حرب أمرأة أبي لهب ، لما تباطأ الوحي عن رسول الله " ﷺ " ليلتين أو ثلاثاً قالت للنبي " ﷺ " ودعك ربك وقلاك ، فنزلت ..

يرد الحافظ ابن حجر هذا فيقول : الحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرواة .

وقد ثبت أن الوحي كان يفتر عن النبي " ﷺ " أحياناً كما حدث قبل نزول سورة الكهف،فإن النبي لما سئل عن أصحاب الكهف،قال : سأحدثكم بها غداً و لم يستثن ففتر عنه الوحي خمسة عشر يوماً [١]،فقال الله له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ فدل ذلك على أن القول بالأولية فيه اختلاف كبير بين العلماء ، بسبب اختلاف اعتبار كل قول [٢] .

وبعد نزول أوائل سورة المدثر تتابع الوحي ، واستمر في مكة والمدينة ، حتى لقي الرسول ربه ..

* * *

---

[١] أنظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٠ ، ٥٢٢ بتصرف .

[٢] تفسير ابن كثير ج٣ ص ٧٢ .

المبحث الثاني عشر

السيرة المحمدية

من الرسالة حتى الهجرة

بعـد أن كلـف رسول الله " ﷺ " بالرسالة تحول نشاطه إلى العمل بالتبليغ وسيطرت عليه جوانب الرسالة سيطرة كاملة .

فهو " ﷺ " يتلقى الوحى من الله ، ويبلغه لمن حوله ، ويدعو به كل من بلغ ويبذل في سبيل هذا وقته ، وجهده ، ونشاطه كله .

وكانت زوجته معه خير رفيق لهذه الرحلة الكريمة الشاقة ..

وحيـث أن **الفصل التالي** خاص بحركة الرسول " ﷺ " بالدعوة إلى الناس ، وهـو بذلـك متضمن للرسول محمد، ورسالته في الفترة المكية ، فإني أورد هنا أهم الأحداث المتصلة بالسيرة المحمدية موضوع الفصل .

وتتميماً لجوانب السيرة الشخصية لمحمد " ﷺ " في الفترة المكية فإني سأورد الملامـح العامـة لسيرة محمد " ﷺ " خلال هذه الفترة مع التركيز على ما له صلة بالجانـب الشخصـى عنده " ﷺ " ، وبذلك نقدم السيرة لننتقل إلى حركته " ﷺ " بالدعوة بعد ذلك .

ولهـذا سوف يتضمن هذا المبحث عدداً من المواقف التى تحدد مسار السيرة النبوية ، وهى : ـــ

ـ أولاً ـ

المرحلة السرية والسابقون إلى الإسلام

عاش النبى "ﷺ" بعد الرسالة في بيئة متآلفة ، متحابة ، فلقد كان " ﷺ " يربى علياً ، وينفق عليه ، وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، بالإضافة إلى زوجته وأولاده .

فتكونت بذلك جماعة متآلفة تجعل حركة الحياة في إطارها سهلة ، ميسرة ، وهذا من فضل الله على محمـد " ﷺ " ليقوم بمهام الرسالة على وجهها .

فلقــد آمنت خديجة "رضي الله عنها" بالرسالة من لحظتها الأولى،وأخذت تطمئن محمــداً " ﷺ "وتسرى عنه، وتفسر له ما يرى فى الغار بما يريحه ويرضيه، وتشاركه فى مشاغله، ومسائله ،يقول ابن إسحاق : وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره ؛ فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع بشئ يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها، تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، يرحمها الله تعالى [1] .

وكانت " رضي الله عنها " عاقلة، حكيمة ،تكون حيث يكون، وتحب ما يحبه،وتتمنى ما يتمناه، آمنت بالدعوة، وعبدت ما كان يعبد في صدق وإخلاص .

جاء جبريل " عليه السلام " إلى رسول الله " ﷺ " يعلمه الوضوء والصلاة بطريقة عملية، ففى الخبر أن جبريل أتى محمداً " ﷺ " وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادى، فانفجرت له منه عين، فتوضأ جبريل، ورسول الله " ﷺ " ينظر إليه ليريه كيفية الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله " ﷺ " كما رأى جبريل يتوضأ، ثم أقام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله " ﷺ " بصلاته.

ولما انصرف جبريل جاء رسول الله " ﷺ " إلى خديجة، فتوضأ أمامها، يريها كيفية الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله " ﷺ " ثم صلى لها كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته [2] .

ثم إن على بن أبى طالب رأى رسول الله وخديجة يصليان فقال : مـا هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : دين الله الذى اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى .

---

[1] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٤٠٢ .

[2] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٩٨ .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب ليأذن لي فيه .

وكره رسول الله " ﷺ " أن يفشى علي سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : يا عليّ إذا لم تسلم فاكتم هذا .

فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع في قلب علي الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي يامحمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد .

ففعل علي " ﷺ " وأسلم [١] .

وأما زيد بن حارثة فقد كان مع رسول الله " ﷺ " منذ صغره، مولى له، لأن خديجة اشترته، ووهبته للنبي " ﷺ " وعمره ثماني سنوات ، وهو من أوائل من أسلم حتى قال بعضهم : إنه أسلم قبل علي بن أبي طالب ، وبقي في كنف رسول الله " ﷺ "،ونزل القرآن باسمه في قصة زواجه بزينب بنت جحش [٢] يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [٣]

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٤٠٣ .

[٢] أنظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٤٠ — ١٤٢ بتصرف .

[٣] سورة الأحزاب آية (٣٧) .

وإنمـا كانـت الصلاة ، وكان الوضوء في أول المبعث على وجه الإباحة ، والسنية ، فلما فرضت الصلاة في ليلة الإسراء ، جاء الأمر بالوضوء في القرآن الكريم لأداء الصلاة المفروضة .

وهكـذا تآلفت هذه الجماعة بالإسلام ، وتوحد عملها، وهدفها، مما جعل السعادة ترفرف على محمد " ﷺ " في بيته الكريم .

وسـارت به الحياة هادئة في مرحلة الدعوة السرية ، ومدتها سنتان ونصف على الأرجح ، لأن كفار مكة تصوروا محمداً واحداً من الحنفاء الذين يتكلمون من غير أن يؤثروا في غيرهم ، وبخاصة أنه لا يتكلم مع كل الناس ، وإنما كان يتخير أفراداً قليلين متميزين بلين الجانب ، والتواضع مع التروى والهدوء .

كما تصوروا أن محمداً سيفتر عن دعوته ، ويتركها بعد مدة حين ينصرف الملأ والوجهاء عنه، وصدقوا أنفسهم حينما رأوا أتباع محمد " ﷺ " من الفقراء ، والضعفاء ، فلما جهر محمد " ﷺ " بالدعوة ، ودخل فى الإسلام عدد يزيد كل يوم شعروا بالخطر ، وبدأوا في المواجهة والمقاومة ، والعدوان .

- ثانياً -

صلته بأعمامه

أعمام النبى " ﷺ " هم أبناء عبد المطلب ، وكانوا جميعاً يحبون محمداً ويرون فيه أخاهم عبد الله ، الذى استسلم للذبح فداء لهم ، ومات ، ومحمد حمل في بطن أمه حتى أن عمه أبا لهب أعتق جاريته " ثويبة " فرحاً بمولده " ﷺ " .

وقد أنزله جده منزلة خاصة،فلما مات عبد المطلب،كفله عمـه الشقيـق " أبو طالب"،وكان أعمامه جميعاً يهتمون بشأنه،فإذا رحل للتجارة أوصوا القافلة به .

وفى يوم زواجه من خديجة كانوا معه،وشاركوه هذا الحدث السعيد .. فلما ولد له " ﷺ " البنين والبنات خطب عمه **أبو لهب** لولديه عتبة وعتيبة بنـتى رسـول الله رقـية وأم كلثوم .

وبعد أن أعلن محمد " ﷺ "رسالته ، ونادى في مكة بدين الله تعالى ظل عمه أبو طالب على دين قومه ، و لم يدخل في الإسلام،ومع ذلك بقى يدافع عن محمد ، ويرد من يقصده بسوء .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب أبى خذلان رسول الله " ﷺ " وأعلن وقوفه بجانبه ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : قد بلغنا يا أبا طالب الكثير عن ابن أخيك محمد ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونى ! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ ! هذا والله مالا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى:والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك،وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك [1].

وقد تجمع أعمامه حوله " ﷺ " حماية له ما عدا أبى لهب ، فقد أعماه الله عن الحق ، وأخذ في عداوة محمد " ﷺ " والصد عن الدعوة حتى أنه أمر ولديه بتطليق بنات النبى " ﷺ " ، وأخذت أمرأته في وضع الشوك ، والحطب ، والقذر أمام بيت محمد " ﷺ " .

ولما عزمت قريش على قتل محمد جاءوا يستأذنون قومه، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأخذه ، وقتله برضى قومه ، فأبوا ذلك عليهم ، ورفضوا تسليمه لهم مع أنهم لم يدخلوا في الإسلام يومذاك ، عصبية ، وخوفاً من العار . .

---

(1) سيرة النبى ج١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

إن أعمـــام النبى " ﷺ " ظلوا معه عصبية ، حتى أن عمه حمزة أسلم بسبب دفاعه عن محمد " ﷺ " ..

فلقــد حدثــوا أن أبا جهل مر على محمد " ﷺ " وهو عند الصفا فأذاه ، وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسـول الله " ﷺ " ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان، في مسكن لها تسـمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالي أن يمر حمزة راجعاً من قنص له ، متوشحاً قوســه ، فقالت له المرأة يا أبا عمارة : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكـم عمـرو بن هشام ، وجده هنا جالساً فأذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصـرف، ولم يكـلمه محمد " ﷺ " فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعى ، ولم يلتفـت إلى أحـد حتى أتى أبا جهل، وهو جالس، في نادى القوم حول المسجد ، فضربه بالقوس ، فشج رأسه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا علىّ دينه، أقـول ما يقول، فرد ذلك على إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وثبـت حمـزة من ساعتئذ على ما قاله ، فأسلم وحسن إسلامه ، ويومها عرفـت قـريش أن رسـول الله " ﷺ " قد عز، والمسلمين معه، بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعـز فتى في قريش [١].

وهكذا دافع عنه أعمامه ، لمنزلته بينهم ، وحسن تعامله ، وكرم خلقه ، ولو كـان غـير ذلك لخلعوه ، وتركوه .. أما عمه أبو لهب فقد استمر مع أعداء محمد يناصرهم ، ويصد عن سبيل الله تعالى .

---

[١] هذا الحبيب ص ٦٧ .

ـ ثالثا ـ

الجهر بالدعوة

ومواجهة متاعب أهل مكة

استمرت الدعوة سرية مدة عامين ونصف ، وبعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة ــ وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته ، وبذلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم ، وأهم ما لاقاه الرسول "ﷺ" منهم ما يلي : ــ

١ ـ السؤال عن مدى صدق محمد " ﷺ " :

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لمحمد " ﷺ " ، فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد ، وكيفية كشف مزاعمه .

يقول محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا ، حتى أتيا المدينة ، فسألوا الأحبار عن رسول الله " ﷺ " ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله .

وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فتروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول،ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه .

وسلوه عن الروح ماهي ؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ،وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول،فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

نافل النضر، وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور،وأخبروهم بها .

فجاءوا رسول الله " ﷺ " فقالوا : يا محمد أخبرنا ، عن كذا وكذا ، وسألوه عن الأمور التي حددها الأحبار .

فقال لهم رسول الله " ﷺ " : أخبركم غداً عما سألتم عنه،ولم يستثن فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله " ﷺ " خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحى ، ولا يأتيه جبريل " عليه السلام " .

حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها ولم يخبرنا بشئ عما سألناه عنه .

وتألم رسول الله " ﷺ " من انقطاع الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . وبعد خمسة عشر يوماًجاءه جبريل " عليه السلام " من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، وفيها يعاتبه الله على حزنه عليهم، ويخبره عما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

فلما أخبرهم بنبإ ما سألوا عنه، رجعوا إلى أنفسهم ، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله " ﷺ " مواجهة عقلية ، فكرية ، ولذا لجأوا إلى العدوان ، والإيذاء المادى ، ونشر الأكاذيب ، والمفتريات حول محمد ودعوته .

٢ ـ موقف أبى لهب منه : لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1] خرج رسول الله حتى صعد النبى " ﷺ " على الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالـــوا : من هذا ؟ ! .

---

[1] سورة الشعراء آية (٢١٤) .

فجعل "ﷺ" ينادى : يا بنى فهر ! يا بنى عدى ! وهكذا لبطون قريش جميعاً، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ .

فقال النبى " ﷺ " : أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ ! .

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال " ﷺ " : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ وقد تب [1] .

ولم يكتف أبو لهب بهذا الموقف ، بل أخذ في التصدى لرسول الله " ﷺ " فكان يسير خلفه ويقول : إنه كاذب وأنا أعلم خبره ، فهو ابن أخى ... وأخذ هو وزوجته في وضع الشوك والحطب أمام بيت النبى " ﷺ " ليعجزه عن الخروج والحركة ، وفيه وفى زوجته نزل قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ [2]

٣ - السخرية والإستهزاء بمحمد " ﷺ " :

أخذ كفار مكة يستهزءون برسول الله " ﷺ " توهيناً لنفسه ، وصرفاً للناس عنه، فكانوا ينادونه بالمجنون، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ

---

[1] صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب التفسير ـــ باب سورة تبت ج ٨ ص ٧٣٧ ، والتباب الخسران والتدمير .

[2] سورة المسد .

إنك لمجنون ﴿ ... ﴾ [1] ويصفونه بالسحر والكذب يقول سبحانه : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [2] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ناقمة،وعواطف هائجة،وكراهية ظاهرة،يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [3] وكان إذا جلس، وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم، وقالوا هؤلاء جلساؤه الذين ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ [4] فرد الله عليهم بأنه وحده العليم بحقائق الناس وقلوبهم، وليس لهم أن يتقولوا عليهم، وذلك بقوله سبحانه : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [5] ، فأنكر عليهم بأسلوب يبرز جهلهم ، وخيبتهم .

إن كفار مكة كانوا يتصرفون بإستعلاء وجبروت ، وهم يتعاملون مع رسول الله ، وسائر أصحابه ، حتى أنهم جعلوا المؤمنين مادة سخريتهم ، ودعابة مجالسهم ، يتضاحكون من عقيدتهم ، ويتغامزون إذا رأوهم ، وإذا رجعوا إلى أهليهم تفكهوا بسيرهم، معتقدين أنهم ضلوا عن الحق، بتركهم عبادة الأوثان،يقول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [6] .

---

[1] سورة الحجر آية (٦) .

[2] سورة ص آية (٤) .

[3] سورة القلم آية (٥١) .

[4] سورة الأنعام آية (٥٣) .

[5] سورة الأنعام آية (٥٣) .

[6] سورة المطففين الآيات (٢٩ ــ ٣٣) .

٤ ـ بث الدعاية الكاذبة عنه :

أخذ الكفار يبثون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد " ﷺ " وعن القرآن الكريم الذى ينزل عليه حتى لا يصدقه أحد،فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تـــعالى فى قوله :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [١] وقالوا عن الرسول : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [٢] .

وكل ما قالوه ظاهر البهتان ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه ؟ ؟

ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمداً ؟ ؟ ! إنهم بشر كما يزعمون، فلم يتركوهم يفعلون ؟ ولم لا يواجهوهم بالتحدى ؟ ؟

وهل يكتب محمد عنهم وهو أمى ؟ ؟ لقد جاءوا بالزور والبهتان ! !

ولم يعترضون على بشرية محمد " ﷺ " أيريدونه ملكاً ؟ وكيف يتعاملون مع الملك ؟

إن قلوبهم قد عميت ، وكل اعتراضهم تبريرات لكفرهم وعتوهم . . وقد رأيناهم يبحثون عن أى علة تساعدهم على كفرهم .

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم خلقاً ومسلكاً، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، **قلتم : ساحر** ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم، وعقدهم .

---

[١] سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

[٢] سورة الفرقان آية (٧) .

وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة، وتخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشارع ، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه، ورجزه ...

وقلتم : مجنون ، لا والله ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه،ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش أنظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب الوليد إلى الحيرة بحثاً عن حل يريده، فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ووقف على أخبار رستم، وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله " ﷺ " مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نقمته، خلفه النضر ، وهو يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني [١] .

وما درى الوليد أن حديث محمد " ﷺ " مع جماله يتضمن ديناً صالحاً ، ومنهجاً طيباً، وطريقاً لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة وهو كلام الله.. وأما حديثه فهو خيال كاذب ، وإبهار لفظى لا حقيقة فيه ، ولا غاية له . . ولا فائدة معه .

وفى الوليد بن المغيرة المخزومى نزل قول الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [٢] وقصته مع القرآن الكريم ، ومع محمد " ﷺ " تشبه ما فعله النضر

---

[١] تفهيم القرآن ج٤ ص ٩ .

[٢] سورة المدثر الآيات (١١ ــ ٢٥) .

ابن الحارث فلقد ذكروا أن النضر قال : والله لقد نظرت فيما قال محمد، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر ، فكأنه رق له .

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أى عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

قال : لم ؟

قال : يعطونكه فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله .

قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يَقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .

قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال:فدعني حتى أتفكر فيه،فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره [١]

٥ ـ مساومات وتخليط :

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد " ﷺ " في خلط الإسلام بالكفر ، ليكونا سوياً ديناً خليطاً من هذا وذاك ، وأن يعبدوا الله يوماً ، ويعبد محمداً أصنامهم يوما آخر وهكذا .

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل السهمى ــ وكانوا ذوى أسنان في قومهم ــ اعترضوا محمداً، وهو يطوف بالكعبة، وقالوا له : يا محمــد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما

---

[١] تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٣ .

كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [١] [٢] ، فكانت المفاصلة الكاملة بين الإيمان : والكفر .

٦- الاضطهاد البدني :

كان أشد الناس إيذاء لرسول الله جيرانه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب ، يقول ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله " ﷺ " في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ـــ وكانوا جيرانه ـــ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص فإنه أسلم فيما بعد،فكان أحدهم يطرح عليه"ﷺ" رحم الشاه، وهو يصلى،وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له،حتى اتخذ رسول الله " ﷺ " حجراً ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله " ﷺ " إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق [٣] .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود " ﷺ " : أن النبى " ﷺ " كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجئ بسلا جزور بنى فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، **فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)** فجاء به، فنظر ،

---

[١] سورة الكافرون .

[٢] سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٣٦١ .

[٣] سيرة النبى ج١ ص ٤١٦ .

حتى إذا سجد النبي " ﷺ " وضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغني شيئاً، فجعلوا يضحكون، ويميل بعضهم على بعض ، مرحاً ، ورسول الله " ﷺ " ساجد، لا يــرفع رأسه حتى جاءته ابنته فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال: **اللهم عليك بقريش ثلاث مرات** ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ، وقد سمى الرسول في دعائه فقال : **اللهم عليك بــأبي جهل،وعلــيك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة،وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط،وعد السابع فلم نحفظه**، فو الذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله " ﷺ " صرعى في القليب، قليب بدر [١] .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله " ﷺ " همزه ولمزه ، وفيــه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ﴾ [٢] قال ابن هشام : الهماز : الــذى يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به،والهمزة هو الشتم نفسه ، واللماز: الذى يعيب الناس سراً ويؤذيهم [٣] واللمزة هى العيب والأذى .

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين ، جلس عقبة مرة إلى النبى " ﷺ " وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أنبه، وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله " ﷺ " ففعل ، وأبى بن خلف نفسه هو الذى فت عظماً رميماً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله " ﷺ " [٤] .

وكان الأخنس بن شريق الثقفى ممن ينال من رسول الله"ﷺ"،وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه من خلق ردئ،وهى في قوله تعالي: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝ ﴾ [٥]

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ــ كتاب الوضوء ــ باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ١ / ٣٧ .

(٢) سورة الهمزة آية (١) .

(٣) سيرة النبي ج ١ ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ .

(٤) نفس المصدر ١ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٥) سورة القلم الآيات (١٠ ــ ١٣) .

وكان أبو جهل يجئ أحياناً إلى رسول الله " ﷺ " يسمع منه القرآن،ثم يذهب عنه فلا يؤمن، ولا يطيع ، ولا يخشى، ويؤذى رسول الله " ﷺ " بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥ ﴾ [1]

وكان يمنع النبى " ﷺ " عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى فى الحرم ، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعده فأغلظ له رسول الله " ﷺ " وانتهره ، فقال : يا محمد بأى شئ تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ ﴾ [2] .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار ، بل ازداد شقاوة فيما بعد ، أخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟

فقيل : نعم !

فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فى التراب .

فأتى رسول الله " ﷺ " وهو يصلى ، ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه مهرولاً ، ويتقى بيديه .

فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار، وهولاً ، وأجنحة .

فقال رسول الله " ﷺ " : لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً [3] .

---

[1] سورة القيامة الآيات (٣١ ــ ٣٥) .

[2] سورة العلق آية (١٧) .

[3] مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ١٢٦ .

٧ ـ محاولة قتل محمد " ﷺ " :

وصل حد كراهية القوم لرسول الله " ﷺ " أن كفار مكة حاولوا قتله .

من ذلك أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله " ﷺ " فقال : أنا أكفر بـــ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[1] و ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾[2] ثم تسلط على الرسول بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه " ﷺ " ، إلا أن البزاق لم يقع عليه وحينئذ دعا عليه " ﷺ " وقال : **اللهم سلط عليه كلباً من كلابك** .

وقد استجيب دعاؤه " ﷺ " فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ ، قتلنى وهو بمكة ، وأنا بالشام ، **فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه**[3] .

وفى رواية هشام عن عروة عن أبيه ، أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم ، فجعلوا عتيبة وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه[4] .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة" ﷺ " وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان[5] .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله " ﷺ " ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلس

---

[1] سورة النجم آية (١) .

[2] سورة النجم آية (٨) .

[3] مختصرة سيرة الرسول " ﷺ " ص ١٣٥ .

[4] المرجع السابق ص ١٣٦ .

[5] المصدر السابق ص ١١٣ .

له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك، أو امنعونى؛ فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشئ أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله " ﷺ " ينتظره ، وغدا رسول الله " ﷺ " كما كان يغدو ، فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، فلما سجد رسول الله " ﷺ " ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله " ﷺ " قال:ذلك جبريل " عليه السلام " لو دنا لأخذه [١] .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة قتل النبى " ﷺ " تنضج في قلوبهم ،وتكبر فى عقولهم ، وتفكيرهم، روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر ، فذكروا رسول الله " ﷺ " ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسـول الله " ﷺ " فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك من وجه رسول الله " ﷺ " .

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك من وجهـه " ﷺ " .

---

[١] سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر ، واقع ،حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه ، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط [1] .

وفى روايـــة البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد شئ صنعه المشركون بالنبى " ﷺ " ، قال : بينما النبى " ﷺ " يصلى فى حجـــر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبى " ﷺ " ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ [2] .

وفى حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ،فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ! فلهوا عنه ،وأقبلوا على أبى بكر ،فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجـــع معنا [3]

و لم تغادر فكرة قتله " ﷺ " عقولهم ، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام ، وصلابة المســلمين ، وتــأكدوا أن بقاء محمد " ﷺ " سوف يؤدى إلى القضاء على عبادة الأصنام ، وحرمانهم من السيادة ، والتسلط ،وكان آخر محاولتهم مؤامرة ليلة الهجرة ،

---

[1] ســيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والغمز الطعن والسب ، ووصاة أى توصية بالسوء ويرفأ أى يترفق .

[2] صحيح البخارى ــ باب ذكر ما لقى النبى " ﷺ " وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٤ .

[3] مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ١١٣ .

٨. نتائج الاضطهاد :

مع الجهر بالدعوة،وخروج الرسول للعلن والمواجهة بدأ كفار مكة في إيذاء الرسول ، وأصحابه .

وكـــان الاضطهاد في بدايته قليلاً ، ضعيفاً ، ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى وصـل إلى حد التآمر ، والتخطيط لقتل رسول الله " ﷺ " ، ونتيجة لهذا التصعيد في الاضطهاد أخذ رسول الله " ﷺ " يجمع أصحابه في دار الأرقم ليعلمهم الإسلام بعيداً عن كفار مكة، كما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها كثير من أصحابه .

وقــد حــاول كفار مكة اعتقال المهاجرين ، والفتك هم ، لكنهم فشلوا ، ورأى المشركون والكفار أن أغلب المسلمين تركوا مكة ، وتركوا محمداً " ﷺ " مع قلـة قليلة من أصحابه فى مكة، وهاجروا إلى الحبشة،وغاظهم أن محمداً لم يضعف، ولم يترك دعوته ...

فذهــبوا إلى عمـــه أبى طالب ، وقالواله : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد، والتهديد الشديد ، فبعث إلى رســـول الله " ﷺ " وقـــال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا كذا فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله " ﷺ " أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ــ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ــ ثم استعبر وبكى ، وقام .

فلما ولى ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل مـــا

أحببت ، فو الله لا أسلمك لشئ أبداً [١] ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهـــم حتى أوسد في التراب دفينـــا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر وقر بذاك منك عيونا [٢]

فلما لم يحقق ذهابهم نتيجة يرجونها من أبي طالب،رجعوا بحيلة أخرى حيث ذهبوا إليه بعمارة بن الوليد،ليأخذه ويعطيهم محمداً،فأبى وقال لهم:والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم،وأعطيكم ابني تقتلونه،هذا والله مالا يكون أبداً [٣].

وذهبوا إلى محمد " ﷺ " محاولين مساومته ، يقول ابن إسحاق : حدثني يزيد ابن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً ، وهو في نادى قريش ، ورسول الله " ﷺ " جالس في المسجد وحده : يـــا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد ؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة " ﷺ " ورأوا أصحاب رسول الله " ﷺ " يكثرون ويزيدون، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ..

فقام إليه عتبه ، حتى جلس إلى رسول الله " ﷺ " فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت بمن مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله " ﷺ " : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال عتبة: يا ابن أخي،إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمرمالاً جمعنا لك من

---

[١] سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

[٢] مختصر سيرة الرسول "ﷺ" ص ٦٨ .

[٣] وقد سبق ذكر هذه المحاولة في ص ٣٣١ .

من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

ولما فرغ عتبة من حديثه .

قال له رسول الله " ﷺ " : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ، قال رسول الله " ﷺ " : فاسمع منى .

قال : أفعل .

فقال " ﷺ " : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾ ثم مضى رسول الله " ﷺ " في السورة يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله " ﷺ " إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلما رجع عتبة إلى قومه رأوا فيه مالا يريدون ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ،

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم [1] ، وماذا أقول فيه ؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : دعني أفكر فيه ، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقول فيه .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال : والله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال :ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه،وهزجه، وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بشاعر .

قالوا : فنقول ساحر .

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

قال : والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه، ولا بعقده .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه لثمر ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر ، فما يقوله سحر يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروه لهم .

وأنزل الله تعالى في الوليد قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

٩. أبو طالب يحتاط للأمر :

رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين قد اشتدت عداوتهم لمحمد " ﷺ " ، ورأى أنهم لن ينتهوا من مكائدهم إلا إذا تخلصوا من محمد " ﷺ " بأي وسيلة ممكنة وذلك عار يلحق ببني عبد مناف، يتحدث به العرب كلهم ،فجمع أبناء عبد مناف وهم بنو أمية ، وبنو عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو هاشم ، وعرض عليهم خطورة الأمر ، وضرورة التكاتف ، والاتحاد في مواجهة عدوان كفار مكة

على ابن أخيهم محمد " ﷺ " ، فوافقه بنو هاشم، وبنو المطلب ، وأخذوا على أنفسهم الميثاق على حماية محمد" ﷺ " والدفاع عنه،وعـــدم تسليمه إلى الكفار أبداً، واتفقوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، ولم يشذ من هذين البطنين إلا أبو لهب فإنه انحاز مع كفار مكة ، ضد محمد ، ودعوته ، ولذلك يقول النبى " ﷺ " : كنا وبنو المطلب معاً فى الجاهلية والإسلام .

١٠ ـ المقاطعة العامة :

لما رأى كفار مكة أن بنى هاشم وبنى المطلب تواثقوا ، وتعاهدوا جميعاً على حماية محمد " ﷺ " عملوا على مقاطعتهم ، وعدم التعامل معهم مطلقاً ، وتحالفوا على أن لا يجالسوهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يدخلون بيوتهم ، ولا يكلموهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولايزوجوهم حتى يسلموا محمداً لقتله ، والانتهاء من أمره ، وكتبوا بذلك ميثاقاً علقوه في جوف الكعبة .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، واشتد الأمر على بنى هاشم وبنى المطلب حتى أكلوا ورق الشجر ، وحوصروا في شعبهم ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم للتعامل مع وفود الحج والعمرة ، وكان أهل مكة يزايدون عليهم لحرمانهم من كل خير ، حيث منعوا أن يتصل بهم أحد من القبائل البعيدة عن مكة ، وكانوا إذا رأوا تجارة قادمة سارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين فى الشعب، مبالغين فى ثمنها ، ودام الحال على ذلك حتى قضى الله بنقض المقاطعة،وتمزيق الميثاق المكتوب [١]

* * *

[١] سيأتى حديث مفصل عن انتهاء المقاطعة فى الفصل التالى .

المبحث الثالث عشر

عام الحزن

ويشاء الله تعالى أن يتعرض محمد " ﷺ " لامتحان شديد .. فبعد مضى عشر سنوات من بعثته يموت عمه أبو طالب ، وتموت زوجته خديجة بعده بأيام قليلة .

كان النبى " ﷺ " يجد من كل منهما العون والمساعدة ، فلقد قام عمه بحمايته والتصدى لأعدائه ، وتحمل من أجل ذلك ، ومعه بنو هاشم ، وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة، وقد كان من ورائها الضرر الكبير .

وزوجته خديجة نعم الزوجة ، أمانة ووفاء ، كانت عاقلة ، وكانت كاملة ، عاشرت النبى خمساً وعشرين سنة ، وعاملته بكل الرقة، والحنان ، والحب ، وكانت تتابع أخباره ، وتسليه ، وتحاول إرضاءه بعقلها ، وحكمتها ، وتعاونه بما لها ، وبكل ما يمكنها .

يروى أنس بن مالك " ﷺ " حادثة تدل على حكمة خديجة ، وحسن تصرفها ، وكمال عقلها .

يقول أنس " ﷺ " : أن النبى " ﷺ " كان عند أبى طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث أبو طالب بعده جارية له يقال لها "**نبعة**" فقال لها : أنظرى ما تقول له خديجة ؟ .. وما يقول لها ؟ ..بحثاً عن سر ما يراه بينهما من مودة وما يلمسه من ترابط .

قالت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة، فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها، إلى صدرها ونحرها ، ثم قالت : بأبى وأمى ، والله ما أفعل هذا لشئ ، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى ستبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى، ومنزلتى، وأدع الإله الذى يبعثك لى .

فقال لها " ﷺ ":والله لئن كنت أنا هو، فقد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبداً وأن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً [١] .

يفقد الرسول " ﷺ " أبا طالب هذا ،وخديجة هذه،في عام واحد ، بل وفي أسبوع واحد

ولذلك تألم كثيراً ، وسمى هذا العام عام الحزن ..

والموت قدر الله على جميع الخلق فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ورسول الله " ﷺ " أول المؤمنين بقدر الله تعالى ، وهو أول الصابرين ، وكان حزنه في حدود القدر المشروع .

وقضاء الله في موت أبي طالب وخديجة يتضمن حكماً جليلة منها :ـ

*بيان أن حبيبه" ﷺ " قدوة كاملة في الصبر الأمثل، والتأسى الجميل ، لقد ابتلى النبى ": ﷺ " بأقصى ما يبتلى به الإنسان فلم يجزع، ولم يفرق ، ولكنه كان خير معتصم بجناب ربه، وأفضل لائذ بحمى مولاه ، وليس غريباً على الذى فقد أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو في الخامسة ، وجده الذى كان عوضاً عن والده وهو في الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا وعزاه الله عن ذلك عزاء جميلاً ، ليس غريباً أن يعزيه الله أيضاً عن فقد العم وفقد الزوجة ، وعزاء الله خير عزاء .

* أراد الله أن تقوم أعمدة الإسلام على كواهل المسلمين أنفسهم، فلق كان أبو طالب ينصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته حتى انتصار الإسلام،وقيام دولة المسلمين،لنسب الناس ذلك إلى زعامة هذا العم ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه ، وأحرص على توطيده بجنود الإيمان، وأبناء الإسلام، ولذلك كانت الوفاة قبيل الهجرة بزمن وجيز .

---

[١] فتح البارى ج ٧ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

أما إطلاق عام الحزن على هذا العام فليس مرده إلى حزن النبي " ﷺ " على فقد عمه، وزوجه ، فالنبي " ﷺ " أصبر من أن تهزه أحداث الموت ، ولو كانت مزلزلة ، وهو أعرف الناس بالله ،وأقربهم منه،وما شغل قلبه إلا بالدعوة الإسلامية، والحرص على إبلاغها للناس، والحرص على هدايتهم .. هذا هو الذى أحزنه ، أحزنه أن هذه الوفاة سيكون لها أثر في إنطلاق وحوش قريش ، يقطعون الطريق في وجه الدعوة ويبطشون بكل من يعلن إسلامه .

إن حزن الرسول " ﷺ " كان من أجل انتصار الإسلام ، ونجاح الدعوة ، وكان يتألم كثيراً حينما يرى كفر قومه،وإنصرافهم عن دين الله،يقول تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [1].

ويقول سبحانه ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [2]

وقد حاول النبى " ﷺ " أن يستعين بغير أهل مكة بعد وفاة عمه فقام بمحاولتين داعياً إلى الله تعالى : ــ

المحاولة الأولى :

ذهب النبى " ﷺ " إلى ثقيف في الطائف ، واصطحب معه زيد بن حـــارثة " ﷺ " مولاه .

والطائف بلدة لطيفة ، كثيرة الثمر ، معتدلة المناخ ، تقع شرقى مكة على مرتفع عال ، وهى مشهورة بعنبها ، وتينها ، ورمانها ، وتمرها ، وأزهارها، وحدائقها الفيحاء ، ولما وصل الرسول إليها ومعه زيد بن حارثة عمد إلى حيث يجتمع سادة

---

(1) سورة الكهف آية (٦) .

(2) سورة الأنعام آية (٣٣) .

ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيما جاء له، من طلب نصرتهم للإسلام ، والقيام معه على من خالفه ، على أن يعيش بينهم .

بدأ حديثه يأخذ بأفئدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر ــ كعادته ــ فيمن يصغون إليه ، وإذا بثلاثة إخوة من أشراف ثقيف ، ممن لهم الرأى المسموع فيها ، يقطعون عليه حديثه ، وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب، أبناء عمرو بن عمير .

فقال أحدهما مكذباً : أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك يا محمد ! .

وقال الثانى : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم قدراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك [١].

فقام رسول الله " ﷺ " من عندهم، وقد يئس من إيمان ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، وكره رسول الله " ﷺ " أن يبلغ قومه عنه . فبشرهم ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، فدخله ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب ، فجلس تحته ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله " ﷺ " قال : (**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك،أو يحل على سخطك،لك العتبى حتى ترضى،ولا حول ولا قوة إلا بك**) [٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٤١٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٣٤٥ .

يصور الحديث الصحيح الوارد فى البخارى فعل ثقيف وقسوتهم على النبى "ﷺ"،

فلقد روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير ، أن عائشة " رضي الله عنها " حدثته أنها قالت للنبى " ﷺ " : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت ـــ وأنا مهموم ـــ على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ـــ وهو المسمى بقرن المنازل ـــ فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ، لك ماشئت فيهم، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـــ لفعلت ، (والأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والذى يقابله وهو قيقعان) ـــ قال النبى " ﷺ " : **بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا** [1] .

وهكذا كانت رحمة رسول الله " ﷺ " مع الناس ، فبرغم مالاقاه من ثقيف ، ومن أبناء عمرو بن عمير لم يدع عليهم ، وإنما دعا لهم " ﷺ " .

المحاولة الثانية : عرض نفسه على القبائل :

أخذ رسول الله " ﷺ " يعرض نفسه على قبائل العرب الآتين للمواسم حاجين أو معتمرين، وكان يطلب منهم أن يؤمنوا بالله تعالى، ويتركوا عبادة الأصنام والأوثان، على أن يخرج معهم إلى ديارهم، ليمنعوه من غدر قريش ، وعداوتها ، حتى يتمكن من تبليغ رسالة الله ، وتوصيل دينه إلى الناس .

فمنهم من لم يؤمن بدعوته ، ورده رداً قبيحاً .

ومنهم من لم يؤمن به . . ولكنه وعد بحمايته .

---

[1] صحيح البخارى ـــ كتاب بدء الخلق ج ١ ص ٤٥٨ .

ومنهم من كان بينه وبين الفرس مواثيق تمنعه من الإيمان ، ونصرة الرسول " ﷺ "

وكـــان عــلى رأس من لم يؤمن بدعوته من القبائل ، ورد عليه رداً قبيحاً قبائل كندة ، وكلب ، وبني حنيفة .

يتكلم محمد بن عمر الأسلمي عن بني حنيفة فيقول : نسأل الله أن لا يحرمنا الجنة ، لقد رأيت رسول الله " ﷺ " جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ، وبالمجنة، وبذي المجاز، يدعونـــا إلى الله ـــ عـــز وجـــل ـــ على أن نمنع له ظهره، حتى يبلغ رسالات ربه، ويشرط لنا الجنة،فما استجبنا له،ولا رددنا عليه رداً جميلاً ،فخشنا عليه وحلم عنا[(١)]

يـــروى مدرك بن منيب عن أبيه عن جده فيقول:رأيت رسول الله "ﷺ" في مكـــة وهـــو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، فمنهم من تفل في وجهـــه، ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبه ، حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه، ويديه، وقال:يا بنية لا تخشى على أبيك غلة ولا ذلة فقلت : من هذه ؟

قالوا : زينب بنت رسول الله " ﷺ " ، وهي جارية وضيئة[(٢)]

ومن القبائل التي أحسنت لقاء النبي " ﷺ " بنو شيبان بن ثعلبة ، فعن على ابن أبي طالب " ﷺ " أنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه " ﷺ " أن يعرض نفسه على قـــبائل العـــرب خرج وأنا معه ، ومعنا أبو بكر ... ثم ذهبنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم فقال : من القوم ؟

قالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله " ﷺ " وقال : بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس ،وفيهم مغـــروق بـــن عمرو ، وهانئ ابن قبيصة ، والمثنى بن حارثه ، والنعمان بن شريك، وكان مغروق قد غلبهم لساناً، وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته،

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٥٩٤ .

وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

فقال مغروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله " ﷺ " فها هو ذا .

فقال مغروق : إلام تدعونا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤووني ، وتنصروني ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال مغروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا فتلا رسول الله " ﷺ " : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[1] .

فقال مغروق : دعوت ـ والله ـ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك .

ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ شيخنا ، وصاحب ديننا .

---

[1] سورة الأنعام آية (١٥١) .

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى تركنا ديننا ، واتباعنا دينك لمجلس واحد جلست إلينا فيه، لا أول له ولا آخر ، لذل فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة ، إن الزلة مع العجلة ، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر ، وتنظر .

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا، وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش،والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة ، فى تركنا ديننا،ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين:أحدهما اليمامة،والآخر السمامة .

فقال له رسول الله " ﷺ " : ما هذان الصريان ؟ قال : أنهار كسرى، ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان مما يلى مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثاً ، ولا نؤوى محدثاً ، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش ، مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك ، وننصرك ، مما يلى مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم،وأموالهم ، أتحبون الله تعالى وتقدسونه ؟

فقال النعمان : اللهم فلك ذاك .

فتلا عليهم رسول الله " ﷺ " : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾[1] .

ثم نهض رسول الله " ﷺ "[2] .

---

[1] سورة الأحزاب آية (٤٥ ، ٤٦) .

[2] دلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٣٧ .

ومن القبائل التي أعلنت استعدادها لإيواء النبي " ﷺ " مع عدم الإيمان بـــه بنو كعب بن ربيعة ، وكاد الرسول " ﷺ " أن يذهب معهم لولا طاغية من طغاة البشر ردهم عما عزموا عليه .

يروى أبو نعيم عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول الله " ﷺ " ونحن بسوق عكاظ فقال : من القوم ؟

قلنا : من بني عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة .

فقال : إني رسول الله إليكم، أتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحداً منكم على شئ .

قالوا : لا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم بيحرة بن فراس القشيرى فقال : من هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : فما لكم وله ؟

قالوا : زعم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

قال : ما رددتم عليه ؟

قالوا : بالرحب والسعة نخرجه إلى بلادنا ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا .

فقال بيحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشئ أشر من شئ ترجعـــون بـــه ! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه ، وكذبوه فتؤووه ، وتنصروه ، تنابذوا العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به، فبئس الرأى رأيكم ، ثم أقبل على رسول الله " ﷺ " فقال : قم فالحق بقومك فو الله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك [1] .

ونلاحظ أن أهل مكة لم يتركوا محمداً يتصل بالناس ، بل سلطوا عمـــه أبا لهب وأبا جهل يسيران خلفه ، أحدهما بعد الآخر بالتناوب ، وكلما خاطب قوماً

---

[1] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

ودعاهم إلى الله يقول أبو لهب، ويقول أبو جهل : يا بني فلان ، إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزي من أعناقكم، وتتركوا حلفاءكم من الـــجن ، إلى ما جاء به من البدعة ، والضلالة ، فلا تطيعوا ، ولا تسمعوا منه .

يقول طارق بن عبد الله : إني بسوق ذى المجاز، إذ مر رجل بى عليه حلة من بــرد أحمر، وهو يقول : **يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** ، ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه يقول : **يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه .**
فقلت : من هذا ؟قالوا: غلام بنى هاشم الذى يزعم أنه رسول الله ، وهــذا عمه عبد العزى [١] (أبو لهب) .

ويروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من كنانة يقول:رأيت رسول الله " ﷺ " بسوق ذى المجاز وهو يقول : **يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا .**
وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، وإذا هو أبو جهل ، يقول : **يا أيهــا الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.**
يتبعه حيث ذهب ورسول الله " ﷺ " يفر منه، وما يلتفت رسول الله " ﷺ " إليه [١] .

* * *

---

[١] سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٤٢٣ .

[١] سيرة ابن كثير ج٢ ص ١٥٦ .

المبحث الرابع عشر

زواج النبى " ﷺ "

بعد وفاة خديجة

بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها " تزوج النبى " ﷺ " غيرها ، وهو فى مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فعقد على عائشة فى مكة، ودخل بها فى المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة ، ودخل بها فى مكة ، وتزوج أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان " رضي الله عنهم أجمعين " حيث عقد عليها وهى فى الحبشة، ودخل بها بعد عودتها إلى المدينة بعد الهجرة .

وهذا تعريف بهؤلاء الزوجات : ـــ

أولا : سودة بنت زمعة " رضي الله عنها " :

روى ابـــن إسحاق ـــ من طريق يونس بن بكير ـــ أن النبى " ﷺ " تزوجها بعد خديجة ودخل بها فى مكة قبل الهجرة، و لم يصب منها ولداً ، وكانت عائشـــة " رضي الله عنها " تقول عنها : ما رأيت من امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها من سودة بنت زمعة [١] .

يورد ابن كثير قصة زواج النبى " ﷺ " بسودة ، وعائشة، فيقول : لما ماتت خديجـــة جاءت خولة بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله " ﷺ " ، فقالت : يارسول الله ألا تتزوج ؟

قال : من ؟

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر ؟

قالت : أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر .

قال : ومن الثيب ؟

---

[١] الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٥٧ .

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك .

قال : فاذهبي فاذكريهما علي ، فدخلت بيت أبي بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ !

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قالت : انظري أبا بكر حتى يأتي ، فجاء أبو بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت :أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ، إنما هي ابنة أخيه ، فرجعت إلى رسول الله " ﷺ " ، فذكرت ذلك له .

قال : ارجعي إليه ، فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام ، وابنتك تصلح لي ، فرجعت فذكرت ذلك له ، قال انتظري ، وخرج ، ثم رجع فقال لخولة : ادعي لي رسول الله " ﷺ " فدعته ، فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين .

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت لها : ما أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطبك إليه .

قالت : وددت ، أدخلي إلى أبي بكر (والدسودة) فاذكري ذلك له ، وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه وحييته ، فقال : من هذه ؟

قالت : خولة بنت حكيم .

قال : فما شأنك ؟

قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة .

فقال : كفؤ كريم ، ماذا تقول صاحبتك ؟

قالت : تحب ذلك .

قال : ادعيها إلى ، فدعتها ، قال : أى بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك ، وهو كفؤ ، كريم ، أتحبين أن أزوجك به ؟

قالت : نعم .

قال : ادعيه لى فجاء رسول الله " ﷺ " فزوجها إياه [١] .

وقد شكت سودة ظروفها لرسول الله " ﷺ " ، وحاولت أن تعتذر عن الزواج به ، فسألها رسول الله " ﷺ " : ما يمنعك منى ؟

قالت : والله يا نبى الله ما يمنعنى منك أن لا تكون أحب البرية إلى ، ولكنى أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة ، وعشية .

قال : فهل منعك منى غير ذلك ؟

قالت : لا والله، قال لها رسول الله " ﷺ " : يرحمك الله ، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل،صالحو نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره،وأرعاه على بعل بذات يده [٢] .

وهى التى وهبت يومها من رسول الله " ﷺ " لعائشة ، وذلك حينما كبرت فكان رسول الله " ﷺ " يقسم لعائشة يومين : يومها ، ويوم سودة [٣] .

ونفهم من رواية الصحيحين أنها كانت امرأة ـــ مع كبر سنها فيما بعد ـــ كبيرة الجسم حتى أنها لتعرف وتميز بين النساء إذا مشت ، حتى قال عمر ذات يوم ـــ وقد خرجت سودة ليلاً ـــ : إنك والله يا سودة ما تخفين علينا [٤] .

وتصفها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة، ثبطة، بطيئة الحركة ، ولهذا استأذنت النبى " ﷺ " ليلة جمع (مزدلفة) فى الدفع قبل حطمة الناس فأذن لها [٥] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٢ .

(٣) صحيح البخارى ـــ كتاب النكاح ـــ باب كثرة النساء ج ٨ ص ١٢٧ .

(٤) صحيح البخارى ـــ كتاب النكاح ـــ باب خروج النساء لحوائجهن ج ٨ ص ٢٠١ .

(٥) صحيح البخارى ـــ كتاب الحج ـــ باب من قدم من ضعفة أهله ج ٣ ص ١٦٦ .

ثانيا : عائشة بنت أبى بكر " رضي الله عنها " :

تزوج النبى "ﷺ" عائشة " رضي الله عنها " بعد وفاة خديجة بثلاث سنين [١]، والــذي يظهــر من غالبية الروايات أن عقده "ﷺ" عليها كان بمكة وعمرها ست سنوات ، أما الدخول بها فكان بالمدينة وهى بنت تسع سنين [٢] .

ومـمـا يؤكد صغر سنها حين الزواج لعبها مع البنات عند رسول الله ، ومجئ صواحب لها ينقمعن من رسول الله ، فيسرهن إليها [٣] .

وقد خطبها النبى " ﷺ " من أبى بكر ، فقال أبو بكر : إنما أنا أخوك ! فقال له النبى " ﷺ " : أنت أخى فى دين الله وكتابه ، وهى لى حلال .

أما عن كيفية دخوله " ﷺ " بها : فتحدثنا عائشة وتقول : تزوجـــنى النبى " ﷺ " وأنـــا بنـــت ست سنين ، فقدمنا المدينة ، فنزلنا فى بنى الحرب بن خزرج ، فوعكـــت ، فتمرق شعرى فوفى جميمه ، فأتتنى أمى أمَ رومان ، وإنى لفى أرجوحة ، ومعى صواحب لى ، فصرخت بى ، فأتيتها لا أدرى ما تريد بى ، فأخذت بيدى حتى أوقفتنى على باب الدار ، وإنى لنهج حتى سكن بعض نفسى ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمســحت به وجهى ورأسي ، ثم أدخلتنى الدار ، فإذا نسوة من الأنصار فى البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأنى ، فلم يرعنى إلا رسول الله " ﷺ " ، فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين [٤] .

وزواج النبى " ﷺ " بعائشة كان بعد رؤيا رآها فى المنام تكررت مرتين كما فى البخاري [٥]، أو ثلاث مرات كما فى مسلم [٦] .

---

[١] صحيح البخارى ــ كتاب المناقب ــ باب تزويج النبى " ﷺ " خديجة ج ٦ ص ١٦٣ .

[٢] صحيح البخارى ــ كتاب مناقب الأنصار ــ باب تزويج عائشة ج ٦ ص ٢٠١ .

[٣] صحيح مسلم ــ كتاب فضائل الصحابة ــ باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

[٤] صحيح البخارى ــ كتاب النكاح ــ باب البناء بالنهار ج ٨ ص ١٦٦ .

[٥] صحيح البخارى ــ كتاب النكاح ــ باب نكاح الإبكار ج ٨ ص ١٣١ .

[٦] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

يقول " ﷺ " : جاءني بك الملك في سرقة من حرير ،فقال لي : هذه امرأتك ، فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي ، فقلت : إن يك هذا من عند الله يمضه [١] .

وعائشة " رضي الله عنها " هي الوحيدة من بين أزواجه " ﷺ " التي تزوجها وهي بكر ، ولهذا كانت تظهر هذا الفضل ، وتقول للنبي " ﷺ " يا رسول الله ، أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها ، في أيها كنت ترتع بعيرك ؟ ! قال : في التي لم يرتع منها ، تعني أن رسول الله " ﷺ " لم يتزوج بكراً غيرها [٢] .

وكان ابن عباس " رضي الله عنهما " يقول لعائشة : لم ينكح النبي " ﷺ " بكراً غيرك .

مكثت عائشة " رضي الله عنها " مع النبي " ﷺ " تسع سنين ، ومات عنها النبي " ﷺ " وهي بنت ثماني عشرة سنة .

وفي فضلها قال " ﷺ " : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [٣]، وأخبرها النبي " ﷺ " : أن جبريل يقرئها السلام [٤] .

وقد اختصت من بين سائر زوجات النبي " ﷺ " بنزول الوحي عليه وهو في لحافها ، أخبر عن ذلك المصطفى " ﷺ " وهو يقول لأم سلمة : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها [٥] .

ومحبة النبي " ﷺ " لعائشة لم تكن تخفى على المسلمين ، حتى لقد كانوا يتحرون بهداياهم اليوم الذي يكون فيه النبي " ﷺ " عند عائشة [٦] .

---

[١] واللفظ للبخاري ومسلم معاً .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب النكاح ــ باب نكاح الأبكار ج ٨ ص ١٣١ .

[٣] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ج ١٥ ص ١٩٩ .

[٤] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢١٠ .

[٥] صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ج ٦ ص ١٤٣ .

وعائشـــة " رضي الله عنها " هى التى قبض النبى " ﷺ " بين سحرها ونحرها ـــ كمـــا كانـــت تقول ـــ [1] لأنه " ﷺ " لقى ربه وهو فى حجرها ، وكان آخر عهده أن بل ريقها ريقه " رضى الله عنها " .

ثالثا : أم حبيبة بنت أبى سفيان :

أم حبيبة هى رملة بنت أبى سفيان ، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابـــن جحش الأسدى ، وفارقته بعدما تنصر ، وارتد ، فعقد عليها النبى " ﷺ " وهى بأرض الحبشة ، وأنكحها النجاشى للنبى " ﷺ " وأصدقها أربعمائة دينار ذهبا .

ودخل بها " ﷺ " فى المدينة بعد أن عادت من هجرتها [2] .

وهى التى عرضت على النبى " ﷺ " الزواج بأختها " عزة بنت أبى سفيان " فعجب النبى " ﷺ " لذلك ، وقال : أو تحبين ذلك ؟ ! قالت : نعم .

وتعلـــل ذلـــك ، وتقول : لست لك بمخلية ، وأحب من شاركني فى الخير أختي ، فرد عليها ، إن ذلك لا يحل لي .

وإنما عقد النبى " ﷺ " على أم حبيبة تكريماً لها ، وتقديراً لتمسكها بالإسلام ، وعوضاً لها عن مفارقة زوجها .

* * *

---

[1] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢٠٥ .

[2] المرجع السابق ج ١٥ ص ٢٠٨ .

[3] جوامع السيرة ص ٣٥ .

المبحث الخامس عشر

تتابع مجئ نصر الله تعالى

بذل النبي " ﷺ " جهده في دعوة أهل الطائف،وفى عرض نفسه على القبائل ، ومع ذلك لم يتحقق له ما يتمنى حيث رده أهل الطائف رداً قبيحاً،ولم تؤمن القبائل بدعوته، ورفضت إجارته خوفاً من عداء قريش،وتأثراً بما كان أبو لهب وأبو جهل يذكران عنه

وكانت معونة الله مع عبده ورسوله محمد " ﷺ " حيث يسر له من أمره رشداً ، ولم يخرج من جهاده مع الناس خالى الوفاض ، فحقق له عدداً من الانتصارات التي ترضيه ، رحمة من الله ، وفضلاً ، وأهمها ما يلى : ــ

النصر الأول

إسلام عداس

بعد ما ردت ثقيف رسول الله " ﷺ " بهذه الصورة السيئة، التي ذكرتها، أخذ " ﷺ " فى العودة إلى مكةمرة أخرى .

وعندما وصل إلى بستان بنى ربيعة جلس تحت ظل شجرة ليستريح، وأخذ يدعو ربه ، ويستغيث به ... فاستجاب الله له،وجاءه نصر الله ، حتى لا يعود لمكة خاوى الوفاض ، فكان إسلام عداس .

وقصة إسلام عداس أنه " ﷺ " لما جلس تحت الشجرة رآه عتبة ، وعتيبة ابنا ربيعة وعلما ما وقع له ، فتحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عداس ليعطيه شيئاً من الفاكهة تعينه على هذه المتاعب وقالا له:خذ قطفاً (من هذا) العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله " ﷺ " ثم قال له : كل .

فلما وضع رسول الله " ﷺ " فيه يده ، قال : بسم الله ، ثم أكل .

فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد

فقال له رسول الله " ﷺ " : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟، وما دينك ؟

قال عداس: نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله " ﷺ " : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

فقال رسول الله " ﷺ " ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى ، فأكب عداس على رسول الله " ﷺ " يقبل رأسه ، ويديه ، وقدميه ، وأسلم .

وهكـــذا أسلم عداس فى أثناء عودة النبى " ﷺ " من رحلته إلى الطائف ـ

وأمـــا أبناء ربيعة فقد قالا لعداس : ويلك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ، ويديه ، وقدميه ؟ !

فقال لهما : لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى [1] .

النصر الثاني

إسلام الجن

حين إنصرافه " ﷺ " من الطائف ، راجعاً إلى مكة ، وعند واد فى طريق مكة يسمى " نخلة " قام " ﷺ " فى جوف الليل يصلى ، فأتاه سبعة من جن نصيبين . استمعوا لقراءته " ﷺ "، وهو يصلى،فلما فرغ من صلاته ، أعلنوا إيمانهم وإسلامهم ، ثم انصرفوا إلى قومهم دعاة ، يحملون الإسلام إليهم ، ويوضحون تعاليمه ، ومزاياه ،

وفى ذلك يقول الله تـــعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى

---

(١) سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٤٢١ .

وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ »[1] وقد نزلت قصتهم كاملة في سورة الجن .

وهكذا بدأ خلق آخر يدخلون في الإسلام، ويهتمون بالدعوة إليه ..

ومن سياق الآيات يتضح أن الرسول " ﷺ " لم يكن يعلم بحضور هذا النفر من الجن

لقد كان إيمان الجن نصراً آخر، أمده الله به، من كنوز غيبه المكنون ، ولله جنود لا يعلمها إلا هو .

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل في طياتها بشارات نجاح دعوة النبي " ﷺ " ، وتؤكد أن سائر قوى الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] ، ويقول سبحانه :﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾[3] .

النصر الثالث

إجارة المطعم بن عدى

لما خرج محمد " ﷺ " إلى الطائف عزمت قريش على منعه من العودة إلى مكة ؛ حتى لا يجد مكاناً يأويه ، أو أناساً يحمونه .. ومع ذلك نوى رسول الله العودة إلى مكة .

---

[1] سورة الأحقاف الآيات (٢٩ ــ ٣٢) .

[2] سورة الأحقاف آية (٣٢) .

[3] سورة الجن آية (١٢) .

قال له زيد بن حارثه " ﷺ " رفيقة فى رحلة الطائف : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟

فقال " ﷺ " : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وأن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه .

وسار رسول الله " ﷺ " صوب مكة ، حتى وصل حراء فمكث بها ، وأخذ يبحث عن شخص يجيره ، وينصره ..

فأرسل رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال الأخنس إنا حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث الرجل إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب .

فبعث الرجل إلى المطعم بن عدى ، فرد المطعم رداً جميلاً وقال : نعم ، ثم تسلح ، ودعا بنيه ، وقومه ، وقال لهم : إلبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله " ﷺ " : أن ادخل ، فدخل رسول الله " ﷺ " ومعه زيد بن حارثه حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم .

وانتهى رسول الله " ﷺ " إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به ، بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أمجير أنت أم متابع ـ مسلم ـ . قال : بل مجير ، قال : قد أجرنا من أجرت ..

وقد حفظ رسول الله " ﷺ " للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له [1] .

---

(1) صحيح البخارى ـ كتاب الجهاد ـ باب ما من النبى " ﷺ " به على الأسارى ج ٥ ص ٢٢٦ ـ ط . الأوقاف .

العنصر الرابع

أضواء وسط ظلام القبائل

ظلت القبائل على كفرها ، وردوا على رسول الله حين عرض نفسه عليهم ردوداً مختلفة وكان لموقف القبائل أثر مؤلم على نفس رسول الله " ﷺ " .

ويأبى الله إلا أن يكرم محمداً " ﷺ " ببعض الخير ، فتشرق عليها أضواء من بين هذه القبائل ، وذلك بإسلام أفراد منهم ، ودخولهم فى دين الله تعالى ، وعلى رأس هؤلاء المسلمين : —

١ . سويد بن الصامت " ﷺ " :

وهو رجل من بنى عوف بن مالك الأوسى ، جاء إلى مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله " ﷺ " حين سمع به ، فدعاه إلى الله، وإلى الإسلام .

فقال له سويد : فلعل الذى معك هو الذى معى .

فقال له رسول الله " ﷺ " : وما الذى معك ؟

قال : معى مجلة لقمان ـــ يعنى حكمة لقمان ـــ .

فقال له رسول الله " ﷺ " : أعرضها علىّ .

فعرضها عليه ، فقال له " ﷺ " : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله " ﷺ " القرآن ، ودعاه إلى الإسلام،فلم يبعد منه،وقال:إن هذا لقول حسن وأسلم ، ثم انصرف عنه [١]

٢ . إياس بن معاذ " ﷺ " :

إياس بن معاذ من بنى عبد الأشهل وهم من الأوس ، جاء وهو صغير مع قومه يلتمسون الحلف مع قريش لينتصروا بهم على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله " ﷺ " أتاهم ، وجلس معهم وقال لهم :هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

---

[١] سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٢٧ .

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر ، أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله " ﷺ " عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبس إياس بن معاذ أن هلك ، يقول محمود بن لبيد ، فأخبرني من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله " ﷺ " ما سمع [١] .

٣ ـ أبو ذر الغفارى " ﷺ " :

لما بلغ يثرب خبر سويد ، وإياس " رضى الله عنهما " ، وإنهما سمعا محمداً " ﷺ " وآمنا بدعوته ، بدأ أهلها فى التفكير فى أمر محمد ، وبخاصة أهل الرأى فيهم ، ومنهم أبو ذر الغفارى ، أخذ أبو ذر يفكر فى الإسلام ، وهو فى يثرب ، فقال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى فاعلمنى علم هذا الرجل، الذى يزعم أنه نبى، يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى .

فانطلق أخوه حتى قدم مكة ، ولقى محمداً " ﷺ " ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبى ذر ، فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتنى مما أردت ، فتزود أبو ذر، وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبى " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه على " ﷺ " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم

---

[١] المصدر السابق ج١ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

فلما أصبح أبو ذر، احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ينظر إلى النبى " ﷺ " والنبى لا يراه حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه .

مر به على فى مضجعه فقال له: أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه عنده ، فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

حتى إذا كان يوم الثالث ، فعاد على مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدننى فعلت ، ، ففعل ، فأخبره .

قال على : فإنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى ، حتى تدخل مدخلى ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على "ﷺ" على النبى " ﷺ " ، ودخل أبو ذر معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبى " ﷺ " : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمرى .

قال أبو ذر : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه .

وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه، وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه [1] .

٤ـ الطفيل بن عمرو الدوسى " ﷺ " :

الطفيل شيخ من شيوخ قبيلة دوس، إحدى قبائل اليمن، قدم الطفيل مكة، ورسول الله " ﷺ " بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك

---

[1] صحيح البخارى ـــ كتاب المناقب ـــ باب إسلام أبى ذر ج٦ ص ١٨٢ .

قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك ، وعلى قومك ، ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئاً .

يقول الطفيل : فو الله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، وحشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفاً خوفاً من أن يبلغنى شئ من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله " ﷺ " قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله،فسمعت كلاماً حسناً . فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل لبيب، شاعر، ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يـــقول ! فإن كان الذى يأتى به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله " ﷺ " إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل لبيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا ، فو الله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لكى أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض علىّ أمرك ، فعرض علىّ رسول الله " ﷺ " الإسلام ، وتلا علىّ القـــرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق [١] .

٥ ـ ضماد الأزدى " ﷺ " :

ضماد رجل من اليمن ، كان يعمل بالرقيا من الجن ، قدم مكة ، فسمع أهلها يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال : لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى .

---

[١] سيرة النبى لابن هشام ج١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

فقال : يا محمد ، إني أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .. أما بعد .

فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات .

فقال ضماد:لقد سمعت قول الكهنة،وقول السحرة،وقول الشعراء،فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء،ولقد بلغن قاموس البحر،هات يدك أبا يعك على الإسلام ، فبايعه [1]

النصر الخامس

الإسراء والمعراج

وأكرم الله نبيه محمداً " ﷺ " برحلة الإسراء والمعراج ، ليؤنسه ، ويعرفه بمنزلته عنده ، وليبدأ " ﷺ " بها مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى .

والحديث عن الإسراء والمعراج يحتاج إلى تناول نقاط معينة وهى :ـــ

١ ـ مفهوم الإسراء والمعراج

يراد بالإسراء تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل "عليه السلام" محمداً "ﷺ" ليلاً من البيت الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس بإيلياء حيث ركبا معاً البراق .

ويراد برحلة المعراج صعود جبريل بمحمد " ﷺ " من بيت المقدس إلى السماوات العلا ، في معراج أحضره معه جبريل " عليه السلام " .

٢ ـ ثبوت الإسراء والمعراج

والإسراء والمعراج ثبت وقوعهما لرسول الله " ﷺ " بالقرآن الكريم ، وبالسنة النبوية وبشهادة الصحابة " رضوان الله عليهم " .

---

[1] الرحيق المختوم ص ١٥٢ .

أما القرآن الكريم ففيه يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[2] .

وأما السنة فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله " ﷺ " قال أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل " عليه السلام " بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل " عليه السلام " اخترت الفطرة .

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

---

(١) سورة الإسراء آية (١) .

(٢) سورة النجم الآيات (١ — ١٨) .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم " عليه السلام " فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل " عليه السلام "

فقيل : من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا " صلوات الله عليهم " فرحبا ودعوا لى بخير .

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .

فقيل : من أنت ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد " صلى الله عليه وسلم " .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه .

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف " عليه السلام " إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟.

قال : محمد .

قال : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب ودعا لى بخير ، قال الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل.

قيل : من هذا ؟.

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون " عليه السلام " ، فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى " عليه السلام " ، فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟.

قال : محمد " صلى الله عليه وسلم " .

قيل : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم " عليه السلام " مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال .

فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى " عليه السلام " ، فقال : ما فرض ربك على أمتك .

قلت : خمسين صـــلاة .

قال موسى " عليه السلام " : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .

فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً .

فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمساً .

قال موسى " عليه السلام " : إن أمتك لا يطيقون ذلك،فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

يقول " صلى الله عليه وسلم " : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى " صلى الله عليه وسلم "،حتى قال الله تعالى: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنه ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى " عليه السلام " فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه [1] .

---

[1] صـحيح مسلم بشرح النووي ـــ باب الإسراء برسول الله " صلى الله عليه وسلم " ج٢ ص ٢١٠ ـــ ٢١٥ ، يقول القاضي عياض عن هذا الحديث : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث (الشفا ج١ ص ١٧٩) .

وقد روى حديث الإسراء والمعراج ثمان وثلاثون صحابياً وصحابية، بعضهم ذكره مطولاً ، وبعضهم ذكره مختصراً ، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر عند الآخرين .. ووقعت بينهم اختلافات، والقدر المجمع عليه هو أنه " ﷺ " أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ، ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه ، إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها .

ثم سلم على الأنبياء الذين فى السموات، بحسب منازلهم ، ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم ، وإبراهيم الخليل فى السادسة والسابعة ، ثم جاوز منزلتيهما " ﷺ " وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أى أقلام القدر بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته ، وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ، رحمة منه ، ولطفاً بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه ، لما حانت الصلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم فى منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً ، واحداً ، فيخبره بهم وكان الأنبياء أنفسهم يسألون جبريل " عليه السلام " عن المصاحب له ، وعن بعثته .

والقول بأن الصلاة كانت بعد العودة من العروج هو اللائق،لأنه " ﷺ "كان أولاً مطلوباً إلى الجناب القدسى ليتشرف بالمقام العلوى ، وتعرف منزلته عند ربه ، وحتى يفرض عليه ، وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ، وأظهر شرفه ، وفضله عليهم ، بتقديمه فى الإمامة وأئتمامهم جميعاً " صلوات الله عليهم " به، وذلك بوحى جبريل " عليه السلام " لهم فى ذلك ، ثم خرج "ﷺ" من بيت المقدس فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم [١] .

وحتى نقف على ما بين هذه الروايات من اتفاق،أو اختلاف أبين ما يلى : —

أولا : رواة حديث الإسراء :

بلغ عدد رواة حديث الإسراء من الصحابة ثمان وثلاثين صحابياً ، وصحابته وهم : —

١ — أبى بن كعب " رضي الله عنه " .
٢ — أبو ذر الغفارى " رضي الله عنه " .
٣ — بريدة بن عبد الله " رضي الله عنه " .
٤ — أسامة بن زيد " رضي الله عنه " .
٥ — أنس بن مالك " رضي الله عنه " .
٦ — جابر بن عبد الله " رضي الله عنه " .
٧ — حذيفة بن اليمان " رضي الله عنه " .
٨ — سمرة بن جندب " رضي الله عنه " .
٩ — سهل بن سعد " رضي الله عنه " .
١٠— شداد بن أوس " رضي الله عنه " .
١١— صهيب بن سنان " رضي الله عنه " .
١٢— عبد الله بن عباس " رضي الله عنه " .
١٣— عبد الله بن عمر " رضي الله عنه " .
١٤— عبد الله بن الزبير " رضي الله عنه " .
١٥— عبد الله بن أبى أوفى " رضي الله عنه " .
١٦— عبد الله بن سعد بن زرارة " رضي الله عنه "
١٧— عبد الله بن مسعود " رضي الله عنه " .
١٨— العباس بن عبد المطلب " رضي الله عنه "
١٩— عثمان بن عفان " رضي الله عنه " .
٢٠— على بن أبى طالب " رضي الله عنه " .
٢١— عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " .
٢٢— مالك بن صعصعة " رضي الله عنه " .

---

[١] تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٢ .

٢٣ــ أبو بكر الصديق " رضي الله عنه " . ٢٤ــ أبو أيوب الأنصارى " رضي الله عنه " .

٢٥ــ أبو الحمراء " رضي الله عنه " . ٢٦ــ أبو الدرداء " رضي الله عنه " .

٢٧ــ أبو سعيد الخدرى " رضي الله عنه " . ٢٨ــ زيد بن حكيم " رضي الله عنه " .

٢٩ــ أبو سفيان بن حرب " رضي الله عنه " . ٣٠ــ أبو سلمة بن دحية " رضي الله عنه " .

٣١ــ أبو ليلى الأنصارى " رضي الله عنه " . ٣٢ــ أبو سلمى راعى رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .

٣٣ــ أبو هريرة " رضي الله عنه " . ٣٤ــ أم المؤمنين عائشة "رضي الله عنها " .

٣٥ــ أسماء بنت أبي بكر "رضى الله عنها" . ٣٦ــ أم كلثوم بنت رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .

٣٧ــ أم سلمة أم المؤمنين "رضي الله عنها" . ٣٨ــ أم هانى " رضى الله عنها [1] .

وقد أورد السيوطى مختلف الروايات بأسانيدها فى كتابه "الخصائص الكبرى" ونقلها عنه العلامة الشيخ / يوسف النبهانى فى كتابه " حجة الله على العالمين " ، فليرجع إلى أيهما من أراد الاطلاع عليها .

ثانيا : الزيادات الواردة عن رواية أنس المذكورة :

وردت زيادات فى بعض الروايات زائدة عن رواية أنس بن مالك " رضي الله عنه " التى نقلتها من صحيح مسلم وجعلتها أساساً لسائر الروايات، وسأحاول هنا ذكر هذه الزيادات لتتضح صورة الإسراء والمعراج كاملة ، وهى : ــ

أ ــ أخرج البخارى بسنده عن أنس،قال : (ليلة أسرى برسول الله " صلى الله عليه وسلم " من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه بالإسراء وهو نائم فى المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟

فقال أوسطهم : هو خيرهم .

فقال أحدهم : خذوا خيرهم .. وفى ليلة أخرى أتوه وهو نائم فحملوه ، ووضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق ما بين نحره إلى لبته ، حتى فرغ من صدره

---

(١) أورد ابن كثير حصر هذه الأسماء فى تفسيره ج٣ ص ٢٤ كما ذكرهم صاحب كتاب " حجة الله على العالمين ص ٣٣٧ .

وجوفه فغسله بماء زمزم بيده ، حتى ألقى جوفه ، ثم أتى بطشت من ذهب ، محشو إيماناً ، وحكمة ، فحشى به صدره ، ولغاديده (عروق حلقه) [١] .

ب ـ وأخرج أحمد عن طريق أنس أن النبي أتر بالبراق ليلة أسرى به ، مسرجاً ، ملجماً ، ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أبمحمد تفعل هذا ؟ فو الله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه فأرفض البراق عرقاً ، ثم قر حتى ركبه " ﷺ " [٢]

ج ـ وأخرج ابن عساكر ، والبيهقي بسندهما عن حديث أبي سعيد الخدري يقول النبي " ﷺ " : فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفس طيبة ، فاجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ، ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم ، قد أروح ، وأنتن ، عندها ناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يتركون الحلال ، ويأتون الحرام .

ثم مضيت هنيهة فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سابلة آل فرعون ، فتجئ السابلة فتطؤهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ، ويلقمون حجراً، ثم يرضخ من أسافلهم، فسمعتهم يضجون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

---

[١] صحيح البخاري ـ باب المعراج ج ٦ ص ١٩٠ بمثله .

[٢] سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

قال : هؤلاء من أمتك ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، فسمعتهن يضجحن إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال : هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ، فيلقمون ، فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون [1] .

د ـــ وأخرج البيهقى ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة " رضي الله عنه " قال : وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون فى يوم ، ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى " ﷺ " : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شئ .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على إقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل ، والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم ، وحجارتها .

قال : ما هؤلاء ؟ يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً .

---

(١) حجة الله على العالمين ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم أخر نيئ خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتى امرأة خبيثة، فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه ، حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شئ إلا خرقته .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شئ ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، لا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتاً ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول يارب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى وحريرى،وسندسى،وعبقريى،ولؤلؤئ،ومرجانى،وفضتى،وذهبى،وأكوابى،وصحاف

وأبارقى،ومراكبى، وعسلى، ومائى، ولبنى، وخمرى، فآتنى ما وعدتنى ، فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، قالت : رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول يارب آتنى ما وعدتنى ، فلقد كثرت سلاسلى، وأغلالى وسعيرى، وحميمى، وضريعى، وغساقى، وعذابى ، وقد بعد قعرى، واشتد حرى، فآتنى ما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت [١] .

هـ ــ وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة " ﷺ " ، قال : قال رسول الله " ﷺ " رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا، رعد، وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى ، فإذا أنا برهج ، ودخان ، وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم، لئلا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب [٢] .

و ــ جاء فى حديث أبى هريرة ذكر كلام كل من إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان " عليهم السلام "، ثم ذكر كلام النبي " ﷺ " فقال : وأن محمداً " ﷺ " أثنى على ربه عز وجل ، فقال : كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثنى على ربى الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس ، بشيراً ، ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شئ ، وجعل أمتى خير أمة ، وجعل أمتى أمة وسطا وجعل أمتى هم

---

(١) حجة الله على العالمين ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

الأولون ، وهم الآخرون ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحاً ، وخاتماً ، فقال إبراهيم بهذا فضلكم محمد [١] .

ز ــ جاء فى حديث أبى هريرة من طريق الربيع بن أنس ، أن رســـول الله " ﷺ لما انتهى إلى سدرة المنتهى قال له الله تعالى : سل ، فقال " ﷺ " : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً ، وسخرت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، والرياح ، وأعطيته ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الكمه ، والأبرص ، وأعذته وأمه ، من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل .

فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك خليلاً ، وحبيباً ، فهو مكتوب فى التوراة محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون ، وهم الآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلتك أول النبين ، خلقاً ، وآخرهم بعثاً ، وأعطيتك سبعاً من المثانى ، ولم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبياً قبلك ، وجعلتك فاتحاً ، وخاتماً [٢] .

وهذه الزيادات مع حديث أنس الذى أوردته ، تقدم صورة كاملة للإسراء والمعراج بدءاً من شق صدره " ﷺ " قبيل الإسراء به ، وحتى عاد إلى مكة .

ثالثا : أحداث متعارضة فى روايات حديث الإسراء :

بمراجعة روايات أحاديث الإسراء نلحظ فيها المعارضات التالية : ــ

(١) فى حديث أنس الوارد فى الفقرة (أ) السابقة أن ثلاثة نفر جاءوا إلى رسول الله قبل أن يوحى إليه ، مع أن الإسراء كان بعد المبعث ، وقبيل الهجرة ، حيث جاء

---

[١] الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ١٨٢ .

[٢] الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

فى الحديث أن كثيراً ممن أسلم أرتد .

(٢) فى رواية أنس الأولى أنه " ﷺ " لقى إبراهيم " عليه السلام " فى السماء السابعة عند البيت المعمور،ولقى موسى " عليه السلام " فى السماء السادسة،وفى بعض الروايات أنه" ﷺ " رأى إبراهيم "عليه السلام" فى السماء السادسة،ولقى موسى"عليه السلام" فى السماء السابعة[1].

(٣) فى رواية ابن إسحاق أن الرسول " ﷺ " أتى بثلاث أوان ، أحدها ماء ، فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمته ، وفى إحدى روايات البخارى : أنه أتى بثلاث أوان، ولم يذكر فيها الماء[2].

(٤) يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[3] ورؤية الفؤاد تشبه رواية أنس من أن الرؤية كانت قلبية ، وعين الرسول " ﷺ " نائمة ، وفى الآية الثانية يقول الله تعالى : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[4] فجاءت الرؤية بصيغة المضارع ، ولم يقل على ما رأى كالآية الأولى ، فدل ذلك على الرؤية الثانية ليست هى الرؤية الأولى .

(٥) فى قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ دلالة على أنها رؤيا قلبية ، وفى قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[5] دلالة على أنها رؤيا بالعين ، ولذلك رأى فيها : ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[6] أما الآيات التى ترى فى النوم فليست بهذا القدر من العظمة ، والفخامة .

---

(١) أنظر : صحيح مسلم فى حديث أبى ذر بشرح النووى ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) أنظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧ ، وصحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) سورة النجم آية (١١) .

(٤) سورة النجم آية (١٢) .

(٥) سورة النجم آية (١٧) .

(٦) سورة النجم آية (١٨) .

فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [1] قال المفسرون فى رواية يغشاها فراش من ذهب، وفى رواية أخرى قالوا ، ينتثر منها الياقوت وثمرها مثل قلال هجر .

جاء فى أحاديث الإسراء ، أنه " ﷺ " رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين ونهرين باطنين ، وأخبره جبريل " عليه السلام " بأن النهرين الظاهرين هما النيل والفرات .. وذكر حديث أنس أن هذين النهرين فى السماء الدنيا ، وقال له الملك : هما النيل ، والفرات ، أصلهما ، وعنصرهما .

رابعا : فك تعارض الأحاديث :

والسؤال هنا : كيف نفك هذا التعارض ؟ ونجمع بين هذه الأراء ؟

نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهرى ، وذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين ، مرة فى المنام ، ومرة ثانية فى اليقظة .

يقول الإمام / محمد الشامى : (ذهب جماعة منهم المهلب شارح البخارى إلى هذا الرأى، وحكاه عن طائفة ، منهم أبو نصر القشيرى ، والحافظ البغوى ، والمحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمى ، المعروف بالسهيلى ، وبين أن النووى جزم به فى فتاويه ، وهؤلاء وغيرهم من العلماء ذهبوا إلى تكرر الإسراء مرتين ، مرة فى المنام ، ومرة فى اليقظة، وكانت مرة النوم توطئة له، وتيسيراً عليه ، كما كان فى بدء نبوته " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه أمر النبوة ، لأمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهله عليه بالرؤيا أولاً لأن هوله عظيم ، فجاء فى اليقظة بعد توطئة، وتقدمة، رفقاً من الله تعالى بعبده، وتسهيلاً عليه [2] .

---

[1] سورة النجم آية (١٦) .

[2] الروض الأنف ج١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، سبل الهدى والرشاد ج٣ ص ١٠٦ .

وعلى هذا فإن حدوث الإسراء مرتين ، مرة على صورة ، ومرة أخرى على صورة أخرى لا تعارض فيه ، وبذلك ينتفى تعارض الروايات .

ولا مانع من تكرر الوحى إلى رسول الله " ﷺ " بالموضوع الواحد لحكمة يريدها الله ، كما هو ثابت فى حالات عديدة . .

- ٣ -

كيفية وقوع الإسراء والمعراج

أورد العلماء عدة أراء فى كيفية وقوع الإسراء والمعراج ، حيث ذهبوا فى تحديد كيفيتها إلى ثلاثة آراء : ـــ

الرأى الأول

الإسراء والمعراج كانا فى النوم وبالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كانت رؤيا لرسول الله " ﷺ " رآها وهو نائم ، وعلى رأس القائلين بهذا الرأى أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " ومعاوية بن أبى سفيان " ﷺ " ، ويستدلون على رأيهم بما يلى : ـــ

١ ـــ رؤيا الأنبياء وحى ، لأن قلوبهم لا تنام ، يقول " ﷺ " : الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم [١] ، وبذلك يتحقق فى المنام ما يقصد فى اليقظة .

٢ ـــ يقول الله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [٢] فقوله تعالى " الرؤيا " دليل على أنها كانت مناماً ، لأنها لو كانت يقظة لقال"رؤية" .

٣ ـــ جاء فى حديث أنس فى رواية شريك عنه : (وهو " ﷺ " نائم بالمسجد الحرام ... واستيقظت من منامى ، وأنا فى المسجد الحرام) [٣] وذلك دليل على وقوع الإسراء فى أثناء نوم النبى " ﷺ " .

---

[١] صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب المناقب ج ٦ص ٣٤ .   [٢] سورة الإسراء آية (٦٠) .

[٣] صحيح مسلم بشرح النووى ـــ كتاب المناقب ـــ باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٧ .

٤ ـــ كان معاوية بن أبي سفيان " رضى الله عنهما " إذا تحدث عن مسرى رسول الله " ﷺ " ، يقول : كانت رؤيا من الله صادقة [١] .

٥ ـــ يقول ابن إسحاق : (حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي " ﷺ " كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله " ﷺ " ، ولكن أسرى بروحه) .

الرأى الثانى

الإسراء كان بالجسد والمعراج كان بالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح معاً ، من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس بإيلياء ، وبعده كان المعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلا بالروح فقط ، ويستدلون على ذلك بما يلى : ـــ

١ ـــ يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ حيث جعلت الآية المسجد الأقصى غاية الإسراء تشريفاً لرسول الله " ﷺ " ، ولو كانت غاية الإسراء إلى مكان آخر غير المسجد الأقصى لذكره سبحانه وتعالى ، لأنه أبلغ فى التشريف والمدح .

٢ ـــ توجهت اعتراضات كفار مكة على انتقال رسول الله " ﷺ " من مكة إلى بيت المقدس والعودة منها فى ليلة واحدة ، ولم يرد على لسانهم إعتراض على العروج إلى السماء السابعة ، حتى سدرة المنتهى ، مع أنه أدعى لإنكار الكافرين لو كان بالجسد

---

[١] سيرة النبى " ﷺ " ج ١ ص ٣٩٩ ، جاء فى زاد المعاد : ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم ، وعائشة ومعاوية لم يقولا : كان مناماً ، وإنما قالا : الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، وفرق بين الأمرين . فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة ، فيرى كأنه عرج به إلى السماء ، أو ذهب به إلى مكة أو أقطار الأرض ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال ، ومع هذا الفرق فإن القول بأن الإسراء بالروح لا يبعد كثيراً فى أثره ، وتصوره عن الإسراء فى النوم ، لأن التوجه أثناء النوم هو للروح أيضاً .

وعلى هذا يثبت أن الإسراء كان بالجسد والروح ، أما المعراج فكان بالروح فقط لأن كفار مكة لم يعترضوا عليه مع كثرة المشاهد التى حكاها الرسول " ﷺ " حين رؤيته لها فى معراجه ، ولو كان المعراج بالجسد لكثر الاعتراض .

الرأى الثالث

الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح

يذهب جمهور علماء السلف والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلى : ـ

١ ـ يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ ، فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعبده المكون من الجسد والروح ، لأنهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر ، ولا استحالة فى قدرة الله أن يسرى بعبده، روحاً وجسداً ، فلزم أن يكون الإسراء هما .

٢ ـ يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [١] ففى الآية إثبات واضح على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية القلب .

٣ ـ يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [٢] ، ففى الآية دلالة على الرؤية البصرية لأنها لو كانت مناماً ما كانت كبرى ، ولسلم بها من سمعها من كفار مكة .

---

[١] سورة النجم آية (١٧) .

[٢] سورة النجم آية (١٨) .

٤ ـ يروى البخارى فى صحيحه عن ابن عبسة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ هى رؤيا عين أريها رسول الله " ﷺ " ليلة الإسراء [١] .

وقد رد الجمهور وهم أصحاب الرأى الثالث ، القائلون بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح معاً على الرأيين السابقين بإبطال أدلتهم ، وردها .

رد أدلة أصحاب الرأى الأول :

قال أصحاب الرأى الثالث إن رؤيا الأنبياء وحى ، وبها تثبت الحقائق والمعلومات ، إلا أن الإعجاز فى الإسراء والمعراج لا يتم إلا إذا كان بالجسد مع الروح ، لأن المقصود إثبات ما شاهده النبى " ﷺ " بطريقة حسية ، حقيقية .. وبذلك لا يتحقق بإسراء الروح ما قصد بإسراء الجسد .

وأيضاً فإن الرؤيا تأتى بمعنى الرؤية ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده   وبشر قلباً كان جماً بلابله

وما كانت الرؤيا فتنة للناس ، إلا لأنها رؤيا بالبصر ، وقد قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس، ورجع إلى مكة فى ليلته ، والعير ترد إليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق ، وفى المغرب ، ولا يستبعد منه ذلك .

وأما استشهادهم بقوله " ﷺ " بين النائم واليقظان ، ثم استيقظت ، فالظاهر أن تلك الأقوال كان فى أول وصول الملك ، وبعد يقظته كان الإسراء .

وأيضاً فإن أحاديث الإسراء تتضمن ألفاظاً صريحة تؤكد أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح .

---

[١] صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ج ٦ ص ١٦٠ .

رد أدلة أصحاب الرأى الثانى :

يرد الجمهور أدلة الرأى الثانى أيضاً ، ويرون أن آية الإسراء ذكرت الغاية بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين ، حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إلى عقولهم ، وأيسر لهم فى التصور عن المعراج ، لأنهم إذا صدقوا بالإسراء ، وسلموا بصدق محمد " ﷺ " أخبرهم بعد ذلك بما هو أعظم منه ، وهو " المعراج " ، ولذلك نزلت آيات المعراج فى سورة النجم بعد آية الإسراء .

وهكذا يرد الجمهور أدلة مخالفيهم ، فيترجح رأيهم برجحان أدلتهم ..

التوفيق بين الآراء ورد الاختلاف :

ويجب أن أشير هنا إلى ما ذكرته سلفاً فى صـ ٣٩٦ من أن الإسراء وقع لرسول الله " ﷺ " مرتين ، مرة فى اليقظة ، ومرة فى المنام يرفع التعارض الظاهر فى الأقوال الثلاثة، يقول الحافظ ابن حجر : إن قيل بتكرر الإسراء فلا إشكال ، وأن المرة الأولى كانت مناماً لتسهيله ، وتخفيف وطأته ، وأن المرة الثانية كانت يقظة بعد التوطئة والتقديم ، رفقاً من الله بعبده ، وتسهيلاً عليه ، كما حدث فى أول الوحى ، إذ بدأ بالنبوة وثنى بالرسالة .

وعلى هذا تصدق الآراء الثلاثة ، فمن قال بالإسراء الروحاني ، أعتمد على وقوع الإسراء فى المرة الأولى ، ومن قال بالإسراء الجسدى ، أعتمد على وقوع الإسراء فى المرة الثانية ، ومن قال بالإسراء البدنى ، والمعراج الروحي أخذ من المرة الأولى المعراج ، ومن المرة الثانية الإسراء .

يقول السهيلى : وهذا القول هو الذى يصح ، وبه تتفق الأخبار ، فالرواة جميعاً ثقاة عدول ، لا سبيل إلى تكذيب بعضهم أو توهينه [١] .

يقول ابن كثير : ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء، فيه صورة ما وقع بعد ذلك ، فإنه " ﷺ " كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل

---

[١] الروض الأنف ج ٢ ص ١٥٠ .

ذلك من حديث بدء الوحى ، أنه رأى فى منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك ، من باب الإرهاص ، والتوطئة ، والتثبت ، والإيناس [١] .

وهكذا كان الإسراء والمعراج رحلة علوية ، سامية ، خففت عن رسول الله " ﷺ "ما كان يعانيه من إنصراف الناس عن الإيمان،واستهزائهم به، وعلو مقامه ، وقدره، ومترلته ، وهذا كاف فى عونه على متاعب الناس ، وصموده أمام عتوهم وظلمهم .

النصر السادس

إسلام الأنصار

لما أراد الله تعالى إظهار دينه،وإعزاز رسوله ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، قضى بأن يترك المسلمون مكة ، ويهاجروا منها إلى مكان آمن، يعيش أهله للإسلام ، ويهاجر إليه المسلمون ليكونوا قوة تحمى الحق ، وتدافع عنه ، وترد كيد المعتدين .

لما أراد الله ذلك خرج رسول الله " ﷺ " إلى قبائل العرب كما كان يفعل فى كل موسم ، وذلك فى العام العاشر من المبعث ، وقد وفقه الله تعالى ، ووفق الأنصار معه فتلاقوا فى ثلاثة مواسم متتابعة ، عند العقبة ، حيث كان اللقاء الأول تمهيداً لبيعتى العقبة، اللتين تمتا فى اللقاءين الثانى، والثالث .

وبيان هذه اللقاءات فيما يلى : ــ

اللقاء الأول

إسلام نفر من الأنصار

حين خرج الرسول " ﷺ " فى العام العاشر للقاء القبائل لقى نفراً من الخزرج وهم : ــ

١ ــ أسعد بن زرارة .. من بنى النجار .

٢ ــ عوف بن الحارث بن رفاعة .. من بنى النجار .

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ١١٤ .

٣ ـــ رافع بن مالك بن العجلان .. من بنى زريق .

٤ ـــ قطبة بن عامر بن حديدة .. من بنى سلمة .

٥ ـــ عقبة بن عامر بن نابى .. من بنى حرام بن كعب .

٦ ـــ جابر بن عبد الله بن رئاب .. من بنى عبيد بن غنم .

فلما لقيهم الرسول " ﷺ " قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى ، من أنت ؟

فانتسب لهم، وأخبرهم خبره ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما حببهم فى الإسلام أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم، كثيراً ما قالوا لهم : إن نبياً أظلنا زمانه ، سنؤمن به ، ونقتلكم وهو معنا قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله " ﷺ " أولئك النفر، ودعاهم إلى الله أيقنوا به ، واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا ، وعرفوا صدق ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب عن صفته .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

ثم قالوا : قد علمت الذى بيننا (يعنون الأوس والخزرج) من الاختلاف، وسفك الدماء ، ونحن حراص على ما أرسلك الله به ، مجتهدون لك بالنصيحة ، دعنا نشير عليك برأينا ، فامكث على رسلك باسم الله ، حتى نرجع إلى قومنا ، فنذكر لهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله ، فلعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لك أمرهم

فإنا اليوم متباغضون متباعدون ، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل ، فرضى بذلك رسول الله " ﷺ " ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدقوا [١] .

ويعد هذا الاتفاق عهداً بين رسول الله " ﷺ " وهؤلاء النفر وحدهم على أن يبذلوا جهدهم لإصلاح ذات البين ، بين الأوس والخزرج ، ليأتوا فى العام القادم سوياً ويشتركوا فى عهد رسول الله " ﷺ " معاً .

وكثير من المؤرخين ، وكتاب السيرة لا يعدون إيمان هؤلاء النفر بيعة ، ويعتبرونه مقدمة للبيعتين بعد ذلك ، إلا أن الشيخ / محمد الشامي عدها بيعة ، وتحدث عن ثلاث بيع لعده اللقاء الأول اتفاقاً متكاملاً ، وتم عند العقبة ، يقول عبد الله بن أبى بكر : لا أدرى ما العقبة الأولى ، ويقول ابن إسحاق : قد كانت عقبة، وعقبة ، إشارة إلى اللقاء الأول والثانى ، لأنهما كانا فى مكان واحد، يجاور العقبة التى نسبت البيع إليها ، لأن المبايعة كانت تتم بشعب يجاورُ العقبة ، يقع يسار القادم من مكة إلى منى ، وقد أقيم فى هذا المكان مسجد يعرف بـ " **مسجد البيعة** " وموقعه فى أول شعب يعرف بـ " **شعب العقبة** " و " **شعب الأنصار** " [٢] .

ومع جمال وجهة نظر الشيخ إلا أنى سأعتبر اللقاء الأول تمهيداً للبيعتين بعده تبعاً لجمهور مؤلفي السير والتاريخ .

اللقاء الثاني

بيعة العقبة الأولى

رجع النفر الذين قابلوا رسول الله " ﷺ " إلى يثرب ، وأحاطوا قومهم بخبر لقائهم ، وإسلامهم ، ودعوا أهل المدينة جميعاً من الأوس والخزرج إلى الإيمان ، ففشا الإسلام فى دور الأنصار جميعاً ، فلم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر لرسول الله " ﷺ " .

---

[١] سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

[٢] أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ووضعت الحرب أوزارها ، وانتهى يوم بعاث ، آخر أيام الأوس والخزرج والكل يتمنى أن لا يعودوا إليها مرة ثانية ... ولذلك أقبلوا على الإيمان بدعوة محمد " ﷺ " ، ليتوحدوا بالإسلام ، وحتى لا يسبقهم اليهود إليه ، يروى البخاري في صحيحه بسنده أن عائشة " رضي الله عنها " قالت : (**كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله " ﷺ " إلى المدينة ، وقد أفترق ملؤهم ، وقتل سرواتهم ، وخرجوا فقدمه الله لرسوله " ﷺ " (وجعله سبباً) في دخولهم الإسلام**)[1]

وذلك يشير إلى أنها كانت وقعة عظيمة،أحتاجوا بعدها إلى وصل ما انقطع، وتعويض ما فقدوه ، فوجدوا الإسلام ، فصدقوا به ، وآمنوا بمحمد " ﷺ " ، وكان كل من الأوس ، والخزرج يأنف من تسيد صاحبه عليه ، وأملوا في أن يكون الرائد من غيرهم ، ولذلك كانت سعادتهم غامرة بمقدم مصعب بن عمير" ﷺ " ليكون إماماً للجميع .

والذين حضروا اللقاء الثاني ، وبايعوا هذه البيعة اثنا عشر رجلاً هم :ـ

١ ـــ أسعد بن زرارة .	٢ ـــ عوف بن الحارث .
٣ ـــ معاذ بن الحارث .	٤ ـــ ذكوان بن قيس .
٥ ـــ عبادة بن الصامت .	٦ ـــ يزيد بن ثعلبة .
٧ ـــ العباس بن عبادة .	٨ ـــ أبا الهيثم بن التيهان .
٩ ـــ عويس بن ساعدة .	١٠ ـــ رافع بن مالك .
١١ ـــ قطبة بن عامر .	١٢ ـــ عقبة ابن عامر .

وقد بايعهم رسول الله " ﷺ " بيعة عرفت ببيعة النساء ، لخلوها من النصرة والجهاد ، وأيضاً لأنها جاءت موافقة لما نزل القرآن الكريم بها بعد ذلك ، وهو يشرع للنبي " ﷺ " ما يبايع النساء عليه ، وذلك في صلح الحديبية .

---

[1] صحيح البخاري ـــ باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٤٤ .

يروى البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله " ﷺ " قال وحوله عصابة من أصحابه : تعالوا بايعونى ، على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه [1] .

ولما هم القوم بالرجوع إلى المدينة طلبوا من رسول الله " ﷺ " أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ما نزل من الإسلام ، فأرسل " ﷺ " معهم مصعب بن عمير ، وأمره الرسول " ﷺ " أن يعلمهم الإسلام ، ويقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين .. وكان اختيار مصعب بن عمير لهذه المهمة اختياراً موفقاً ، لأنه استطاع بفضل الله أن يدخل الإسلام فى كل بيوت المدينة خلال عام واحد، وصار الجميع يهتمون بما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى — حتى عرف مصعب " رضي الله عنه " باسم القارئ ، والمقرئ .

وتلقى الأوس والخزرج مصعباً بالترحيب ليؤمهم حيث كره كل منهم أن يؤمه واحد من القبيلة الأخرى [2] .

اللقاء الثالث

بيعة العقبة الثانية

عاد أصحاب العقبة الأولى إلى المدينة ، ومعهم مصعب بن عمير ، ولم يقترب موعد الحج من العام القادم حتى تهيأت قلوب أهل المدينة للخير ، وانتشر الإسلام فيهم ،حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين ، يظهرون إيمانهم ، ويلتزمون بما عاهدوا الله عليه .

---

[1] صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٠٠ .

[2] البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .

وقـــد تعلقت قلوب أهل المدينة برسول الله " ﷺ " حباً ، وتقديراً ، وتألموا لموقـــف أهل مكة من الإسلام والرسول ، ولذلك اجتمعوا، ودرسوا الموقف ، وقال بعضـــهم لبعض : إلى متى نذر رسول الله يطوف فى جبال مكة ؟ ويخاف ؟ ويعتدى عليه المشركون ؟ !

فكـــان أن رحـــل عدد غفير من الأوس والخزرج إلى الحج تأدية للمنسك ، وحباً للقاء رسول الله " ﷺ " ، فلما وصلوا إلى منى ، وفى ثانى أيام التشريق واعدوا لقاء رسول الله فى الشعب المجاور للعقبة .

يقـــول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله " ﷺ " العقـــبة من أوسط أيام التشريق أن نوافيه فى الشعب الأيمن إذا انحدرنا من منى بأسفل العقبة ، على ألا ننبه نائماً ، ولا ننتظر غائباً .

فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله " ﷺ " لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا أخذناه معنا ، وكنا نكتم على من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله " ﷺ " إيانا فى العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة .

فنمـــنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالـــنا لمـــيعاد رسول الله " ﷺ " نتسلل تسلل القطا ، مستخفين ،حتى اجتمعنا فى الشعب ، عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنـــت كعـــب - أم عمارة - ، إحدى نساء بنى مازن من بنى النجار ، وأسماء بنت عمـــرو بن عدى،فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله " ﷺ "حتى جاءنا ، ومعه العـــباس بـــن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه،إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه،ويتوثق له كما حضر معه " ﷺ " أبو بكر ، وعلي ابن ابي طالب .

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج [١] إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه،وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تريدون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ثم تكلم رسول الله " ﷺ " فقال لهم : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم ..

فقالوا يا رسول الله : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله " ﷺ " : فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء ابن معرور بيده ، ثم قال : نعم فو الله الذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر .

---

[١] قال : وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها .

فاعـــترض القول أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ــ يعني اليهود ــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أشهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبســم رســول الله " ﷺ " ثم قال : بل الدم الدم، والهدم الهدم ــ أى ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم ــ أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم [1]

ثم قــال أبو أمامة : (يا محمد : سل لربك ما شئت ، ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ، وعليكم ، إذا فعلنا ذلك .

قــال " ﷺ " : أســألكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا ، وتنصرونا ، وتمنعونا ، مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال " ﷺ " : لكم الجنة .

قالوا : فلك ذلك [2] .

وهنا قال رسول الله " ﷺ ": أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا، على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعةٌ من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فمن الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ، ورافع بن مالك ابــن العجــلان نقيب بني زريق ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت .

ومن الأوس : أسيد بن خضير نقيب بني عبد الأشهل ، ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة نقيبا بني عمرو بن عوف .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله " ﷺ " قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي — يعني المسلمين — قالوا : نعم [١] .

وقد روى البيهقي عن الإمام مالك " رضي الله عنه " قال : حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله " ﷺ " إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة [٢] .

وفي حديث كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله " ﷺ " ، البراء بن معرور ، ثم بايع القوم [٣] ، فلما بايعنا رسول الله " ﷺ " صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب : هل لكم في مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : هذا أزب العقبة ، هذا ابن أزيب ، استمع أي عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله " ﷺ " : إرجعوا إلى رحالكم ، فقال له العباس بن عبادة ابن نضلة ، والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ... فلما علم اهل مكه جاءوا الى الأنصار ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا لم يعلموه [٤] .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٤٣ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٢٨١ .

[٣] البداية والنهاية ج٣ ص ١٦٣ .

[٤] المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٤ .

وكذلـــك أراد الله بالأنصار خيراً ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدى هذا الحى من العرب ، وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى فى نصرة الإسلام ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، والتوحد ، ومحا ما كان بينهم من العداء والتنـافر . فلطالمـا سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج ، وكان آخر يوم شهدوه هو يوم بعاث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالاتها ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة التى تسيل ضماناً لسيادتهم ، وابتزازاً لأموال المتحاربين ، عن طريق بيعهم الأسلحة ، وما تحتاج إليه الحروب .

لقـــد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبى " ﷺ " ، كما اشترط أبو الهيثم لقومه وعلم كل طرف ما له ، وما عليه، وبذلك لم تكن بيعة قائمـــة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف، والنظرة البعيدة للمستقبل .

وتجلـــت حكمة النبى " ﷺ " حين طلب من الأنصار أن يكتموا أمرهم حين يـــتوافدون إلـــيه فى المكان الذى واعدهم فيه وقد أطاعوه، فلم يوقظوا نائماً ، ولم ينتظروا غائباً ، ذلك أنه كان يراقبهم فى هذا الموسم من لم يدخل نور الإسلام فى قلبه وأراد الله تعـــالى تضليل أهل مكة فتولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد عـــلى مشـــركى قريش حين عاتبوا اليثربيين على مبايعتهم الرسول " ﷺ " ، وسلم الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب إن أنكروا .

وبعد تمام البيعة الكبرى عاد الأنصار إلى مدينتهم ، وأخذ المشركون يشتدون فى أذى المسلمين ، ومنعهم من الخروج .

فشـــكا الصحابة أحوالهم إلى رسول الله " ﷺ " ، واستأذنوه فى الخروج من مكـــة ، فأذن لهم ، وقال لهم :(**أريت دار هجرتكم ، أرض سبخة ذات نخل بين**

لاتتنين) [١] ثم مكث أياماً ، وخرج لأصحابه مسروراً ، وقال لهم : (قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها) [٢] ، فأخذ الصحابة يخرجون متخافين ، مهاجرين إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة في سيرة رسول الله " ﷺ " ، وفي الدعوة الإسلامية .

* * *

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٨ .

[٢] سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٦٨ .



الفصل الثالث

حركة النبى "ﷺ"

بالدعوة إلى الله تعالى

فى مكة

تمهيد :

نزل الوحي على رسول الله " ﷺ " أولاً تعليماً وتهيئة ، وبعد مرور ستة أشهر نزل جبريل " عليه السلام " بأول سورة المدثر لينقل محمد " ﷺ " من مرحلة النبوة إلى مرحلة الرسالة ، كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ فهو أمر بالقيام بأمر الدعوة بما يعنيه من الثبات ، والإخلاص ، والملازمة ، والاستقامة ، والشمول ، وحسن الطلب والتوجيه .. لأن القيام يشمل ذلك كله [1] .

وهذا الأمر (قُم) أخذ النبى " ﷺ " يتحرك بالدعوة ، لإيصالها إلى البشر أجمعين ، بطريقة منهجية تراعى أحوال الناس ، وبالحركة الممكنة ، وبقدر ما تسمح به الأحوال .

وقد اقتضت منهجية الحركة بالدعوة أن تمر بعدد من المراحل فى مكة ، حيث تغاير التوجيه والبلاغ فى صورته ، وأسلوبه ، فى كل مرحلة عن سابقتها ، وعن ما يلحق بها .

وهذا التغاير بين مراحل الدعوة ضرورة واقعية ليتعامل الرسول " ﷺ " والدعاة معه ، ومن بعده ، مع الواقع بما يناسبه ، وبما يحقق الغاية المقصودة منه .

إن هدف الدعوة معروف منذ اللحظة الأولى ، لكن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى وسائل عديدة تتعامل مع واقع الحياة ، والأحياء ، ويحتاج كذلك إلى أسلوب يلتقى مع أفهام المخاطبين ، ويتلاءم مع أفكارهم ، وثقافاتهم ..

إن ثبات الغاية ، وتغيير الأسلوب ، والوسيلة ، مسألة تعطى الدعوة الحيوية ، والمرونة ، والتجديد

ومن المعلوم أن جمود الوسيلة لا يتفق مع تطور الحياة ، وتقدم المدنية ، وطبائع الناس ، كما أن جمود الأسلوب تخلف يؤدى إلى وضع الأفكار فى قوالب غامضة تضر الفكرة ، وتعجز عن إيصالها إلى عديد من الناس .

---

[1] بصائر ذوى التمييز ج ص ٣٠٧ — ٣١٣ بتصرف .

وقد تحرك الرسول "ﷺ" بالدعوة إلى الإسلام بوسائل متعددة ، وأساليب كثيرة من خلال تعامله مع عديد من البشر ، فى بيئات مختلفة ، وبين أطر مذهبية كثيرة .

وفى هذا الفصل سيكون الحديث عن حركة النبى " ﷺ " بالدعوة ، فى الفترة المكية،ولذلك رأيت أن أقسمة على عدد من المراحل لتميز كل منها بخصائص معينة ، لا توجد فى غيرها .

ومن خلال تناولى للفترة المكية بمراحلها أجدنى أتعامل مع مصطلحات عديدة من أهمها مصطلحات المنهج ، والوسيلة ، والأسلوب .

وحتى لا تتداخل المعاني ، أرى أهمية تحديد مفاهيم هذه المصطلحات ، وبعدها سأتناول مراحل الدعوة فى الفترة المكية ليشمل الحديث كل مرحلة بمنهجها ، ووسائلها ، وأساليبها ، وبذلك يتضح الأمر ، ويفهم المقصود .

وبذلك سيتكون هذا الفصل من المباحث التالية : ـــ

- المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة .
- المبحث الثاني : حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة فى المرحلة السرية .
- المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية .
- المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية .
- المبحث الخامس : المرحلة الأولى للجهر بالدعوة .
- المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة .
- المبحث السابع : الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام .
- المبحث الثامن : توافق الأسلوب مع الموضوع .
- المبحث التاسع : مواجهة عدوان الكفار .
- المبحث العاشر : استمرار الحركة بالدعوة .
- المبحث الحادى عشر : المسلمون فى نهاية المرحلة المكية .

وذلك فيما يلى ...

المبحث الأول

تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة

يختلط الأمر على من يقرأ فى الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات مكان كلمات أخرى ظناً من المؤلف أنها متحدة المعنى ، مع أنها ليست بمعنى واحد ، كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب،واستعمال الأسلوب فى موضع الوسيلة . . وهكذا ، الأمر الذي من أجهله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة الإسلامية ، وبخاصة أن كل **مصطلح بدأ فى أن يكون علماً علي علم خاص،** من علوم الدعوة العديدة ، التى يحتاجها الدعاة إلى الله تعالي فى العصر الحديث .

وأري أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة له أهميته في دراسة عصر النبى " ﷺ " لتعرف القضايا ، وتحدد معاني المصطلحات، وتفهم بوجه يحقق الاستفادة الدقيقة بها ، ولتكون الأسوة برسول الله " ﷺ " حيث يريد الله تعالي .

أولاً

منهج الدعوة

تعتمد الدعوة على منهج يحدد مسائلها، ويوضح طرقها ، ويعرف وسائلها ، ويضع القواعد العلمية التى تقنع المدعو ، وتحقق الغايات المقصودة من بعثة النبي محمد " ﷺ " بكل ما فيها من خير ، وأمن ، وسعادة ، للناس أجمعين ، فى الدنيا ، وفي الآخرة .

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة ، بها تتحدد مهام كل جانب ، وطريقة قيامه بدوره فى الدعوة إلى الله تعالي .

إن الدعوة إلى الله تعالي تقوم على عدة جوانب هي :ـــ

أ ــــ مضمون فكرى هو الإسلام بما حوي من عقيدة، وشريعة ، وأخلاق .

ب ـــ أسلوب يحتوي علي الفكرة ، ويتحرك بها ، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس ، وقد يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة، أو غير ذلك .

ج ــ أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه .

د ــ شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة فى صورة حسنة لتصل بها إلى المدعوين، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم .

هـ ــ أنـــاس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة ، واضحة ، مقنعة ، بأسلوب مناسب ، وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم .

إن هــذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله ، ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع القواعد ، وإعداد الدراسات التى يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذى يحدد الإطار لكل هذه الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتترابط وتتكامل .

إن مــنهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذى يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة ، وينسق بينها ، لتتكامل ، وتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح .

وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت . .

تقول اللغة : إن المنهج يعني الخطة المرسومة ، والنظام الموضوع ، والمحدد للسير عليه ، واتباعه لتحقيق هدف معين ، والوصول إلى غاية محددة [1] .

وعــلماء التفسير والمحدثون يذهبون فى معنى المنهج إلى ما ذكرناه ويرون أن المنهج هو الطريق الواضح ، البين [2] .

يقول الدكتور / أحمد بدر،وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج هــو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة فى العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة التى تهيمن على سير العقل،وتحدد عملياته حتى يصــل إلى نتيجة معلومة [3] .

---

(1) مناهج الدعوة إلى الله ــ د/ جلال البشار ص ٢٩ ، وهذا المعنى استنباط من كتب اللغة وهي تبين معنى نهج ومنهج ، المدخل إلى علم الدعوة ــ د / محمد البيانونى ص ٤٥ .

(2) انظر معنى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾فى تفسير الطبرى ، والرازى ، وفى كتب السنة عند شرح قوله "ﷺ" (ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) فتح البارى ج ١ ص ١٠ ، والفتح الربانى ج ٢٣ ص ١٠ .

(3) أصول البحث ومناهجه ص ١٥ .

إن المنهج خطة كاملة ، ونظرية تامة ، تحدد الدعوة ومسارها، وطرق الإقناع بها،وأسلوب الخطاب لها، وتحقيق أهدافها فى كافة جوانب الحياة .

وعلي هذا فمنهج الدعوة كمصطلح ، أو كعلم خاص ، يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها ، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمي المنهج على الأسلوب ، أو علي الوسيلة ، أو علي الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا علي وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالي من كافة جوانبه، لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة ، وغايتها ، ثابتة مفصلة .

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، والأساليب ، وصفات القائم بالدعوة ، وأحوال المدعوين ، فإن تعاليم الله تعالي تضع الأسس، والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة ، لأن الحركة تعني الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس ، والمنهج أعم من ذلك .

ثانياً

المضمون الفكري للحركة

الإسلام هو الموضوع التي تتحرك به الدعوة ، وهو المضمون الفكري الذي يحتويه الأسلوب ، ويحركه بوسائله ، وأدواته .

والإسلام أساسه العقيدة ، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة ، وتثبيتها فى القلوب ، وربطها بكافة أنشطة الإنسان ..

إن العقيدة الإسلامية تتمثل فى " شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله) .. وهذه الشهادة تتكون من شطرين : —

الشطر الأول :وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله المعبود،ليقرله بالوحدانية المطلقة،ويتجهله وحده سبحانه وتعالى بالعبادة كلها، ويحصر

التلقى منه سبحانه وتعالى .

فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحدانيته سبحانه وتعالي ، بكل اليقين والإخلاص .

وليس عبداً لله وحده من يخضع ، ويخشع ، ويتجه بالعبادة لغير الله تعالي ! !

وليس عبداً لله من يرتضي لنفسه مصدراً غير الله ، يأخذ منه النظام والتشريع ! !

وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً ، وعند حاجته للإعلان فقط، ويخالف لوازمها عند العمل والتطبيق ! !

ويؤكد الشطر الثاني : وهـو أشـهد أن محمداً رسول الله ، أن محمداً هوطريق التلقى الوحيد عن الله تعالي، فهو رسول الله " ﷺ " الذي نزل عليه الوحي، وبلغـه للناس ، ليمدهم بكل ما يحتاجون إليه فى حياتهم ، وينظم لهم جميع أعمالهم وأنشطتهم .

وليس مؤمناً من لا يضع الرسول " ﷺ " فى موضعه الواجب ..

ولـيس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله " ﷺ " ، ويعمل بما جاء من عند غيره ! ! ..

إن العقـيدة الإلهـية تقوم على كلمة الشهادة بركنيها، لأن الشهادة تشمل الإسلام كله ، ولذلك كان اهتمام الرسول " ﷺ " بها منذ البداية ..

يقـول سـيد قطب : والقلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها ؛ بصـدق وإخلاص ، وبذلك يكون مؤمناً ،لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام،يتحقق بهما ، فالإيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره ، وشره ، يقوم على هذه القاعدة .

وكذلك الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج يعتمد عليها .

ثم الحـدود ، والـتعازير ، والحل ، والحرمة ، والمعاملات ، والتشريعات ، والتوجـيهات الإسـلامية ، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله " ﷺ " عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً ، تمثلاً علمياً ، وعملياً ،لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون المجتمع مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لتصور كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها [1] .

يقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [2] .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [3] .

ويقول سبحانه : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [4] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [5] .

من هذه الآيات وغيرها كثير فى القرآن الكريم ، تعرف وحدانية الله تعالي ، وتتحدد واجبات العبودية ، وتتأكد ضرورة حصر الأخذ والتلقي من الله تعالي .

---

[1] معالم فى الطريق ص ١١٥ ، ١١٦ .

[2] سورة النحل آية (٥١) .

[3] سورة الأنعام الآيات (١٦٢ ، ١٦٣) .

[4] سورة الشوري آية (٢١) .

[5] سورة الحشر آية (٧) .

لقد ركز رسول الله " ﷺ " دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب ليعيش الناس الإسلام كله بعدما تمتلئ قلوبهم بالإيمان .

إن المجتمع المسلم ، والفرد المسلم ، يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس إيماني ، خالص ، ويعيشه بكماله ، وتمامه ، علي أساس أنه متطلب إيماني ، نابع من عقيدة " لا إله إلا الله " التي هيمنت علي قلبه ، وعقله ، وعواطفه ، وأصبحت هي الموجه الوحيد لسلوكه عن طواعية واختيار .

إن مقتضي شهادة التوحيد يشمل أركان الإيمان ، وسائر العبادات ، والتوجيهات التشريعية ، والأخلاقية .. وغيرها [1].

إن مقتضي هذا التوحيد يشمل الحياة كلها ، ولذلك كان البدء بتعليم العقيدة ، وكان الجهد المبذول في تثبيتها ضخماً ليتلاءم مع أهميتها ، ودورها في تطبيق الإسلام كله .

إن مقتضي التوحيد يؤدي إلي إيجاد الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم في عالم الواقع ، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالي ، ويصير الناس ربانيين ، مخلصين ، صالحين ، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله والإمتثال لأمره ، واجتناب نواهيه .

وأمانيهم كسب رضي الله ، ومن أجلها يتحرون مناط الرضي ، ويركزون علي عوامل القربي ، ليتمتعوا برحمة الله ، ورضوانه ، وحبه .

وتجارتهم الرئيسية مع الله ، وأغلي أرباحهم ينتظرونها يوم أن يتجلي الله عليهم بعزته ، وهم في النعيم، فيرونه ، ويسعدون بلقياه ، ويعيشون في الجنات خالدين لهم فيها ما يشاءون .

إن النطق بالشهادة ، يعبر عن حقيقة اليقين ، ويؤدي إلي التمسك بلوازمها ومقتضياتها، ويوجد المؤمن السعيد ، ويحقق المجتمع العظيم ، في عالم الناس .

---

[1] أنظر : كتاب لا إله إلا الله ــ للأستاذ/ محمد قطب ، العقيدة أولاً ــ للدكتور / الشريف الهجاري .

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " بالشهادة مجتمعاً متحرراً من سلطان الشهوة ، وسلطان الطغاة ، مجتمعاً قائماً علي العدل ، وتقرير كرامة الإنسان ، مجتمعاً طاهر الخلق ، زكي الروح ، يقظ الضمير ، متآلفاً ، متحاباً ، يوالي الفرد الفرد أخاه ، ويعمل للجماعة كما يعمل لنفسه .

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " هذا المجتمع السعيد لأن أفراده أقاموا هذا الدين (أولاً) فى قلوبهم ، وضمائرهم ، وطبقوه (ثانياً) فى حياتهم وأعمالهم ، وبعد ذلك كانوا رجالاً يحبون لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ، ويحافظون على حقوق الآخرين قبل أن ينالوا حقهم .

إن هذا المضمون هو الإسلام كله ، وهو الجزء الرئيسي فى منهج الدعوة ، لأن غاية المنهج هو خدمة الإسلام، وتبليغه للناس ، وتحقيقه فى عالم التطبيق والسلوك.

ثالثاً

أسلوب الدعوة

الفكرة فى حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا فى قوالب لغوية ، يؤلفها حامل الفكرة أو تؤلف له،ويتمكن بواسطتها من إيصال فكرته ومعارفه لغيره .

كما أن المستمع والمتلقي يفهم الفكرة ، ويتصورها ويتجاوب معها من خلال الكلمات التى سمعها، أو قرأها .

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هى الأساليب البيانية ..

والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة ، ويعرفه العلماء بأنه المحتوى البيانى الذي يحمله الطريق لتصل الدعوة إلى المدعوين، وقد يكون هذا المحتوي قولاً منطوقاً أو مكتوباً ، أو صورة ، أو عملاً وهكذا ..

وللأسلوب أهميته في إيصال المضمون للناس ، لأن الإنسان لا يستوعب الفكرة ، ولا يفهمها جيداً إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم ، مرتب على قواعد علوم اللغة، والبلاغة التى لا بد منها لدقة المعني ، والتأثر به، ولذلك دعا الرسل

" عليهم السلام " بلسان المدعوين،ووجب تبليغ الدين على نحو بين، ومفهوم ودقيق .

إن الخطاب الديني يتجه إلي الإنسان ، ويعيش مع طاقاته العقلية والوجدانية ، والسلوكية ... ووجب لذلك أن يتنوع مع دقة المعني ، وجمـال العبـارة ، وحلاوة الأسـلوب علي نمط القرآن الكريم الذي شهد له أعداؤه ، وقالوا عنه : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة [١] .

إن أسلوب القرآن الكريم يتضمن الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ، والجذب الروحي ، لأنه يخاطب في الإنسان شعوره ، ومشاعره ، ويتحدث مع عقله وعواطفه ، ويأخذ بالألباب ، والأرواح .

لقد كان كفار مكة وعلي رأسهم قادتهم يتأثرون بالقرآن حين سماعه، ولذلك كانوا يأتون سراً لسماع محمد"ﷺ" في الليل إعجاباً بأسلوب القرآن الكريم .

يروي ابن هشام عن ابـن إسحاق أن محمداً بن شهاب الزهري قال : إن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله " ﷺ " ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا .

وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتي إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتي إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام ج١ ص٢٩٣ .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، وخرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه [1] .

لقد كان لأسلوب القرآن الكريم التأثير العظيم فى عقول من يفهمه، ووجدان من يسمعه ، حتى رأينا كفار مكة يتخفون للتمتع بالاستماع إليه ، وما صدهم عن الإيمان إلا التعصب ، والحقد ، والحسد .

إن كثيراً من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام بسماعهم القرآن الكريم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [2] وما ذلك إلا لما

---

[1] سيرة النبي "ﷺ" لابن هشام ج ١ ص ٣١٥ .

[2] سورة المائدة آية (٨٣) .

فيه من أصالة الموضوع وبساطة المعني ، وجمال الأسلوب ، ولما فيهم من سلامة الفطرة ، وصدق التوجه،واتباع الحق ، والتسليم بالدليل، وشأن القرآن الكريم دائماً أن يزداد به الإيمان،وتخشع القلوب، وتذرف العيون ، يقول تعالي : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [(١)] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨ ﴾ [(٢)] ويصف الله تعالي تأثير القرآن الكريم فى النفوس المؤمنة ، ويبين ما يصيب القلوب من خشية ولين ، وما يظهر على جلودهم من قشعريرة واضطراب ، يقول تعالي : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣ ﴾ [(٣)] .

وحتي يقوم الأسلوب بدوره أرسل الله الرسل " عليهم السلام " بلغة أقوامهم ليتضح المعني ، ويعرف المطلوب ، يقول الله تعالي : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤ ﴾ [(٤)] .

والأساليب تتنوع مراعاة لحال المدعوين ، لأن من الناس طائفة ذات نفوس مشرقة ، وعقول ذكية ، وإدراك سريع، وهؤلاء تكفيهم الإشارة ، ويناسبهم الإيجاز ،

---

(١) سورة الأنفال آية (٢) .

(٢) سورة مريم آية (٥٨) .

(٣) سورة الزمر آية (٢٣) .

(٤) سورة إبراهيم آية (٤) .

وترضيهم الكلمات القليلة ذات الدلالات الموجزة ، والمعانى الدقيقة .

ومن الناس طائفة ذات عقول متوسطة ، ونفوس خاملة ، وطباع لا تتحرك إلا إذا استثيرت ، وانفعلت ، وهؤلاء يناسبهم بسط الكلام ، وتكرار العبارة ، وسوق المعني بأكثر من طريق .

ومن الناس طائفة ذات عقل وفهم ، لكنها محبة للجدل والحوار ، كثيرة السؤال والاعتراض ، مرة لتفهم ، وأخري لتظهر ذاتها فى حوار ونقاش [١] .

وقد أدي تنوع الناس إلى تنوع الأساليب ، مع أن المعني والمضمون واحد .

ولذلك رأي العلماء أن الأسلوب بصورة عامة يتنوع إلي ثلاث صور كلية وبعدها تأتى الأساليب الفرعية العديدة ، المناسبة للمدعوين ، تعبيراً عن إحدي هذه الصور الكلية .

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة ، أمر الله بها فى قوله تعالي : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [٢] ، وبيانها فيما يلي :ـــ

الصورة الأولي : الحكمة :ـ

وهي مشتقة من الإحكام والإتقان ، ومرجعها إلي العلم الدقيق ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الاطناب ، والتكرار .

وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل، والفهم ، والنبوة ، والحديث ، وعلى بعض أساليب الدعوة .

والحكمة فى أساليب الدعوة تعني اللفظ المحكم،الدقيق،الدال علي معناه المقصود بلفظ موجز ، وعبارة جميلة .. يقول أبو السعود :(الحكمة هي الدليل الموضح

---

[١] أنظر : تفسير الرازي ج ٥ ص ٥١٥ بتصرف .

[٢] سورة النحل آية (١٢٥) .

للحق،المزيل للشبهة، المتجه إلي العقل مباشرة، من غير إثارة وجدان، أو تهييج إنفعال) [١] .

ويقول الإمام النووى : الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالإحكام ، المشتمل علي المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة ، وتهذيب النفس ، وتحقيق الحق، والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك ، قال أبو بكر بن ديد : كل كلمة وعظتك،وزجرتك،أو دعتك إلي مكرمة،أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، وحكم [٢] .

ويقول ابن القيم: الحكمة جامع مانع لأنه يشمل الإتقان، والإحكام للأقوال، وتنزيل جميع الأمور فى مواضعها المناسبة ، وفي أوقاتها الملائمة للإفادة بها [٣] .

الصورة الثانية : الموعظة الحسنة : .

والوعظ يعني النصح ، والإرشاد ، ومخاطبة الوجدان ، وإثارة العواطف ، من خلال التنوع البياني الذي يعرض المعني بأساليب مختلفة ، مع التذكير بالعواقب ، والترغيب في الفعل ، والتخويف من الترك .

والوعظ يشمل الوصية الخيرة ، والأمر بالحسني ..

وعلي الجملة فإن الموعظة عبارة عن مجموعة من العبر النافعة،والخطابات المقنعة ، والإرشادات المعبرة .

وإنما وصفت الموعظة بأنها حسنة للإشارة إلى أن الموعظة تعني النصح الخير ، وتدور حول فعل المعروف ، وترك المنكر ، وتحاول إقناع العقل ، وإرضاء العاطفة ، وإن لا لم تكن حسنة .

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) تربية النبي لأصحابه ص ٣١٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٢٠ .

الصورة الثالثة : المجادلة بالتي هي أحسن :

المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم ، ويفحمه ، ويجعله يؤمن بالمدعي ، واتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية الذي يعرف المجادلة المنطقية ، والمكابرة ، والمعاندة ،بأنها ليست لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم، والتعالي وإثبات الذات،ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائماً والوقوف على الحق باستمرار ، وإقناع الخصم بالحسنى .

يقول صاحب مختار الصحاح : (جادل مجادلة جدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق، ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم) [١] .

ويقول الرازي : الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل ، وطلب المال ، والجاه ، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ، ودعوة الخلق إلى سبيل الله ، والذب عن دين الله تعالى [٢] .

وهكذا قيد الله الجدل بالذي هو أحسن حتى يكون هادفاً ، ومقنعاً ، ومناقشاً لشبه المدعوين .

والفرق بين الجدل ، والموعظة ، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين ، والخصم فيها ليس صامتاً ، وإنما يناقش ، ويرد ، بما رسخ في نفسه من أوهام وشبه.

بخلاف الموعظة ، فإن المدعو بها يستمع إليها ، ويستثار بها ، وينفعل معها ، بلا ضرورة المنازعة الكلامية ..

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة،والموعظةالحسنة والمجادلة بالحسنى لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين ، مكاناً ، وزماناً ، وفكراً ، وطبيعة .

---

[١] مختار الصحاح مادة (جدل) .

[٢] مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٥٢ .

وقد بين الرازى تنوع الناس ، وذكر أنهم بالنسبة لكمال الطبع ، طرفان ، وواسطة .

فالطائفة الأولي التى تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثالثة المجادلة هى طرف النقصان .

والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هي الواسطة وهم الذين لم يبلغوا فى الكمال إلى حد الحكماء المحققين،كمالم يبلغوا فى النقصان والرذالة إلي حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، ويقول :إن معني الآية أدع الأقوياء الكاملين إلي الدين بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية ، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة، وهي الدلائل اليقينية الاقناعية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل [١] .

وتقسيم الناس إلي هذه الطوائف الثلاث تقسيم يتفق مع الواقع البشري ، لأن من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقى القائم على الفكر والتدبر، ومنهم من يستهويه موضوع مثير، وفطرة طيبة، فيقف أمام اللفظة الجميلة، والمثل النادر ، والقصة الشيقة ، والتكرار المؤكد ، ويسهر لمنظر بائس ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوي اللحج ،ويعشقه، وينازع، ويجادل .

لكن ليس معني هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخري تماماً، وتتمايز تمايزاً كلياً، إذ من الناس من يجمع فى طبعه أكثر من صفة ، ولذا كان تنوع الأسلوب ضرورة لمخاطبة كافة الناس ، ولإرضاء كافة عناصر الإنسان .

جاء فى الظلال : والدعوة بالحكمة تراعى أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر المختار لهم في كل مرة حتي لا يثقل عليه ، ولا يشق عليهم بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها .

---

[١] مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

والدعوة بالموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي تقع عن جهل ، أو حسن نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير أكثر من الزجر ، والتأنيب ، والتوبيخ .

والدعوة بالجدل بالتي هي أحسن تكون بلا تحامل ، على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح ، حتي يطمئن إلي الداعي ، ويشعر أن ليس هدفه الغلبة في الجدل ، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حـــتي لا تسرع بالهزيمة ، والجدل بالحسني هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة [١].

ويلاحظ :

أن كلاً من صور الأسلوب الثلاث لا تنحصر فى شكل بياني محدد،لأن الصورة الواحدة تظهر في صور فرعية عديدة ، فمن الحكمة الإيجاز ، والإشارة ، والتأكيد المجرد .

ومن الموعظة الاستفهام،وضرب المثال،والتشبيه وإيراد القصص،والتأثير الصوتى ومن الجدل ، المحادثة ، وحلقات النقاش ، وعقد الاجتماعات ، والمناظرات .

ولذلك أعتبرت هذه الصور الثلاث أصولاً للأساليب تتفرع منها صور عديدة قابلة للزيادة كلما تقدم الناس ، وتطورت العلوم ، وتنوعت الحضارات .

وهكذا ..

يكون الأسلوب ، ويكون دوره مع البلاغ والدعوة ..

* * *

---

[١] في ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٠٢ .

رابعا

وسائل الدعوة

وســائل الدعوة عديدة ، ووظيفتها حمل الأسلوب بمضمونه ، وتوصيله إلى المدعوين .

ويخلط كثير من الناس بين الوسيلة ، والأسلوب، ويرون المقالة ، والخطبة ، والــدرس وســائل للدعوة ، مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلي المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي الذي هو الوسيلة .

ويــرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات ، لأنها تكون وسائل أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه .

إن الخطابــة ، والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة ، إذا نظر إليها من ناحــية هيكلها العام ، وشكلها الفنى ، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالهما ، المتضمنة للمعانى المقصودة .

إن الأســلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة ، كما أن الأسلوب يوجد فى عــالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده ، وتظهر أهميتها وقت إستخدامها، فالخطابة وسيلة ، والخطبة أسلوب .. وهكذا .

إن القــرآن الكــريم أسلوب للدعوة ، ينقل إلي الناس بوسائل عديدة مثل المشافهة ، والكتابة ، وآلة تكبير الصوت ، وهكذا .

وأيضــاً فإن القرآن الكريم وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيله للناس ، وقد تتعطل الوسيلة، وتنتهي ولا يتعطل القرآن الكريم ، لأنه محفوظ بأمر الله تعالي .

ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب ..

وأهم أساليب الدعوة ما يلي : ـــ

أولاً : وسائل المواجهة (المشافهة) :

يعتمد هذا اللون من الاتصال ، على المواجهة المباشرة بين الداعي والمدعو ، حيث تنقل الرسالة ، بواسطة هذه الوسيلة .

والاتصـــال المواجهـــي أقدم أنواع الوسائل ، وأكثرها تأثيراً ، وهو يشمل الاتصال الذي يتم بين فرد وفرد ، أو بين فرد وجماعة ، أو بين جماعة وجماعة ، مادام كل منها يتم بصور شفوية مباشرة .

ومن صور الاتصال المواجهي ما يلي :ـــ

(أ) **المحادثة البسيطة** : وتكـــون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو مجيباً ، كأفراد الأسرة ، والجيران ، وزملاء الدراسة والعمل .. وهكذا .

(ب) **المناقشة** : وهى فن من فنون التربية والدعوة ، وتتم مشافهة بين عدد مـــن الأشـــخاص ، حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش ، وتختلف المناقشة عن المناظرة لأن المتناقشين يسيرون فى اتجاه واحد ، بينما المتناظرون يسيرون فى خطوط متعارضة ، كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد ، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائماً .

(ج) **الخطبة** : بكافة أنواعها ، لها دورها فى الحضارات القديمة وما زال لها هـــذا الدور،وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح لأنها تخاطب العواطف والوجدان وتدور حول موضوعها ، وتقدم العديد من البراهين ، فى صور بيانية مؤثرة .

والخطـــبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب ، ولذلك وجب على من يقـــوم بالخطـــبة أن يهتم بجوانبها الفنية ، وقواعدها العلمية لكي يحقق الهدف الذي يرجوه من وراء عمله .

(د) **النـــدوة** : وتقـــوم علي الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من الاتجاهات تدور حول موضوع واحد .

وتحتاج الندوة إلي جمهور مثقف متمكن من المتابعة ، والمشاركة في الحوار ؛ لأن بعـض الندوات يفتح فيها للجمهور باب التعليق ليساهموا بآرائهم مع المتحدثين الأساسيين في الندوة .

(هـ) **المحاضرة** : وهي لون من الاتصال المواجهى يعتمد علي التحليل العلمي ، والبراهين القوية ، وهي وسط بين الخطبة والندوة لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد ، والمستمع جمهور عريض ، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

(و) **الدرس الديني** : وهو لون من الاتصال الديني يتم في المساجد غالباً ، وهـو اتصال يتسع الموضوع فيه ، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة ، وله أثره الكبير فى نشر الدين ، والتعريف بقضاياه .

٢ ـ الوسائل المكتوبة والمطبوعة : ـ

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ولكن بصورة بدائية ، فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب علي الجلد، وورق الشجر ، وورق البردى، وما شاكل ذلـك ، وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار ، وأوصلها إلي غيره ، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده .

وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس حديثاً بالحضارات القديمة، وما وقع لها من حروب وأحداث ، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفي عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة ، الأمر الذي ساعد على إعطاء صور عديدة للرسالة الواحدة ، وفي أشكال متعددة ، إذ يمكن إبراز الرسالة فى شكل كتاب ، أو فى نشرة ، أو في صحيفة ، أو في خريطة ، وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي : ـــ

(أ) تقـوم علي الرأى المدروس، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل ، ويحاول أن يصوغها في قالب بياني مشوق، دال علي معناه، بيسر وسهولة .

(ب) تسمح للقارئ بتكرار قراءتها ، والتحكم في ظروف التعرض لها مكاناً وزماناً ، وبذلك يتمكن من فهمها ، واستيعاب المراد منها ، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها .

(ج) تتمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلي الجماهير المتخصصة، والصغيرة الحجم لقلة تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخري .

(د) تساعد الرسالة المطبوعة على الاقناع، لأنها لا تخترق السمع، ولا تفاجئ العين، وإنما يقدم المتلقي عليها مختاراً راضياً مما يجعله جزءاً من موضوعها فيتخيل ، ويفسر ، ويرضي أو يرفض ، وتلك هي مراحل الاقتناع .

(هـ) تؤدى الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق ، الهادئ ، لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات ، ويمكنه أن يجزئ قراءتها ، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث والتحرى والتأمل .

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلي قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع النشر ، وضخامة التوزيع مما جعلها بحق وسيلة للاتصال الجماهيري .

٢ـ الوسائل المسموعة :ـ

ويقصد بها الوسائل التي توصل الكلمة إلي الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة وهى الراديو ، تلك الوسيلة العجيبة التي تحمل الكلمة المذاعة بمختلف أشكالها وفنونها الي أى مكان فى العالم في ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلي :ـ

(أ) يتميز الراديو بقدرته على اختراق أي مكان فى الكرة الأرضية في زمن وجيز بلا عائق أو حاجز .

(ب) يتميز الراديو بقدرته على مخاطبة كافة الفئات مهما اختلفت ثقافتهم وأعمارهم وأجناسهم .

(ج) لا يحتاج الراديو إلى التفرغ التام من المتلقى لأن من الممكن الاستماع إلى الراديو خلال الاشتغال بعمل آخر ، يقول ايريك بارنو : (إن الراديو هو الوسيلة الوحيدة التي لا تستحوذ علي العين ، أى أنه يمكن أن يخدم جمهوراً نشطاً أثناء تناوله الطعام، وقيامه بالعمل المنزلي ، وأثناء نهوضه من النوم ، واستحمامه وأثناء أداء متطلباته وهكذا [١] .

(د) تتميز الرسالة المرسلة بالراديو باشتمالها علي المؤثرات الصوتية، والحوار البناء ، وهذا يجذب المستمع ويربطه بالرسالة الإعلامية .

(هـ) يتميز الراديو بنقل رسائله فور وقوعها ، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية فى وقت الأزمات ، وحين وقوع حروب وصراعات .

(و) التكرار فى الرسالة الإعلامية بواسطة الراديو تكون مقبولة غير مملة، لأنها تتخذ صوراً متعددة ، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .

وقد أدى التطور الحضاري إلي قيام الراديو بالترفيه بجانب قيامه بالخبر والتثقيف .

٤ - الوسائل المسموعة المرئية : -

وتجمع هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثرة فى المستمع وهي الصوت، والحركة ، والصورة ، وبذلك تتمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور ، ولولا ما في هذه الوسيلة من صور غير مشروعة ، وبرامج مثيرة للشهوة ، لقلنا أنها أعظم وسيلة إعلامية معاصرة ، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى .

والأمل معلق بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل ، ووضعها فى الأطر الشرعية ، لتكون طريقاً لإيصال الإسلام كما نزل من عند الله إلى كل مكان فى العالم أداء للأمانة، وتحقيقاً للذات ، وتأسيساً لحضارتهم الذى يعمل الإسلام لتحقيقها.

---

[١] الأسس العلمية لنظيات الإعلام ص ٣٦٤ .

ولـيس مـن المقبول فى عالم اليوم أن يعيش المسلمون ـ وهم مسلمون ـ تابعين لغيرهم مقلدين ، وهم يملكون الأصالة ، والحياة .

إن الرؤية تدفع المشاهد إلي التنوع ، وتقدم الحدث نابضاً بالحركة والحيوية .

* * *

خامسا

الداعي والمدعو

الداعي والمدعو هما طرفان فى العملية الدعوية ، لأن الداعي هو حامل الدعوة ومـبلغها ، والمدعـوون هم غاية الدعوة، والمقصودون بعملية الدعوة كلها ، وعلى الداعـي أن يتصف ببعض المزايا التى تمكنه من القيام بواجباته ، ومنها أن يتعامل مع المدعوين بما يناسب واقعهم ، وأحوالهم ، ويؤدي إلي إقتناعهم بما يُعرض لهم ، وهذه تحـتاج إلي دراسات عديدة ، سوف نذكر بعضها بإذن الله تعالى حين نستنبط أهم ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المكية .

والرسول " ﷺ " هو إمام الدعاة ، ورائدهم ، وهو أسوة الدعاة على الزمن كله [1] .

إن تحديـد المفاهيم المتصلة بحركة الدعوة النبوية عمل أرجو من ورائه متابعة حـركة الـنبي " ﷺ " بـالدعوة إلي الله تعالي ، لنستفيد بها ، ونضع كل جانب فى موضعه ، ونحن نتحرك بالدعوة اقتداء برسول الله " ﷺ " .

* * *

---

[1] أنظر : الإعلام فى القرآن الكريم ص ٢١٤ وما بعدها .

المبحث الثاني

حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة

خلال المرحلة السرية

في مرحلة النبوة التي استمرت ستة أشهر ، ألف النبي " ﷺ " ملاقاة جبريل " عليه السلام " ، وتهيأت نفسه للمحافظة علي ما يوحي إليه ، والقيام بما يكلف به ، والقدرة على تبليغه ، والدعوة إليه .

وهنا نزل عليه جبريل " عليه السلام " بقوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾[١] حيث كلفه بالنهوض ، وبذل الجهد ، والإنذار ، والدعوة ، والقيام بواجبات الرسالة ، وبذلك بدأ النبي " ﷺ " أولي مراحل الدعوة التي استمرت حتي نزل قول الله تعالي : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾[٢] وبلغت مدتها عامين ونصفا لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي[٣] وقد عرفت هذه المرحلة بـــ " **مرحلة الدعوة السرية** " .

ومفهوم السرية التي وصفت بها الدعوة لا يعني الكتمان، لأن الدعوة بطبيعتها تعني تبليغ الغير أمراً ليتبعه ، مع ترغيبه في الاتباع ، وتخويفه من الترك ، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر ، والنصح المؤكد، وإظهار الخير، والمصلحة للمدعوين، بأساليب متعددة ، وبوسائل مختلفة .

إن أبا بكر " رضي الله عنه " من السابقين الأول إلي الإسلام ، ومع ذلك سمع قبل إسلامه من قريش أعداء الإسلام حديثهم عن الدعوة ، مما يؤكد أن الدعوة لم تكن سراً مكتوماً،يروى ابن كثير أن أبا بكر الصديق" رضي الله عنه " لقي رسول الله" ﷺ " فقـــال :

---

[١] سورة المدثر آية (١ ، ٢) .

[٢] سورة الحجر آية (٩٤) .

[٣] السيرة النبوية جـ١ ص ٢٦٢ ، وبذلك تكون فترة تهيئة النبي للرسالة ستة أشهر .

أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : بلي إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلي الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلي الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يقر ، ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق [١]

ولهذا فإن وصف الدعوة بالسرية خلال هذه المرحلة كان للسرية النسبية التي ظهرت خلال الحركة بالدعوة .

ومن ملامح الحركة بالدعوة خلال هذه المرحلة ما يلي : ـــ

أولا : اقتصار الدعوة على العقيدة : ـ

دعا النبي " ﷺ " إلي الإيمان بالله تعالي ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بهذه الأركان لا يتم إلا بترك الشرك ، ونبذ عبادة الأصنام .

يقول " ﷺ " لعلي بن أبي طالب " ﷺ": (**أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، وإلي عبادته ، وأن تكفر باللات والعزي**) .

ويقول لأبي بكر " ﷺ " : (**إني رسول الله ، ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وإني أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، وإلي ترك عبادة غيره ..**) .

وكان " ﷺ " يخرج متخفياً لعبادة الله مع علي في شعاب مكة ، لا يعلم أحد عنهما شيئاً إلا الله تعالي ، وذات يوم عثر عليهما أبو طالب ، وهما يصليان .

فقال أبو طالب لرسول الله" ﷺ " : يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم " عليه السلام" بعثني الله به رسولاً إلي العباد ، وأنت أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلي الهدي ، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه.

---

[١] البداية والنهاية ج ١ ص ٢٦ .

فقال أبو طالب : أى ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشئ تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

فقال علي " ﷺ " : يأبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته .

فذكروا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلي خير فالزمه [١] .

فنجده " ﷺ " فى حواره مع عمه يورد الكلمات الموجزة ، الجامعة للمعاني الكثيرة ، مع التركيز علي القضايا المسلمة عند العرب ، والانطلاق منها إلي ضرورة الإيمان بالله تعالي .

فالعرب جميعاً يعرفون الله تعالي،ويسلمون له بالقدرة،ومع ذلك يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ... ويعتزون بأبيهم إبراهيم وإسماعيل"عليهما السلام" .. ولذلك وضح النبي"ﷺ"لعمه أنه يدعو لدين الله،ودين إبراهيم"عليه السلام" ودين الأنبياء السابقين .

ولم يغب عن رسول الله " ﷺ " مخاطبة عمه بالحسني فيقول له : **أى عم ، أنت أحق من بذلت له النصيحة ، ورجوت له الهداية .**

ومع أن أبا طالب لم يستجب للدعوة إلا أنه طمأن محمداً " ﷺ " على حمايته ، ولم يعترض علي إيمان ابنه علي " ﷺ " .

وكان مجرد إعلان الصحابي (أى صحابى) الإيمان بدعوة رسول الله " ﷺ " بداية لتبدل حياته كلها ، ليظهر جديداً في كل شئ ، ويتغير تغيراً تاماً ، وتلك إحدي العجائب التي صنعها محمد " ﷺ " في الذين آمنوا بدعوته .

يقول سيد قطب : ولقد كنت ، وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولي أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم ،

---

[١] السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٧ .

فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟

كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحـــو العجيب ؟

كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟

كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا، وتكون معهم أينما كانوا ، وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ، ولكني لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟

عدت إلي القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل، وعرفت منهج القرآن فى تجلية حقيقة الألوهية، وتعبيد الناس لها وحدها، بعد معرفتها ، وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صنع ، إنهم صناعة قرآنية ، صنعوا في هذا المنهج الربانى على يدي رسول الله " ﷺ " الذى غرس في نفوسهم معرفة أن الله هو الأول، والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدبر ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيي والمميت والله هو النافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلي الكبير ، والله هو القريب المجيب، والله هو الذي يحول بين المرء وقلبه ، والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، وما لهم من دونه من وال ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً .

وهكذا ...

وهكذا ...

جعلت هذه الحقيقة تملأ على الناس حياتهم ، وتواجههم في كل درب ، وتتراءى لهم في كل صوب ، وتأخذ على أنفسهم أقطارها، وتعايشهم، وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو، والأسحار،وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التي بين جنوبهم [١] ، حتى خرجت منهم أناساً يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، ويتيقنون بأن الدار الآخرة هى الحياة الصحيحة ، ويعيشون العبادة والعبودية فى خواطر النفس ، وهمسات الروح ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

ولا عجب بعد أن كانوا هكذا فلقد تتلمذوا في مدرسة النبوة ، وتكونوا بمنهج الله ، وكانوا الجماعة الإسلامية الأولى .

ثانيا : قيام الدعوة على الاتصال الفردى [٢] : ـــ

قام الرسول " ﷺ " بتوجيه الدعوة إلي الناس بصورة فردية ، فلقد ثبت أنه " ﷺ " دعا السابقين إلي الإسلام كلا علي حدة ، وأحياناً كانت الدعوة تبدأ بسؤال موجه من الصحابي إلي رسول الله " ﷺ "،وأحياناً آمن البعض اقتناعاً بما كان يسمع ، ويري

وخديجة " رضي الله عنها " أول من دخلت في الإسلام ، آمنت بالرسالة قبل أن يطلب الرسول " ﷺ " منها أن تؤمن ، لأنها كانت تبشر بالرسالة ، وتنتظرها ،

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) يسمى علماء الإعلام الاتصال الفردى بالاتصال الشخصي ويذكرون أنه الاتصال المباشر الذي يتم مواجهة بين فردين أو بين فرد وجماعة صغيرة بين أعضائها علاقة ما .

وهو يتم عادة بطريقة تلقائية كالتحية والرد عليها ، وإجابة سؤال ، والتحادث حول أمر ما .

ونمط هذا الاتصال المواجهة ، والاحتكاك المباشر ، ورد الفعل فيه يكون واضحاً .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم فى اتجاهين بصورة مباشرة مما يؤدى إلي فهم كل طرف للآخر وهذا يساعد على الفهم ، وسرعة القضاء على المعوقات التي تظهر أثناء العملية .

فلما جاء جبريل بالوحي صدقت بما كانت تتوقعه ، وأخذت تعبد الله كما يتعبد رسول الله " ﷺ " .. فلما تعلم الرسول الوضوء والصلاة وعاد لخديجة ، توضأت كوضوئه ، وصلت بصلاته ، فلما رآهما علي بن أبي طالب " ﷺ " يصليان سألهما علي : ما هذا ؟

قال له رسول الله " ﷺ " : هذا دين الله الذي اصطفي لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، وإلي عبادته ، وأن تكفر باللات والعزي .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتي أحدث به أبا طالب .

فكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له : يا علي ، إذ لم تسلم فاكتم ، فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام ، فأصبح غادياً إلي رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي يا محمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وتكفر باللات والعزي ، وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم ، ومكث يأتيه عل خوف من أبى طالب ، وكتم على إسلامه و لم يظهره [١] .

وكان سن علي " ﷺ " يوم أسلم عشر سنوات ، وكان من فضل الله على عليّ " ﷺ " فى إسلامه أن جعله سبحانه وتعالى ينشأ في حجر رسول الله " ﷺ " قبل الإسلام ، يكفله " ﷺ " ، ويربيه كأنه ابنه .

وأسلم زيد بن حارثة مولي رسول الله " ﷺ " وصلي بصلاة رسول الله" ﷺ" وأخذ يحفظ القرآن معه .

وأراد الله بأبى بكر خيراً، فسمع عن دعوة محمد " ﷺ " فجاء إليه مسرعاً يسأله قائلاً : أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك أباءنا ؟

---

[١] حياة الصحابة ج ١ ص ٤٨ .

فقال رسول الله " ﷺ " : بلي ، إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلي الله بالحق، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلي الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فأسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق [١] .

وهكذا أسلم أبو بكر ، وعليّ ، وزيد " رضي الله عنهم " وهم أول من دخل في الإسلام بعد خديجة ، والعلماء مختلفون في أسبق الثلاثة إلي الإسلام ، فمنهم من قال : أولهم أبو بكر ، ومنهم من قال : أولهم علي ، ومنهم من قال : أولهم زيد بن حارثة .

والأولي بالصحة أن أولهم علي بن أبي طالب ، لقول النبي " ﷺ " لفاطمة أما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حلماً [٢] .

يجمع أبو حنيفة الآراء المذكورة ، ويؤكد صحتها جميعاً ، ويري أن أول من أسلم من النساء خديجة ، وأول من آمن من العبيد الأرقاء زيد بن حارثة ، وأول من آمن من الصبيان عليّ بن أبي طالب، وأول من آمن من الرجال الأحرارا الكبار أبو بكر " رضي الله عنهم جميعاً " [٣] .

ويروي ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أن أبا بكر لم يكن أول المسلمين إسلاماً ، بل أفضلهم ، وأكثرهم فائدة للدعوة إلي الإسلام [٤] .

وعلي الجملة فإن إسلام هؤلاء السابقين إلي الإسلام تم بالدعوة الفردية ..

ثالثاً : تخير المدعوين : ـ

لم يكن التوجه إلي الأفراد يتم مع جميع الأفراد بصورة مطلقة ، وإنما كـــان " ﷺ " يتخير من يدعوهم ، وهم المتصفون بالهدوء ، وقلة الحديث ،

---

[١] المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

[٢] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٣ .

[٣] البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

[٤] المرجع السابق ج٣ ص ٣١ .

والتسامح ، وحب الخير ، لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يجاهروا بإسلامهم ، ولن يظهروه لصناديد مكة ، وشيوخها ، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على نمطهم ، وصفاهم .. وإن لم يسلموا ، فالصمت ديدهم ، ولن يحاولوا إيذاء محمد " ﷺ " بالتحدث عنه ، والتكلم فيما دعاهم إليه .. ولذلك نرى المسلمين الأول كانوا من أمثال أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أما عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص فقد تم عرض الإسلام عليهم في مرحلة تالية .

وهكذا بقيت الدعوة منحصرة بين أفراد معينين ، ولم يصل إلي أهل مكة إلا معارف قليلة عن الدعوة لا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تثير غضبهم ، ولا تهيج مشاعرهم

إن هذا التخير والاصطفاء للمدعوين إجراء حكيم قام به النبي " ﷺ " لضمان بداية سليمة وموفقة للدعوة ، حيث كان " ﷺ " يركز علي المعرفة الشخصية" لقابليات " الأفراد من جهة ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخري ، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها ، ممن لا يصلحون طليعة قيادية يؤسس عليها صرح الدعوة في هذه المرحلة [1] .

رابعاً : تجنب ضلالات القوم :

أخذ النبي " ﷺ " يدعو ، ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم ، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم وضلالهم مع الأصنام،فلم يذم الآلهة ، ولم ينقد عبدتها ، وإنما أكتفي بعرض أركان العقيدة ، وبين مدى أحقيتها في ذاتها ، وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم ، وفي الكون من دلالات علي وحدانية الله،واستحقاقه وحده للعبادة .

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة علي مدى ابتعاد النبي " ﷺ " عن نقد ضلالات القوم ، والاكتفاء بتربية المسلمين ، وتقوية إيمانهم ، ومن هذه الآيات أوائل سورة المزمل ، وأوائل سورة القلم ، وهما آيات تحدد منهج التربية الإيمانية ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالي عن طريق قيام الليل ، وقراءة القرآن ، حيث يتعود المسلم بالقرآن، وقيام الليل على يقظة القلب ، وقوة التأمل ، وتربية الإرادة ، .. وبذلك يتحول العبد إلي طاقة قوية ، تستفيد بما في الليل من فوائد ، وتستعد لما في النهار من عمل ، كل ذلك فى عبودية ذاكرة ، وقلب مخبت منيب .

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله " ﷺ " وهى تتحدث عن كمال عقله وكرم خلقه وعلو شأنه فى الدنيا وفى الآخرة ، يقول تعالي : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [1] .

خامساً : دعوة الأقربين الذين يعاشرهم " ﷺ " :

بدأ الرسول " ﷺ " يعرض الإسلام علي الناس المختارين، وكان فى تخيره لمن يدعوهم ، يكتفي بالأقرب إليه الذى يعايشه ، ويعاشره، فدعا علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وأخذ يطبق تعاليم الوحي مع هؤلاء الأقربين تاركاً الآخرين لوقت يقدره الله تعالي ... يقول يحيى بن عفيف : جئت زمن الجاهلية إلي مكة ، فنزلت علي العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس، وحلقت في السماء ، وأنا أنظر إلي الكعبة ، أقبل شاب فرمي ببصره إلي السماء ، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتي جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتي جاءت أمرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجداً فسجدا معه .

فقلت يا عباس : أمر عظيم !

فقال العباس : أتدرى من هذا ؟

فقلت : لا .

---

[1] سورة القلم الآيات (١ ــ ٥) .

فقال العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي .

قال : أتدرى من الغلام ؟

قلت : لا .

قال : هذا على ابن أبي طالب " ﷺ " .

قال : أتدرى من هذه المرأة التي خلفهما ؟

قلت : لا .

قال : هذه خديجة بن خويلد زوجة ابن أخي ، وقد حدثني محمد أن ربك رب السماء والأرض، أمره هذا الذى تراهم عليه ، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة [١] .

وبقيت الدعوة منحصرة فى هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر " ﷺ " فأظهر الإسلام،ودعا أصحابه إليه ملتزماً بأهمية التخير في الدعوة كما تعلم من رسول " ﷺ "

سادسا : إسلام الضعفاء فقط :

كان السابقون إلي الإسلام من الضعفاء، الفقراء الذين لا جاه لهم في مكة ، ولا سطوة ، وهذا أمر جعل أشراف مكة لا يهتمون بالإسلام أول أمره ، استهانة بقلة أتباعه ، وهوانهم بين الناس ، يروى البخاري بسنده عن همام قال : سمعت عماراً يقول : رأيت رسول الله " ﷺ " وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان، وأبو بكر [٢] .

والعبيد هم : زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية ، وعبيد بن زيد الحبشى ، والمرأتان هما : خديجة ، وأم أيمن ، نظر أهل مكة إلي هؤلاء الضعفاء ، فاستصغروا شأنهم ، وتصوروهم ظاهرة عارضة ، لا تلبث أن تنتهى وتزول .

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب فضل أبي بكر ج ٦ ص ٨١ .

وساعدهم علي هذه النظرة أن العبيد من هؤلاء الضعفاء لم يقصروا في أعماهم ، و لم يرتكبوا خيانة لسادقم ، مع أهم لم يسلموا .

وقد قضى الله تعالي بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء لتنمو الدعوة على سنة البشر فى التطور والتقدم ، وليعلم المسلمون دائماً حاجتهم الملحة للصبر ، والتحمل ، ومواجهة الطغيان بالعفو ، والتسامح .

إن هؤلاء الضعفاء هم القوة العملية فى مجتمعهم فمنهم العمال ، والأجراء ، والعبيد ، ولا بد أن يعملوا ليعيشوا فليس معهم المال الذى يدفعهم إلي الترفه ، والكسل ، وتلك خاصية أفادت الدعوة الإسلامية لأهم لما آمنوا بها وضعوا طاقتهم واستعدادهم فى خدمتها ، ولذلك هاجروا بها ، وواصلوا الدعوة إليها ، وتحملوا فى سبيلها الكثير ، فقدموا بذلك النماذج الرائدة للمسلمين بعدهم ، ولو كانوا من المترفين المنعمين ما تحملوا أذى،وما صبروا على مشقة،ولعجزوا عن أداء ما كلفوا به .

وأحب أن أبين قضية لها أهميتها وهي أن ضعف هؤلاء كانت في الجانب المادي فقط ، أما فى الجانب المعنوي فكانوا هم الأقوياء ، وهم العقلاء ، فقد دخلوا في الإسلام مخالفين أسيادهم ، ولم يعبأوا بأي أذي يناهم ، وتحملوا ، صابرين ، كل ما أصابهم من ظلم وعدوان ، وصل أحياناً إلى حد القتل ، والفناء .

سابعاً : قصور الدعوة على أهل مكة ومن يأتيه :

أكتفي الرسول " ﷺ " بالدعوة خلال هذه المرحلة علي أفراد من الأقربين إليه في مكة ، و لم يخرج عن هذا الإطار في دعوته، اللهم إلا مع من قصد رسول الله " ﷺ " من خارج مكة وجاء يبحث عن دين الله تعالى .

ولذلك بقيت الدعوة فى نطاق محدود ، لم يؤمن بتعاليمها أحد خارج مكة ، و لم ينشغل كفار مكة بتتبعها ، و لم يحدث صدام بين المؤمنين وغيرهم .

واستمر الأمر هكذا حتي قويت هذه الجماعة الأولي وأسلم أبو بكر " رضي الله عنه " فأعلن الأمر ، وجاهر به ، يعد إصرار منه على ذلك .

وكان " ﷺ " حريصاً في هذه المرحلة على عدم إثارة كفار مكة منعاً للتصادم معهم ، فكان إذا جاءه من يسلم بدعوته ، وهو من غير مكة يأمره بكتم إسلامه،والامتثال لأمر الله، والعمل به بعيداً عن الناس ، وهذا من الحكمة في الدعوة ، لأن كفار مكة لو بدأوا يعملون ضد المسلمين في هذه المرحلة لتمكنوا منهم لقلة عددهم ، وضعف وجودهم ، وهذا قدر أراده الله للمؤمنين في هذه المرحلة لينصر دينه بهم .

يروي ابن سعد بسنده عن شداد بن عبد الله أن أبا أمامة سأل عمرو بن عبسة : بأى شئ تدعي أنك ربع الإسلام ؟

قال : إن كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان بشئ ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخباراً بمكة، ويحدث بأحاديث ، فركبت راحلتي ،حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله " ﷺ " ، مستخفياً ، وإذا قومه عليه جرءاء .

فتلطفت حتي دخلت عليه فقلت : من أنت ؟

قال : أنا نبى .

فقلت : وما نبى ؟

قال : رسول الله .

قلت : الله أرسلك ؟

قال : نعم .

قلت : فبأى شئ ؟

قال : بأن يوحد الله، ولا يشرك به شئ، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام .

فقلت له : من معك على هذا ؟

قال : حر وعبد ، يقصد أبا بكر ، وبلال بن رباح .

فقلت له : إني متبعك .

قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن أرجع إلي أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي .

فرجعت إلي أهلي وخرج النبي " ﷺ " مهاجراً إلي المدينة وقد أسلمت ، فجعلت أتخبر الأخبار حتي جاء ركبه من يثرب فقلت : ما فعل هذا الرجل المكي الذي أتاكم ؟ فقالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذاك ، وحيل بينهم وبينه ، وتركت الناس إليه سراعاً، فركبت راحلتي ،حتي قدمت عليه المدينة .

فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفني ؟

قال : نعم ، ألست الذي أتيتني بمكة ؟

فقلت : بلي ، يا رسول الله علمني مما علمك الله وأجهله .

(ثم ذكر الحديث بطوله وفيه تفصيل مواقيت الصلاة والوضوء وغير ذلك) [١] .

وهكذا وجه النبي " ﷺ " هذا الصحابي الجليل إلي عدم البقاء في مكة والرجوع إلي قومه ، وملازمة الصمت والسكوت حتي يظهر أمر الإسلام ، وبعدها يتمكن من الحركة ، والجهر ، والدعوة ، في ظلال حفظ الله ، ونصر إخوانه له .

ويبدو أن عمرو بن عبسة " ﷺ " كان من الحنفاء ، الذين أظهروا فساد آلهة القوم ، وأخذوا في البحث عن الدين الحق ، ولذلك كان توجيهه إلي التخفي أمراً ضرورياً في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، لأن الحنفاء تعودوا نقد ما عليه الناس ، واحتقار آلهتهم ، من غير تقديم دعوة جديدة ، تتضمن معالم دين صحيح ، فلو استمر عمرو بن عبسة في النقد مع إسلامه فإنه يمثل خطورة لأهل مكة تشعل غضبهم في هذه المرحلة التي لا تتحمل هذا .

يخبر شهربن حوشب عن عمرو بن عبسة قال : رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إني امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فيترل الحي ليس معهم إله .

---

(١) الطبقات الكبري ج ٤ ص ٢١٦ .

يخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلهاً يعبده .

ثم لعله يجد ما هو أحسن منه ، قبل أن يرتحل ، فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه .

فرأيت أنه إله باطل ، لا ينفع ، ولا يضر ، فدلني علي خير من هذا .

فقال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلي غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتي بأفضل الدين ، فلم تكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة فآتي فأسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا ، ثم قدمت مرة فسألت، فقالوا : حدث فيها رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلي غيرها ، فرجعت إلي أهلي، فشددت راحلتي، ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخفياً ووجدت قريشاً عليه أشداء ، فتلطفت حتى دخلت عليه فسألته .

فقلت : أي شئ أنت ؟

قال : نبي .

قلت : ومن أرسلك ؟

قال : الله . قلت : وبم أرسلك ؟

قال : بعبادة الله وحده لا شريك له وبحقن الدماء، وبكسر الأوثان ، وصلة الرحم ، وأمان السبيل .

فقلت:نعم ما أرسلت به؛قد آمنت بك، وصدقتك؛أتأمرني أمكث معك أو أنصرف ؟

فقال : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به ؟ فلا تستطيع أن تمكث ، كن في أهلك فإذا سمعت بي قد خرجت مخرجاً فاتبعني [1] . . وساق الحديث السابق بطوله ، وبألفاظ متقاربة .

---

[1] الطبقات ج ٤ ص ٢١٧ .

ثامنا : التخفي فى العبادة والتوجيه :

أخذ "ﷺ" يتخفي عن أعين أهل مكة وهو يوجه أتباعه ، ويطبق معهم تعاليم الإسلام

وقد اختار " ﷺ " للتخفي أماكن لا تكتشف بسهولة ، ومن ذلك الشعاب البعيدة عن بيوت أهل مكة ، وكان " ﷺ " يخرج إلي الشعاب ، ومعه علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة للصلاة فيها بعيداً عن أعين الناس [1] .

يقول ابن إسحاق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله " ﷺ " كان إذا حضرت الصلاة خرج إلي شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذ أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا [2] . ولما كثر عدد المسلمين كانوا يذهبون إلي الشعاب فرادى ، أو مثني ، محافظة على السرية ، وعدم التصادم .

ومن طرق التخفي اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً يجتمع فيه المسلمون مع رسول الله " ﷺ " للتعلم ، والعمل ... وكان اختيار دار الأرقم ملائماً للتخفي والاستتار لعدة أسباب :ـــ

(أ) تقع دار الأرقم عند الصفا ، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة ، وتوجه المسلمين إلي هذا المكان أمر عادى لا يثير تساؤلاً ، ولا يوقعهم فى شبهة .

(ب) لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد" ﷺ " مع أصحابه في دار الأرقم ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك، لأن الأرقم من بنى مخزوم، وهى قبيلة تنافس بني هاشم في السلم والحرب،ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية فى دار مخزومية .

(ج) أسلم الأرقم وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة ، وصبي في هذا العمر لا يجرؤ أن يجعل بيته مكاناً لتجمع المسلمين ، فلقد جرت عادة القرشيين أن يكون اجتماعهم في بيوت كبار القوم ، وأغنيائهم ، وشيوخهم .

---

[1] إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧ .

[2] سيرة النبى " ﷺ " ج ١ ص ٢٤٦ .

(د) إسلام الأرقم نفسه كان سراً علي قبيلته ، وعلي غيرهم ، ولا يمكن تصور بيته حينئذ مكاناً لاجتماع المسلمين ؛ لأن صاحبه ـــ لم يدخل في الإسلام ـــ في نظرهم .

والحكمة في بدء الدعوة بالاستخفاء عديدة منها : ـــ

(١) التريث ريثما تتكون لبنات قوية المزج ، شديدة التماسك، في جو بعيد عن إثارة المعوقات في طريق سير الدعوة ، لأن هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي سيعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد، في مواجهة قوي الظلم، والبغي المتربصة بهذا الدين، في صبر لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف اليأس .

(٢) ضرورة المسالمة في البداية ، لأن مهاجمة هذا المجتمع الغارق في شروره ومواجهته بضلاله،وساق الدعوة لم يستو بعد ، يؤذن بتحريك دوافع المقاومة للدعوة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أول خطواتها ، فتتعثر في سيرها ، وهي لا تزال وليدة طرية .

لذلك آثر النبي " ﷺ " الاستسرار بدعوته،وتبليغ رسالته ، حرصاً منه أن يكون سيرها مطرداً، وئيداً، هادئاً ، تسير إلي القلوب بخطي ثابتة ، حتي تتمكن من الإعلان عن نفسها في الوقت المناسب [١] ، بعد أن يؤمن بها عدد من الناس يضحون في سبيلها بالغالي والنفيس ، مما يضمن استمرارها وبقاءها .

(٣) إتاحة الفرصة للدعوة حتي تصل إلي مسامع العرب في مواسمهم، ومحافلهم وأسواقهم ومضارب منازلهم ، فأتت هذه الخطوة أكلها ، حيث أقبل إلي مكة فريق منهم ، يتحسس أخبارها ، ويتعرف مكانها في خفية وحذر ، حتي إذا بلغوا مأمنها في مقرها (دار الأرقم) أسلموا لله تعالي ، واتبعوا رسوله " ﷺ " ، واهتدوا بهديه ، وآمنوا بما جاء به من الحق [٢] .

---

(١) محمد صادق عرجون ـــ محمد رسول الله " ﷺ " ـــ ج ١ ص ٦٠٥ .

(٢) منهج النبي " ﷺ " ص ١٤٩ .

(٤) المساهمة فى تكوين قاعدة إيمانية صلبة ، ومثالية فى هدوء ، وأناة لتقوم بدورها فى المراحل التالية ، ولتقدم أسوة راقية لمن بعدهم فى الخلق ، والسلوك ، وأداء الواجب .

تاسعا : حمل المسلمين مسئولية الدعوة :ـ

قام الرسول " ﷺ " بأمر الدعوة إلي الله تعالي ، وتبعه نفر قليل ، فأخذ يعلمهم بتعاليم الله التي يترل بها الوحي .. وأخذ المسلمون يعيشون حياة جديدة ، طيبة ، وتكون منهم أناس ربانيون خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وتابع الرســول " ﷺ " تغذيتهم بالقرآن وتقويتهم بالإيمان حتي صاروا ــ بحق ــ عبيداً لله ، لا يريدون في الأرض علواً ، ولا فساداً .. ورأوا أن أعظم العمل هو الدعوة لدين الله ، والعمل به ... ولذلك رأينا أبا بكر " رضي الله عنه " لم يكتف بإسلامه متخفياً ، وإنما أظهر إسلامه ، ودعا إلي الله ، وإلي رسوله ، فأسلم بدعوته :

عثمان بن عفان .

والزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان . ... رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما أسلم هؤلاء الخمسة ، قدم بهم أبو بكر إلي رسول الله " ﷺ " ، فصلوا معه ، وصدقوا برسالته ، وبلغ عدد المسلمين بهم ثمانية [٢] وفي اليوم التالي جــاء أبو بكر بنفر آخرين أسلموا بدعوته أيضاً وهم : عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمه بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم .

ويرجع نجاح أبي بكر فى الدعوة إلي عدة أسباب :ــ

---

[٢] تاريخ الطبري ج ١ ص ٣١٧ .

أ ــ بساطة الدعوة إلي التوحيد كما هو ظاهر من قول رسول الله " ﷺ " لأبي بكر : **وأدعوك إلي الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، " أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاة علي طاعته "** [١] .. وفي قوله " ﷺ " دلالة على أن الله واحد ، وحقه أن يعبد وحده ، ونبذ ما عداه من آلهة وشركاء .

وقد صدق أبو بكر بما سمع من رسول الله " ﷺ " ، وآمن به بلا تردد ، أو مراجعة ، يقول النبي " ﷺ " : **(ما دعوت أحداً إلي الإسلام إلا كانت له عنه كبوة ، وتردد ، ونظر ، إلا أبا بكر ما تردد فيه)** [٢] .

ب ــ اشتهار أبي بكر " ﷺ " في مكة بحسن الخلق ، وسعة الأفق ، وتنوع الثقافة ، ودقة الأمانة ، يقول ابن كثير : وكان أبو بكر رجلاً متآسلفاً ،لقومه ، محباً ، سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ، ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه، لغير واحد من الأمر ، لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلي الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه [٣] .

ج ــ الاقتداء برسول الله " ﷺ " في الاصطفاء ، وتخير من يدعوهم ، كما هو واضح من الصحابة الذين آمنوا بدعوته لهم .

وعلى مثال أبي بكر " ﷺ " كان سائر الصحابة الذين دخلوا في الإسلام ، فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه برفق إلي الإسلام فإن استجاب وجهه إلي دار الأرقم ، وإن لا تركه وانصرف عنه ، يروى ابن سعد في الطبقات قصة إسلام عمار بن ياسر،وصهيب بن سنان،ومجيئهما إلي دار الأرقم ،والتقا ئهما عند الباب ، والحوار الذي دار بينهما ، فيقول : قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن

---

[١]

[٢] دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ١٦٤ .

[٣] البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

سنان علي باب دار الأرقم ، ورسول الله " ﷺ " فيها ، فقلت له : ما تريد ؟

قال لي : ما تريد أنت ؟

فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .

قال : وأنا أريد ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام ، ثم مكثنا يوماً علي ذلك حتي أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون [1] .

وكان مجيئهما إلى دار الأرقم بتوجيه بعض الصحابة الذين وثقوا من إيمانهم .

وكان " ﷺ " ينظم الذين أسلموا في جماعات صغيرة ، لتلتقى كل مجموعة في بيت أحدهم، يقرأون كلام الله ، ويتعاهدون الإسلام بالفهم ، والتطبيق ، وكان رسول الله " ﷺ " يرسل إلي هذه المجموعات أحد القراء ليحفظهم القرآن الكريم الذي نزل ، يروى ابن سعد أن عمر بن الخطاب لما ذهب إلي أخته مغاضباً وجد عندها خباب بن الأرت ، وكان يختلف إلي فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن مع زوجها [2] .

وإذا كان أحد المسلمين يقرأ ويكتب فإن الرسول " ﷺ " يرسل له القرآن مكتوباً ليقرأه على إخوانه .

وكان المسلمون الأوائل حريصين على حماية الإسلام ، وحماية رسول الله " ﷺ " من ذلك ما فعله نعيم بن عبد الله النحام ، وكان " مستخفياً بإسلامه " فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه شك فى أمره وارتاب في مقصده ، مما دفعه إلي سؤاله فقال : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً ، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

---

[1] ابن سعد ــ الطبقات ــ ج ٣ ص ٢٢٧ .

[2] صحيح مسلم .

فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي علي الأرض وقد قتلت محمداً،أفلا ترجع إلي أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ !

قال : وأى أهل بيتي ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب [١] .

ومن أعمال الصحابة التي بذلوها لحماية رسول الله " ﷺ " ، مراقبة الغرباء القادمين إلي مكة ، ومعرفة مقاصدهم، ومساعدتهم في الوصول إلي رسول الله " ﷺ " إن رغبوا في ذلك فى إطار من السرية المطلوبة .. يروى البخاري بسنـــده أن أبـــا ذر " رضي الله عنه " قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس رسول الله " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتي أدركه بعض الليل ، فرآه على " رضي الله عنه " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتي أصبح ، ثم قام، واحتمل قربته وزاده إلي المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي " ﷺ " حتىَ أمسي ، فعاد إلي مضجعه ، فمر به علي" رضي الله عنه " فقال : أما آن للرجل أن يعلم مترله ؟

فأقامه، فذهب به معه، لا يسأل أى واحد منهما صاحبه عن شئ .

حتي إذا كان اليوم الثالث ، فعاد على " رضي الله عنه " علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت .

ففعل .

فأخبره .

وقال على له : إنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني، حتي تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتي دخل على النبي " ﷺ " ودخل معه ، فسمـــع

---

[١] ابن هشام ــ السيرة ج ١ ص ٣٦٦ .

من قوله ، وأسلم مكانه [١] .

وبهذا الحذر كان تصرف الصحابة حباً لرسول الله " ﷺ " ومحافظة عليه " رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

[١] أخرجه البخاري في الجامع الصحيح — كتاب مناقب الأنصار — باب إسلام أبي ذر ج ٦ ص ١٨٢ .

المبحث الثالث

الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية

قام الرسول " ﷺ " وأصحابه بدعوة الناس عن طريق الاتصال الشخصي ، والمواجهة المباشرة ، وهذه الوسيلة تحتاج إلي معرفة مسبقة بين الداعي ، والمدعو ، ليتمكن الداعي من تخير الوقت المناسب ، والحالة المناسبة ، والأسلوب المناسب ، كما يتمكن المدعو من السؤال ، والاعتراض ، والرد بهدوء وتعقل .

وبمراجعة عدد المسلمين فى المرحلة السرية ، ومعرفة طرق إسلامهم نـــرى إتصال الدعاة بهم مباشرة على نحو ما سبق ذكره .

وأما أسلوب الدعوة فقد قام على عرض الأدلة الدقيقة، المحكمة، على صورة سؤال، أو إجابه، من ذلك ما روي فى قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمى " ﷺ " ، السابق ذكرها ، حيث رأينا أن عمرو كان يبحث عن دين خال من الخرافات ، والكاذيب الموجودة فى حياة العرب، ولم يرتضى لنفسه أن يتخير حجراً ،ويجعله إلهاً ، فلما سمع برسول الله جاءه ، وأخذ فى سؤاله حتى تيقن من صدقه ، وآمن به ، وكان يقول " ﷺ " : لقد رأيتنى وأنا ربع الإسلام [١] .

ويبدو أن النبي " ﷺ " لم يخبره بكل من أسلموا ، حفاظاً علي سلامتهم ، وسلامة إيمانهم ، ولذلك قال : لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام .

وعلي هذا يمكن فهم التضارب الذي ظهر على ألسنة الصحابة،وهم يعدون السابقين إلي الإسلام؛لأن كلاًروي حسب علمه،وسط جوالاستخفاء والسرية المذكور،يعضد ذلك ما قاله كل من أبي ذر وسعد بن أبي وقاص من أنه ثلث الإسلام [٢] .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) صحيح البخاري .

المبحث الرابع

المسلمون خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية سنتين ونصفاً ، ودخل في الإسلام ستون مسلماً ومسلمة من كافة طبقات، وقبائل المجتمع المكي ، حتى أنه لا تخلو عشيرة مكية من شخص أو كثر أسلموا من بينها .

وقد ورد ذكرهم بالتفصيل فى كتب السيرة [1]، وهم : ـــ

أولا : بنو هشام : ـ

١ـــ علي بن أبي طالب .

٢ ـــ جعفر بن أبي طالب .

٣ ـــ أم الفضل بنت الحارث .

٤ـــ أسماء بن عميس (زوج جعفر) .

٥ ـــ خديجة بنت خويلد .

ثانيا : بنو أمية : ـ

٧ ـــ عثمان بن عفان .

٨ ـــ خالد بن سعيد .

٩ ـــ أمينة بنت خالد (زوج خالد) .

١٠ـــ حاطب بن عمرو .

١١ـــ عبد الله بن جحش .

١٢ـــ أبو أحمد بن جحش .

١٣ـــ امرأته فاطمة

ثالثا : بنو مخزوم : ـ

١٤ـــ أبو سلمة بن عبد الأسد .

١٧ـــ أسماء زوجة عياش .

١٨ـــ ياسر بن عامر (حليف) .

١٩ـــ سمية بنت خياط (زوج ياسر) .

٢٠ـــ الأرقمُ بن أبي الأرقم .

رابعا : بنو تيم : ـ

٢١ـــ أبو بكر الصديق .

٢٢ـــ طلحة بن عبيد الله .

٢٣ـــ عامر بن فهيرة (مولى) .

٢٤ـــ بلال بن رباح (مولى) .

خامسا : بنو عدي : ـ

٢٥ـــ سعيد بن زيد .

٢٦ـــ فاطمة بن الخطاب .

٢٧ـــ عامر بن أبي ربيعة (حليف) .

٢٨ـــ نعيم بن عبد الله .

٢٩ـــ واقد بن عبد الله (حليف) .

---

[1] المنهج الحركى للسيرة النبوية ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٧ .

١٥ــ عياش بن أبي ربيعة .

١٦ــ عمار بن ياسر (حليف) .

٣٢ــ اياس بن البكير (حليف) .

سادسا : بنو زهرة : ■

٣٣ــ سعد بن أبي وقاص .

٣٤ــ عبد الرحمن بن عوف .

٣٥ــ عمير بن أبي وقاص .

٣٦ــ عبد الله بن مسعود (حليف).

٣٧ــ المطلب بن أزهر .

٣٨ــ خباب بن الأرت (حليف) .

سابعا : بنو سهم : ■

٣٩ــ خنيس بن حذافة .

٤٠ــ حفصة بن عمر (زوجة) .

ثامنا : بنو جمح : ■

٤١ــ حاطب بن الحارث .

٤٢ــ امرأته فاطمة .

٤٣ــ خطاب بن الحارث .

٤٤ــ امرأته فكيهة .

٤٥ــ السائب بن عثمان .

٣٠ــ خالد بن البكير (حليف) .

٣١ــ عامر بن البكير (حليف) .

تاسعا : بنو أسد : ■

٤٦ــ الزبير بن العوام .

عاشرا : بنو عامر : ■

٤٧ــ أبو عبيدة بن الجراح .

٤٨ــ سليط بن عمرو .

حادي عشر : قبائل متفرقة : ■

٤٩ــ صهيب بن سنان (رومي) .

٥٠ــ مسعود بن ربيعة.

٥١ــ معمر بن حبيب .

٥٢ــ زيد بن حارثة .

٥٣ــ عمرو بن عبسة (سلمي) .

٥٤ــ عثمان بن مظعون .

٥٥ــ قدامة بن مظعون .

٥٦ــ عبد الله بن مظعون .

٥٧ــ رملة زوجته .

وهؤلاء السابقون إلي الإسلام نماذج فريدة ، عاشوا أحرج فترات البناء الإسلامي ، وواجهوا أصعب المواقف وكانوا بحق أمثلة عالية فى الفداء ، والتضحية ، والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين .

لقد خلعوا أنفسهم من مجتمعهم الجاهلي ، وكونوا جماعة الدعوة الأولي ، التي تميزت بخصائصها وصفاتها ، إذ كان إيمانها يعني الخلوص التام من كل شرك ، والإلتزام المطلق لأمر الله تعالي ، فلا مهادنة فى عقيدة ، ولا ضعف في القيام بواجب مع تحمل أى ضغط ، والصبر علي أى أذي ، وكان دخول أحدهم في الإسلام يعني البراءة التامة من الشرك وأهله ، والبعد عن موالاة غير المؤمنين ولو كان من أقرب الناس إليه .

وكان المسلم يحب أخاه المسلم، لا يحبه إلا لله ، ويلتزم بكل لوازم هذه المحبة من النصرة ، والنصيحة ، والمودة ، وحسن الأخلاق .

إن الإيمان كان يعني عند هؤلاء هجراً كلياً عن كافة صور الجاهلية، وانتقال المؤمن إلي منهج الإسلام بكماله وتمامه، وذلك هو الإيمان فى الحقيقة .

وقد قام هؤلاء المسلمون بواجبهم إزاء الدعوة إلي الله تعالي،إذ حملوا الإسلام إلي زوجاهم،وأبنائهم،وأهاليهم،وإلي كل من يعاشروهم، وله معهم ثقة ، ولهم به معرفة ، وبواسطة هؤلاء الصحابة دخل الإسلام بيوهم ، وأسلم عدد من الزوجات والأبناء .

وساعد هؤلاء الصحابة فى تبليغ الإسلام حسن الاتباع ، وسلامة التطبيق ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، لأن ذلك يعد فى ذاته دعوة عملية .

وساعدهم كذلك أنهم تيقنوا أن الإيمان يعني العلم والعمل معاً ، فلم يقصروا فى تعلم ، ولم يتهاونوا فى تطبيق ، وكان إيمانهم قائماً علي اليقين التام ، والاقتناع الصادق ، فلما تعرضوا للابتلاء لم يتأثروا ، ولم يضعفوا .

لقد كانوا قوة انتصروا لدينهم وارتفعوا به إلي مصاف العلا فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، واستحقوا أن يضعهم الرسول " ﷺ " فوق الصحابة أجمعين ، فعندما اختلف أحدهم وهو عبد الرحمن ابن عوف مع خالد بن الوليد بعد إسلامه قال الرسول " ﷺ " : يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فو الله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي أو روحته [1] .

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٧٤ .

فبالرغم من أن خالد من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، وبالرغم من أنه من الذين أسلموا ، وأنفقوا قبل الفتح ، بالرغم من ذلك كله ، فلقد قيل له هذا القول حين اختلف مع عبد الرحمن بن عوف " ﷺ " ، أحد أفراد الطليعة السابقة ، والنواة الصلبة التي قام البناء الإسلامي على أكتافها ، ولا ننسى أبداً أن من هؤلاء بين النسوة خديجة " رضي الله عنها " إحدى الكاملات في الدنيا ، وأسماء بنت عميس ، وأم الفضل بنت الحارث وغيرهن اللاتى كن النموذج الأعلى للنساء فى التاريخ .

* * *

المبحث الخامس

المرحلة الأولي للجهر بالدعوة

(جهر رسول الله " ﷺ ")

لم تبق الدعوة سراً مجهولاً علي أهل مكة، فلقد علموا كثيراً عن محمد " ﷺ " ودعوتـــه لديـــن جديد ، و لم يتحركوا لذلك، و لم يكترثوا به ، لأن معلوماتهم عن الإسلام كانت عامة ، وبسيطة، جعلت الدعوة في نظرهم أقل خطورة على معتقداتهم من الحنفاء الذين يجاهرون ببطلان عبادة الأصنام ، والأوثان .

وممـــا يدل على علمهم بالدعوة أن أحد تجار مكة جاء إلي أبي طالب فرأى محمـــداً " ﷺ " يصـــلي، وخلفه علي، وخديجة ، وعلم أنهم بذلك يعبدون الله الذي يدعو إليه محمد " ﷺ " .

وسبق ذكر علم أبي طالب بإيمان علي بالإسلام، ودعوة رسول الله " ﷺ " له ليسلم . ومع إتساع موجة المعرفة بدعوة محمد " ﷺ " بقي أهل مكة علي إهمالهم شأن محمد ومن معه فسكتوا عن دعوته، و لم يتصوروا خطورة علي أديانهم ، وأوضاعهم .

وكـــان صمت أهل مكة عن المسلمين في هذه الفترة فضلاً من الله ، حيث تكونـــت النواة الصلبة التي يقوم عليها البناء ، ونشأ جيل القمة الذي حمل مسئولية الإســـلام مع رسول الله " ﷺ " وبعده ، ويكفي أن تعرف أن تسعة من هؤلاء، هم المبشرون بالجنة ، وعاشرهم هو عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " ، وأن الرسول " ﷺ " اتخذ منهم أهل الشوري الستة ، ومات " ﷺ " وهو عنهم راض .

بعد هذا بدأت **مراحل الجهر بالدعوة** التي تعددت تبعاً لاعتبارات مختلفة ..

وقـــد رأيت بعض العلماء **يعدها ثلاثاً** باعتبار نوعية المدعوين ، فهناك الجهر للأقربين ، وهناك جهر لأهل مكة ، وهناك جهر ثالث للناس أجمعين [1] . لكن هذا

---

[1] أنظر : الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص ٣٠٤ ــ ٣٣٥ .

التقسيم لم يلاحظ تداخل صور الجهر بالدعوة لأن الرسول " ﷺ " وهو يجهر بالدعوة كان يدعوا أقرباءه الأدنين وأهل مكة ، وكلهم أقرباؤه ... وأيضاً كان يدعو من يأتي مكة من خارجها .. كما أن الرسول " ﷺ " أعلن من أول الدعوة أنها للناس أجمعين .

وهناك من يقسم **المرحلة الجهرية إلي مرحلتين** بإعتبار الشخص الذي جهر بالدعوة ؛ ويري هؤلاء أن الرسول " ﷺ " هو الذي جهر بالدعوة للناس في المرحلة الأولي ..وأن عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" وحمزة بن عبد المطلب " رضي الله عنه " هما اللذان جهرا بالدعوة بعد المرحلة الأولي بعامين [١]،وكان جهرهما بداية المرحلة الجهرية الثانية .

وأري أن هذا التقسيم أكثر صواباً من التقسيم الأول ، ولذلك سأتناول المرحلة الأولي هنا علي أساس هذا التقسيم .

ويلاحظ هنا أن مراحل الدعوة تقسيم منهجي لتسهيل المعرفة بالسيرة النبوية لأن المراحل كانت تتداخل أحياناً ، ففي المرحلة السرية جهر أبو بكر بالدعوة ، ومع جهر الرسول " ﷺ " كان الصحابة يباشرون الدعوة أيضاً .

وتعد المرحلة الجهرية الأولي وسطاً بين المرحلة السرية ، ومرحلة الجهر العام ، لأن المرحلة الجهرية الأولي قام بالجهر خلالها رسول الله " ﷺ " مع المحافظة علي سرية أماكن التجمع ، والحركة للمسلمين ، الأمر الذي يجعل هذه المرحلة انتقالاً من طبيعة المرحلة السرية إلي طبيعة الجهر العام .

وتبدأ مرحلة جهر الرسول"ﷺ" بالدعوة بنزول قوله تعالي: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [٢]وقوله تعالي:﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [٣] .

---

[١] أنظر : المنهج الحركي للسيرة ج ١ ص ٣٧ ، ٧٨ .

[٢] سورة الحجر آية (٩٤ ، ٩٥) .

[٣] سورة الشعراء آية (٢١٤ ، ٢١٥) .

والآيات تأمر رسول الله " ﷺ " بالجهر بالدعوة ، وترك المشركين فى غيهم ، وعدم إثارتهم ، مع التركيز على دعوة الأقربين ، وتقوية العلاقة الطيبة مع المؤمنين .

وكانت هذه المرحلة جهرية لرسول الله " ﷺ " فقط ، حيث أمره الله تعالى بالجهر ، أما أصحاب النبى " ﷺ " المؤمنين فقد ظلوا على صمتهم ، واستخفائهم ، لأن الأمر بالجهر جاء مقترناً بالدعوة إلى الصبر ، والتحمل ، وتجنب المشركين ، والبعد عن كل ما يؤدى إلى التصادم معهم .

ولأن حركة الصحابة كانت سرية بقى مكان تجمعهم فى دار الأرقم سراً لا يعلمه كفار مكة إلا يوم أسلم عمر بن الخطاب ، وكانوا يخفون من أسلم حفاظاً عليهم ، ولذلك استمروا يؤدون مناسكهم ، وصلواتهم فى الشعاب ، ولم يتجمعوا عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر .

رغب المسلمون مرة فى إسماع القرآن الكريم أهل مكة عساهم يتأثرون ببلاغته ، ومعانيه ، فاجتمعوا لتدبير هذا الأمر ، فقالوا :والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعونى فإن الله سيمنعنى . ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴾ ، رافعاً بها صوته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾

فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟

ثم قالوا : إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً .

قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون [١] .

إن استضعاف المشركين لمن أسلم ، وإيذاء من يظهر منهم كان سبباً فى التدرج بالجهر بالدعوة ، ولذلك اتخذ الجهر مرحلتين .

إن موضوع الدعوة تحدد بدقة منذ اللحظة الأولي،وهو الدعوة إلي وحدانيــــة الله ، وقصر العبادة له سبحانه وتعالي،وكل ما جد في شأن الدعوة كان مع الوسائل ، والأساليب ، ولذا سأتناول في هذا المبحث الملامح التالية :ـــ

أولا ـ ظهور الجماعة المؤمنة :ـ

ظهرت الجماعة الإسلامية الأولي فى مكة ، وخرجت للعلن بعد أن جهر الرسول " ﷺ " بالدعوة ، وصارت تمثل كياناً له دينه ومرجعيته ، وعلمه ، وذاتيته .

إن العقيدة التي صدق بها هؤلاء السابقون إلي الإسلام ، هي الدين الذي آمنوا به ، وهي القاعدة التي طهرتهم ، وصهرتهم نظرياً وعملياً ، وجعلتهم يكونون المجتمع الإيماني علي قاعدة نظرية معرفية تحتم العمل والتطبيق .

إن التوحيد هو الحقيقة الكبري في الكون ، فالخالق تعالي واحد ، والكون بسننه ، ونواميسه واحد ، والإنسان في جوهره ، وغايته ، ووجوده واحد ، والكون بكامله يتجه إلي الله عز وجل اتجاهاً واحداً بالعبادة والطاعة : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [٢] ، وينبغي للإنسان أن يتجه إلي نفس الغاية والهدف ، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياع في مسيرة الحياة .

ولذلك نص القرآن المكي علي قاعدة الوجود الكبري ، وغاية الوجود الإنساني فى قوله تعالي : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [١] حيــث

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٤ .

[٢] سورة آل عمران آية (٨٣) .

[٣] سورة الذاريات آية (٥٦) .

ترسم الآية الإطار العام للعقيدة،والدائرة الشاملة للحياة البشرية ، وجعل كل الأعمال الظاهرة ؛ والباطنة عبادة لله تعالي .

ولم يكن صدفة أن يبدأ رسول الله " ﷺ " بتربية المجموعة الأولي علي تجريد التوحيد ، فرسخ في قلوبهم المعرفة الحقة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقديم بين يديه ؛ والرضا والتسليم بقضائه وقدره [١].

ومرجعية هذه الجماعة هي الوحي الإلهي، والرسول " ﷺ " بينهم ، يعلمهم ، ويبين لهم طرق العمل به ، والهداية بمنهجه ..

وقد تعلمت هذه الجماعة من القرآن الكريم الذي نزل عليهم أن هناك سنناً أرادها الله تعالي لمسيرة الحياة والأحياء ، لابد من تقبلها ، والتعامل معها ...ومن أهمها :-

أ ـ الإبتلاء والتمحيص :

إبتلاء المؤمنين بالأذي والاضطهاد سنة إلهية في الناس ، ليظهر الطيب والخبيث ، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي " ﷺ " : (ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى) [٢] ، ويقول الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [٣] .

وعلي هؤلاء المسلمين ؛ ومن يأتي بعدهم ضرورة تحمل الإبتلاء ، والصبر علي الأذي تمييزاً لهم ، وإظهاراً لصلابتهم ، يقول الله تعالي : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ

---

[١] منهج النبي " ﷺ " ص ٣٢ .

[٢] صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣ .

[٣] سورة العنكبوت الآيات (١ ـــ ٣) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [٤] ، ليبين دور الابتلاء في إظهار صلابة الرجال،وبروز مزايا المؤمن الصادق ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [١]

إنه ابتلاء يبرز الإيمان ، ويمحص الصادقين .

ب ـ التغيير يبدأ من الباطن :

الإنسان عقل وجسد ، وباطن وظاهر ، وتعاليم الإسلام شاملة لعناصر الإنسان جميعاً ، ولذلك نرى الدعوة قد بدأت بالجزء الهام في الإنسان وهو الباطن أساس التغيير،يقول الله تعالي : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [٢] وإذا تغير الباطن تغير الظاهر ، ودائماً تأتي النتائج تبعاً لأسبابها .

ج ـ أهمية الإعداد للنجاح :

يعتمد النجاح في أي مجال علي مقدمات لا بد منها ، ومن هذه المقدمات الاستعداد للعمل ، وإعداد العدة المكافئة له حتي لا يضيع المسلم في بيداء الحياة ، وصخبها،وهذا الإعداد متنوع تبعاً للعمل المطلوب،والغاية المقصودة ولذلك يقول الله تعالي : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [٣] .

---

[٤] سورة آل عمران آية (١٧٩) .

[١] سورة آل عمران آية (١٥٤) .

[٢] سورة الرعد آية (١١) .

[٣] سورة الأنفال آية (٦٠) .

إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفت الشروط والإعداد ، وأهمها الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره ، واتباع رسوله " ﷺ " ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [1] وقال ـــ جل ذكره ، : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [2] .

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3] .

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعة الحال ، وربما حلت الهزيمة ، لأن سنن الله تعالي لا تحابي، ولا تجامل أحداً من الخلق ، ولا تجاري أهواء البشر ، وإنما تساير أعمالهم،وإن الذين يرثون الكتاب وراثة بالاسم، وشهادة الميلاد ، ولا يترجمون ما فيه من الأوامر والنواهي عملاً سلوكياً ثم يقولون : سيغفر لنا ! لا يستجيب الله عز وجل لهم،حتي يعودوا إلي العمل بما أمرهم الله به فى كتابه المترل [4]

ثانيا ـ مواجهة الرسول قومه بالدعوة :

بعد أن أمر الله تعالي رسوله " ﷺ " بالجهر بالدعوة، وأن ينذر عشيرته القريبة منه ، على أن يبدأ بالأقرب إليه ،أخذ "ﷺ" يعد للأمر عدته ، ورأي أن أفضل وسيلة لذلك هي المواجهة المباشرة سواء بصورة فردية ، أو جماعية ، أو عامة .

يروي ابن الأثير أن **رسول الله "ﷺ" قال لعلي:يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ،فضقت ذرعاً،وعلمت أني متي أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره** [5]

---

[1] سورة محمد آية (٧) .

[2] سورة الصافات الآيات (١٧١ ـــ ١٧٣) .

[3] سورة الأنفال آية (٤٥ ، ٤٦) .

[4] حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١٠٢ .

[5] الكامل ج٢ ص ٦١ .

ولما مرض "ﷺ" وجاءته عماته يعدنه، قال لهن: ما اشتكيت شيئاً، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم، فإنه غير مجيبك .

فنراه " ﷺ " يخبر علياً وعماته بدعوته بصورة فردية ..

ومرة يجمع أعمامه ، ونفراً من بني المطلب بن عبد مناف ، حيث دعاهم إلي طعام ، وبلغهم بدعوة الله تعالي مرتين لأنه لم يتمكن من الحديث في المرة الأولي بسبب مقاطعة أبي لهب له ، ودعاهم في المرة الثانية .

جاء في الكامل لابن الأثير أنه لما أنزل الله علي رسوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ ﴾ اشتد ذلك عليه " ﷺ " وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماتــــه يعدنه، فقال : ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولاتدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك ، فدعاهم " ﷺ " .

فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً .

فبادره أبو لهب وقال : هؤلاء هم عمومتك، وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب لك بطون قريش، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله " ﷺ " ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة، وإلي الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم إلي ما تحب ، فامض

لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا [1] .

فقالت له أخته صفية ـــ عمة رسول الله ـــ " ﷺ " رضي الله تعالي عنها : أى أخي ، أيحسن بك خذلان ابن أخيك ، فو الله ما زال الناس يخبرون أنه يخرج من بني عبد المطلب نبي ، فهو هو .

قال أبو لهب : هذا والله الباطل، والأماني وكلام النساء في الحجال،إذا قامت بطون قريش، وقامت معها العرب،فما قوتنا بهم، فو الله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا [2] .

وهكذا دعا النبي " ﷺ " عشيرته الأقربين في جو أسرى خالص ، قائم علي المودة ، وروح القرابة ... **ودار نقاش في إطار هذا التجمع** .

كما وجه لهم **دعوة عامة** بأن نادى عليهم جميعاً من فوق الصفا ، فلما تجمعوا دعاهم إلي الله تعالى .

يروي المؤرخون أنه " ﷺ " لما نزل عليه قوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ صعد النبي " ﷺ " على الصفا ، فجعل ينادى : يا بني فهر ، يا بني عدى .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : أني نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

---

(1) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

(2) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص ٣١٥ .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ ، فنزل قوله تعالي : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ ﴾ [١] [٢] .

كما أن عدداً من أصحاب النبي " ﷺ " من الله عليه بالإسلام ، وهداه إلى الحق بإحدى طرق الهداية ، فمنهم من أسلم بعدما رأي من رسول الله " ﷺ " معجزة بهرته ، أو موقفاً حركه، أو دعوة من الرسول " ﷺ " استجيبت، كما حدث مع عبد الله بن مسعود ، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمر بن الخطاب ، وأم أبي بكر " رضي الله عنهم " .

يقول عبد الله بن مسعود : كنت غلاماً يافعاً ، أرعي غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى على رسول الله " ﷺ "، وأبو بكر " ﷺ " وقد فرا من المشركين ، فقالا : أعندك يا غلام لبن تسقينا ؟

قلت : إني مؤتمن ، ولست بساقيكما .

فقال رسول الله " ﷺ " : هل عندك من جذعة لم ينز عليهما الفحل بعد ؟

قلت : نعم ! فأتيتهما بها ، فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ رسول الله " ﷺ " الضرع ، ودعا فحفل الضرع ، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو ، وأبو بكر ، ثم سقياني ، ثم قال للضرع أقلص فقلص .

فلما كان بعد أتيت رسول الله "ﷺ" فقلت علمني من هذا القول الطيب ـــ يعني القرآن الكريم ـــ .

فقال له "ﷺ" : " إنك غلام معلم ، يقول ابن مسعود " فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد [٣] .

---

(١) سورة المسد آية (١ ، ٢) .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ١١٨ ـــ ١٢٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

وأما خالد بن سعيد بن العاص فلقد رأى فى المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم ، ويرى فى النوم كأن آت أتاه، يدفعه فيها، ويرى رسول الله " ﷺ " آخذاً بحقويه ، لا يقع ، ففزع من نومه ، فقال أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر بن أبى قحافة فذكر ذلك له ، فقال أريد بك خير ، هذا رسول الله " ﷺ " فاتبعه ، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام ، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله " ﷺ " وهو بأجياد ، فقال يا رسول الله ، يا محمد إلي ما تدعو ؟

قال : أدعوك إلي الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ، ولا يضر ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، ولا يدرى من عبده ممن لا يعبده .

قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله " ﷺ " بإسلامه ، وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه ، فأرسل فى طلبه فأتى به ، فأنبه وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه ، وقال : والله لأمنعنك القوت .

فقال خالد : إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به ، وانصرف إلي رسول الله " ﷺ " فكان يكرمه ويكون معه [١] .

وهكذا تكاثر المسلمون ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم لدرجة أن أبا بكر الصديق " ﷺ " أخذ يلح على رسول الله " ﷺ " بإظهار الإسلام ، وتوسيع دائرة التحرك به ، وإعداد المؤمنين لتحمل ما يصيبهم من الضرر والأذى .

ورؤية أبى بكر فى المجاهرة والمواجهة لها ما يبررها ، فلقد أحس من كفار قريش قلقاً من زيادة عدد المسلمين دفعهم لتشديد الأذى، والتعنت مع كل من يسلم، ومن المعلوم أن الطغاة يضاعفون عدوانهم كلما رأوا من خصومهم خنوعاً

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

واستسلاماً ، فأراد أبو بكر " ﷺ " أن يبرز لهم من نفسه قوة ، فمنعهم من العدوان وخوفهم من أذى المسلمين .

وفى هذه الحالات تبرز أهمية المواجهة لأنها تحد من غلواء المعتدى ، وتظهر رجالاً ، يتحمسون للحق ، ويدخلون فى الإسلام فينتصر الإسلام بهم .

وقد أراد الله تعالى إظهار الإسلام كطلب أبى بكر " ﷺ " ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إنتصار المسلمين ، وخزى الكافرين .

إن المسلمين الأول لم يكونوا على مستوى واحد من المواجهة ، فمنهم من كان تحميه قبيلته ، ومنهم المتميز بالجرأة ، والصلابة ، وقوة الشكيمة ، والقدرة على المواجهة ... ولذلك ألح أبو بكر " ﷺ " على رسول الله " ﷺ " فى الظهور .

فقال له رسول الله " ﷺ " : يا أبا بكر إنا قليل .

فلم يزل أبو بكر يلح على رسول الله " ﷺ " ، حتى أذن له "ﷺ" ، فأظهـره "ﷺ" وحده ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته .

وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله " ﷺ " جالس فكان أول خطيب دعا إلي الله وإلي رسوله " ﷺ " .

وثار المشركون على أبى بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوا من وجدوه فى المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزل على بطن أبى بـكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب ، حتى أدخلوه منزله ؛ ولا يشكون فى موته .

ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ابن ربيعة ، فرجعوا إلي أبى بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئاً ، أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

فقالت : والله مالي علم بصاحبك .

فقال : اذهبى إلي أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل

فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ! ! .

قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

قالت : هذه أمك تسمع .

قال : فلا شئ عليك منها .

قالت : سالم صالح .

قال : أين هو ؟

قالت : فى دار ابن الأرقم .

قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً،ولا أشرب شراباً،حتى أرى رسول الله " ﷺ " ، فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله " ﷺ " ، فأكب عليه رسول الله " ﷺ " فقبله، وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله " ﷺ " رقة شديدة ، فقال أبو بكر بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلي الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا

لما رسول الله " ﷺ " ودعاها إلي الله فأسلمت ، وأقاموا مع رسول الله " ﷺ " فى الدار شهراً [١] .

وأراد الله للمسلمين قوة ، فجعل من اشتداد أذى قريش للمسلمين سبباً فى إسلام حمزة عم رسول الله ، وعمر بن الخطاب " رضي الله عنه "، وهما من فتيان مكة ، اللذين اشتهرا بالشجاعة ، والبأس ، وكان القرشيون يهابالهما لقوتهما .

يسوق ابن إسحاق قصة إسلام حمزة فيقول : أن أبا جهل مر برسول الله " ﷺ " عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله " ﷺ " ، ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلي ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب " رضي الله عنه " أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجعَ من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله " ﷺ " إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمداً آنفاً من أبى الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالساً فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه، و لم يكلمه محمد " ﷺ " .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى، و لم يقف على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت ، فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل " دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، واستمر حمزة " رضي الله عنه " على

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله " ﷺ " من قوله ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله " ﷺ " قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [١] .

وزاد غير ابن إسحاق أن حمزة لما أسلم كان منفعلاً،مندفعاً ، وأدركه الندم ، على تسرعه ، يقول حمزة " ﷺ " : أدركني الندم على فراق دين آبائى وقومى ، وبت من الشك فى أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة، وتضرعت إلي الله سبحانه أن يشرح صدرى للحق ، ويذهب عني الريب ، فلما استتممت دعائى إنزاح عني الباطل ، وامتلأ قلبي يقيناً، فغدوت إلي رسول الله " ﷺ " فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعا لى بأن يثبتني الله [٢] .

وأسلم عمر بن الخطاب " ﷺ " أيضاً فى وسط التشدد والاضطهاد للمسلمين ، يروي ابن إسحاق بسنده قصة إسلام عمر فيقول : وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام ، رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله " ﷺ " ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له ، أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ، ونساء ، ومع رسول الله " ﷺ " عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، فى رجال من المسلمين " رضي الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله " ﷺ " بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

---

(١) سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج١ ص ٢٩١ .

(٢) سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ .

ولقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك مـــن نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة ، فيها : ﴿ طه ۝١ ﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خبابٌ فى مخدع لهم ، أوفى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .

فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

قالا له : ما سمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وراجع نفسه ، وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ؟ ! ، وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى، إنك نجس، على شركك ، وأنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها ﴿ طه ﴿١﴾ ﴾ فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيــــه ، فإنى سمعته "ﷺ" أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر " فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله " ﷺ " وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله " ﷺ " وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله " ﷺ " : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله " ﷺ " حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله " ﷺ " تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله " ﷺ " أن عمر قد أسلم [١] .

---

[١] سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ ـــ ٣٤٦ .

وبإسلام حمزة " ﷺ " وعمر " ﷺ " بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ، لأنهما لم يرتضيا لدينهما هذا الاستتار ما دام هو الحق .

وقد سأل عمر عن أكثر الناس قولاً ، وأفشاهم للحديث، وعلم أنه جميل بن معمر الجمحي فأتى إليه ، وأخبره بأنه أسلم ، فصاح جميل بأعلى صوته : إن ابن الخطاب صبأ .

وذهب إلى أبي جهل وأخبره بإسلامه .

وأراد كفار مكة قتل عمر فأجاره العاص بن وائل السهمى ، يروى البخاري بسنده أنه بينما كان عمر بن الخطاب فى الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمى ـــ أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة، وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : مالك يا عمر ؟

قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلونى إن أسلمت .

قال : لا سبيل إليك ، وبعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال : أين تريدون ؟

فقالوا : هذا ابن الخطاب الذى قد صبأ .

قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس [1] .

وكان إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام ، وبذلك بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى الله تعالي ..

لقد تم الانتقال إلى هذه المرحلة فى وقت كان كفار مكة يخططون للقضـــاء على الإسلام والمسلمين بعدما شعروا بخطورة الإسلام على وضعيتهم فى مكة .

- هل كان يتصور كفار مكة أن ينقلب حمزة عليهم بهذه الصورة المفاجئة ؟ ! !
- وهل توقعوا أن يتبعه عمر ، ويعلن إسلامه بعده بثلاثة أيام فقط ؟ !

---

[1] المنهج الحركي ج ١ ص ٨١ .

- وهل ظنوا مرة أن يجير العاص بن وائل عمر وينقذه منهم ، وقد كادوا أن يفتكوا به ؟ ! !
- وهل دار بخلدهم أسرار هذه المواقف المفاجئة ، وفى هذا الوقت بالذات ؟ ! !

لم يفكروا فى شئ من ذلك ، ولم يتوقعوه ، لأنهم لم يتصوروا القدر الإلهى ، ونصره لعباده المؤمنين .

إن عقول البشر جميعاً تعجز عن تصور أى شئ من هذه القضايا،ولا تقدر على اكتشاف شئ من أسرارها ، وكل ما تصوره أهل مكة ، عن محمد "ﷺ" ودعوته وعن المؤمنين به عكس ما حدث ، لأن المواجهة وقتها تصاعدت وتضخمت ، والتخطيط لقتل محمد ومن معه أمر موجود .

لكن إرادة الله غالبة ، وقدرته لا حدود لها ، ففى وسط الضعف تبرز قوة ، ومن ثنايا الجبروت والطغيان يأتى العدل والحق ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

المبحث السادس

مرحلة الجهر العام بالدعوة

أكرم الله تعالي المسلمين فى مكة بإسلام حمزة بن عبد المطلب " ﷺ " وعمر ابـن الخطاب " ﷺ "،فلقد أعز الله بهما الإسلام،وقوى المسلمون،يقول صهيب بن سنان " ﷺ " : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطفنا بالبيت،وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به [(١)] .

ويقـول عبد الله بن مسعود " ﷺ " : مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر [(٢)] ، يروى إبن إسحاق أنه لما أسلم عمر نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسـلام عمر، وهو الفاروق ، لأنه كان سبباً فى التفريق بين عهدين ، لأنه لما أسلم قال لرسول الله " ﷺ " : ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟

قال " ﷺ " : بلى .

قال عمر : ففيم الاستخفاء ؟ ! [(٣)] .

وأصـر عمر " ﷺ "على أن يخرج المسلمون من دار الأرقم جهاراً ، معلنين إسلامهم ، فخرجوا فى صفين فى أول الصف الأول عمر ، وفى أول الثاني حمزة وهم يهللـون ، ويكـبرون ، ولهم دوى كدوى الرحى ، حتى دخلوا المسجد الحرام بهذه الصورة الجهرية الجماعية، ولذلك قال " ﷺ " : **إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه** [(٤)] .

والفـرق واضح بين إظهار أبى بكر للإسلام وبين إظهاره بعد إسلام عمر ، لأن إظهار أبا بكر كان فردياً ، أما بعد إسلام عمر فكان إظهاراً جماعياً قام به المسلمون

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٨ .

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٥٢ .

وخرجوا من دار الأرقم يهللون ويكبرون .

وهكذا

بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة،يصدع بها رسول الله " ﷺ " وصحابته " رضوان الله عليهم " ، وينادون بها قولاً ، وعملاً ، في بيوتهم ، وفي كل مكان ، وعند البيت .

لقد حاول أبو بكر " رضي الله عنه " إظهار الدعوة بالبيت قبل ذلك فأوذى إيذاءً شديداً [1] ، فلما أسلم حمزة وعمر حقق المسلمون ما تمناه أبو بكر قبل ذلك .

وشعر كفار مكة بخطورة الإسلام لما رأووا من قوة أتباعه ، وكثرة معتنقيه ، وشدة إخلاصهم لما يؤمنون به ، وحينئذ شددوا في الاضطهاد ، والأذى .

والفرق بين الجهر الأول ، والجهر الثاني أن الجهر الأول كان خاصاً بالدعوة يقوم به رسول الله "ﷺ" علانية ، بينما الجهر الثاني صار عاماً يقوم به الرسول "ﷺ" وأصحابه القادرون على التبليغ ، كما أن السرية ظلت ملازمة لتحرك المسلمين في المرحلة الأولى وهم يتعلمون الإسلام من رسول الله"ﷺ" في دار الأرقم، وفي الشعب ، أو في الأماكن النائية ، أما في المرحلة الثانية فقد أخذ المسلمون يظهرون مناسكهم في الأماكن العامة ، عند الكعبة ، وفي أماكن العمل ، وصاروا يجتهدون في إبراز الإسلام في عملهم ، ونسكهم ، وخلقهم .

ولهذا...

كانت الحركة بالدعوة في المرحلة الأولى أشبه بحركة المرحلة السرية ، أما مرحلة الجهر العام فكان لها طابعها الخاص في الدعوة إلى الله تعالي .

* * *

---

[1] أنظر ص ٤٧٣ وما بعدها .

المبحث السابع

الحركة بالدعوة

خلال مرحلة الجهر العام

أدى تغـــير صورة الجهر العام عن المراحل السابقة إلى أن أخذ طابع الحركة بالدعوة صوراً عديدة ، منها القديم ، وفيها الجديد .

فمع ثبات المضمون الفكرى للدعوة إلا أن بقية الجوانب قد تغيرت . .

فلقـــد تنوعـــت الوســـائل ، وأصبحت شاملة لكل وسيلة ممكنة ، وتغيرت الأساليب ، وصارت ملائمة للمدعوين مع تعدد مذاهبهم ، وأماكنهم ، ولهجاتهم .

وقد اضطر رسول الله "ﷺ" والمسلمون معه إلى مواجهة الاضطهاد الذى يقع عليهم من أهل مكة بما أمكنهم فى إطار ماهم فيه من قلة ، وضعف .

وذلك سيتناول هذا المبحث المسائل التالية : ـــ

المسألة الأولى

تنوع وسائل الدعوة

لم تعد وسائل الدعوة قاصرة على الاتصالات الشخصية، والمواجهة المباشرة ، وإنما رأيناها ظهرت فى صور عديدة ، ومختلفة ، ومن أهمها :

أولا : الاتصال بصوره المختلفة

يرى علماء الاتصال فى العصر الحديث أن صور الاتصال التى يتم بها التوجيه والدعوة ، تنحصر فى ثلاث صور رئيسية هى : ـــ

أ ـ الاتصال الشخصى :

وهو الذى يحدث بين فرد وفرد ، أو بين فرد وعدد قليل، وهذا الاتصال يتم بصـــورة تلقائية ، لما بين أفراد هذا الاتصال من معرفة مسبقة، وتلاق عادى كالرجل وبنيه ، والإنسان وجاره ، والعامل وزملائه ، والطالب وإخوانه ، وهكذا ...

ويتميز هـذا اللون بأنه اتصال هادئ ، يقوم على الثقة ، وتبادى الرأى فى وضوح ، وبساطة ، ورد الفعل واضح عند الطرفين، لأنه يتم مباشرة بين الأطراف من غير واسطة ، وبلا سابق إعداد، وفى موضوعات شتى ، والدعاة إلى الله تعالى يستفيدون بهذا الاتصال ، ويجعلونه طريقاً لدعوتهم التى يبرزونها لمعاشرتهم بالقول؛ أو بالعمل؛ أو بالتأمل والتفكير المشترك ..

وهـذا الاتصال يفيد فى نطاق المجتمع الصغير ، والبدائى ، كالأسرة، ورفاق المسجد ، والقرية ، وجماعة العمل ، وفريق اللعب ، وهكذا ..

ب ـ الاتصال الجمعى :

وهـو الاتصال الذى يتم بين القائم به وبين جماعة من الناس ، بعد إعداد، وتنظيم يشمل المكان ، والزمان ، والموضوع .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم مواجهة ، وبطريقة مباشرة ، لأن الإعداد والتنظيم يجمع أفراداً تقاربت ثقافتهم ، واهتماماتهم ، ونشاطهم العام ، وكل هذا يساعد على وضوح الرؤية ، ومعرفة مدى استجابة الجماعة لتوجيهات القائم بالاتصال .. ومن أمثلة هذا الاتصال تجمع الناس لخطبة الجمعة ، أو لسماع درس ، أو لمناقشة قضية مثارة ، أو لحل مشكلة تهم المجتمعين .

ج ـ الاتصال الجماهيرى :

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم بالاتصال وبين جمهور عريض غير محدد ، وبطريقة غير مباشرة ، ويتميز هذا الاتصال بسعته ، وسرعة انتشاره ، وبتخطيه للحواجز المادية ، ووصوله لكل الناس فى مختلف أحوالهم ، وأماكنهم، وأعمالهم ، ومن صور هذا الاتصال ، النشرات التعليمية ، والكتب المؤلفة، وتوجيهات الصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية ، وأشرطة التسجيل ، وهكذا ..

ومع تميز هذا الاتصال بالسعة والتنوع فإنه يحتاج لبذل مالي،وعملى فى إعداد رسائله،ومعرفة مدى استجابة الناس لما يطلب منهم ، والوقوف المباشر على تساؤلاتهم

واستفساراتهم ، والتأكد من وصول الأفكار إليهم على الصورة المطلوبة .

تلك هي صور الاتصال الممكنة ، التي تحدث عنها علماء الإعلام في العصر الحديث ، وقد أحاطوها بهالة تفيد أنها من مستحدثات العصر ، ومخترعات الحضارة الحديثة ، برغم ذلك نقول ، وبكل وضوح : **إن رسول الله " ﷺ " استخدم هذه الصور الثلاث** وهو يدعو الناس خلال مرحلة الجهر بالدعوة . .

فبالنسبة للصورة الأولى : نرى أنه " ﷺ " استخدم وسيلة الاتصال الشخصي مع أهل بيته ، وأقربائه ، وأصحابه الذين أسلموا ، حيث كان يلتقى بهم بصورة تلقائية، عدداً من المرات، في اليوم الواحد ، وكان " ﷺ " يسائلهم عن أحوالهم ، ويجيب لهم عن ما يعن لهم ، ويؤمهم في الصلاة،ويبلغهم ما نزل من وحى ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويحثهم على الصبر والتحمل ، ويشد من أزرهم .

وكان " ﷺ " يقابل غير المسلمين المعروفين له ، يدعوهم إلى الله تعالي ، ويدور عليهم في بيوتهم ، وأماكن تواجدهم في مكة ، أو حولها ، وكان كلما قابله واحد يعرفه في الطريق ، أو عند البيت، حراً أو عبداً ، ضعيفاً أو قوياً ، غنياً أو قوياً ، إلا ويعرض عليه دعوة الله تعالى ، ويطلب منه الدخول في دين الله تعالي .

وكان " ﷺ " يتبع الناس في مجالسهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم، والأسواق ليدعوهم إلى الله تعالي بالحسنى، وبالخلق الكريم .

وكان " ﷺ " يشرك من يدعوه في تناول قضية الدعوةمن أجل إقناعه بالحسنى ، وذلك أمر مهم في حركة الدعوة ، لأن الدعوة ليست تسلطاً واستعلاء ، وليست احتقاراً لعقل الناس،وليست استهانة بقدراتهم على التصور، والحكم السليم .

أنظر إليه "ﷺ" وهو يدعو الحصين والد عمران ، حيث تراه يستدرجه إلى الحق ، ويضعه أمام اعتراف صريح بالإيمان ، فقد أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين ـــ وكانت تعظمه ـــ

فقـــالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبى "ﷺ" .

فقال النبى "ﷺ" : أوسعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون .

فقـــال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك : إنك تشتم آلهتنا ، وتذكرهم ، وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟

فقال "ﷺ" : يا حصين ! إن أبى وأباك فى النار ، يا حصين ! كم تعبد من إله ؟

قال : سبعاً فى الأرض وواحداً فى السماء .

قال "ﷺ" : فإذا اصابك الضر من تدعو . قال : الذى فى السماء .

قال "ﷺ" : فإذا هلك المال من تدعو ؟

قال : الذى فى السماء .

قال "ﷺ " : فيستجيب لك وحده ، وتشركه معهم ، ، أرضيته فى الشكر ، أم تخاف أن يغلب عليك ؟

قال : ولا واحدة من هاتين ، وقد علمت أنى لم أكلم مثله .

قال "ﷺ" : يا حصين ! أسلم تسلم .

قال : إن لى قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال "ﷺ" : قل : اللهم ، أستهديك لأرشد امرى وزدنى علماً ينفعنى ، فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم ، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبى "ﷺ" بكـــى وقال : بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلنى من ذلك الرقة ، فلما أراد حصين أن يخرج قال "ﷺ " لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ وتفرقوا عنه [١] .

ونراه "ﷺ " يعيش مع واقع حصين ، ويسائله فيها إلى أن تحقق لدعوته ما يريد .

---

[١] حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥ .

إن الدعوة فى حد ذاتها تقدير للإنسان ، وتوجيه أمين للفكر والعقل ، وإيقاظ للفطـرة، وللإنسانية السليمة ، وبذلك يتم الإيمان بالإقتناع والفهم ، ويرتبط المسلم بدينه حباً، وولاءً، وطاعة .

وبالنسبة لصورة الاتصال الثانية : وهى الاتصال الجمعي نرى أنه" ﷺ " استفاد بها ، فلقد كان " ﷺ " يتخير الجماعة القليلة العدد ، المتفقة اتجاهاً ، الموحدة اهتماماً ، ويعد لهم اجتماعاً منظماً ، فى جو من الود والمحبة لما بين الرسول " ﷺ " وبين هذا الجمع من صلات القربى ، والمعاشرة ، والقومية وغير ذلك .. كما حدث بعـد أن أمر بالجهر بالدعوة فإنه " ﷺ " أمر علياً ابن عمه ، بأن يعد طعاماً ، وشراباً لأعمامـه ، وعماتـه ، وقد تكرر هذا التجمع بين الرسول " ﷺ " وبين أعمامه ، وعماته . ومن خلال هذا الاتصال اتضحت مواقف كل طرف ، وظهر خط كل فرد فقد أعلن أبو لهب عصيانه ، وتصديه للدعوة ، وأعلن أبـو طالب وقوفه مع الرسول " ﷺ " وحمايته له غير أنه سيستمر على دين أبيه، ومن هذا القبيل أن رسول الله "ﷺ" كـان يعـرض الإسلام على من يعرفهم ، ولو كانوا أعداء، فلقد اجتمع عند ظهر الكعبة مع صناديد مكة، وهم عتبة، وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلاً من بنى عبد الدار ، وأبا البخترى أخا بنى الأسد ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنى الحاج السهميين [١].

والاتصال الجمعي : وسـيلة تحتاج إلى الإعداد الجيد ، لأن الرسول أو الداعـية يعرف مقدماً الهدف الذى من أجله كان تنظيم هذا الاتصال ، ولذلك لزم إعداد الموضوع ، وعرضه بطريقة مقنعة ، ترضي المستمعين .

وعـلى مـنظم هذاالاتصال أن يتوقع المعارضات العديدة لموضوعه، ليستعد بالشرح ، والتفصيل ، وتفنيد المزاعم التى قد تظهر فى اجتماعـه، أنظر إلى رسول الله

---

(١) انظر ص ٤٧١ .

"ﷺ" وهـــو يدعـــو أبا جهل ومعه المغيرة بن شعبة .... يقول المغيرة : إن أول يوم عرفـــت فيه رسول الله "ﷺ" أني كنت أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله "ﷺ" فقال رسول الله"ﷺ" لأبي جهل : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ ... هل تريد إلا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ ... فنحن نشهد أن قد بلغت ، فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك .

فانصرف رسول الله "ﷺ" وأقبل على أبي جهل فقال:والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شئ،إن بني قصى قالوا:فينا الحجابة ، فقلنا : نعم،ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ،ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل [1] .

وبالنسبة للصورة الثالثة :

وهى التى تعرف بالاتصال الجماهيرى ، فقد استعملها النبى " ﷺ " ، ورجا من ورائها أن يصل الإسلام إلى الجماهير الغفيرة من الناس .

لما جهر الرسول " ﷺ " بالدعوة ، ورغب فى دعوة أهل مكة جميعاً استعان بهذه الوسيلة الجماهيرية ، فصعد على الصفا ، وأخذ ينادى فى الناس فعم ، وخص ، ونـــادى بطـــون قريش بطناً بطنا ، فجعل الواحد منهم إذا لم يجد وقتاً ، أرسل من يعرف له الخبر ... وهكذا تواجدت مكة كلها عند الصفا [2] .

وخرج "ﷺ" عند المروة بعد نزول قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ثم قال : يا آل فهر ، فجاءته قريش فقال أبو لهب بن عبد المطلب : هذه فهر عندك

---

[1] حياة الصحابة ج ١ ص ٦٥ .

[2] أنظر ص ٤٧٤ .

فهر ، فقال : يا آل غالب ، فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر ، فقال : يا آل لؤى ابن غالب ، فرجع بنو تميم الأدرم بن غالب ، فقال : يا آل كعب بن لؤى ، فرجع بنو عامر بن لؤى ، فقال : يا آل مرة بن كعب ، فرجع بنو عدى بن كعب وبنو سهم وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، فقال : يا آل كلاب بن مرة ، فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة ، فقال : يا آل قصى ، فرجع بنو زهرة بن كلاب ، فقال : يا آل عبد مناف ، فرجع بنو عبد الدار بن قصى بنو أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو عبد بن قصى ، فقال رسول الله "ﷺ" : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم العرب وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تبا لك فلهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ ﴾[1] .

ووصلت الدعوة إلى كل أهل مكة ... ولذلك عدت هذه الطريقة اتصالاً جماهيرياً .

وكان "ﷺ" يوجه أصحابه إلى هذه الطريقة ويقول لهم : ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

* * *

---

[1] حياة الصحابة ج ١ ص ٧٢ .

ثانيا

الدعوة بالحوار والمفاوضة

دعا الرسول " ﷺ " بهذه الوسيلة أملاً فى إسلام من يفاوضهم ، ويحاورهم .

وهـــذه الوسيلة تختلف عن الاتصال الجمعي فى أنها قد تكون تلقائية ، وقد تكـــون بإعداد وتوجيه من المدعوين لا من رسول الله " ﷺ " ، وحينئذ يأتى الرسول أو الداعية للمفاوضة ، وهو لا يعرف موضوعها ، وكل ما فى ذهنه ، وكل ما يأمله هو عرض الدعوة ، وإيمان الناس بها .

وكـــان رسول الله " ﷺ " يؤمل فى المفاوضات ، ويرجو أن تكون سبباً فى إسلام أهل مكة . .

يروى ابن كثيراً صوراً لهذه المفاوضات، ومنها أن أشراف مكة اجتمعوا عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه، فجاءهم رسول الله " ﷺ " سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره شيئاً ، وكان حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .

فقـــالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخـــل عـــلى قومـــه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وســـفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك [١] .

ثم عرضوا أن يحققوا له المال ، أو الملك ، أو الشرف ، أو الزوجة الجميلة ، إن كان هو ما يعمل له .. فأجابهم " ﷺ " : ما بى ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم بـــه أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً،وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربى ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا [١]، وحاجتنا شديدة إلى المال ، والماء ، والعطاء ، وأخذوا يطلبون أموراً حسية تاتيهم على وجه خارق للعادة ..

فمرة يقولون : سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن فعلت ما سألناك، وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله،وأنه بعثك رسولاً كما تقول [٢] .

ومرة ثانية يقولون :سل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جناناً، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب، وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنا نراك تقوم فى الأسواق، وتلتمس المعاش ،كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم [٣] .

ومرة ثالثة يقولون : أسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

واستمر أهل مكة فى هذه العروض لا يقصدون من ورائها سوى السخرية ، وإضاعة الوقت ، والرسول يقول لهم فى كل مرة : ما بهذا جئت ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم [٤] .

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

[٢] البداية والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

[٣] البداية والنهاية ج ٣ ص ٥١ .

[٤] البداية والنهاية ج٣ ص ٥٠ ، ٥١ .

ورغم مقصد أهل مكة من هذا الحوار ، إلا أنه يعتمد على أسلوب بياني له فوائده ... فهم يعرضون قضيتهم ، ومزاعمهم ، مع شبههم ووجهة نظرهم ، والرسول "ﷺ" يسمع ، ويرد عليهم فى حلم ، ورفق بما يرد طلبهم ، ويحدد لهم ما يدعوهم إليه .

إن وسيلة المفاوضة تتميز بإظهار مراد كل طرف منها ، ونظرته إلى الطرف الثاني ، ومنهجه فى العرض والرد ... ولذلك اتخذها الرسول "ﷺ" وسيلة لعرض الإسلام .

ويبدو أن هذه المفاوضات تعددت مع النبي "ﷺ" ، وقام بها غير واحد من القرشيين ، وكلها تتجه وجهة معينة ، فقريش تبرز ما حل بها بسبب الدعوة ، وتحاول صرف النبى "ﷺ" عنها بإغرائه بكافة ألوان الإغراء ، مع تهديده ، وتخويفه ، إن لم يتفق معهم ، والنبى "ﷺ" يرد بالوحى المنزل عليه ، ويقرأ عليهم من القرآن ما يناسب المقام، ليبين حقيقة الدين الإلهى، فى أنه منزل من الله ، وحقيقة القرآن العربى المبين، وحقيقة الرسول الداعية، مع إنذارهم بالويل ، والثبور إن لم يؤمنوا بالإسلام ، وتذكيرهم بما حل بمن سبقهم ، وهم على علم به .

لقد قام الرسول "ﷺ" خلال هذه اللقاءات بالدعوة إلى دينه ، حيث كان يسمع لمقالة القوم ، وشبههم ، ومزاعمهم ، ثم يكر بالنقض والرد .

إنه رسول يحمل رسالة ، وكتاب ربه معه يهدى به من ضلال ، وينقذه من خبال ، وإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا، ويستغفروا فمحمد الرسول عبد بشر ، وهو أول من يستقيم لربه، ويستغفر ، إنه لا يحتاج لمال، ولا لملك ، ولا لجاه ، فقد استبان له الطريق ، ووضحت أمامه معالم الهدى ، وتيقن من كل ما نزل عليه .

إنه "ﷺ" متمسك برسالته ، ومستمر فى الدعوة لها بالحسني، واللين ، والحجة ، والبرهان ، والبصيرة ، والوضوح .

وهكذا كانت المفاوضات وسيلة للدعوة إلى الله تعالي ، يقول الإمام ابن كثير : (اعترض المشركون على رسول الله وتعنتوا في أسئلتهم له ، حيث طلبوا أنواعاً من الآيات، وخوارق العادات على وجه العناد ، لا على وجه الطلب والإرشاد ، وكان الرسول يسمع منهم، ويرد عليهم، بالرفق واللين، ويبين لهم خطأ جدلهم وعنتهم)[١]

ثالثا

الدعوة بالانتقال إلى القبائل ودعوتهم

وكان رسول الله يذهب إلى قبائل العرب ، وبطونهم ، يدعوهم إلى الله بالحكمة واللين ، وكان ينتهز المواسم ، والأسواق ، ويذهب إلى القبائل في اجتماعهم ويدعوهم ، يقول الزهري : كان رسول الله " ﷺ " في تلك السنين يعرض دعوته على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلم شريف كل قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويسمعوا له ويقول : (**لا أكره أحداً منكم على شئ ، من رضى بالذى أدعوكم إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه .. فلم يقبل أحد منهم ، وما بات أحد من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعرف به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه، ولفظوه**)[٢] .

وقد ذكر الواقدى البطون والأفراد الذين ذهب إليهم رسول الله"ﷺ" ودعاهم إلى الإسلام ، وعدهم واحداً واحداً ، موضحاً مواقفهم .

وأهم هذه الانتقالات من أجل الدعوة ذهاب النبى " ﷺ " إلى الطائف لدعوة بني ثقيف إلى الإسلام حيث عرض عليهم أن يأوى إليهم ويكون معهم إذا أسلموا ، لكنهم ردوه رداً قبيحاً ، وسلطوا عليه سفهاءهم وأطفالهم ، فرموه بالحجارة ، وطردوه من ديارهم وحيداً لا يجد لنفسه نصيراً من الناس ، ولا مأوى في ديارهم[٣]

---

[١] أنظر : البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٩ — ٥٣ .

[٢] المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٠ .

[٣] أنظر ص ٣٦٢ .

فاتجـــه إلى الله قائلا : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. أنت أرحم الراحمين،أنت رب المستضعفين، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ ! إلى بعيد يتجهمنى ! أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ !

إن لم يكـــن بـــك غضب على فلا أبالي ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1] .

وكان نصر الله مع رسول فى هذه الشدة فاستجاب له الدعاء ، فآمـــن به " عداس " ، ولما اتجه إلى مكة أجاره " المطعم بن عدى " ، فدخل مكة فى جواره[2] .

إن الانتقال بالفكرة برهان على أهميتها ، واهتمام صاحبها بها ، وهذا فى حد ذاته يدفع العقلاء إلى الاستماع ، والمعرفة ، والفهم .

وهكذا استعمل رسول الله " ﷺ " وسيلة الانتقال من أجل الدعوة وتبليغ الرســالة لمــا لها من أهمية فى مباشرة التوجيه ، ومعرفة موقف المدعوين ، والرد على تساؤلاتهم واستفساراتهم، وكان النبى لا يفرق بين قوم وقوم،ولا بين مكان ومكان ، بــل كان يتجه كلما أمكنه ذلك ... ولعل ذهابه إلى الطائف سيراً على قدمه ذهاباً ورجوعاً، دليل على ذلك ، وعلى مدى ما تحمله الرسول للدعوة بهذه الوسيلة .

رابعا

الدعوة بمقابلة الوفود

استقبال الوفود، لاحاطتهم بالأمور التى وفدوا من أجلها، أسلوب انتشر بعد صلح الحديبية لكثرة الوافدين ، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الوسيلة لم تظهر قبل صلح الحديبية .

---

(١) الكامل ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) أنظر ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

لكن ذلك ليس صحيحاً،فلقد ظهرت هذه الوسيلة قبل الهجرة ..

وأهمية هـذه الوسـيلة تبرز فى أنها تبلغ قوماً جاءوا يبحثون عن الحقيقة ، ولديهـم رغبة فى الاستماع إليها، كما أن هؤلاء الوافدين لا يثقفون فيما لديهم من مذهب، أو خبر ، ويريدون أن يسمعوا الحقيقة من مصدرها ، وبخاصة أن أهل مكة ، وأعداء الدعوة أخذوا فى ترويج الإشاعات، ونشر الأكاذيب حول محمد ودعوته . . ولـذا جـاءت الوفود للرسول نفسه بعيداً عن قالة السوء ، ومروجى الإشاعات ، وناقلى الأخبار الكاذبة .

ومجـئ الوفد دليل على رجحان عقل أصحابه ومن وراءهم ، فهم من أجل الوصـول لـلحق والصواب جاءوا متحملين للمشاق ، باذلين من وقتهم وجهدهم وما لهم الكثير فى سبيله .

إن الغالبية العظمى للوفود التى وفدت على رسول الله " ﷺ " ، فى مكة أو فى المدينة ، كانت خيراً لأصحابها، إذ دخلوا فى الإسلام بعد أن عرفوه، وعلموا حقيقته .

وأول وفد جاء للنبى " ﷺ " وهو فى مكة،وفد نصارى الحبشة حيث قدم على رسول الله " ﷺ " عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك فكلموه ، وسألوه،وتحدثوا معـه (ورجال من قريش يرقبونهم)،لما فرغوا من أسئلتهم،واستفساراتهم،استمعوا لرسول الله يحدثهم فيما أرادوا،ويدعوهم إلى الإسلام،ويقرأ عليهم القرآن،حتى فاضت أعينهم من الدمع،وآمنوا،وصدقوا،ودخلوا فى دين الله تعالى،فلماقاموامن عنده" ﷺ "،اعترضهم أبـو جهل ونفر من قريش،وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب،بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم، فتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال لكم، ما نعلم ركباً أحمق منكم .

فـردوا عليهم:لا نجاهلكم،سلام عليكم،لنا أعمالنا،ولكم أعمالكم،لانألوا أنفسـنا خيراً [1] .

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٢ .

ومن أشهر الوفود التي قدمت إلى مكة وفد الأوس والخزرج الذين جاءوا إلى رسول الله وقابلوه عدداً من المرات وبايعوه بيعتين عند شعب العقبة ، تعرفان ببيعة العقبة الصغرى ، وبيعة العقبة الكبرى، حيث اتفق النبى " ﷺ " فى البيعة الثانية على أن يهاجر والمسلمين إلى المدينة ، على أن يمنعه أهلها بما يمنعون به نساءهم، وأبناءهم ، وأموالهم ، واختار منهم أثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس يكونون على قومهم بما بايعوا عليه [١] .

ويعد وفد الأنصار هذا من أكثر الوفود تأثيراً فى مسار حركة الدعوة، فبه نشأت قوة الإسلام فى المدينة ، وكانت الهجرة ، وكانت الدولة الإسلامية .

إن استقبال الباحث عن الحقيقة يحتاج لداعية كفء يفهم قضيته ، ويعرف طرق عرضها الحسن ، ويجيد التعامل مع الوافد ذى الثقافة المعينة ، والبيئة الخاصة ، والتقاليد المتنوعة .

ولقد كان رسول الله " ﷺ " بمعونة الله له يتعامل مع الوفد بطريقة حكيمة حسنة تؤدى إلى النتائج التي يرجوها المخلصون ، والبحث عن الحقيقة موجود دائماً ، وتصورات العقول يشوبها الشك كثيراً وهى تريد الوصول لليقين ، والمشكلة تكمن فى وجود أشخاص يتعاملون مع الواقع،ويطوعون القضايا ، ويوجهونها نحو الصواب ، ويجيدون فهم الدعوة ، وحسن عرضها على الأفهام .

ولقد كان " ﷺ " نموجاً عالياً فى الاستفادة بهذه الوسيلة ، لأن القبائل كانت تتخير أعلم أبنائها ، وأعقلهم ، ويحددون له الهدف المقصود ، وكان الرسول " ﷺ " يقابلهم وهو يرجوهم للإيمان .

لا بد من معرفة دوافع الوفد للحضور ، وكشف خصائص أفراده ، ومعرفة من وراءه ، ولذلك فالاستماع لأفراده ابتداء ضرورة لا بد منها ، وكان " ﷺ " يستمع للوفد ويجيب على تساؤلات أعضائه،ويكرم وفادتهم ويقدم لهم النصح

---

[١] انظر تفصيلات وفود الأنصار من ص ١٤٩ إلى ص ١٧٠ .

ويدعوهـم بالحسـنى والهـدوء ، ولذلك كان أعضاء الوفود يتأثرون بكرم الخلق ، ويندهشون لجلاء الحق ، ويؤمنون بدين الله رب العالمين .

* * *

خامسا

الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة

من الوسائل التى دعا بها رسول الله " ﷺ " فى مرحلة ما قبل الهجرة إرسال الدعاة ،والرسائل ، وبخاصة إلى الأماكن البعيدة .

ومن الرسائل ما كتبه النبى " ﷺ " وأرسله إلى النجاشى وحمله عمرو بن أمية الضمري وجاء فيه : (**من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الملك، القدوس، المؤمن، المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة، الطيبة، الحصينة، فحملـت بعـيسى " عليه السلام " فخلقه من روحه، ونفخته، كما خلق آدم بيده، ونفخته ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى، فتؤمن بى، والذى جاءنى ، فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر فإنى أدعوك، وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى**)[1] .

وقد أسلم النجاشى الأصحم، وأرسـل إلى النبى يخبره بذلك ، ويعرفه أنـه لا يملك إلا نفسه ، وهو النجاشى الذى أكرم وفادة المسلمين إليه ، وصلى عليه رسول الله " ﷺ " حينما علم بوفاته .

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣ ، وفى المرجع تفصيلات واسعة عن أعمال مصعب فى المدينة .

وكما أرسل النبى " ﷺ " رسائله خلال هذه المرحلة بعث بعض الدعاة متميزين بالخصائص التى تؤهلهم للدعوة ، ومن هؤلاء " مصعب بن عمير " فلقد أرسله النبى " ﷺ " إلى المدينة عقب بيعة العقبة الأولى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين .. فنزل مصعب على (أسعد بن زرارة) فكان يصلى بمن أسلم،ويدعو إلى الله تعالي،وسمى" ﷺ " فى المدينة بالقارئ والمقرئ .

وبسبب مصعب دخل الإسلام كل بيوت المدينة ، وعلى يديه أسلم زعيما الأوس والخزرج ، وخيرة رجال الأنصار .

ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة الهجرة الثانية كان معهم جعفر بن أبى طالب أميراً مقدماً عليهم ، ومتحدثاً نيابة عنهم ، وقد قام جعفر بدوره كداعية مسلم ، يفهم دينه ، ويوضحه بالحسني والحكمة ، ذلك أن قريشاً أرسلت وفداً من قبلها إلى النجاشى ليعيد المهاجرين إلى ديارهم .

حاول أعضاء وفد قريش إحداث وقيعة بين النجاشي وبين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها قوبلت بحكمة جعفر الداعية.

يروى ابن إسحاق بروايته عن أبى موسى قال : أمرنا رسول الله " ﷺ " أن ننطلق مع جعفر بن أبى طالب إلى أرض النجاشى ، فبلغ ذلك قريشاً فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وجمعوا للنجاشى هدية ، وقدما على النجاشى، فأتياه بالهدية فقبلها، وسجدا له ، ثم قال عمرو بن العاص : إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا ، وهم فى أرضك .

قال النجاشى : فى أرضى ؟ ! .

قالا : نعم ..

فبعث النجاشى إلينا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم ، فانتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه، وعمرو عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك .

فلما انتهينا بدأنا من عنده من الرهبان قائلين : اسجدوا للملك .

فقال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله عزوجل .

فلما انتهينا إلى النجاشي قال : ما منعك أن تسجد ؟ !

قال جعفر : لا نسجد إلا لله .

فقال له النجاشي : وما ذاك ؟

قال جعفر :(إن الله بعث فينا رسولاً، وهو الذى بشر به عيسى بن مريم " عليه السلام " من بعده اسمه أحمد ، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر) .

فأعجب النجاشي بقول جعفر .

فقال عمرو بن العاص : أصلح الله الملك إنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم !

فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبكم فى ابن مريم ؟

قال جعفر : يقول بقول الله فيه : (هو روح الله وكلمته أخرجه من العذراء البتول التى لم يقربها بشر ، ولم يفرضها ولد) .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض ورفعه وقال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون فى ابن مريم ولا وزن هذه .. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى بشر به عيسى ، امكثوا فى أرضى ما شئتم ، ثم رد هدية قريش [١] .

وتعد الهجرة إلى الحبشة عملاً إسلامياً رائداً ، يدخل فى إطار التبليغ العام للدعوة ، لأن الإسلام بهذه الهجرة وصل إلى خارج الجزيرة العربية ، وبدأ انتشاره عملياً فى العالم .

ويخطئ من يتصور الهجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى ، لأنها كانت فى الأصل هجرة للدعوة إلى الله تعالي ، وفى نفس الوقت راحة من عدوان قريش .

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ .

يدل على أنها كانت هجرة للدعوة إلى الله فى الأساس أن أغلب الذين هاجروا كانوا من ذوى القوة والمنعة فى مكة،ولهم من عصبتهم من يدافعون عنهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ، وله من أبيه وقومه قوة ومنعة وفى نفس الوقت بقى الموالي ، والمستضعفون و لم يهاجروا ، وبقوا فى مكة صابرين ، محتسبين .

وأيضاً فلقد هاجر نسوة من أشراف مكة ، والنسوة لا يتعرضن للأذى كما هو عرف العرب فى الجاهلية ..

ويلاحظ أن هذه الهجرة ضمت رجالاً من اليمن كذلك .

وهؤلاء لا صلة لهم بما يجرى فى مكة لأنهم ليسوا منها، وعلى رأس هؤلاء اليمنيين أبو موسى الأشعرى ، الذى هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين إليها .

ولو كانت الهجرة إلى الحبشة هروباً ، وفراراً فقط ما حاول أهل مكة أن يستعيدوا هؤلاء المهاجرين الفارين ، لأنهم بفرارهم قد تخلصوا منهم ، ولو كانت الهجرة فراراً وخوفاً لعاد المهاجرون عقب الهجرة إلى المدينة مباشرة بعد زوال سبب الخوف، ولكنهم لم يرجعوا إلى المدينة إلا فى العام السابع بعد الهجرة .

إن الهجرة إلى الحبشة كانت دعوة ناجحة ، وكان أفرادها خير ممثلين للإسلام ، وخير دعاة إليه ، ولذلك حملوا رسالة النبى "ﷺ" إلى النجاشى ، وسلموها إليه بمجرد وصولهم إلى بلاده .

وهكذا كان دعاة الإسلام الذين أرسلهم رسول الله وهو فى مكة إلى المدينة وإلى الحبشة ، كانوا قوة فى الحق ، وصبراً على البلاء ، وحكمة فى الدعوة ، وأفقاً واسعاً،ودقة عالية فى فهم الموقف،والتعامل معه بما يفيد الدعوة ، ويؤدى إلى الإيمان ..

لم يعرف مصعب "رضي الله عنه" الانفعال فى مواجهة التعنت والإيذاء ، وإنما كان رقة فى السلوك ، وسمواً فى الأخلاق ، وصبراً جميلاً فى عرض قضيته على الناس .

ولم يفقد جعفر "رضي الله عنه" رباطة جأشه حينما رأى وفد قريش يجلسون مع النجاشى ، ويوجهون له الأسئلة فى تحد واستفزاز ، وإنما كان متخلقاً بخلق الإسلام ،

يرد بما علمه الله ، ويجيب وفق ما سمع من رسول الله ، واثقاً فى علو الحق وانتصاره ، وقد كان له ما تمنى .

إن الدعوة فى المجتمعات غير الإسلامية تحتاج إلى مثل هذه النماذج الرائدة من الدعاة المخلصين .

تلك هى أهم الوسائل التى دعا بها النبى " ﷺ " خلال مرحلة الجهر بالدعوة فى مكة ، ويلاحظ أن وسائل المرحلة السرية لم تهمل وإنما كانت وسائل مستمرة لمواقف تحتاجها ، وهكذا سائر الوسائل تكون مع حركة الدعوة على طول الزمن .

* * *

ـ سادساً ـ

الدعوة بالعمل والتطبيق

حافظ الرسول " ﷺ " على تطبيق ما يدعو إليه ، والالتزام به على وجه دقيق وبذلك قدم دعوته للناس بمنهج عملي .

ولـذا كـان من أوائل الذين عذبوا وأذوا ، وحين دعا المؤمنين إلى الصبر والـتحمل كـان من أوائل الصابرين ، وبقى "ﷺ" مع قومه محاصراً فى الشعب حتى أتاهم الفرج وحين عرض عليه قومه الملك ، والمال ، والجاه ، رفض عرضهم ، وبين لهم أنه رسول الله إليهم ، وإلى الناس كافة ، يحمل لهم دين الله تعالي [١] .

واستمر يقيم فى مكة مع كفارها فى الوقت الذى وجه أصحابه " رضوان الله عليهم " بالهجرة إلى الحبشة حيث الأمن والهدوء .

لقد كان رسول الله " ﷺ " مثالاً عملياً فى التأسى ، والقدوة ولذلك جعله الله تعالي مناط الأسوة والاتباع ، يقول الله تعالي : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [٢] .

---

[١] أنظر ص ٣٤٢ وما بعدها .

[٢] سورة الأحزاب آية (٢١) .

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناجحة،لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثيرها بالأقوال، لأن دلالة العمل على الصدق أوضح من دلالة القول المجرد فلربما كان القول لكسب شخصى ، أو لغاية قاصرة ، أما عمل الرسول والدعاة فهو دليل على إيمانهم اليقينى بما يدعون إليه ، وينادون به .

ـ سابعاً ـ

الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلى

أقـــام المجتمع القرشى قبل الإسلام عادة جاهلية ، وحافظ عليها ، وهى عادة الحماية والجوار ، ومعناها أن الضعيف إذا لجأ لقوى أجاره ، وأعلن حمايته ، وحينئذ لا يجرؤ أحد على التعدى عليه ، وإن لا قامت الحرب .

ولذلك كان المجير قوى الشكيمة، عزيزاً فى قومه، متمكناً من حماية من يجير .

وهـــذه العـــادة لا صلة لها بفكر المستجير ، أو ثقافته ، ولذلك استفاد منها رسول الله "ﷺ" وهو يتحرك بالدعوة فى مكة .

وقد عاش الرسول "ﷺ" فى حماية عمه أبى طالب ، يقول ابن إسحـــــاق : (وحدب على رسول الله "ﷺ" عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله "ﷺ" على أمر ال،له مظهراً لأمره لا يرده عنه شئ، فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم من شئ أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حـــدب عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم) [١] . وقد حاول كفار مكة عدة مرات صرف أبى طالب عن حماية محمد فلم يتمكنوا ، وكان لحماية أبى طالب أثر فعال فى خدمة الدعوة حيث بقى رسول الله يدعو إلى دين الله تعالي وهو يقيم فى مكة .

ومن صور الحماية والجوار التى استفاد بها المسلمون ما روته السيدة عائشة " رضى الله عـــنها " ، قالـــت : (لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، و لم يمر علينايوم إلا يأتينا فيه رسول الله "ﷺ" طرفى النهار ، بكرة وعشية ، فلما ابتـــلى المسلمون خرج

---

[١] السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤ .

أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغَنَة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأنا أريد أن أسيح فى الأرض، فأعبد ربى .

فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك .

فرجع أبو بكر ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فأمر أبا بكر ، فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلنَ ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر .

فطفق أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وبرز فكان يصلى فيه، ويقرأ القرآن ، فتتقصف عليه نساء المشركين، وأبناؤهم يعجبون منه، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك عينية إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، وقد جاوز ذلك ، وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فانهه ، فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفر ذمتك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر،فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى خفرت فى رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله) [١] .

ومـــن صور الإجارة ما سبق ذكره حين عودة النبى "ﷺ" من الطائف فلقد دخل مكة فى جوار المطعم بن عدى على نحو ما سبق ذكره [٢] .

ومن المعلوم أن الاستفادة بالواقع الاجتماعي فى نجاح الدعوة أمر مباح ما دام لا يمـــس جوهر الدعوة بصورة ما .. أما إذا أدى إلى أى مساس ضار بالدعوة فإنه لا يجــوز ، ولذلـــك صاح الرسول "ﷺ" فى وجه عمه باكياً حينما طلب منه أن يبقى الدعـــوة على نفسه ، قال له : **يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه** [٣] .

وكما فعل أبو بكر " ﷺ " فإنه رد جوار ابن الدغَنَة حين وجده قيداً عليه فى الدعوة ، واكتفى بحماية الله له .

المسألة الثانية

أساليب الدعوة

من خلال البلاغة القرآنية

تنـــتقل الأفكـــار ، والمعلومات من طرف إلى آخر بواسطة ألفاظ ، وجمل ؛ تملك قوة التأثير،والإقناع ، وتحقق الغاية من إطلاقها منطوقة أو مكتوبة ، أو مصورة .

والبلاغة بفنونها المختلفة هى المورد الفياض الذى يقدم للدعوة أسلوبها المؤثر ومقولتها السديدة .

---

[١] صحيح البخارى ـــ باب الكفالة ـــ باب جوار أبى بكر ـــ ج٤ ص ١٣٠ ـــ ط . الأوقاف .

[٢] انظر ص ٣٧٦ .

[٣] سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٦٥ .

والقرآن الكريم هو الذروة الأعلى فى البلاغة العربية ، وهو الأسلوب الذى اتبعه النبى "ﷺ" فى عرض دعوته ، وتبليغ دين الله تعالي ، ولذلك حين نبحث فى أساليب الدعوة فى عصر الرسالة نجد أنفسنا تلقائياً أمام القرآن الكريم نستنطقه فيطلعنا على أسلوب رسول الله فى الدعوة ، ونستهديه فيهدينا .

ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم هو دستور الدعوة موضوعاً، ووسيلة، وأسلوبا ، وغاية ..

والقرآن الكريم يقدم الفصاحة العالية البليغة ، فى أسلوبه ، ونسقه ، ويصور المعنى المقصود تصويراً حركياً ، حيث يجسد المعنى ، ويقدمه مشخصاً ، ظاهراً ، حيث نجده يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير،ليشعرك به أتم شعور وأقواه ، وخذ لذلك أمثلة : —

كلمة " يسكن " فى قوله تعالي : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦ ﴾[1] لما فى السكون من الهدوء ، والثبات كأنها على الأرض .

وكلمة " تسوروا " فى قوله تعالي : ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾[2] لدلالة الكلمة على المفاجأة ، والمخالفة، والاستعلاء .

وكلمة " يطوقون " فى الآية الكريمة : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[3] لأن الطوق يعم ويشمل ما بداخله فى إحكام .

وكلمة " يسفك " فى آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[4] ، لأن السفك

---

[1] سورة الشورى آية (٣٣) .
[2] سورة ص آية (٢١) .
[3] سورة آل عمران آية (١٨٠) .
[4] سورة البقرة آية (٣٠) .

يشير إلى كثرة إسالة الدم والعدوان .

وكلمة " انفجر " فى قوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [١] ، لما فيها من المفاجأة والانطلاق ، والكثرة ، والدهشة .

وكلمة " يخرون " فى الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [٢] ، لدلالة يخرون على الاقتناع، والخضوع ، وقوة الإيمان .

ومن بلاغة القرآن الكريم وتعمقه فى التصوير الحركى، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ، تبين أثر ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ فى النفس ، ذلك أن تصوير الأمر المعنوى فى صورة الشئ المحسوس يزيده تمكناً من النفس ، وتأثيراً فى الوجدان ، ويكفى أن نقرأ قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [٤] لترى قدرة كلمة ختم،فى تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس،وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [٥] لترى قيمة كلمتى **الظلمات والنور** ، فى إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل ، وتلمس من كلمة " **يخرجونهم** " ففيها دلالة على تصوير

---

[١] سورة البقرة آية (٦٠) .

[٢] سورة الإسراء الآيات (١٠٧ ــ ١٠٨) .

[٣] سورة البقرة آية (٧) .

[٤] سورة الجاثية آية (٢٣) .

[٥] سورة البقرة آية (٢٥٧) .

الإخراج بصورة حسية مع أنه من المعنويات التي يدركها العقل المجرد .

وقوله تعالي : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [١] لترى قيمة هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر إلى عالم لا يسمع ، ولا يتكلم ولا يرى بسبب عتوهم وكفرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [٢] .. فكلمات **ينقضون ويقطعون ويوصل** ، تصور الأمور المعنوية فى صور المحس الملموس ، وفى القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم .

وقد يأتى القرآن الكريم بكلمتين فيهما سر الإيحاء ومصدره ، كالجمع بين الناس والحجارة ، فى قوله تعالي : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٣] فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة بينهما ، والتشابه

وقد تكون العبارة بجملتها هى الموحية كما تجد ذلك فى قوله تعالي : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [٤] أولا تجد هذه الثياب من النار ، موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

ومن هذا الباب قوله تعالي : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [٥] فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

---

[١] سورة البقرة آية (١٨) .

[٢] سورة البقرة آية (٢٧) .

[٣] سورة البقرة آية (٢٤) .

[٤] سورة الحج آية (١٩) .

[٥] سورة الزمر آية (١٦) .

يقول السيوطي فى الإتقان : المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معاني الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر،فى أكثر الأحوال ، وذلك ميسر حاصل فى علم الله،فلذلك كان القرآن الكريم أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح،ولذلك أمثله منها قولـــه تعالي : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[1] ، من جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل .

ومنها قوله تعالي : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ ﴾ أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة .

ومنها : ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ أحسن من (لاشك فيه) لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب .

ومنها ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته .

ومنها ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ ، أحسن من (ضعف) لأن الفتحة أخف من الضمة .

ومنها " أمن " أخف من " صدق "، ولذا كان ذكر الإيمان أكثر من ذكر التصديق .

ومنها ﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ أخف من (فضلك) .

ومنها (آتى الدهر) أخف من (أعطى) .

و منها (أنذر) أخف من (خوف) .

---

[1] سورة الرحمن آية (٥٤) .

ومنها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أخف من (أفضل لكم) والمصدر فى نحو ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أخف من (مخلوق) و (الغائب) و (نكح) أخف من (تزوج) ، لأن فعل أخف من تفعل ، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر .

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة ، الغضب ، والرضا ، والحب ، والمقت ، فى أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة ، لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : يعامله معاملة المحب ، والماقت ، فالمجاز فى مثل هذا أفضل من الحقيقة ، لخفته ، واختصاره ، وابتنائه على التشبيه البليغ فإن قوله ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أحسن من (فلما عاملونا معاملة المغضب) أو (فلما آتوا إلينا بما يأتيه المغضب) أ . هـ[1] .

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجاً لجلالها ، لم تمن لفظة، ولم تتخل عن نصيبها ، فى مكانها من الحسن ، وقد يقال : إن كلمة الغائط من قوله سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾[2] قد أصابها الزمن، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ، ولكنا إذا تأملنا الموقف ، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام ، وجدنا ، أن القرأن عبر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه فى كناية بارعة ، فمعنى الغائط فى اللغة المكان المنخفض ، وكان يمضون إليه فى تلك الحالة ، فتأمل أى كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن شئت أن تتبين ذلك فضع مكانها كلمة تبرزتم ، أو تبولتم ، لترى ما يثور فى النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان ، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية

---

[1] الإتقان جـ٢ ص ١٢٥ .

[2] سورة المائدة آية (٦) .

يوم نزل القرآن ، وأنها لا تزال إلى يوم الناس هذا أسمى ما يمكن أن يستخدم ، فى هذا الموضع التشريعى الصريح .

وتأتى الفاصلة فى القرآن مستقرة فى قرارها ،مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم ، فهى تؤدى فى مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها .

وقد يشتد تمكن الفاصلة فى مكانها ، حتى لتوحى الآيات بها ، قبل نطقها ، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أملى على رسول الله " ﷺ " هذه الآيـــة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾وهنا قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾،فضحك رسول الله " ﷺ " ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت [1] .

وحتى ليأبى قبولها ، والاطمئنان إليها ، من له ذوق سليم ، إذا غيرت وأبدل بها سواها ، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾، ولم يكن يقرأ القرآن وختم بأن الله غفور رحيم، فقال الأعرابى : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه [2]،والآية إنما ختمت بقوله تعالي : ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وخذ الآيات التى تنتهى بوصفه تعالي بالعلم ، أو بالقدرة ، أو بالحلـم ، أو

---

(١) الإتقان ـــ ج ١ ص ١٠٤.

(٢) المرجع السابق ـــ ج ١ ص ١٠١ .

بالغفران ، تجد المناسبة فى ذلك الختم واضحة جلية ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [1] فهو يعلم بما يجرى فى المشرق والمغرب ، وقوله تعالي : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [2] السميع لنجوانا ، والعليم بما تضمره أفئدتنا من الإخلاص لك ، وقوله تعالي : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ [3] ، فهو سميع بما تم من وصية ، وعليم بمن يبدلها ، وقوله تعالي : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [4] فالمجئ بالساعة فى مثل لمح البصر أو أقرب يستدعى القدرة الفائقة ، وقوله تعالي : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [5] فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة ، وقوله تعالي : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [6] فمالك السموات والأرض — لا ريب — يقدر على كل شئ .

---

[1] سورة البقرة الآية (١١٥) .

[2] سورة البقرة الآية (١٢٧) .

[3] سورة البقرة الآيات (١٨٠ — ١٨١) .

[4] سورة النحل الآية (٧٧) .

[5] سورة الحج الآية (٦) .

[6] سورة آل عمران الآية (١٨٩) .

وقد تجتمع فواصل متنوعة ، في إطار غاية واحدة ، لحكمة يريدها الله تعالي من هذا التنوع في هذا التنوع ، ومن ذلك قوله تعالي : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[١] ، فإن الموضوع عرض لإثبات أدلة وجود الله ، وقدرته ، ووحدانيته ، ومع ذلك تنوعت الفواصل ، حيث ختمت آية بيتفكرون ، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع ، والثمر ، على وجود الله وقدرته ، يحتاج إلى فضل تأمل ، يرشد إلى أن حدوث هذه النوع يحتاج إلى إله قادر ، يحدثه ، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به ، وانتهت الثانية بيعقلون ، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان ، ليرتاح ليلاً ، ويعمل نهاراً ، وتسخير الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فتشرق وتغرب في دقة ونظام تامين ، يحتاج إلى عقل يهدى إلى أن ذلك لابد أن يكون بيد خالق مدبر ، فختمت الآية بيعقلون ، وختمت الآية الأخيرة بيذكرون ، لأن الموقف فيها يستدعى تذكر ألوان مختلفة بثها الله في الأرض ، للموازنة بين أنواعها ، بل الموازنة بين أصناف نوع منها ، فلا يلهيهم صنف عن سواه ، ولا يشغلهم نوع عن غيره ، وهذه الموازنة تقضى إلى الإيمان بقدرة الله ، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة .

---

[١] سورة النحل الآيات (١٠ ــ ١٣) .

هذا ..

وقد أبرز القرآن الكريم مع فصاحة الكلمة ، وبلاغة الآيات ، ودقة الفواصل وروعـة التعبير صوراً تعد قمة فى الفصاحة والبلاغة ، وتجعل القارئ أو المستمع أمام صـورة حسية بارزة ، تصورها الكلمات ، وتقدمها للعقل فى هيئة جميلة ، مقبولة ، بعيدة عن التجريد العقلى الخالى من الإثارة ، والتوضيح .

إن الأسلوب التصويرى يختلف عن الأسلوب التجريدى فى أن التجريد يضع المعـنى فى صـوره معنوية تحتاج لإدراكها إلى عقل واع ، وفهم عالم ، أما التصوير الحسى فإنها تقدم المعنى فى صورة متحركة تلتقى مع الحس ، وتثير الوجدان ، وتوجد فى النفس إنفعالاً يدفعها إلى معايشة الحدث ، ومتابعته ، والتأثر به .

ومن أهم ما قدمه القرآن الكريم فى مجال الأسلوب التصويرى ما يلى : —

١ ـ التصوير بالألفاظ والعبارات

ألفـاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحتل مكانها فى الجملة بحيث لا يغني عنها سواها ، ولتنهض بدورها فى تأدية المعني على أكمل وجه، وأتم بيان ، وأبلغ صيغة .

والقرآن الكريم لم يبتكر ألفاظاً كانت مجهولة قبله ، بل الجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخيرله أشرف الموارد، وأمسها رحماً بالمعني المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للأمتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها ، وهى أحق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين .

وقـد مـر بـنا منذ قليل عدد من الأمثلة على كلمات قرآنية وضعت فى موضـعها ورأينا كيف أنها صورت معناها ، وقدمته جلياً ، واضحاً ، شاملاً لكل جوانبه وعناصره .

كما شاهدنا تميز الكلمة فى موضعها عن سواها المشتمل على نفس المعنى . .

وكما بدت البلاغة القرآنية فى الكلمة الواحدة ، والجملة المركبة ، فإنها تتحقق كذلك فى الآيات الكثيرة وهى تتحدث عن موضوع ما .. ومن أمثلة ذلك النوع نقرأ قوله تعالي : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝ ﴾[1] وهذه الآيات جزء من قصة أصحاب الجنة التى ذكرها القرآن الكريم بياناً لعاقبة البخل، ترهيباً منه، وحثاً على البذل، ونقف عند الكلمات ﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ و ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ و ﴿ فَانطَلَقُوا ﴾ و ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ فنجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل أن يستيقظ الفقراء ، ثم وهم ينطلقون إلى جنتهم لا يصرفهم شئ عما اعتزموه ، ثم وهم يبالغون من التكتم زيادة فى الحيطة، ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذى قامت به الكلمات يثير الخيال، ويجعله يتابع حركتهم ، ويستثير فى النفس حبها للاستطلاع ، ويستولى على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية أمرهم ، ومن ثم يستقر فى وجدانه الدرس القيم الذى سيقت القصة من أجله .

ومن أمثله قوله تعالي : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ ﴾[2] والآيات الكريمة تخوف من البخل وعاقبته ، ولذا نقف عند الكلمات ﴿ نَارًا ﴾ و ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ و ﴿ الْأَشْقَى ﴾ و ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ و ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ ففيها من القدرة على التصوير ما يجعلها أبلغ فى الترهيب ، فالمنذر به ﴿ نَارًا ﴾ ومن ذا الذى لا يفزع من النار، ويعمل ما يقى نفسه شرها ، ثم هى نار ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ أى تتسعر، ويشتد لهيبها ثم

---

[1] سورة القلم الآيات (٢١ — ٢٤) .

[2] سورة الليل الآيات (١٤ — ١٨) .

اختيار صيغة المضارع للمبالغة فى تأثير التصوير باستحضار المشهد، كأنه واقع وقت التكلم ، وما يلقيه المشهد فى الحس من الفزع والخوف .

ولو عبر بألفاظ أخرى لا تستطيع هذا التصوير مثل " عذاباً شديداً " لما كان له مثل هذا الأثر المناسب للمقام .

وقوله ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ الذى يجعل المستحق لهذا العذاب فى قمة الشقاء وتلك إضافة جديدة تزيد التعبير قدرة على الترهيب ، ثم لنتأمل قوله ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الذى يصور المكذب فى عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه يذهب بعيداً عن الدعوة مبالغة فى وصفه بالكفر الذى استحق به العذاب .

أما قوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ فإنه يصور الأتقى وقد أبعد عن مصـــدر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيداً عن النار زيادة فى الاطمئنان ، وحثاً على البعد عن أسباب الشقاء .

وهكذا يبدو أثر التصوير بالكلمات فى تقوية المعاني وزيادة تأثيرها فى النفوس تحقيقاً لما يرمى إليه الداعية ترهيباً أو ترغيباً .

٢ - التصوير بالتشبيه

أسلوب التشبيه من الأساليب القوية فى التأثير لما تملكه من عناصر الحركة والتوضيح ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: أن التشبيه يفتح إلى القلب طريقاً متصلاً بالعين .

وعلى ذلك فهو تحريك للعين،والقلب، والحواس، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾[1]

وقد جاءت هذه الآيات بعد آيات صورت مصير المؤمنين ، والكافرين بعد استقرارهم فى الجنة والنار .

---

[1] سورة المدثر الآيات (٤٩ ، ٥١) .

وقد بدأت الآيات باستفهام إنكارى عن سبب إعراضهم عن الإيمان مع وجود كل دواعي الاستجابة ليقوا أنفسهم هذا المصير الذى ينتظرهم .

والقرآن يصورهم فى نفورهم من الدعوة، والإسراع فى إبعاد أنفسهم عنها أسراعاً يمضون فيه على غير هدى ، بالحمر المستنفرة التى تبالغ فى الهرب، وتحث نفسها عليه، فراراً من أسد هصور، يبغى اللحاق بها لافتراسها ، فكم توحى هذه الصورة بالعجب من أمرهم، والسخرية منهم ، ثم ما أعظم ما أبرزته هذه الصورة من أحوالهم ، فهم فى فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون إلى مأمن من الخطر، بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم إبراز ما فى نفوسهم من كراهيتهم العميقة للدعوة فى تلك الصورة البالغة التى تحملهم على المبالغة فى البعد عنها، وعدم الاستماع إليها فضلاً عن تدبرها، وإذا كنا نركز هنا على أثر التصوير فى إبراز المعاني فإن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى عوامـــل أخـــرى تضمنتها الصورة، ضاعفت ما بها من تأثير فإختيار لفظ " الحمر " وما يوحى بـــه مـــن دنـــاءة، وخسة، مبالغة فى السخرية بهم ثم اختيار لفظ " قسورة " من بين أسماء الأسد، لما يوحى به من القسر، والعنف مبالغة فى سبب فرارهم، وذلك إشارة إلى ما فى نفوسهم من مشاعر عدائية، تحثهم على الفرار من الدعوة، وهكذا يبرز التشبيه المعاني ويثبتها فى النفوس، ويوحى بما يحقق الهدف منه، ويتضح هذا بجلاء إذا حاولنا أن نعبر عن هذا المعني بأسلوب غير أسلوب التشبيه كأن نقول مثلاً : فما لهم يعرضون عن الدعوة كل هذا الإعراض، أو هـــذا الإعراض الشديد ؟ ! !

٣ ـ التصوير بضرب المثل

يطلـــق المـــثل ويراد به : القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده ، وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً ، فيه غرابة، صيرته جديراً بالتسيير فى البلاد، وخليقاً بالقبول استعير لكل حال ، أو صفة ، أو قصة ، لها شأن عجيب ، وخطر غريب ، من غير أن

يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه [١] .

ويطلق بالمعنى الأول على الاستعارة التمثيلية التى اشتهرت وصارت مثلاً وهى كثيرة فى القرآن الكريم ، ومن المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [٢] أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [٣] أى قصتها العجيبة الشأن .

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فنون القول وقدرته على التأثير التى يستمدها من خصائصه المميزة : ــ

أولها : ما يعبر عنه السيوطى فى الإتقان بقوله : (ضرب الأمثال يستفاد منه أمور كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالمشاهد) [٤] .

ويقول عنه صاحب الكشاف : (ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى أبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأن مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبى) [٥] .

وثانيها : أن للأمثال قدرة على الأستحواذ على المشاعر ، وإيقاظ النفوس ، وتجديد نشاطها ، فالإنسان يميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال

---

[١] تفسير أبى السعود ــ ج ١ ص ٤٠ .

[٢] سورة النحل الآية (٦٠) .

[٣] سورة الرعد الآية (٣٥) .

[٤] الإتقان فى علوم القرآن ــ ج ٢ ص ١٣١ .

[٥] تفسير الكشاف ــ ج ١ ص ١٩٥ .

حكمتها ورشاقة لفظها ، وإصابتها المعنى ، وطرافتها التى تتجدد ولا تبلى ، مما نرى أثره فى وجوه السامعين لها وإقبالهم عليها وتسليمهم بحكمها .

وثالثها : أن المثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل إنما هو فى الحقيقة يقيس الأمر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، ومسلم لديه ، ومن ثم لزم التسوية بينهما فى الحكم، وتحقق الإلزام به .

تلك أهم عوامل التأثير فى أسلوب ضرب المثل ، ولنورد بعض النماذج لها .

يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره فى هذا المثل المؤثر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[1] .

وأى عجز أبلغ من عجز من يزعمونهم آلهة عن خلق أتفه المخلوقات وأحقرها وهو الذبابة، ولو اجتمعوا، وتعاونوا فى ذلك ، إنهم يعجزون عما هو أيسر من الخلق، وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف .

أبعد هذا دليل على الجهل والضلال ؟ وهكذا يتركهم القرآن الكريم هم وآلهتهم سخرية الساخرين، وحديث المتندرين .

٤ - التصوير القصصى

القرآن فى قصصه لا يعمد إلى الحشد من الحوادث والمواقف فيصوره فى تتابع ليأتى عليه كله ، بل أن القصص القرآنى مرتبط بالغرض الدينى فهو يسوق القصة فى مقام يقتضيها ، ولهدف محدد يرمى إليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب بـه الهدف المقصود ، حيث نرى القصة تركز مرة على الزمن

---

[1] سورة الحج الآية (٧٣) .

وأخرى على المكان ، وثالثة على الأشخاص ، ورابعة على الحداث ، وخامسة على الحوار .. وهكذاً تبعاً لما يقتضيه مقام إيراد القصة .

ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة فى مقامات مختلفة ، ويختار منها فى كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ، وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف " عليه السلام " ، إذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة .

ولنأخذ للتصوير القرآنى للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من نزعات وعواطف ، مثالاً من قصة مريم " عليها السلام " فى السورة المسماه باسمها .

والغرض الذى سيقت له القصة هو بيان الحق فى شان عيسى " عليه السلام " وولادته من غير أب ، ونفى ما نسجه النصارى حوله من دعاوى زائفة ، رتبوا عليها ادعاء ألوهيته ، أو أنه ابن الإله إلى آخر ما قالوه .

وقد أختار القرآن الكريم فى هذا المقام من المشاهد ما يفى بهذا الغرض،معقباً عليه بتقرير الهدف من القصة فى قوله تعالي : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [1] .

أما المشاهد التى اختارها القرآن الكريم فهى مرتبة على النحو التالي:تبدأ بمشهد يمثل مريم بعد أن بلغت مبلغ النساء،وقد انتحت مكاناً بعيداً واتخذت حجاباً يسترها عن أعين الناس لشأن من شئوها،يقتضى ألا يراها أحد،ويفاجئها الملك وهى فى خلوتها فيناها الفزع ويدور بينهما حوار ينتهى باستسلامها لأمر الله ويحدث الحمل .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ

---

[1] سورة مريم الأيات (٣٤ ــ ٣٦) .

إن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [1] .

المشهد الثاني : يصورها وقد حملت بابنها ، وخافت أن يطلع أهلها على ما بها ، فآثرت البعد عنهم ورحلت إلى مكان بعيد ، وهناك تعاني آلاماً لا قبل لها بها ، فهي تعلم أنها تؤدى دوراً اصطفاها الله له،ولكنها تدرك كذلك أن أحداً لن يصدقها فيما ستذكره من تفسير لحملها بهذا الوليد بلا أب ، ثم تجتمع عليها الآلام الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله في لحظة ويبرىء جراحها وترى من الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شيء .

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] .

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها إلى قومها ، فيواجهونها بما هو متوقع منهم ، بالتأنيب والسخرية ، ويقفونها موقف المسئول عن جريمة أرتكبتها ، ولكن المعجزة الإلهية تنهى الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة .

---

[1] سورة مريم الآيات (١٦ — ٢١) .

[2] سورة مريم الآيات (٢٢ — ٢٦) .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّۭا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّۭا ﴿٣٣﴾ ﴾[1] .

وتنتهى المشاهد عند هذا الحد ، فقد استوفى الغرض المسوقة له القصة ما يحتاجه من بيان،ولم يبق إلا أن يعقب القرآن عليها بما يبلور مغزاها ويقرر ما دلت عليه .

والمشاهد كما نرى تنقلنا إلى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن منحتها الحياة ؛ وجعلتها تجرى تحت أبصارنا وبصائرنا .

ولنلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التى صاحبت هذه الأحداث وجعلتنا نشارك أصحابها إنفعالهم وتجاوب معهم .

فها هى ذى مريم ــ تلك الفتاة العذراء الطاهرة ــ تريد الخلوة فتحطاط ألا يراها إنسان ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشاب وسيم أمامها، ولنا أن نتخيل إزاء ما أصابها من ذعر وفزع،وماذا تملك وهى فتاة لاحول لها، و لاطول، ومـــاذا تفعل ؟ فلنستمع إلى القرآن يعبر عن فزعها فى قوله : ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّۭا ﴿١٨﴾ ﴾ .

وعندما يجيبها الملك الكريم موضحاً مهمته لايجدى ذلك فى طمأنتها ونزع الشك من نفسها ، فقد تكون خدعة دبرها ذلك الذى أقتحم عليها خلوتها فنراهـــا

---

[1] سورة مريم الآيات (٢٧ ــ ٣٣) .

لا تستسلم له بل تعمد إلى الاستيثاق من الأمر فتسأله : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ؟

وعندما يقضى أمر الله وتحمل استجابة بقضائه، وترحل بعيداً عن قومها تنتابها الهواجس ، وتتداعى عليها الهموم ، كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة وطهر وغيرة على الشرف والعرض ؟

وكيف ستفسر لهم ما حدث ؟

ثم يضاف إلى آلامها النفسية آلام جسدية مما يصاحب الوضع فتخور مقاومتها ، وتهن عزيمتها ، ولنستمع إلى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

ولكن تطوراً مفاجئاً يبدل كل شيء ، وينهى أزمتها ، ويبرئ جراحها المادية والمعنوية ، فترى من آيات الله ما يرد إليها يقينها ، ويملؤها ثقة تواجه بها العالم ، وتتحدى الدنيا ، فإذا بها تعود غير مكترثة لشيء تحمل ابنها فى اعتزاز وفخر ، مؤمنة بأن الله الذى رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعده، ملتزمة بامره ، وعندما تبدأ محاكمتها أمام قومها بالسخرية اللاذعة ، والتوبيخ المهين ، لا يحرك ذلك ساكناً فيها ، ولا تهتز ثقتها فى الله ولا تزيد عن أن تشير إلى أبنها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إنه الاطمئنان القلبى لنصر الله ورعايته .

ولكن قومها معذورون ، فهى تحدثهم بما لم يعهدوه ، فلا تقنعهم إجابتها بل يرون فيها تهكماً بهم ، واحتقاراً لهم ، فيردون عليها وهم فى ذروة انفعالهم منكرين ذلك عليها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

تلك قدرة التصوير على إبراز المشاعر والتعبير عن أعمق الانفعالات تجعلنا نشارك أبطال القصة مشاعرهم فنحس نحو مريم بالإشفاق عليها ، والتعاطف معها فى

محنتها ، والإعظام لشأنها والإعجاب بقوة يقينها ، ونتمنى لو كنا هناك لندفع عنها الأذى ونرده على لائميها .

ونلحظ أن أسلوب القصة القرآنية يتضمن التشويق ، وتصوير المشهد ، ويمزج الجوانب الدينية بجوانب القصة ، ويبرز الحوار الحسن ، ويكرر بلا ملل أو سآمة.

٥ ـ التشويق والإثارة فى الأسلوب

يتضمن أسلوب القرآن الكريم الإثارة والتشويق بعدة طرق فمرة يفصل بعد إجمال ، ويبين بعد إبهام ، لأن النفس مع الإجمال، والإبهام، تتشوق إلى معرفة ما وراء ذلك ، وتتنبه لما يأتي عساه يكون شارحاً ، موضحاً ومثاله قوله تعالي : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [١] هكذا عبر عن جزائهم فى إجمال بأن مصيرهم الجنة ، ثم فصل ما فى الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكراً أحوالهم فيها : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [٢] .

ومثل قوله تعالي : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [٣] هكذا يعبر فى إجمال ثم يفصل بعض هذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الإنسان الآية (١٢) .

[٢] سورة الإنسان الآيات (١٣ ــ ١٤) .

[٣] سورة الإنسان الآية (٢٠) .

[٤] سورة الإنسان الآيات ٢١ ــ ٢٢) .

ومثل قوله تعالي : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [1] فقد بين أن مساعى الناس فى الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [2]

ومثال الإبهام ثم التوضيح قوله تعالي : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [3] فقد ذكر لفظ ﴿ مَثَلًا ﴾ مبهماً ثم فسره بما جاء بعده ليثير النفس إلى معرفة المراد ويشوقها إليه .

ومرة بأسلوب التهيج ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [4] فحاشا لله أن يكون الرسول "ﷺ" ممن لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعاً للكافرين فينهى عن طاعتهم ولكنه أسلوب الإلهاب والتهييج الذى يراد به الحث على زيادة التمسك والتصلب والثبات على ما هو عليه ، ويكون فضل هذه الطريقة فى التعبير على قولنا : استمر فى التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكاً بعدم طاعة الكافرين والمنافقين : هى أنها تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج ، وتثير الشعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقياً وأكثر تمسكاً بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملاً فى المعاني الهامة التى هى أصول فى هذا الدين [5] .

---

[1] سورة الليل الآية (٤) .

[2] سورة الليل الآيات (٥ ــ ١٠) .

[3] سورة التحريم الآية (١٠) .

[4] سورة الأحزاب الآية (١) .

[5] من أسرار التعبير القرآني .

٦ ـ التأثير الصوتى من خلال الترتيل

يقـول الدكتور محمد دراز : أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القـرآن خاصية تأليفه الصوتى فى صورته، وجوهره ، دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله،نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، لا نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتـبذ مكاناً قصياً، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها، وسكناتها ومداتها، وغناتها ، واتصالها، وسكتاتها ، ثم ألق بسمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً، وأرسلت ساذجة، فى الهواء فستجد نفسك منها بازاء لحن غريب لا تجده فى كلام آخر ، ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بانغام ولا بأوزان .

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعى فى لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب [١] .

وقـد تحدثـنا من قبل عن الألفاظ المصورة بجرسها الخاص ، حتى أنها لتكاد ترسم صورة للمعنى بنغمها المميز من أمثال : الصاعقة ، والصرصر وغيرهما .

ثم هو فى بناء جمله يعمد إلى لون من التوافق تكاد تكون به متوافقة فـى الـوزن ، فلـنقرأ قوله تعالي : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [٢] فـنجد ذلك الإيقاع المميز الذى يشيع فى هذه الجمل ، فيجعلها كأنها مضبوطة بتفاعيل، وأوزان متحدة .

وثمة سمة أخرى للتعبير القرآنى هى ذلك التشاكل الواقع بين الحروف فى أواخر الآى يطلق عليه العلماء الفواصل ، وهى تمد التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد تأثيره ، بجانب وظيفتها المعنوية ، إذ تساعد على تلاوته مرتلاً مجوداً ، بأنغام آسرة ،

---

[١] النبأ العظيم ــ ص ١٠١ ــ ١٠٢ .

[٢] سورة الليل الآيات (١ ــ ٤) .

ذات إيقاع يتناسب مع الموقف، واتجاه المشاعر التى تصاحبه، ولهذا نرى القرآن الكريم ينتقل من فاصلة إلى أخرى تبعاً للموقف ، وما يتطلبه من إيقاع يتناسب معه .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [1] فنراه يستخدم قافية الراء الساكنة التى يوحى إيقاعها بالحزم والجد الذى يستوجبه سياق هذه الأوامر إلى نبيه الكريم بعد انقطاع الوحى عنه .

فإذا انتقل إلى غرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات إيقاع مغاير ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [2] فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال ، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة والقافية الموحية بالرهبة العميقة .

ومثل هذا نجده فى قصة مريم ، فقد التزم فى القافية الياء المشددة ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [3] إلى آخر القصة فإذا انتهت وانتقل إلى تقرير مغزى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [4] فتتغير القافية كما ترى ، وكأنما هذه

---

[1] سورة المدثر الآيات (١ ــ ٧) .

[2] سورة المدثر الآيات (٨ ــ ١٠) .

[3] سورة مريم الآيات (١٦ ــ ١٧) .

[4] سورة مريم الآيات ــ ٣٤ ــ ٣٦) .

الآيات الأخيرة تصدر حكماً مستمداً منها ، ولهجة الحكم تقضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيقاعاً رصيناً قوياً بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير [١] .

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا ، فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة فى التعبير عنه .

٧ ـ إظهار عوامل الطاعة

يعمـــل أسلوب القرآن الكريم على إبراز عوامل الطاعة فى النفس البشرية ، ويورد لذلك عديداً من ألوان الترغيب والترهيب [٢] .

ويحـــيط الإنسان بمدى علم الله وقدرته ، ويدعو دائماً إلى النظر فى الآيات الكونية ، والإنسانية .

* * *

---

[١] التصوير الفنى فى القرآن ـــ ص ٩٠ ـــ ٩١ .

[٢] سوف نفصل هذا الجانب فى الجزء التالى بإذن الله تعالى .

المبحث الثامن

توافق الأسلوب والموضوع

حين نعيش مع أسلوب الدعوة فى عصر الرسالة نلحظ دقة التوافق بين الأسلوب والموضوع .

الدعوة إلى العقيدة : إذا كان الموضوع **دعوة إلى العقيدة** نرى الأسلوب يتجه إلى قدرات الإنسان المختلفة بالإقناع ، والدليل .

فمرة **يتجه إلى العقل** ، فيجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافتة لا تقوم على أساس ولا يقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة ، وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه إليها ، وهو فى جدله ذاك يسوقه فى أسلوب تجتمع له جوانب الإقناع العقلى ، والتأثير الوجداني ، مما يجعله جديراً بأن يطلق عليه المنطق الوجداني كما سبق .

فقد جادل المشركين ، وركز فى جدله على إثبات عجز هؤلاء الشركاء المزعومين ، وعرض ذلك فى أساليب متعددة .

مرة بالتلطف، والاستدراج، واشراكهم فى استنباط النتائج، والوصول إلى الحق كما فعل إبراهيم " عليه السلام " فى إبطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها إبراهيم "عليه السلام" واحداً واحداً ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية،حتى إذا انتهى منها جميعاً صدع بالحق الذى يريده قائلاً : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [1] .

ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التى تقطع كل حجة ، وتنهى كل جدل ، كما فى تلك التجربة العملية التى قام بها إبراهيم،ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضر فقط ، بل عاجزة أيضاً عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما

---

[1] سورة الأنعام الآيات (٧٨ — ٧٩) .

حطمها وجعلها جذاذاً متناثراً تطؤه الأقدام .

ومرة بأسلوب التقرير الذى يجبرهم على النطق بالحق الذى لا يدفع ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] .

ومرة بالسخرية منهم وتصويرهم فى صورة العاجز عن أتفه الأمور ، كما رأينا فى قوله تعالي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[2] .

ومرة بمطالبتهم بالدليل على دعواهم حتى إذا عجزوا كان ذلك قاطعاً فى بطلانها لأنها لا تعتمد على دليل .

ومرة يحثهم على تدبر ما فى الكون من دلائل على وحدانية الله وهو فى هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدالة على ألوهية الله ووحدانيته، فليس عليهم إلا أن يعملوا عقولهم، ويتدبروا وستبدو الحقيقة لبصائرهم جلية لا تحتاج إلى دليل .

ويتجه القرآن الكريم إلى الوجدان كذلك باعتباره وعاء الشعور الإنسانى ومجمع غرائزه ونزعاته ، وحوافز إرادته حيث نراه :

---

[1] سورة يونس الآيات (٣٤ ــ ٣٥) .

[2] سورة الحج الآية (٧٣) .

● يثير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالإنسان مجبول على حب الخير لنفسه والسعي لما يحققه ، فيعده بالخير في الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه صوراً وألواناً منه ، مستخدماً كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيد قوى ، وتشويق يثير الكوامن ، فيريه الجنة كأنه يرى مباهجها ، ويستروح نسماتها ، ويزين له ما يصنعه الإيمان في القلوب من شعور بالمن وشعور بالرضا إلى آخر تلك المعاني التي تلمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب .

● يثير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من ويل، وبلاء في الدنيا والآخرة أيضاً ؛ فيعرض عليه صور العذاب في الآخرة، ويذكره بما أصاب الأمم السابقة في الدنيا عندما تولت عن دعوة الله ، في أساليب تجعله يرى مصارع القوم ، ويسمع أناتهم ، مما يهز القلوب ، ويزلزل النفوس لتنقاد وتلين .

● يثير غريزة التدين في الإنسان التي تدفعه إلى البحث عن الحق ، فيلقنه إياه ، في أسلوب أخاذ يحثه فيه على النظر في آيات الله ، ويعرض عليه من ذلك ما يمتع الحس والعقل معاً .

● كما يثير فيه مشاعر الهيبة والإجلال لله ، بما يعرضه عليه من صفات جلاله ، وعظائم آياته الدالة على قدرته ، كما يثير مشاعر الحب لله، ورجاء فضله، والتودد إليه والتوكل عليه ، والثقة في رعايته وحمايته ، بما يعرضه من ألوان نعمه ، وعميم فضله ، وسابغ رحمته ، فهو الرحمن، الرحيم، الودود، الغني، الباسط ،الجواد، أسبغ نعمه على الناس ظاهرة وباطنة .

تلك المعاني التي تمثل رباطاً روحياً محكماً يشد الإنسان إلى ربه ، يكررها القرآن ويؤكدها حتى تستقر في النفوس فترقق العواطف وتلين القلوب وتجذبها نحو الحق جل وعلا .

كما يستجيش القرآن شعور الكرامة الإنسانية،فيربأ به أن يذل لمخلوق مثله ، وأن يعنو وجهه لما لا يملك لنفسه شيئاً ، ويزكي فيه شعور الاعتزاز بما فضل بـــه

على سائر خلقه ، من اصطفائه للخلافة فى الأرض وحمل الأمانة ، وتلك المنزلة العالية لا يصح أن يهدرها الإنسان فيسجد لحجر ، أو يطلب العون من جماد .

هذه الغرائز وتلك المشاعر التى يتجه إليها القرآن ليجد الحق طريقه إلى القلوب من خلالها ، يختار فى التعامل معها ما يناسبها من الأساليب المؤثرة التى تؤجج أوارها، وتزكى حميتها .

الدعوة إلى العبادة :

إذا كانت الدعوة إلى العبادة نرى القرآن الكريم يتجه إلى غريزة حب الذات بالترغيب ، فيعرض ألواناً مما تحققه العبادات للمسلم فى الدنيا ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،وعند حديثه عن الحج يشير إلى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم والزكاة تطهر المال وتزكى النفوس،وتحقق الخير للمجتمع كله،وتربط بين الغني والفقير برباط الحب والإخاء،ثم يسوق ألواناًمن الجزاء فى الدنيا بمضاعفة الخير، وتحقيق الجزاء الأوفى فى الآخرة ، ويعرض ذلك فى صورة آسرة تدفع النفوس دفعاً للطاعة .

ويتوجه إلى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العذاب .

ويتوجه إلى غريزة الملكية فيقلل من حدتها ، كما فى تسمية الصدقة قرضاً فهى لن تضيع بل تتضاعف ، ويؤكد أن ما ينفقه المسلم اليوم سيضاعفه له الله غداً ، ويذكر بأن المال الذى فى يد الأغنياء إنما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو يطالبهم بإعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم من مال .

ويتوجه إلى النفس الإنسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للجاه والاستعلاء ، والمن والأذى .

كل ذلك لاحظه الإسلام فى دعوته للعبادات ، لأن طبيعة الموضوع تقتضيه ، وساقه فى أساليب زاخرة بألوان من وسائل التأثير .

الدعوة إلى المعاملات : [إذا كانت الدعوة إلى المعاملات نرى القرآن يتجه إلى الألفاظ فيختار أدقها،وأحكمها فى الدلالة على المعنى المراد،ويكون استعماله للألفاظ استعمالاً

حقيقياً ، فإذا أطلق لفظاً اطلاقاً مجازياً لغرض ما، كان ذلك واضح المأخذ قريباً، شديد الظهور ، كما فى تسميته المرضعة أماً ، والمشاركة للطفل فى الرضاعة من الأم أختاً .

وفى الصياغة القرآنية تقصد الآيات إلى تقرير الحقائق الدينية، والأحكام الشرعية دون مبالغة،أو تجوز ، فلا يستعمل الخيال فى أصول المعانى المرادة ، وإنما يكون التعبير الحقيقى ، المفصل، الواضح، إذا كان المقام يستدعى التفصيل ، أو المجمل الجامع إذا كان المقام له .

ويؤثر غالباً المعاني الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حكم الله العليم بما يصلح الناس ، أو التذكير برقابة الله واطلاعه على الأعمال أو التحذير من مخالفتها، وإثارة شعور التقوى فى النفس، أو الترغيب فى الطاعة، والوعد بجزيل الأجر،وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله فى الفواصل ، أو إثارة الشعور الأخلاقى فى النفس ، وباللمسات الوجدانية التى توحى بها الألفاظ والتعبيرات .

وهكذا ..

يتوافق أسلوب القرآن الكريم مع الموضوع الذى يدعو إليه ، بدقة بليغة تحقق المقصود من الأسلوب .

* * *

المبحث التاسع

مواجهه عدوان الكفار

تيقن كفار مكه أن دعوة محمد ﷺ تختلف عن ما سبقها من أفكار الحنفاء ،و أمثالهم من ناحية تحديد موضوعها ،و ثباتها ، و سمو أهدافها ..... و كان أكثر ما أثار انتباههم ازدياد قوة المسلمين يوما، بعد يوم ،و شدة تواصل المؤمنين،و ترابطهم ،و قوة حب المسلمين لله و رسوله ، و عظمه اعتزاز المسلمين بدينهم ، و تمسكهم بتطبيق تعاليمه بصدق و إخلاص .

وصل كفار مكه الى هذا الفهم، و بدأوا فى التحرك لمواجهته ، و قد أخذ توجههم يزداد عنفا" شيئا" فشيئا" من أجل الوصول الى إطفاء نور الحق ، و القضاء على الدين الوليد .

بداوأ- أولا" - بإغراء النبي ﷺ بالمال،و الجاه، والسلطان و بكل ما يريد شريطة أن يترك دعوته [1] لكنه صلى الله عليه و سلم رد عليهم بتمسكه بدعوة الله ، وحذرهم من عاقبة كفرهم ،و نفذ معهم أمر الله له فى قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.[2]

و حاولوا -ثانيا"- مساومة رسول الله ﷺ ليجمع شيئا" من دينهم و شيئا" من دعوته ليلتقى الفريقان فى منتصف الطريق ، و بذلك لاتضار آلهتهم لأنها ستعبد مع الله تعالى، فرد عليهم رسول الله ﷺ بقوله تعـالى" ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾[3]

---

(١) انظر صفحه ٣٤٥

(٢) سورة فصلت اية١٣

(٣) سورة الكافرون

وطلبوا منه **ثالثا**- أن يبقى أمره لنفسه ، و على آل بيته فأبي عليهم ذلك، و عرفهم أنه رسول الله تعالى لهم ، و للعالم كله .

عندئذ أخذوا فى صد الناس عنه بنشر الاشاعات الكاذبه عن رسول الله ﷺ فأتهموه بالسحر ، و الكذب ،و السفه ،و اتهموا القرآن بالاختلاق ،و النقل من الأساطير واتهموا المسلمين بالضعف،و عدم التعقل – يحكى الله تعالى حملتهم هذه فيقول سبحانه ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝ ﴾[1]

فلما يئسوا من محاولاتهم لرسول الله ﷺذهبوا الى عمه عددا من المرات .

مرة يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن دعوته لأنها – فى نظرهم – فرقت جمعهم و عابت ألهتهم ، و أساءت الى أبائهم .

و مرة يحاولون أن يستبدلوا به فتى منهم ، للقيام بقتله بعد تملكه .فلما لم يستجب لهم أبو طالب ذهبوا اليه مهددين ،فكلم أبو طالب محمدا ﷺفى ألآمر ، فرد عليه بأنه مستمر على دعوته ، و لن يتركها بحال .

يصور ابن اسحاق ذلك فيقول (و مضى رسول الله ﷺفى على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه،ثم اشتد الأمر بينه و بينهم،حتى تباعد الرجال، و تضاغنوا و أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه،وحض بعضهم بعضا" عليه. ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أباطالب، إن لك سنا وشرفا و منزلة فينا ،و إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا و الله لا نصبر على

---

(١) سورة الفرقان الأيات ٥-٨

هذا من شتم آبائنا ،وتسفيه أحلامنا ،وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله و اياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

فعظم على أبى طالب فراق قومه و عداوتهم ، و لم يطب نفسا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ،و لا لأحد منهم، فبعث الى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى، فقالوا لى كذا و كذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبق على و على نفسك و لا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله و مسلمه ، و أنه قد ضعف عن نصرته و القيام معه .

فقال رسول الله ﷺ: يا عم ، و الله لو وضعوا الشمس فى يمينى و القمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل ياابن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال: إذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشىء أبدا".[1]

و حينئذ تأكدوا من فشلهم فى تحريض عمه أبى طالب ، و تجريده ﷺ من الحماية و المساندة فوضعوا خطه متعددة الأطراف لإرهاب الرسول و المؤمنين ، و منع الناس من الاقتراب من رسول الله ، و الاستماع لدعوته . و مجمل هذه الخطه يتضح فى النقاط التاليه :-

١- قيام كل قبيله بتعذيب ، و اضطهاد من أسلم من أبنائهم، أو من عبيدهم.

- من ذلك أن أبا جهل كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف،و منعه، أنبه، و أخزاه و أوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة فى المال ، و الجاه ، و إن كان ضعيفا" ضربه و أغرى به [2]

---

(١) سيرة النبى ج١ ص ٢٦٥،٢٦٦

(٢) سيرة النبى ج١ ص٣٢٠

– و لما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته، وأخرجته من بيته ، و كان من أنعم الناس عيشا، فتخشف جلده تخشف الحية [١]

– و كان أميه بن خلف الجمحى يضع حبلا فى عنق مولاه بلال، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة،و كان أمية يشده شدا" ثم يضربه بالعصا ،و كان يلجئه الى الجلوس فى حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه فى بطحاءمكه،ثم يأمر بالصخرة العظميه فتوضع على صدره، ثم يقول:لا و الله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، و تعبد اللات و العزى . فيقول بلال– و هو فى ذلك –أحد، أحد،حتى مر أبو بكر يوما" و هم يصنعون ذلك به ،فاشتراه بغلام أسود ، و قيل بسبع أواق أو بخمس من الفضه و أعتقه [٢].

– و كان عمار بن ياسر رضى الله عنه مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو و أبوه و أمه فكان المشركون – و على رأسهم أبو جهل – يخرجوهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبوهم بحرها . و مر بهم النبى ﷺ و هم يعذبون فقال لهم : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنه ، فمات ياسر فى العذاب ، و طعن أبوجهل سمية – أم عمار– فى قلبها بحربة فماتت ، و هى أول شهيدة فى الإسلام ، و شددوا على عمار بالحر تارة ،و بوضع الصخر على صدره تارة أخرى، و بالتغريق ثالثة. و قالوا : لا نتركك حتى تسب محمدا" أو تقول : فى اللات و العزى خيرا ، فوافقهم على ذلك مكرها وجاء باكيا معتذرا إلى النبى ﷺفأنزل الله تعالى﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١٠٦) ﴾ [١][٣].

(١)رحمة للعالمين ص ٥٨

(٢)سيرة ابن هشام حـ١ ص ٣١٨:٣١٧

(٣)سورة النحل آية ١٠٦

– و كان أبو فكيهه – و اسمه أفلح – مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ثم يجرونه على الارض (١) .

– و كان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، و يلوون عنقه تلوية عنيفة ويضجعونه مرات عديدة على فهام ملتهبة ، ويضعون عليه حجرا ، حتى لا يستطيع أن يقوم (٢)

– و كانت زنيرة، و النهدية،و ابنتها،و أم عبيس إماء أسلمن ، و كان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا .

– و أسلمت جارية لبني مؤمل –و هم حي من بني عدى– فكان عمر ابن الخطاب– و هو يومئذ مشرك– يضربها ،و إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة(٣)

– و كان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل و البقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، و يلبسون بعضا أخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة (٤)

– و قائمة التعذيب طويلة شملت أغلب من أسلم في مكة بعد الجهر بالدعوة ،يروى ابن كثير بسنده عن ابن جبير أنه قال: قلت لعبد الله ابن عباس: "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله "ﷺ"من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟

قال: نعم والله! إنهم كانوا يضربون أحدهم ،و يجيعونه ،و يعطشونه به حتى ما يقدر أن يستوى جالسا" من شدة الضرر الذى به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له اللات و العزى إلهان من دون الله ،فيقول: نعم ! افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم . (٥)

---

(١) رحمة للعالمين ج ١ ص ٥٧

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠٦

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩

(٤) رحمة للعالمين ج١ ص ٥٨

(٥) البداية و النهاية ج٣ ص ٥٩

٢-إعداد فريق من شباب الكفر ممن يجيد فن التعامل مع الناس ،ليمروا على القبائل فى مواسمهم، ليقولوا فى رسول الله ما شاءوا من قول سيء ، و وشاية كاذبة .

٣- تكليف جماعة من ابنائهم لملاحقة رسول الله" ﷺ" عند البيت، و شتمه ،و وصفه بكل صفة منفرة ،و إحاطته بالسخرية ، و الاستهزاء حتى تسقط مهابته فى نظر الناس فعن عمرو بن العاص ﷺ" أن عروة ابن الزبير سأله عن أكثر ما رأى من قريش إيذاء لرسول الله " ﷺ" .

قال :" حضرتهم ، و قد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله " ﷺ" ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم أباءنا، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، و سب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .،

فبينا هم فى ذلك إذ طلع رسول الله " ﷺ" فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله " ﷺ" ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانيه غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله " ﷺ" : ثم مر بهم ثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال: أتسمعون يامعشر قريش ، أما و الذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه و صاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول فيقول : إنصرف ياأبا القاسم ، فوالله ماكنت جهولا" فانصرف رسول الله " ﷺ" ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر و أنا معهم ؛فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، و ما بلغلكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله " ﷺ" فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحاطوا به ، يقولون له: أنت تقول كذا و كذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم و دينهم .

فيقول لهم رسول الله " ﷺ " : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فرأيت رجلا" منهم يأخذ بمجمع ردائه" ﷺ " . فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، و هو يبكى و يقــول : أتقتلون رجلا" أن يقول ربى الله ؟ ثم أنصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط "(١)

و قد سبق أن ذكرنا ما كان منهم مع رسول الله " ﷺ " فى قصة اسلام حمزة رضي الله عنه "(٢)

٤- التعنت فى مواجهة رسول الله ، و طلبهم أمورا خارقة للعادة ، دليلاعلى صدقه و هم مع ذلك عازمون على الكفر، مهما جاءهم من الخوارق،و لذلك قال الله تعالى لرسول الله " ﷺ " ليصرفه عن مواجهتهم: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(٣)

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾(٤)

لقد رأى أهل مكه العديد من المعجزات الخارقة للعادة و على رأسها القرآن الكريم ، و مع ذلك لم يؤمنوا ، فلما طلبوا خوارق جديدة لم يستجب الله لهم رحمة بهم ، لأنه سبحانه وتعالى لو أوجدها لهم، و استمروا على كفرهم لعذبهم عذابا شديدا .

---

(١)سيرة النبى لأبن هشام ج١ ص ٢٩٩:٢٨٩

(٢)أنظر صفحة ٤٨١

(٣)سورة الانعام الأيات ١٠٩-١١١

(٤)سورة يونس الأيات ٩٦-٩٧

يروى ابن كثير ان ابن عباس قال :" قالت قريش للنبى " ﷺ" : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا" و نؤمن بك.

قال" ﷺ" : و تفعلوا ؟

قالوا :نعم .

فدعا الرسول " ﷺ" ربه فأتاه جبريل

فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبا" .فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا" لا أعذابه أحدا" من العالمين ، و إن شئت فتحت لهم باب الرحمة و التوبة ، قال :" بل التوبة و الرحمة "(١)

و قد واجه رسول الله " ﷺ" هذا العدوان بطرق عديدة أهمها :-

أولا": تقوية إيمان المعذبين :

أخذ رسول الله " ﷺ" فى تقوية إيمان المعذبين ، و عرفهم أن المؤمنين دائما" فى بلاء، و أنهم بإيمانهم يعملون للآخره قبل الأولى،يقول ابن اسحاق :"وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، و بأبيه و أمه، و كانوا أهل أول بيت فى الاسلام إذاحميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله " ﷺ" فيقول ، فيما بلغنى : صبرا" آل ياسر، موعدكم الجنة.فأما أمه فقتلوها ،وهى تأبى إلا الاسلام .(٢)

و كان يقول لهم " ﷺ" :"أشد الناس بلاء الانبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه" (٣)

و كان المسلمون يرون فى رسول الله " ﷺ" المثل ، والقدوة .فهو أسبقهم الى العدو ، وأولهم فى التضحية ، و أفضلهم فى الشرف ، والنبل ، والطهر . و لذلك صدقوا فى كل ما عاهدوا الله عليه .

ولقد كانت أيات القرآن الكريم تنزل عليهم تؤملهم فى النصر وتحدد لهم معالم الطريق

١- البداية و النهاية ج٣ ص ٥٢
٢- السيرة النبوية ج١ ص٣١٩
٣- فيض القدير جـ١ ص٥١٩

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾(١)

وكان الرسول " ﷺ " حريصا على تعريف المسلمين بمدى العبء الواجب تحمله يروى البخارى بسنده أن خباب بن الأرت جاء الى النبى " ﷺ " وهو متوسد برده ، وهو فى ظل الكعبة ، و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت :ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال:"لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط حديد ما دون عظامه من لحم و عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف إلا الله —و الذئب على غنمه "(٢)

و بهذا التوجيه النبوى للجماعة المؤمنه الأولى ، ظهرت قوية ،صامدة ، محتسبة ..

و عليها ، وعلى أمثالها، وجدت الأمه الأسلامية، وتحقق للأسلام و المسلمين الكرامة و الحرية.

ثانيا": تحرير الارقاء

كان أغلب من يعذب هم الارقاء الذين أسلموا عند سادتهم ، و لذا هدى الله أبا بكر ﷺ إلى تحرير من استطاع تحريره ،و بارك رسول الله "ﷺ" فعله .

من ذلك أن أبا بكر ﷺ مر على بلال "ﷺ" وهو يعذب ، فقال لأمية ابن خلف:ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟حتى متى؟

قال له: أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

فقال أبوبكر :أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، على دينك، أعطيكه به

(١) سورة الصافات الأيات ١٧١-١٧٧
(٢) الرحيق المختوم ص ١١٧

فقال أبو بكر : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه.

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدنية ست رقاب ، بلال سابعهم ، وهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرا"،و أحدا" ، و قتل يوم بئر معونه شهيدا" ، وأم عبيس ، و زنيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات و العزى ، فقالت : كذبوا و بيت الله ماتضر اللات و العزى و ماتنفعان ، فرد الله بصرها ، و أعتق النهدية و بنتها و كانتا لامرأة من بنى عبد الدار ،فمر بهما و قد بعثتهما سيدهما بطحين لها ، و هى تقول : و الله لا أعتقكما أبدا".

فقال أبو بكر ﷺ: حل يا أم فلان

فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت : بكذا و كذا .

قال : قد أخذتهما و هما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها .

قال: و ذلك إن شئتما .

ومر بجارية من بنى مؤمل ، (حى من بنى عدى بن كعب)، و كانت مسلمة ، و عمر ابن الخطاب ﷺ يعذبها لتترك الاسلام ، و هويومئذ مشرك و كان يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى أعتذر اليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك .فابتاعها أبو بكر ' فأعتقها "[1]

و قد عاتب أبو قحافة والد أبى بكر ولده فيما فعله .لانه رأى أن أبا بكر ينفق ماله فى تحرير الضعفاء الذين لا ينفعونه ، و لا يدفعون ضرا" عنه (كما يتصور) ..

و هنا قال له أبو بكر : يا أبت إنى لم أفعل ذلك إلا لله .

(١)البداية و النهاية ج٣ ص٥٢

فنزل فيه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ و قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

ثالثاً : هجرة المسلمين الى الحبشة

شقت الدعوة مسيرتها الصعبة بين كفار مكة ، وأخذ الأذى يلاحق كل من أسلم ، و رأى رسول الله " ﷺ " بعد سنين من الجهر بالدعوة أن الكفار ماضون فى عنفهم ، و عنتهم ، و صدهم الناس عن سبيل الله .... و لذلك أمر رسول الله " ﷺ " أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لما فيها من موطن آمن، ووجود ملك لا يظلم أحداً"..

روى عن ابن مسعود أن رسول الله " ﷺ " بعث أصحابه الى النجاشى و كانوا نحو ثمانين رجلا ، و إمراة و ذلك فى رجب سنة خمس من النبوة .

تقول أم مسلمه : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا النجاشى خير جار ، و أمنا على ديننا كما وعدنا الله ، لا نؤذى ، و لانسمع شيئاً" نكرهة ، و أقمنا فى خير دار مع خير جار .

و عاش المهاجرون بالحبشه مدة سمعوا خلالها أن صلحاً" أبرمه الرسول " ﷺ " و أهل مكة فجاءوا الى مكة عائدين فلما أكتشفوا أن شيئاً" لم يحدث عادوا مرة ثانية الى الحبشة ،و ظل المهاجرون فى الحبشة الى أن هاجر الرسول ﷺ الى المدنية فقدموا اليها بعد فتح خيبر .

هذه الكوكبة السابقة الى الهجرة كان لها فضل السبق فى إيصال الإسلام الى خارج الجزيرة ، و الدعوه اليه بعملهم، و سلوكهم .... و بهذا السبق تميزوا عن المهاجرين الى المدينة ...... يروى البخارى بسنده عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال " بلغنا مبعث النبى " ﷺ " و نحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه .

---

(١) سورة الليل الأيات ٥-٧،١٩-٢١

.أنا و أخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهم أبو بردة ، و الثاني أبو رهم في ثلاثة و خمسين أو اثنين و خمسين رجلا" من قومي فركبنا سفينه ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا"إلى النبي ﷺ حين أفتتح خيبر، و كان أناس من الناس يقولون لنا ، سبقناكم بالهجرة ، و دخلت أسماء بنت عميس ، و هي ممن قدم معنا على حفصه زوج النبي " ﷺ" زائرة ، و قد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، و أسماء عندها فقال عمر حين رأي أسماء : من هذة ؟

قالت حفصة : أسماء بنت عميس .

قال عمر: الحبشية هذه ؟ البحيرية هذه ؟ ! !

قالت أسماء : نعم .

قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله " ﷺ" منكم ، فغضبت و قالت : كلاو الله ، كنتم مع رسول الله " ﷺ" يطعم جائعكم ، و يعظ جاهلكم ، و كنا في دار،أو في أرض البعداء ، و ذلك في الله و في رسوله " ﷺ" وأيم الله لا أطعم طعاما" و لا أشرب شرابا" حتى أذكر ذلك للنبي " ﷺ"، و أسأله و الله لا أكذب ، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه .فلما جاء النبي " ﷺ" قالت : يانبي الله ، إن عمر قال كذا و كذا .

قالﷺ : فما قلت له ؟

قالت : قلت له كذا و كذا .

قال ﷺ: ليس بأحق بي منكم ، و له و لأصحابه هجرة واحدة ، و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت: فلقد رأيت أبا موسى و أصحاب السفينه يأتون أرسالا"يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح، و لا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ

قال أبو بردة : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى و أنه ليستعيد هذا الحديث مني[1]

(١) فتح الباري ج٩ ص ٢٤-٢٧

و قد سر رسول الله ﷺ سرورا بالغا بعودة مهاجرى الحبشة بعد هذه الفترة الطويلة و أمر الاسلام يعلو،و سلطانه يمتد شمالى شبة الجزيرة و جنوبها ، وعندما نزلوا بالمدينة قام الحبيب المحبوب ﷺيرحب بعودهم؛ ويعلن فرحه بهم، وذلك فيما يرويه الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : " لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ "ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ".(١)

إن الهجرة الى الحبشة كانت مؤقتة ،يلجأإليها المسلمون، يكتشفون بها معالم الناس ، و يتعرفون على مذاهب و عادات الاقوام . و لذلك عاد المهاجرون إلى المدنية موطن الاسلام ، و مستقرة ، و قاعدة انطلاقه إلى العالم كله.

رابعا : إنتهاء المقاطعة :

لم تقف المواجهه بين كفار مكة ، و بين المسلمين عند الهجرة الى الحبشة بل أخذت تزداد عنفا" وشدة لأن كفارمكة فشلوا فى رد المهاجرين إليهم،واعتقالهم بعدما كانوا يتصورونه أمرا" سهلا .

وحينئذ رأى كفار مكة ضرورة القيام بعمل حاسم للقضاء على محمد، ودعوته فلما تصدى لهم بنو هاشم ، وبنو المطلب، و تحصنوا بشعبهم، اتفقوا على مقاطعه بنى هاشم و بنى المطلب، بصورة تامة، لا يجالسوهم،و لا يبيعوهم ، و لا يشترون منهم ، و لا يزوجوهم ، و لا يتزوجون منهم ، و استمرت المقاطعه ثلاث سنوات حتى اشتد الأمر ببنى هاشم، وبنى المطلب، حتى أكلوا ورق الشجر ، و كان يسمع للأطفال بكاء من شدة الجوع .

واستمر الأمر على ذلك حتى أذن الله له بالانتهاء ، يروى ابن كثير ذلك بقوله: (وجمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى المطلب وبنى هاشم و أمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ،

(١) المستدرك ج٢ ص ٦٢٤

و أمرهم أن يمنعوه ممن أرادو قتله ، فاجتمع على ذلك مسلمهم،و كافرهم ،فمنهم من فعل ذلك حمية ، و منهم من فعله إيمانا و يقينا .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، و أجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم و لا يبايعوهم ، و لا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، و كتبوا فى مكرهم صحيفة، و عهودا"، و مواثيق، لا يقبلون من بنى هاشم صلحا" أبدا" ، ولا تأخذهم بهم رأفه حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشم و بنو المطلب فى شعبهم ثلاث سنين ، و اشتد عليهم البلاء و الجهد، و قطعوا عنهم الأسواق، و لم يتركوا طعاما يقدم مكة ، و لم يجدوا بيعا" إلا بادروهم إليه ، فأشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ . فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرا" و اغتيالا له ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه، أو أخوتة، أو بنى عمه ليضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، ويأمر رسول الله ﷺ أ ن يأتى بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف، و من قصى، ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم،ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، و استخفوا بالحق،واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، و البراءة منه،وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد و ميثاق .

و يقال إنها كانت معلقه فى سقف البيت فلم تترك اسما لله فيها إلا لحسته ، و بقى ما كان فيها من ظلم، و شرك، و قطيعة رحم .

و أطلع الله عز و جل رسوله على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب .

فقال أبو طالب : لا و الثواقب ما كذبنى فانطلق يمشى بعصابته من بنى المطلب حتى

أتى المسجد، و هو حافل من قريش ، فلما رأوه عامدا لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء،فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحفية قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعا إليهم فوضعوها بينهم ، و قالوا : قد آن لكم أن تقبلوا، و ترجعوا إلى أمر يجمع قومكم ،فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد، جعلتموه خطرا" لهلكة قومكم، و عشيرتكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا" لكم فيه نصف ، و إن ابن أخي أخبرني – و لم يكذبني – أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، و محا كل اسم هو له فيها، و ترك فيها غدركم ،و قطيعتكم إيانا، و تظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا ،فو الله لا نسلمه أبدا" ،حتى يموت من عندنا آخرنا ، و إن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه ، أو استحييتم .

قالوا : قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: و الله إن هذا سحر من صاحبكم فارتكسوا، و عادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم ، و الشدة على رسول الله ﷺ و القيام على رهطه بما تعاهدوا عليه)"[1] .

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ، و لم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤي و ذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هشام بنت عبد مناف لأمه ، و كان هشام لبني هاشم واصلا ، وكان ذا شرف في قومه فكان فيما بلغني – يأتي بالبعير و بنو هاشم و بنو المطلب في الشعب ليلا قد أوقره طعاما، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبيه فدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره برا فيفعل به مثل ذلك .

(١) البداية و النهاية ج٣ ص ٨٤ ، ٨٥ ، وتذكر رواية أخرى أن الأرضة أكلت كل ما في الصحيفة ماعدا اسم الله تعالى .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أميه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كــانت أمه عاتكه بنت عبد المطلب ، فقال : يازهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب و تنكح النساء و أخوالك حيث علمت ،لا يباعون و لا يبتاع منهم ، و لا ينكحون و لا ينكح إليهم ؟

أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبدا" .

فقال : و يحك ياهشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد،والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

قال قد وجدت رجلا .

قال من هو ؟

قال أنا.

قال له زهير ابغنا ثالثا، فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، و أنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه ، أما والله لئن تخلصتم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

قال: ابغنا ثالثا

قال :قد فعلت .

قال :من هو ؟

قال: زهير بن بنى أمية .

قال :ابغنا رابعا، فذهب إلى أبي البخترى بن هشام فقال نحو ما قال لمطعم بن عدى فقال: و هل تجد أحدا" يعين على هذا ؟

قال :نعم ! قال من ؟ قال زهير بن أبي أمية و المطعم بن عدى و أنا معك

قال: ابغنا خامسا ".

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه، و ذكر له قرابتهم، و حقهم فقال له :و هل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟

قال :نعم ثم سمى القوم ، فاتعدوا عند الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك و أجمعوا أمرهم ؛و تعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وقام زهير بن أبى أمية فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس ، فقال ياأهل مكـة أنأكل الطعام و نلبس الثياب ،و بنو هاشم هلكى لا يبتاعون ،و لا يبتاع منهـم ، و الله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل — و كان فى ناحية المسجد — و الله لا تشق .

قال: زمعة بن الأسود :أنت و الله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

قال أبو البخترى : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها و لا نقر به .

قال المطعم بن عدى :صدقتما و كذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها و مما كتب فيها .

وقال :هشام بن عمرو نحوا" من ذلك .

قال :أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل ،تشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم(١)

و هكذا انتهت هذه الفترة القاسية التى مر بها المسلمون فى مكة ، و جاء الفرج من عند الله تعالى ، و انتهت هذه المقاطعة الظالمة .

و شاءت إرادة الله تعالى بوفاة أبى طالب عم رسول الله ﷺ و زوجته خديجة رضى الله عنها فى عام واحد ، عرف بعام الحزن فكان أن سرى الله تعالى عن رسول الله ﷺبرحلة الاسراء و المعراج .و بذلك تجلت معالم الدعوة العالمية فى لقاء رسول ﷺ بإخوانه الرسل .و بما أوحى إليه.

---

(١) البداية و النهاية ج ٣ ص ٩٦

المبحث العاشر

استمرار الحركة بالدعوة

فى خلال مرحلة الاضطهاد والمواجهة كان الرسول يتحرك بالدعوة فى اتجاهات متعددة، باذلاً ما أمكنة من جهد ، وفكر ، وتوجيه .

فقد عرض الاسلام على القبائل ،وعلى جميع الوافدين إلى مكة فى مواسم الحج و التجارة، وواجه كفار مكة بدعوهم الى الله ، و تلاوة القرآن الكريم عليهم ، و أبدى لهم ما بدعوتة من صدق ، و حق .. و بين لهم أن ما منعهم من الإسلام إلا الجحود، و التعصب، يدل على ذلك أقوال و أفعال نطق بها الكفار .

يقول أبو جهل (يا محمد إنا لا نكذبك و لكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [١]

وغمزه الكفار يوما ثلاث مرات،فقال لهم فى الثالثة:يا معشر قريش : جئتكم بالذبح ، فأخذهم تلك الكلمة ، حتى أن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .
و لما ألقوا عليه سلا جذور و هو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك، و ساورهم الهم و القلق ، و أيقنوا أنهم هالكون.
و دعا على عتيبة بن أبى لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلنى و الله — محمد— و هو بمكة .
و كان أبى بن خلف يتوعده بالقتل .فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا فى عنقه يوم أحد — و كان خدش غير كبير — قال:إن محمدا قال : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتلنى.

و قال سعد بن معاذ — و هو بمكه — لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم — أى المسلمين — قاتلوك ، ففزع فزعا شديدا ، و عهد أن لا يخرج عن

---

[١] سورة الأنعام الآية (٣٣) .

مكة ، و لما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليمكنه من الفرار فقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، أنسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا و الله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا.

و كان "ﷺ" يعيش مع المسلمين يمدهم بالوحي ، و يعلمهم الإسلام و يملأ قلوبهم باليقين ، و يعمل على سلامتهم ، و تحقيق الخير لهم بكل ما أمكنه . من ذلك لما اكتشف المشركون بعض الصحابه في شعاب مكة و هم يصلون مستخفين ناكروهم و اصطدموا معهم ، أمر النبي ﷺ أصحابه بالاجتماع في دار الأرقم لكي يعبدوا الله بعيداً عن أنظار قريش ، و يتعلموا ما يترل من القرآن الكريم [١]

وحين أسلم بعض الغرباء كعمرو بن عبسة ، و أبي ذر الغفاري، أمرهم النبي ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام في قبائلهم من ناحية ، و ليحافظوا على أنفسهم من كفار قريش الذين يفتنون الضعيف ، و الغريب الذي لا ناصر له [٢]

حرص "ﷺ" على متابعة شؤون أصحابه بتقوية هممهم و تثبيتهم عند حلول الشدائد و المحن بهم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم في أماكن تعذيبهم، فيواسيهم بالصبر و الثبات ، و يبشرهم بالجنة ، كما في قوله لآل ياسر و هم يعذبون :" صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة " [٣] ، وهو " ﷺ " هو الذي وجه أبا بكر الصديق لشراء العبيد وإعتاقهم حسبة لله تعالي .

وكان عليه الصلاة و السلام يقوم بزيارة منتظمة لأبي بكر ﷺ كما جاء في حديث عائشة ﷺ :" لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً و عشياً" .

---

[١] سيرة ابن هشام ــ ج ١ ص ٢٧٥ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب مناقب الأنصار ــ باب إسلام أبي ذر ــ ج ٤ ص ٢٤١ .

[٣] أخرجه الحاكم في المستدرك ، وصححه ــ ج٣ ص ٣٨٨ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع الواقع فى حركته للدعوة و هو فى مكة ،و جعل حركته محاطه بالسرية ليحقق ما يريد،ولذلك لم يوجه دعوته لعمر بن الخطاب لشدته ولم يطلب من عمه حمزة الإيمان لقوته ، وإنما تركهما وأمثالهما ليتأثرا بأسلوب مناسب لهما ، رغم أن الخير للدعوة كان فى إيمان عمر وحمزة " رضي الله عنهما " .

لقد كان " ﷺ " يدور على الناس فى منازلهم ، ومساكنهم ، ويستفيد بالمواسم والأعياد ، ويقابل المفكرين والشعراء ليقنعهم بدين الله تعالي .

وكان " ﷺ " يحتاط لدعوته ، ولنفسه وهو يتحرك بالإسلام ، فلقد خـرج " ﷺ " إلى الطائف راجلاً ليلاً مع مولاه زيد ، حتى لا يعلم أحد من قريش بوجهته ، فيعملون على معاكسته [١] .

وعندما كان يتصل بالقبائل فى مواسم الحج لطلب النصرة ، كان كثيراً ما يخرج فى ظلام الليل [٢] ، ولا يعلن ذلك لأحد .

وعندما التقى عليه الصلاة و السلام بوفد الأنصار فىالسنه الثالثة عشرة من البعثة لمبايعته على الحماية، و النصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتىلا يعلم به أحد من أهل مكة .

فكان أول إجراء أمنى اتخذه : هو ضبط الموعد مكاناً ، و زماناً ، بدقه متناهية ؛ فكان **المكان** :" شعب العقبة الأيمن "

والزمان : أوسط أيام التشريق ؛ حيث يكون الناس فى زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم ، وأولادهم .

و **الوقت** : نهاية الثلث الأول من الليل حيث يستسلم الناس للنوم [٣]

وثانى إجـراء : هو الكتمــان الصــارم للأمر ، و خروج المجتمعين مثنى و أفـــراداً

---

[١] الرحيق المختوم ـــ ص ١٤٨ .

[٢] تاريخ إسلام ـــ ج ١ ص ١٢٩ .

[٣] سيرة ابن هشام ـــ ج ٢ ص ٤٩ .

مستخفين ، دون انتظار غائب ، أو إيقاظ نائم [١]

و **ثالث إجراء** : حضوره بعد اكتمال العدد ومعه عمه العباس ، ووضعه عليه الصلاة والسلام حراسة قوية وأمينة فى مداخل الشعب [٢] حيث كلف أبا بكر بالوقوف على فم الطريق ، وكلف علياً بالوقوف على فم الشعب.

و **رابع إجراء** : هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز فى كلامه [٣] و أن يخفض صوته ، حتى لا يطول اللقاء و لا يشعر به أحد .

وبعد ذلك قام "ﷺ" باختيار اثني عشر نقيبا - تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس- لتحمل المسؤلية وقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ... قالوا : نعم .

وبهذا الإختيار بدأت ملامح القيادة الجديدة في المدينة المنورة وبدأت أنظار المسلمين تتجه نحوها ليعيشوا عصر التمكين ، والقوة ، وليؤدوا واجبهم مع دين الله تعالى .

ولسوف نرى فى تخطيط النبى "ﷺ" للهجرة مدى الحرص الذى بذله "ﷺ" ليصل إلى الغاية ، وبالهجرة تبدأ مرحلة جديدة فى مسار الدعوة إلى الله تعالي .

وسوف نوضح ذلك فى الجزء التالي بعون الله تعالي ..

* * *

---

[١] الطبقات ـــ ج١ ص ٢٢١ .

[٢] منهج النبى "ﷺ" فى حماية الدعوة ص ٤١٧ .

[٣] السيرة النبوية لابن كثير ـــ ج ٢ ص ٢٠٢ .

المبحث الحادى عشر

المسلمون فى نهاية المرحلة المكية

اتسـع نطـاق الإسلام ، وكثر عدد الداخلين فيه ، ووصل خبره إلى قبائل العرب جميعاً ، وانتقل المسلمون بالإسلام إلى خارج الجزيرة العربية .

وأصبح عدد المسلمين كثيراً؛فلقد هاجر منهم إلى الحبشة ما يقرب من مائة ، وهاجر منهم إلى المدينة ما يقرب من خمسمائة صحابى وصحابية ، بالإضافة إلى عدد غير قليل آمن سراً فى مكة ، وفى غيرها ، وهم المؤمنون والمؤمنات المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ .

لقد أدى هذا الانتشار الواسع للإسلام إلى ضرورة الهجرة من مكة، لأن كفار مكة أخذوا يبذلون جهدهم لصد الناس عن الإسلام بوسائل عديدة ولم يعد مقبولاً أن يبقى المسلمون مستسلمين للطغاة وحقهم واضح ، فى الوقت الذى أخذ الناس فيه ينظرون إلى ما بين المسلمين وأهل مكة ، ليبنوا عليه موقفاً ، ويتخذوا قرارهم فى الإيمان .

الأمر الذى دعا إلى ضرورة وجود دولة للإسلام ترفع رايته، وتحمى أتباعه ، وهو الذى أراده الله تعالى ، وحققه بالهجرة إلى المدينة المنورة .

* * *

الفصل الرابع

ركائز الدعوة

المستفادة من المرحلة المكية



تمهيد :

لقــد امــتدت المرحلة المكية حتى الهجرة إلى المدينة المنورة ،و وقعت خلالها أحداث عظام ، تقدم أضواء عالية فى حركة الدعوة إلى الله تعالى ، تظهــر الــعبر و الدروس ، و تكشف الطبائع و النفوس ، و تبين ما فى كل موقف من ركيزة ، و مــبدإ مدروس، وتعود أهمية معرفة هذة المرحلة للدعوة إلى إنها تعيش مع المسلمين فى مــرحلة قلتهم و ضعفهم ، و تصور كيف عاش المسلمون بالإسلام صادقين مما أدى إلى انــتقالهم من الضعف إلى القوة ، و من الهوان إلى العزة و الانتصار ، و هى أمور يحتاجها المسلمون المعاصرون .

كمــا أن أحــوال الدعــوة ، و مدى ارتباط المسلمين بالإسلام، يحتاج إلى مراجعة ضرورية لقياس الأحوال على عصر التأسيس الأول ، ليعرف الداء، و يظهر الدواء .

و فى المــرحلة المكــية حدد النبى ﷺ الأسلام بجلاء ، و دعا إليه بوضوح و تلقاه الصــحابه مــنه نقياً ، صافياً ، و عاشوا به ، و عملواله ، و تحركوا من أجله لأنهم تحملوه أمانة ، و مسئولية ، وحاجة شخصية .

إن المســلمين فى كل زمان ومكان عليهم أن يرتبطوا برسول الله " ﷺ " فى أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، وكافة شئوهم ، وهذا يحتم عليهم ضرورة العودة إلى الســيرة النبوية ، وأحداثها ، فهى الصورة العملية ، التطبيقية لتعاليم الله تعالي ، وهى القرآن متحركاً فى السلوك والطاعة .

إن السيرة النبوية هى الوحى المترل فى صورة تطبيقية ، ولذا كانت مدارستها تصويراً حياً للإسلام ، وكان فهمها هو البداية الصحيحة للعمل بالإسلام .

والمســلم الصادق يدرك تماماً أن السيرة النبوية ثقافة روحية ، وفهم للدين ، وإحاطة بالإسلام ناصعاً ، جميلاً .

لهذا و لغيره عقدت هذا الفصل لأطوف مع السيرة، وأتأمل فى حركة الدعوة خلال المرحلة المكية لأبرز أهم الركائز المستفادة منها ، وذلك فيما يلى : ـــ

الركيزة الأولى

المعرفة الشاملة للمدعوين

من أساسيات النجاح فى تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح معرفة المدعوين والإحاطة بالواقع النفسى ، والفكرى،والاجتماعي لهم،لأن ذلك ييسر عملية الدعوة ، ويمكن القائمين على شئوها من وضع الخطط الملائمة للمدعوين ، ومراعاة ما هم عليه من فكر ، ودين ، واتجاه .

إن المعرفة بالمدعوين تمكن الدعاة من مخاطبة القوم بلغتهم ، والدخول إلى عقولهم من الجوانب المؤثرة التى تدفعهم إلى النظر والتفكير .

إن كل جماعة لها خصائصها النفسية ، واتجاهاتها العقلية ، ونشاطها العملى ، وفى هذه الجوانب توجد مفاتيح الولوج لشخصية الجماعة ، ولذاتية الفرد وسط الجماعة .

والمقصود بالجماعة الطائفة من الناس التى تكون مجتمعاً متماسكاً ، مترابطاً بواسطة انتماءات خاصة كالوطن ، أو الدين ، أو التحزب مما يؤلف بين أفرادها جماعة يشملهم تماسك نفسى ، وولاء وجدانى .

إن أى جماعة تعيش مدة ما فى إطار انتماء معين ، تكتسب صفات خاصة ، واتجاهات جديدة ، وتعيش بشعور واحد ، وآمال واحدة .

إن الفرد يكتسب من الجماعة بفعل العدد شعوراً بقدرة لا تقهر، بينما الفرد وحده يردع غرائزه ويخضعها لعقله ، لشعوره بالمسئولية .

إن الفرد وسط الجماعة يذعن لغرائزه طوعاً ، نظراً لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلا ، وغير مسئولة .

إن الفرد فى الجماعة تسرى إليه بالعدوى المشاعر الجماعية، بطريقة لم يتوصل إلى تفسيرها ، وإن كانت موجودة، وتسهل ملاحظتها، وانتقال شعور الجماعة إلى الفرد بالعدوى يسهل للفرد أن يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل الجماعة العامة ،

وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزءاً من جماعة.

لهـذا كان فهم المدعو من أساسيات تكوين الدعاة ، ليتخيروا المنهج الذى يتبعونه حين الدعوة ، لأن أملهم النجاح ، وتحقيق ما يرجون من غايات .

ولعـل الحادثـة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدده من تأثير الجماعة ، فصـاحبها اتخـذ موقفاً من الدعوة، وكادت تصل إلى أعماقه، ويستسلم لها عندما احـتكم إلى طبيعـته الخاصة ، لكنه لحظه العاثر قدرله أن يضع نفسه مرة أخرى فى غمـار الجماعـة، ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد ابن المغيرة فقد روت كتب السيرة أن النبى " ﷺ " قام فى المسجد يصلى ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطـن النبى " ﷺ " لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه مـن بنى مخزوم فقال : (**والله لقد سمعت من محمد " ﷺ " أنفاً كلاماً ، ما هو من كـلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه**) ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالـت قـريش : صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها ، فأوفدوا إليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه إلى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمداً " ﷺ " مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟

تـزعمون أنـه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذباً ؟

يسـألـهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال ، حتى أعياهم أن يردوا كلامه ، فقال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فقال : دعني حتى أتفكر .

ثم قال : ما هو إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين .

ومن هنا كان لابد من تثبيت الإيمان فى القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هــذه الموانع النفسية ، ولانكتفى بجعله إيماناً عقلياً بارداً،لا بد أن يتحول اليقين إلى إيمان وجداني،حاكم على القلب،راجح على ما يخالفه من رغب، ورهب، وأمل، وألم ولن يتهيأ ذلك إلا بأن نتوجه إلى كل منافذ التأثير فى الإنسان،وهو وحده ، أو وهو فى جماعــة لنصل مــن خلالها إلى ما نريده من جعل الدعوة فى قرار مكين،وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير بها السلوك.

يقــول الدكــتور / محمد رجب البيومي : إذا كان القرآن الكريم قد أوتى الإقناع المنطقى الملزم ، فإنه لا يتجه بحديثه إلى الفكر وحده، فيلزمه الحجة، مكتفياً به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفى فى الجــذب والتأثير ، فلابد معها من غزو مناطق الشعور ، وبعث كوامن العواطف ، حــتى يتهيأ السامع إذا سمع ، والقارئ إذا تلا ، إلى انجذاب نفسى يدفعه إلى أشرف المبادئ، وأحكم المثل .

ولوكانــت المعــرفة وحدهــا كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المخلصة دليل المهتدى ، إذا قرئت ودرست، ولكنك تشاهد الناس يقرأونها مقتنعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدى إليه ، إذ أن العلم شئ ، والسلوك الإنسانى شيء آخر ، لذلــك اتجــه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الحجة والبرهان ، ليغزو مناطق الشعور الإنسانى بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلى بحججه ، فجاء التصوير البيانى فى القرآن الكريم آية الآيات فى الروعة والإعجاز [1] .

والإنســان ســواء أكان منفرداً أم فى جماعة، يجمع فى طبيعته من الملكات المــتعددة ما يجعل إهمال بعضها إهداراً لجانب من الطبيعة الإنسانية، خلقه الله تعالي ليقوم بدوره ، ويؤدى وظيفته .

---

[1] البيانى القرآنى ــ ص ٧٨ .

وحين اتجه علماء الكلام إلى العقل وحده ، ماذا كانت الثمرة التى جناها الإسلام من وراء جهودهم الخارقة التى ظلت قروناً وقروناً تبدىء، وتعيد، فى حجج عقلية، باردة ، لا تثير وجداناً، ولا تدفع إلى عمل ؟ ! !

إن علينا أن نلتقى بالإنسان فى قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعاً ، نتعامل مع العقل بماله من قوة الإدراك والتميز ، ونتعامل مع الوجدان بإعتباره وعاء الأحاسيس، والمشاعر، التى تنشأ عن التأثير بما يسر،ويؤلم ، ونتعامل مع الإرادة بإعتبار ما تتخذه من قرارات هى النتيجة النهائية لاستجابتها أو رفضها للدعوة ، ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض ، والإيمان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها .

يقول الدكتور / محمود حب الله : فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان — الوجدانية والإرادية والعقلية — ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ، ولا ترضى نفس المرء، ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته، ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معاً على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شيء من التضارب بين قواه المتعددة ، حول عقيدة من العقائد ، بل إنسجام ووئام ، فيوجد قبول عقلى ، واطمئنان قلبى ، والتقاء مع الإرادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة [١] .

ثم يقول : وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة احتاجت ، فى وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى [٢] .

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلابد لنا — كى نصل إلى التأثير فيه — أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها، لأن الفرد فى جماعة يواجه واقعاً يحدث

---

(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية — ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤ .

فى طبيعته بعض التعديل عنه وهو وحده، حيث ينشط جانبه الوجدانى ، بسبب تفاعل مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة على ملكاته الخاصة .

وقد سبق أن رأينا أن رسول الله " ﷺ " بعث إلى العالم كله ، ولذلك عرفه الله بطبائع الناس ، وواقع المجتمعات المختلفة عن طريق القصص القرآنى الذى نزل أغلبه فى مكة قبل الهجرة .

وقد احتوى القصص القرآنى على نماذج من المجتمعات البشرية ووضح خصائصهم ، وحدد أساليب مخاطباتهم حيث تراه يصور الملأ ،والضعفاء ، ويجلى حقيقة المنافقين والمشركين ، ويبين دور السفهاء والمترفين بين الناس ... إلخ .

وبذلك قدم القصص القرآنى تحليلاً صحيحاً للنفوس،والعقول للناس أجمعين .

إن الهيكل العام للقصة القرآنية يأخذ صورة واحدة، فهو قائم على دعوة الله يقدمها الرسول إلى قومه ، وإلى من أرسل إليهم ، فيقف المدعوون موقف المعارضة والإنكار،فيأخذ الرسول فى محاورتهم ، والرد عليهم ، ويناقشهم فى شبههم ومعارضاتهم ، ويبين لهم الصدق بأدلته ، ويحدد لهم بطلان ما هم عليه ببراهينه ، ويطوف بهم خلال الحوار مع طبيعة النفوس، واتجاهات العقول ، وميول الوجدان .

إن القصص القرآنى يبرز ملامح أشخاصه ومنهجهم فى الجدل والحوار ، وموقفهم من الحق ، وبذلك يقدم للدعوة والدعاة صورة حقيقية للمدعوين .

وينتهى القصص القرآنى دائماً ببيان عاقبة المؤمنين،ومصائر الضالين المكذبين .

والواضح من هذا ما رأينا فى تنشئة النبى " ﷺ " فلقد عاشر الرعاة ، وعاش مع فئة العمال والأجراء ، وتعامل مع التجار وسادة الناس ، وكان له مع الملأ مواقف وتصرفات ، وانتقل إلى عديد من الأماكن حيث سافر إلى المدينة ، وإلى بلاد الشام ، وتربى فى بادية بنى سعد .

ويكفى حياته المكية لأن مكة فى ذلك الزمان كانت تحتوى على كافة أنماط المجتمع البشرى، حيث جعلها الله بوتقة تضم كل ألوان، وأطياف البشر ، لتكون معمل الخبرة والتجربة لرسول الله " ﷺ " وللدعوة إلى الله تعالى .

إن معرفة المدعوين ، والوقوف على المثيرات الوجدانية، والعقلية ضرورة للدعوة ، وحتى لا يحدث إنفصال بين الداعية والناس .

لقد كان رسول الله " ﷺ " يحدث كل قوم بلغتهم ، وفى كل أمر يهمهم ، وحين يقدم لهم الآيات الدالة على صدق الدعوة إختار الأدلة المناسبة ، فإن كانوا من أهل الزرع خاطبهم فى الأشجار ، والنبات ، والثمار ، وإن كانوا من أهل البحر خاطبهم بالماء ، والسفن ، واللؤلؤ والمرجان ...وهكذا .

إن خطاب العالم يختلف عن خطاب العامى بالضرورة ، كما أن الحديث مع الكبير ليس كالحديث مع الصغير ، والقضايا التى تحرك الرجل ليس هى التى تحرك المرأة .

والإنسان كما يتأثر بالجماعة يتأثر بالبيئة،والثقافة ، والتوجه العام للمجتمع . فالإنسان الشرقى يختلف عن الإنسان الغربى ، والعربى غير العجمى ، ومن ثقافته علمية ليس كمن ثقافته فنية أدبية ... والإنسان فى مجتمع مستقر يفكر بطريقة تغاير الإنسان فى مجتمع مضطرب قلق .

وهذه نماذج لمدى تنوع الناس ، وتعدد بؤر التأثير فيهم ، مما يؤكد ضرورة تفاعل الدعاة مع المخاطبين ، ومخاطبتهم بما يناسبهم [١] .

وفى العصر الحديث رأينا مدى تأثير الدعاة فى أقوام يتفاعلون معهم ، وما كان ذلك إلا بسبب معرفة الدعاة الشاملة بواقع المدعوين وطبائعهم.. الأمر الذى مكنهم من مخاطبتهم بالحسنى، ومناقشتهم بالدليل المقنع ، والبرهان السديد .

---

(١) لقد عاصرت مجموعة من الدعاة أرسلهم الأزهر الشريف - مشكورا - للدعوة فى بعض البلدان الإفريقية لكنهم لعدم معرفة لغة وأحوال الناس ظلوا مدة طويلة يعلمونهم مبادئ اللغة العربية ، ولم يتمكنوا من تبليغهم دين الله تعالى .

الركيزة الثانية
دور الداعية
بين الله والناس

إيصـــال الإسلام للناس فن لا يقدر عليه الجميع ؛ ولذا كان من الضرورى إيجاد داعية ، يملك القدرة على أداء هذه المسئولية .

إن الدعوة تحـــتاج إلى داعـــية متصف بصفات عديدة تجعله قادراً على القيام بواجب الدعوة على الوجه الذى يرضى الله ورسوله .

وأول هـــذه الصـــفات عـــراقة الأصل ، وشرف المنزلة، لأن الناس تعودوا الخضوع لعلية القوم ، والاستماع لأصحاب المنزلة فيهم .

وقد علم النظام القبلى أهل مكة أن يكون لكل قبيلة شيخ،ولكل فخذ رئيس يأمر فيطاع ، ويحتاج فيعطى ، ولذلك وجب أن يكون الداعية بين الناس متميزاً فيهم بكـــرم الخلق ، وعلو المنزلة كما كان رسول الله " ﷺ " فهو من خير العرب نفساً ، ومن خيرهم نسباً ، فهو خيار من خيار .

ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الدعاة أن ينشأوا نشأة عملية ، يعايشون فيها الـــناس على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم ، وثقافاتهم كما أكرم الله رسوله " ﷺ " بمعايشة بنى سعد ، والرعاة ، والتجار واليهود ، والنصارى ، وأهل مكة ، الأمر الذى مكنه بعد ذلك من التعامل الجيد مع الناس جميعاً .

وممـــا يجـــب أن يتحلى به الدعاة مكارم الأخلاق ، لأن ذلك أدعى للثقة ، وأقوى فى التصديق .

وهذا هو رسول الله " ﷺ " أشتهر بين قومه بالصدق والأمانة ، وكان الغرباء عن مكة يسألون عن خلق رسول الله فإذا علموا تميزه بالخلق الكريم أقبلوا عليه .

والداعـــية وارث النبى " ﷺ " فى مهمته الإرشادية ، والقائم مقامه فى إبلاغ ديـــن الله ، وكان النبى " ﷺ "يرشد المسلمين إلى ذلك ، فقال لأصحابه (**ألا ليبلغ**

الشاهد منكم الغائب)[١] ، وقال (تسمعــون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم)[٢] .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها ، فما صح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد ، وتهمل سواه ، وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يتجمعوا كافة على غرض واحد ، ولو كان هو الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[٣] .

يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى الآية:ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبى "ﷺ" وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة،هى السرايا فإذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع رسول الله" ﷺ " وذلك معنى ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أى يتعلم القاعدون ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرونه[٤]،وبمثل ذلك فسر مجاهد وقتادة الآية .

وهذا التفسير ينهى عن التجمع الكامل للنفير، ويحث على بقاء جماعة مع النبى " ﷺ " لمتابعة تعاليم الدعوة، وذلك هام فى حد ذاته، لأن التفقه للدعوة أمر ضرورى ، وهذا الوجه فى تفسير الآية مقبول[٥] لأن النبى مصدر العلم ، والقعود معه يحقق التفقه والتعليم ، من غير سفر أو رحيل .

---

(١) صحيح البخارى ـــ ج ١ ص ٣٧ ـــ كتاب العلم ـــ باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

(٢) الفتح الربانى ـــ ج ١ ص ٢٦٤ ـــ كتاب العلم ـــ باب فضل تبليغ الحديث .

(٣) سورة التوبة الآية (١٢٢) .

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٨٧ .

(٥) وهناك توجيهات أخرى للآية وهى أن تخرج طائفة مع النبى " ﷺ " ، أثناء الجهاد قصد التفقة ليعلموا غيرهم بعد الرجوع إليهم فى المدينة ، أو تعليم المجاهدين إذا التقوا بهم بعد المعركة .

وإن طلب جماعة لعلوم الدعوة فرض كفاية، كالجهاد تماما؛ لأنهما معاً يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف ، وإلى حمايته قوياً بلا اعتداء، بل إن الدفاع عن الدين بالكلمة أحياناً يكون أجدى من الجلاد عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبي [١] من قوله ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أن الدعاة المنذرين قائمون مقام النبي " ﷺ " لأن الله قال له ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾فالإنذار فى الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعده على وتيرته .

ولئن كانت مهمة النبي فى زمنه " ﷺ " صعبة فإن مهمة الدعاة اليوم كذلك لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة، ومجادلة المخالفين بالحسنى ، وما أكثرهم اليوم ككثرتهم أيام النبي " ﷺ " .

ولئن كان الوحى يتزل بالدين على رسول الله جزءاً جزءاً فإن ما نزل منجماً قد جمع وحفظ كله ليبقى بجملته مع الدعاة زاداً لهم،وأملاً لدعوتهم فى النصر والبقاء .

ولئن عز الأشخاص المميزون فواجب على الأمة المسلمة أن تتخير وتعلم ، وتدرب ، وكما تبذل جهوداً لتخريج الأطباء ، والمهندسين، والضباط فعليها أن تبذل الكثير لإيجاد الداعية الكفء الذى يفيد الدين ، والناس جميعاً .

والدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون، الحاملون صوت النبوة، المكلفون بالوصول بها إلى كل مكان فى الوجود .. وقد قدر الله للدعوة أن تظل باقيه فى كتبها محفوظة بأمره، لكن الذى يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفء الذى يتخذ الرسول أسوته، ويحاول أن يستجمع ما أتصف به على قدر طاقته و﴿ لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

ولابد فى تكوين الداعية أن يكتسب بعض الصفات الضرورية التى تجعله ذا صلة قوية

---

[١] الموافقات ج ٤ ص ٢٤٥ .

بالله تعالى ، الذى يحمل رسالته ، ويبلغ دينه ، ويعيش مع وحيه سبحانه وتعالى ، كما تجعله قوى الصلة بالناس فهم مجال حركته ، ومقياس نجاحه ، وأمله كله ينحصر فى هدايتهم .

إن الداعية يحتاج إلى هذين الجانبين لأهميتهما له :ـــ

أولا : تقوية صلته بالله :

الداعية مرشد إلى الخير ، وموجه نحو الهدى ، وكل هدفه أن يعرف الناس بربهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولاً أن يمتن صلته بالله فى يقين وقوة،ويجعل إيمانه قائماً على تفرغ القلب الكامل لمولاه ، والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ، والتسليم التام لكل ما يأتى به من غير ارتياب ـــ أو حرج ـــ لتكون الدعوة بذلك نابعة من قوله وفعله ، وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم،كتاب الدعوة الذى هو دستوره وهاديه ، ومن آياته يعلم أن الله واحد، متره عن الشريك فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة فى مفهومها ودلالاتها ، أنظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [1]

تراها قد صرحت بوحدانية الله من غير غموض ، بل إن القرآن يدافع عن هذه الوحدانية فيدعو إلى ترك ما عداها فيقول ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [2] ويتجه بالدليل العقلى لمن يريده فيقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [3] .

---

[1] سورة الصافات الآية (٤) .

[2] سورة النحل الآية (٥١) .

[3] سورة الأنبياء الآية (٢٢) .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل كمالاتها بإثبات الصفات والآثار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [1] وقوله : ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [2] فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود، قديم، حى، باق، عليم، مريد، قادر سميع، بصير، متكلم ، وبإثبات هذه الصفات تنتفى اضدادها ، والصفات وإن تشابهت ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هى فى الحقيقة لأن الله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [3] .

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل، الدافع إلى الإيمان بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية فى المخلوقات، ليتم إيمانه، ويحس طمأنينة خاصة تمر بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى فى داخل النفس وخارجها ، والمخلوقات عديدة ، والنظر فيها يبين الدقة الإلهية، والعناية الربانية،ويؤدى إلى الإيمان المطلوب،فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمى، وآخر للتنفس، ومن ظاهر به حواس وجوارح ، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظيفتها بطريقة تلقائية .

وقد وزعت الأعمال فى براعة ودقة على كافة الأجهزة ، ليقوم كل بدوره ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتكلم ، والرجل تمشى ، والأسنان تمضغ ، والمعدة تهضم ، والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى **العناية والدقة** الموجودة فى خلق الله تعالى ، وهو الأمر الذى جعل العلماء يرون فى القرآن الكريم أدلة خاصة به سموها : —

(١) أدلة العناية والدقة .

---

[1] سورة الحديد آية (٣) .

[2] سورة الرعد الآية (١٦) .

[3] سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) أدلة الحسن والجمال .

(٣) أدلة الغاية والقصد .

وهذه أدلة تجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته لها ونظره فيها .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [١] ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع، وحكمته، وتدبيره ويكفى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشرى فى ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفى بواطنها وظواهرها عجائب الفطر وبدائع الخلق، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وخصت به من أصناف المعانى، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما فى تركيبها وترتيبها، ولطائفها من الآيات الساطعة، والبينـــات القاطعة ، على حكمة المدبر، دع الأسماع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح ، وتأتيها لما خلقت له ، وما فى الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثنى ، فإنه إذا جسا شئ منهـــا جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل [٢] .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المملوء بالآيات البينات والعجائب الرائعة التى يجب النظر فيها ، يقول تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

إن الداعية وهو يلازم الدعوة عليه أن يفكر فى هذا، وفى غيره، ليؤمن الإيمان الواجب، ويعلم من غير تردد حق الله الذى آمن به فيؤديه .

وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس فى أداء هذا الحق فقال تعـــالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

---

[١] سورة الذاريات الآية (٢١) .

[٢] تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

يقول الزمخشرى أن معنى الآية ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة و لم أرد من جميعهم إلا أياها [١] ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبها ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وكان النداء الأول فى دعوة كل رسول هى ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾لأن الإيمان بالله الخالق، والتسليم له يقتضى حتماً، وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .

إن العبادة هى الحبل الوثيق الذى يربط الإنسان بالله، وليس هناك سبيل سواها ، والله قريب من عباده قرباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فيعبد الله مخلصاً له الدين،ويتفرغ بكليته فى عبادته،ولذلك فعبادته غذاء روحى،ترقى به ذاته، وتذكره بالسلطان المطلق، وتسمه بحسن الخلق، وكريم المعاملة، وذلك كله سر العبادة وحقيقتها فمثلاً عن الصلاة ـــ كعبادة ـــ قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها لأن إقامة الشىء يعنى الإتيان به مقوماً، كاملاً، يصدر عن علته، وتصدر عنه آثاره ، ومن المعلوم أن الغاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [٢] وآثارها تظهرعلى المصلى ذاته لأنها : ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [٣] وهى بالإقامة عبادة حقة، فيها خضوع كامل، ناشىء عن إحساس يقينى بعظمة الرب القادر سبحانه وتعالى، ويتبعها أثرها المراد الذى يظهر فى البعد عن كل باطل، والتخلق بكل حسن جميل ، وهكذا كل عبادة تعطى للنفس جرعة من الذكر، وجزءاً من السعادة .

ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر ، فإن القوم جميعاً : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [٤] وقدقال لهم الرسول " ﷺ " ﴿ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [٥] ولذلك فهم

---

[١] تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١ .
[٢] سورة طه الآية (١٤) .
[٣] سورة العنكبوت الآية (٤٥) .
[٤] سورة البينة الآية (٥) .
[٥] سورة الزمر الآية (١١) .

بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [1] أنظر إليهم تجدهم : ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [2] لا يفارقون ذكره فى لحظة من لحظات الحياة، وكذلك يذكرهم ربهم ، ففى الحديث القدسى : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملأ خير منه) [3] ، وهم فى ذكرهم الدائم يتقلبون بين الخوف والرجاء ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [4] .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الـــذى رسم الدين إطارها، وحدد شعائرها، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، بل إنه فى كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام والخاص معاً ، فاجتماعياته عبادة يفعلها لله رب العالمين، والسعى فى معاشه، والتعاون مع أهله عبادة يؤديها، ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً فى سبيل الله بمن خرج سعياً على المعاش فيقول تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [5] .

إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد فى علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض ويطعم الجائع، ويسقى العطشان ، ويرفع الأذى من طريق الناس ، ويدفع إلى السعي

---

[1] سورة المجادلة الآية (٧) .
[2] سورة آل عمران الآية (١٩١) .
[3] صحيح البخارى ج٩ ص ١٣٩ .
[4] سورة السجدة الآية (١٦) .
[5] سورة المزمل الآية (٢٠) .

والضرب فى الأرض ، وهكذا ، يؤديها الداعية بهذا الفهم وبتلك النية ويسلمها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل فى عالم الروح لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائياً بالله ، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه، محباً هائماً فى تعلقه به ، لأنه بإيمانه أشد حباً لله لأنهم كما عرفهم ربهم بقوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1] والدعاة عباد الله بحق ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾لأن الله يحب المتقين، والمحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع والطاعة ويبحث عن المعروف ليفعله، ويأمر به، وعن المنكر ليجتنبه، وينهى عنه ، وبسبب استغراق الداعية فى ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه ، ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق الهدوء التام ، ألا تراها كانت علاجاً لرسول الله " ﷺ " يوم أن أكثر القوم من أكاذيبهم ومفترياتهم حتى ضاق صدره بما يقال ، فوجهه الله إليها علاجاً له فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[2]،ووجهه إليها كذلك إذا أحس بالنصر والفوز شكراً ورضى،فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾[3] .

والعبادة بدورها لا تجد عسراً فى القيام بمهمتها فى الشدة، أو الرخاء لأنها تعايش إنساناً منفعلاً بها،ومسلماً بأنه مخلوق يتصرف كإرادة الخالق ويؤمن أنه : ﴿ مَّآ

---

[1] سورة البقرة الآية (١٦٥) .
[2] سورة الحجر الآيات (٩٧ ـ ٩٩) .
[3] سورة النصر .

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] .

إن هذا الإيمان الراسخ (**من الداعية**) الذى استتبع عبادة مخلصة صادقة، وحباً هائماً شاملاً، يؤدى بصاحبه حتماً إلى التوكل الدائم على الله، والاستسلام له بلا تردد، لأنه ما دام قد ثبت فى نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا فاعل إلا الله، واعتقد فيه تمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وآحادهم وأنه ليس وراء منتهى قدرته، وعلمه، ورحمته، قدرة، ولا علم،ولا رحمة، فإنه متكل لا محالة على الله ، مستمر فى انفعاله الروحى الصادق،لأن الله معه فى كل آن وحال .

ولتمام توكله تجده يسلم أمر رزقه إلى الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [2] ويترك كل شيء لإرادة الله لأن المسألة هى : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ ﴾ [3] ويشكر النعم ويصبر على المكروه : ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [4] .

وعلى الجملة فإن المرء كما يقول الحكيم الترمذى : (من نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بصيرته بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت نفسه ، وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وسعدت بربها الخالق،وائتمنته على نفسها،فرضيت به وكيلاً، وتركت التدبير عليه ، فإن وسوس له عدوه بالرزق، والمعايش لم يضطرب قلبه، ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأنه رؤوف رحيم،وأنه حليم ودود،وأنه رب عفو غفور،وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء ، وأنه يجير ولا يجار) [5] .

---

[1] سورة الحديد الآية (٢٢) .
[2] سورة الذاريات الآية (٥٨) .
[3] سورة يوسف الآية (٦٧) .
[4] سورة إبراهيم الآية (١٢) .
[5] الرياضة وأدب النفس ص ٩٣ .

وبهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيراً فى كافة الجوانب ويملك القدرة على الدعوة والبلاغ ، وحينئذ يمكنه أن يفيض على الناس بما امتلأ به ، فكل إناء بما فيه ينضح ، والظل فى استقامته ، وامتداده يشبه أصله .

إن داعية متمتعاً بهذا اليقين يخدم الدعوة أكثر من آلاف ضعف إيمانهم ، وهذلت عقيدهم ، لأن هؤلاء الآلاف يضرون ، ولا يفيدون، وقد أتى الإسلام من قبلهم .

ثانيا : توثيق إرتباطه بالناس :

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ما سبق فإن ذلك يفيد شخصه أولاً وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس فمعهم تكون دعوته، ولهم ينشرها، وبهم يحقق نصرها وفوزها ، وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه :

أولا : أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه .

ثانيا : محل الثقة والنظر لما له من صفات ولما ينادى من مبدإ .

ثالثا : رائد الجماعة وزعيمهم ، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس فى فهم وتقدير ، ويتآلف معهم فى مودة ، ويتحلى بما يضعه فى الريادة من غير منازعة وشكوك .

والناس جميعاً إخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد، هو آدم أب البشر أجمعين ، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك ، ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه، أو طبيعته، أو عنصره، وإنما التفاوت بشىء خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان، أو عمل، أو إخلاص ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية فى شىء وقد وضح الله هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1] .

---

[1] سورة الحجرات الآية (١٣) .

يقول الزمخشرى: إن معنى الآية، فما منكم منم أحد إلا وهو يدلى بما يدلى به الآخر، سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر، والتفاضل فى النسب [١] وذلك شىء طبيعى لأن الإنسان خلق مكرماً كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ [٢]، يقول الألوسى: أى جعلناهم قاطبة برهم، وفاجرهم، ذوى كرم أى شرف ومحاسن [٣] وهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات فى القرآن الكريم مصدرة بـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ تنويهاً بهذه الصفة العامة التى يأخذ منها أى إنسان بقدر ما يأخذ الآخرون سواء بسواء.

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان فى دعوته، ولا يفرق بينهم بسبب غنى، أو حسب، أو ما شاكل ذلك، فلا يدعو القوى تاركاً الضعيف، أو يخص غنياً مهملاً الفقير، أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم، وذلك لأن دعوته عامة للجميع، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم، والكل محتاج إليها، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه، ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالى، ولقد أودع الله للدعاة دراساً فى هذا الباب بما حدث من النبى " ﷺ " مع عبد الله بن أم مكتوم، فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لا يتحقق عن عمل النبى " ﷺ " فى مجلسه، فدخل عليه طالباً التعليم، فى الوقت الذى كان النبى " ﷺ " مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش، وكونه أعمى يعطيه العذر فى عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال، وسبق القرشيين فى الحضور يعطى النبى " ﷺ " عذراً فى إمهال عبد الله، خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل، والقرشيون لم يسلموا بعد، وفى إسلامهم إسلام غيرهم، رغم ذلك فقد عوتب النبى " ﷺ " فى هذا الموقف

---

(١) تفسير الكشاف ج١ ص ٥٦٩.
(٢) سورة الإسراء الآية (٧٠).
(٣) روح المعاني ج ١٥ ص ١١٧.

حتى لا يقال أنه أهمل عبد الله لفقره وعماه ، وأهتم بغيره لجاهه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاة بالأشياء الظاهره ويفرقون بين بعض الخلق وبعض بما ليس لهم به سبب ، فقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾[1] .

إن النبى " ﷺ " فى هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة ويسعى إلى إسلام القوم وتزكيتهم، باذلاً من نفسه جهداً، وعملاً، كما تفيده التاء فى " تصدى " والقوم الذين تصدى لهم النبى " ﷺ " هم عتبة، وشيبة، ولدا ربيعة ، وأبو جهل، والعباس ابن عبد المطلب،وأمية بن خلف،والوليد بن المغيرة، وهم قادة مكة ورؤساؤها مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم[2] ولذلك بقى مستمراً فى دعوتهم ، فلما جاءه عبد الله ودعاه لم يقطع حديثه معهم ، وإنما أعرض عنه ، فكان العتاب موعظة ترسى مبدأ إسلامياً هو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً ، يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

الركيزة الثالثة

صفات الدعاة

الداعية رائد فى مجتمعه ، يقود بالحسنى ، ويدعو إلى الحق والصواب ، وينادى بالخير المطلق للناس أجمعين .

وهذه المهمة التى يقوم بها الدعاة تحتاج إلى شخصية ذات مواصفات معينة تساعد على القيام بهذه المهمة الخطيرة ، الشاقة .

---

[1] سورة عبس الآيات (١ - ١٠) .

[2] تفسير الكشاف ج٤ ص ٢١٨ .

إن الدعوة فهم دقيق للإسلام ، وتقدير صحيح لمخاطبة الناس ، ومهارة فائقة لمواجهة المواقـــف المفاجئة ، وذكاء فريد للبيان والتفصيل ، والدفاع عن الحق ، وإزاحة الشبه والزيوف .

لهذا وغيره أرى حاجة الدعاة إلى صفات تعينهم فى تبليغ دين الله للناس .

ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى أطر رئيسية هى : ـــ

أولا :صفات التكامل الذاتى،وأهمها الصدق، والأمانة ، والإخلاص ، والذكاء

ثانيا : صفات الترابط والمودة ، وأهمها الحلم والتواضع ، والقناعة،والكرم .

ثالثا : صـــفات الريادة والتوجيه .. وأهمها المشاركة الوجدانية ، والقوة ، والشجاعة .

وهذه الصفات تحتاج إلى بيان ...

" أولا "

صفات التكامل الذاتى

يبعث الله رسله بعد بلوغهم سن الأربعين ، لنه حد الرشد ، وبلوغ العقل ، يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾لأن كمال الرشد يساعد على تكميل الغير ، ونحن هنا نشير إلى أهم الصفات البارزة فى الشخصية الكاملة لتكون منارة فى تنشئة الدعاة ، وتوجيههم نحو النجاح فى مهمتهم .

إن تـــأثير داعية واحد،يتميز بالصفات المنشودة أفضل من تأثير مئات الدعاة الذين اتخذوا الإمامة والدعوة،وظيفة يكفيها حضور الأوقات والإنصراف من المسجد

سمعـــت مـــرة أحد العلماء يقول : إنى أومن بالواحد ، فظننته يتحدث عن الإيمـــان بالله تعالى الواحد ، الأحد ... ولكنه بين أن مقصده الداعية المثالى ولو كان واحداً ، لأن الكثرة ، غير المهيأة لا تفيد مثله .

ومع آمال المؤمنين المخلصين أرجو للدعاة أن يكونوا على مستوى دعوة الله تعالى .

وأهم صفات الكمال الذاتى ما يلى : ــ

١ ـ الصدق :

والصدق فوق أنه فى حد ذاته سلوك سام، وصفة راقية، فهو منبع الثقة، وأساس التسليم، لأن الصادق لا يخالف الواقع ، وكل قوله مسلم، لا يحوم حوله شك، أو تكذيب .

والصدق فى الداعية ضرورة، لأن ما يذكره ليس رأياً شخصياً، ولا اجتهاداً ذاتياً، لأنه مبلغ دعوة الله كما جاءت،ومبين لغوامضها،وناقل كل بيان قيل فى شأنها ، وكل هذا يحتاج إلى صدق فى التبليغ، ودقة فى النقل والبيان، حتى يتيقن المدعو من أن كل ما يسمعه من الداعية هو رسالة الله، وأن الدعوة كما بدت من قوله هى هى كما تركها رسول الله " ﷺ " بلا تزيد أو انتقاص .

ولذلك كان من الحكم الخالدة فى رسالة الإسلام أن أهم صفة اشتهر بها النبى " ﷺ " هى صفة " **الصادق الأمين** " وقد ذكر النضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : (**هو أصدقكم حديثاً**) [١] ، ولما سأل هرقل أبا سفيان (**ولم يكن قد أسلم بعد**) عن محمد قائلاً:وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه : لا .

فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [٢] ، وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لا نعلمها إلا من مبلغها ، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله ، أما من إلتزم الصدق مع البشر فهو صادق حتماً مع الله سبحانه وتعالى .

ولما بدأ النبى " ﷺ " يجهر بدعوته سأل الناس (**لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقى ، قالوا جميعاً : ما جربنا عليه كذباً**) [٣]، وإنما

---

[١] سيرة النبى ج ١ ص ٣١٩ .
[٢] صحيح البخارى ج ١ ص ٥ ، ٦ ـ باب بدء الوحى .
[٣] صحيح البخارى ج ٦ ـ كتاب التفسير ـ باب تبت يدا أبى لهب .

بدأ معهم بإظهار إقرارهم بصدقه ليوضح لهم أن دعوته لهم هى الحق ، لأنه لم يعهد فيه الكذب قط .

وقد كثرت التنبيهات والتوجيهات فى القرآن الكريم والحديث النبوى لإلتزام الصدق فى كل شيء فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

ويقول النبى " ﷺ " (**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة**) [١] بل يصل الأمر فى أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم،لأن الإسلام فى حقيقته نبذ للأوهام ،وبعد عن الباطل، وهو بذلك يتناف مع الكذب، ومن افتراه ليس مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [٢] .

وسئل النبى " ﷺ " (**أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا**) [٣] .

وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذى هو فى أشد الحاجة إلى أن يتبع، وبغير الثقة فى صدقه لا يكون هناك اتباع، ألا ترى أخوة سيدنا يوسف " عليه السلام " حينما احتجز أخوهم " بنيامين"عند يوسف " عليه السلام " ذهبوا إلى أبيهم قاصين ومن أجل أن يثق فى قولهم قالوا : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [٤] بل إن رسل الله إلى لوط " عليه السلام " يقولـــون له : ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [٥] فتجدهم يظهرون صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد، فيها، ليكون ذلك أدعى إلى السماع،

---

(١) موطء مالك ج٤ ص ٢٢٧ ـ ما جاء فى الصدق .
(٢) سورة النحل الآية (١٠٥) .
(٣) موطأ مالك ج ٤ ص ٢٢٨ ـ ما جاء فى الصدق والكذب .
(٤) سورة يوسف الآية (٨٢) .
(٥) سورة الحجر الآية (٦٤) .

وأسرع فى الموافقة، لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر، لأن الإقناع لا يتم إلا بالأمر الواقع، ويعيش التصديق دائماً مع الحق والثبات ، ومن أكثر من الدعوة حاجة إلى الإقناع والثبات !!!.

صحيح أن الدعوة تحمل فى طياتها عناصر الثقة بها، من واقعية فى التشخيص ودقة فى الإسعاد ، لكن هذا لا يعفى الداعية من ضرورة الثقة فيه أيضاً، لكى تصغى إليه الأذان ، وتسمع العقول، وتفكر الأفئدة، وبعدها يكون قد أدى ما عليه .

٢ ـ الأمانة :

ومما يلازم الصدق صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس،من قول، أو عمل، ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقـول ﷺ "**كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق،وأنت له به كاذب**"[١] ولذلك أمر الله المسلم بأن لا يخون فى أى جانب من الجوانب حيث قال تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[٢]

وكما ارتبط الإيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة ، ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما أشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم ومن لم يسلم ليتحقق خير كثير للدعوة .

٣ ـ الإخلاص :

يحتاج الدعاة إلى الإخلاص لله تعالى وهم يبلغون دينه ..

والمقصود بالإخلاص أن يكون العمل كله لله ، لا يداخله غرض آخر ، وأن يبحث فى كل أقواله ، وأعماله ، وأحواله عن مراد الله وتوجيهه فيما سيقوم به .

وقدوته فى ذلك رسول الله " ﷺ " الذى عاش عمره للدعوة و لم ينظر لشيء آخر . عرض عليه كفار مكة المال ، والملك ، والسلطان ، والمرأة ليترك الدعوة ، فكان رده واضحاً بأنه لن يتركها ولو ملكوا قوى الكون وأعطوها له فى يده ، وتحت تصرفه[٣]

---

[١] البخارى ـ باب الأدب المفرد .

[٢] سورة الأنفال الآية (٢٧) .

[٣] انظر ص

ولصدق إخلاصه " ﷺ " لدعوة الله تعالى تحمل فى سبيلها الكثير ، فقد أوذى فى نفسه ، وولده ، وسائر جوانب حياته ، وظل صابراً محتسباً ، راجياً رضوان الله تعالى ، لذلك وجب على الدعاة أن يعيشوا للدعوة ، وبخاصة أن الله تعالى قد يسر لهم أمر المعاش ، فى هذا العصر .

إن الداعية المخلص لرسالته مسئول عن : ـــ

ـــ العلم بالدعوة : وذلك لا يتأتى إلا بالقراءة الدائمة والتعلم المستمر ، وليجعل للكتاب نصيباً من حياته ، يعود إليه أثناء تحضير درسه ، وإعداد خطبته .

ومن المعلوم أن الداعية يعرض دعوته جزءاً ، جزءاً ، وعليه حينئذ أن يعد لكل جزء عدته بالقراءة ، والفهم والإعداد .

ـــ تخير الوسيلة : وهذا يحتاج إلى النظر فى كافة الوسائل الممكنة لتخير المفيد منها ، فقد يكون المفيد كتاباً ، أو حواراً ، أو مصاحبة ، أو حديثاً مطولاً .

وله فى رسول الله " ﷺ " أسوة ، فلقد دعى خديجة " رضى الله عنها " بالعمل ، ودعا أبا بكر بالكلمة الموجزة ، ودعا غيره بالخطبة المطولة ، أو برؤية العمل والتطبيق .. وهكذا .

ـــ تحمل المشاق : يلاقى الدعاة فى أعمالهم عديداً من العقبات ، بعضها من المدعوين وبعضها من غيرهم ، من شياطين الإنس والجن ... وقد عشنا مع رسل الله " عليهم صلوات الله وسلامه " ، ورأينا المعاناة التى قابلتهم أثناء قيامهم بالدعوة إلى الله تعالى .. ومع ذلك لم تلن لهم قناه ، ولم تضعف لهم عزيمة ، واستمروا على إخلاصهم فى الدعوة إلى الله تعالى .

على هذا يجب أن يستمر الدعاة غير مبالين بما يعترضهم من مشاق ، محتسبين ذلك لله رب العالمين .

٤ ـ الذكاء والبديهة : يتعرض الدعاة لمواقف تحتاج منهم إلى بديهة متوقدة تمكنهم من إيجاد الحل المناسب لها ، فى إطار المشروعية الإسلامية ، وبسرعة خاطفة، منعـــا

لنشر الملل مع المدعوين .

إن الذكاء العادى ، والذاكرة الضعيفة تضر أكثر مما تفيد فى بعض الأحيان ، وكثير من العباقرة فقدوا تفوقهم بسبب بطئهم فى التفكير ، وإيجاد الحلول ، ومعالجة المواقف .. لأن الإنسان قد يكون مثقفاً ، غزير المادة ... ومع ذلك يرتج عقله ، وتخونه ذاكرته إذا صادف موقفاً ، حساساً ، مفاجئاً .

وقديماً قالوا (**إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه**) .

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز ، ولما وقفوا بين يدى الخليفة إشرأب الغلام للكلام .. فقال عمر : يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين : إنما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت [١] .

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة حسنة ، وبديهة حاضرة ..

وقد درس علماء النفس ظاهرة ضعف الذاكرة فوجدوها ضارة بالإنسان ، وخاصة الإنسان العادى .

يقول"كارل سيشور":إن الرجل العادى لا يستخدم أكثرمن عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستذكار،ويضيع منه تسعون فى المائة بإهماله قوانين التذكر الطبيعية [٢]

إن العلم هبة إلهية يعطيها للمتقين من عباده كما يقول تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ .

ويقول الإمام الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى   فارشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نور   ونور الله لا يعطى لعاصى

---

[١] الشخصية ص ٢٢ .

[٢] التأثير فى الجماهير ص ٦١ .

وأهل التصوف يشعرون بالإلهام الإشراقى ، ويذكرون أن أهل الله يكون الله معهم دائماً عوناً ونصيراً .

ومع أن الأمر هبة إليه فإننا نطالب بالأخذ بالأسباب ومطرد العادة .

أراد النظام أن يوجه ولده إبراهيم للدعوة إلى الله تعالى فأحضره إلى الخليل بن أحمد ، فقام الخليل باختبار ذكائه ، والوقوف على درجة بديهته ، فأحضر كأساً ، وقال له : صف هذا الكأس .

فقال إبراهيم : بمدح أم بذم ؟ !

فقال الخليل : بمدح .

فقال إبراهيم : تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراء .

فقال الخليل : بذم .

فقال إبراهيم : يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر .

وهنا أخذ يعلمه ، ويوجهه لما رأى فيه من فطنة وذكاء ..

ومن هذا الباب أيضاً أن الحافظ العراقى لما ذهب إلى شيخ ابن البابا ليتلقى عنه الحديث اختبره أولاً حيث قال له : من ابن البيع ؟

قال الحافظ : الحاكم أبو عبيد الله النيسابورى .

فقال له : من أبو محمد الهلالى ؟

قال : سفيان بن عيينة .

قال له : هلم يا بنى ، وعرف مكانته من الوعى والإدراك ، وإستعداده للتعلم،وعلمه .

إن مثل هذا الاختيار يتم اليوم فى عدد من الدراسات المتخصصة التى تبدأ من وقت مبكر كدور المعلمين والمعلمات ، ومعاهد الخدمة الاجتماعية ، والمدارس العسكرية المتنوعة ، وذلك كله لينجح الطالب بعد تخرجه فيما يوكل إليه من أعمال .

وقد أدرك قدر هذا الاختبار المبكر مع الاختيار أصحاب المذاهب الوضعية

ورجال الأديان الأخرى فعملوا به وأخذوا يعدون لباطلهم دعاة فيهم الذكاء والنشاط والإخلاص ، وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بها الأفكار والعقائد .

وإعداد الدعاة إلى الإسلام يجب أن يندرج فى هذا الخط الطبيعى ، حيث يختارون فى سن مبكرة ، وتختبر مستوياتهم الذهنية وقدراتهم الشخصية ليسهل إعدادهم ، ويكونوا بعد تخرجهم على مستوى واجب الدعوة، وأهمية العمل لها .

" ثانيا "

صفات الترابط والمودة

تألـيف القلوب عملية أساسية فى الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك وجب على الداعية أن يهتم بهذا الجانب الحيوى فى نشاطه ، ليرتبط مع الناس فى مودة،وإخلاص .

ويعتمد هذا التأليف على ملامح شخصية الداعية ، ولذا نوصى بضرورة تميزه بالصفات التالية : ــ

١ - الحلم :

والحلم صفة هامـــة للداعية تجمع القلوب، وتذيب الإحن، وتعطى له قدراً كـــبيراً من الصلابة فى مواجهة أشد المواقف، وأحلكها، وهو أول ما يمتحن به الخلق الحسن ، لأنه يقرب الغريب، ويذهب العداوة .

وهل يستوى الحلم والتهور ؟ أبداً لا يستويان لأن الحلم سيد الأخلاق ، والحقيقة أنه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[1] والحلم ليس دليل ضعف أبداً ، بل هو الدليل على القوة ، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوى فى الحقيقة ، يقول النبى " ﷺ " : (**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**)[2] والإسلام رغم أنه يعطى للنفس حقها فى مقابلة السوء بمثله حيث قال تعـــالى :

---

[1] سورة فصلت الآيات (٣٤) .

[2] موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ - ما جاء فى الغضب .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾وهذا شيء طبيعي يتفق مع غريزة الإنسان فى الانتقام والانتصار إلا أن الأسمى من الانتصار هو أن يكون المرء حليماً يعفو عند الإساءة ، فقال تعالى عقب هذا الجزاء المثلى : ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾وكـون الأجر على الله يحتم العفو إلى درجة كبيرة .

ولضرورةهذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال له:﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]،وقاله له:﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

وعلى الدعاة أن يهتموا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضهم، ولا يجعلوا همهم الغضب والانتقام، لأن ذلك ينفر المدعوين منهم ولا يحببهم فى استماع الدعوة وتفهمها ، يقول الإمام الغزالى : (أما حسن الخلق بعد العلم، والورع، فضرورة ليتمكن من اللطف والرفق، وهو أصل الباب، وأسلمه، والعلم والورع لا يكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع فى قمعه مالم يكن فى الطبع قبوله ، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق، ومقدرة صاحبه على ضبط نفسه وقت الشدة والغضب ، وبه يصبر الداعى على ما أصابه من دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه، أو ماله، أو نفسه نسى الدعوة، وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم)[3].

يقول الشيخ / ابن علوى الحداد : (على الدعاة أن يكونوا على نهاية من الصبر، والاحتمال، وسعة الصدر، ولين الجانب وخفض الجناح، وحسن التأليف ، وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين، عليهم أن يصبروا، ويعرضوا، ويقولوا خيراً لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)[4] .

---

(1) سورة الأعراف الآية (١٩٩) .
(2) سورة المائدة الآية (١٣) .
(3) الدعوة التامة ص ٩ .
(4) الإحياء ج٢ ص ٢٩٢ .

ويقول ابن تيمية(ولابد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الرفق ولا بد أن يكون الداعية صبوراً على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يصبر ويحلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح،وينقل ابن تيمية ما قاله القاضى أبو ليلى(لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه،حليماً فيما يأمر به،حليماً فيما ينهى عنه)[١]

ويكفى الدعاة أن يتعلموا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الحلم والعفو حيث قال تعالى:﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] .

٢ ـ التواضع :

والتواضع أحد الصفات الأساسية التى تساعد على المعاشرة الحسنة، لأن المتواضع يعيش مقدراً لنفسه وللناس، ومقدراً من الآخرين ، ومن هذا المنطلق لايبدو متعالياً قط، ولا يكون وضيعاً أبداً ، ويشعر أن المساواة الأصيلة هى الروح المسيطرة فيألف ويؤلف ويأنس ويؤتنس به .

ويستقر التواضع فى النفس بسبب يقينها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة، وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف، واللقاء، والتآلف، حفاظاً على ما يمليه الإحساس الواقعى بالأصل الواحد ، واتباعاً لتعاليم الرب الواحد الذى كفل للناس فرصة متكافئة فلا يتمايزون بخلقتهم، أو لونهم، أو ثقافتهم، وإنما يكون التمايز تابعاً للإيمان والعمل ، وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة ، أنظر ما قاله الله تعالى لتأصيل هذه الحقائق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٣] فالجميع من

---

(١) الحسبة فى الإسلام ص٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) سورة النور الآية (٢٢) .

(٣) سورة الحجرات الآية (١٣) .

أصل واحد والتفرق للتعارف، والكريم هو التقى، والذى يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير،أما هذا الذى يتعالى حتى ولو بتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [1] .

والداعية الذى جعل همه الدعوة إلى الله ،يجد نفسه ملتزماً بالتواضع، ليتمكن من التماس طريق الله الذى دعا إليه عباده الصالحين ليتحققق له كل ما وعد الله به ، من تمتع كامل بالدنيا، ومن تمتع عظيم بالآخرة فإن الواقع أن : ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [2] .. والتواضع يمكن صاحبه من الاستفادة بكل آيات الذكر، والكون، لأنها لن تصرفه عن فهمه لتواضعه كوعد الله القائل : ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [3] فبين أن عقول المتكبرين وحدهم هى التى لا تفهم ولا تعى، فيجادلون فى الحق بعد تبينه، ومهما عرضت لهم الآيات الواضحات كونيه، أو قولية، لا يروها، ذلك حالهم ، وحال المتكبرين دائما ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ ، وإنما فقدوا كل هذا لأنهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحبه ، إنه لا يحب المستكبرين وبفقدهم هذا الحب لا يجدون أى حب من الناس، لأن الملائكة تنادى أرواح البشر أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، وسيجدون أنفسهم بعد ذلك فى عزلة من الناس ، وهذا مما لا يرضاه داعية لنفسه .

على الداعية أن يلتزم التواضع ليقرب من الناس،لأن دعوته فى حاجة إلى صلة مستمرة بهم ، وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم ، والتواضع هو ضمان ذلك كما بينته الحقائق الدينية التى عاشها النبى " ﷺ " تطبيقاً على نفسه، وتوجيهاً لمن بعده

---

[1] سورة النجم الآية (٣٢) .

[2] سورة القصص الآية (٨٣) .

[3] سورة الأعراف الآية (١٤٦) .

من المؤمنين ، إقرأ هذا الأمر إلى رسوله " ﷺ " : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [1] والمس منه التوجيه الواجب إلى التواضع لأنه هذا الخفض يقربهم ، ويوجه عقولهم وأرواحهم ، وكان النبى " ﷺ " لا يتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعرفهم أنه كأحدهم فى كافة شئون حياته ، وإذا ما مر بصبيان صغار وقف وسلم عليهم ، **فلقد مر أنس على صبيان فسلم عليهم وقال : كان النبى يفعله** [2] بل إنه يوضح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمل ، فيقول " ﷺ " (**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم**)، فلما سأله جابر عن نفسه قال (**وهل من نبى إلا وقد رعاها**) [3] .

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الكامل حتى يتمكنوا من تأدية دورهم ويضربوا فى هذا المجال صوراً عملية كثيرة .

٣ ـ القناعة والزهد :

الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتى ، وعفاف عما فى أيدى الناس ، ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد، والقناعة، والعفاف ، بل إنها تطبعه بطابع السخى المعطى حين يجد الذى يعطيه غير منتظر علم أحد، أو شكره، لأنه أنفقه لوجه الله ، ولا ينتظر ثواباً إلا من الله ، وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذى يتلوه ويرشده والتى منها : ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [4] .

إن الداعية في امس الحاجة إلى نفس زاهدة تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته وترى أن

---

[1] سورة الشعراء الآية (٢١٥) .
[2] رياض الصالحين ص ١٧٤ .
[3] صحيح البخارى ج٤ ص ١٩١ ـ كتاب بدء الخلق ـ باب يعكفون على أصنام لهم .
[4] سورة البقرة الآية (٢٧٢) .

(هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلى ولكنها فترة مؤقتة تنبنى عليها كل سعادة الآخرة) ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [١] وبذلك فليس الهدف منها التلذذ من الشهوات والمطعم ، وليس هو شأن المؤمنين أبداً أما الكافرون فإنهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ ﴾ [٢] وبهذا الزهد لا يكون المؤمن منعماً فى تصرفه ، وفى الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

هذه الحقائق ترسخ فى نفس الداعية فيعطى بلا حد، ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح فى دعوته .

٤ ـ الكرم والسخاء :

والكرم والسخاء صفة من أهم صفات الداعية حيث تقرب القلوب النافرة وتمهد العقول للطاعة ، ولذلك كان من أولى الأوامر الأخلاقية للرسول " ﷺ " ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [٣] أى لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فنجده " ﷺ " يعطى عطاء من لا يخشى فاقه،وكان كما وصفه ابن عباس (**أجود الناس**) [٤] ولم" ﷺ " يقل لا عن شيء سئل فيه [٥] ولا يكفى فى الكرم العطاء المادى وقت وجود المال فـ (**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**) [٦] بل لا بد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم وأصالته فى كافة حالاتها .

---

[١] سورة الشعراء الآية (٢١٥) .
[٢] رياض الصالحين ص ١٧٤ .
[٣] سورة المدثر الآية (٦) .
[٤] صحيح مسلم ج٧ ص ٧٣ .
[٥] صحيح مسلم ج٧ ص ٧٣ .
[٦] صحيح البخارى ج ٨ ص ١١٨ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعلم المؤمنين الإلتزام بمكارم الأخلاق ، غير عابئين بما يعترضهم من عقبات ويعد الكرم أحد الأسباب التى حببت الناس فى رسول الله " ﷺ " ويقول على: (**كان رسول الله أجود الناس كفا**)، ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان ولذلك يروى أن رجلاً أتى النبى" ﷺ " وسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه مسلماً وهو يقول لهم (**أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء ما يخشى فيه الفاقه**) [١]

" ثالثاً "

صفات الريادة والتوجيه

والداعية لا يكتفى بالمودة مع الناس لأنه صاحب رسالة يعمل لنشرها فيهم، ويهديهم بها ، وذلك لا يتأتى له إلا إذا تمتع بشخصية مؤثرة فيها قدرة الجذب النفسى ، ومنها يقبل التوجيه والريادة ، على أن هذه الشخصية لابد أن تمتلك مجموعة من الصفات ذات التأثير والريادة ، ومنها :

١ ـ المشاركة الوجدانية :

وهى صفة هامة للداعية، تجعله يعيش حياة الناس، ليشعر بشعورهم، وينفعل مع أراءهم، وحياتهم، ويتداخل فى تقاليدهم، وكافة شئونهم بصدق وفهم ، وتحليل ، ويجب أن تأخذ هذه الصفة عنده شكلاً عاماً بمعنى تواجدها تلقائياً مع الجميع بلا تفرقة بين غنى وفقير ، أو رئيس ومرءوس ، ورفيع أو وضيع لكى يصل بالدعوة إلى الجميع ، فإن المشاركة تضفى إحساساً عملياً له قوته فى الوصل والتأثير ، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هى الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح [٢] وهى التى تنشئ كل التصرفات الحسنة والسلوك القويم، وتأثيرها فى الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع ، ولأنها

---

[١] الشفا ج ١ ص ١ ٢٣٨ .

[٢] الشخصية ص ٤٠ .

تظهر مع أول مقتض ، ولكل أمر ، ولا تحتاج إلى عناء كبير لكى تعرف، وتدرك، لملازمتها القول ، والسلوك ، والعمل .

والداعية بها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم، فيأخذون رأيه، وينهجون نهجه ويجعلونه رائدهم وما استحق ذلك عندهم إلا بعد أن تأكدوا من الصور العملية لهذه الصفة ، فهو حبيب يتمنى الخير للجميع، كما يتمناه لنفسه، فيصل الرحم، ويكرم الجار، ويقرى الضيف، ويخلص للجميع، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا ويحث عليه ويبعدهم عن سواه ، ودائماً تلقاه مهتماً بالخير والنفع، فيكرر النصيحة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ، وتعاونه مع الجميع يلمسه الجميع، فى كثرة، ووضوح ، وهو فى هذا لا ينتظر من الناس جزاء أو شكوراً ، وكل ما يتمناه أن يجعل الأفهام متفتحة لدعوة الله مقبلة على تدبرها واليقين بها .

والداعية يطبق أشكال هذه الصفة عن اقتناع بها، لأنها أوامر دينه إليه، وحياة رسوله " ﷺ " مع الناس ، وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق الناس بتطبيقها .

إنا الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية، ودعوة الإسلام للتعارف تحتم المشاركة الصادقة، وجدانياً، وعقلياً، وحسياً،ليصنعوا جميعاً ما يفيدهم وينفعهم ، وآيات القرآن تؤكدها وتحث عليها ، أنظر قوله تعالي حينما يخاطب القوم بصيغة الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين مؤمن ومؤمن ، فالخطاب واحد للجميع إذ ينادى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾وهذا يعلم المشاركة بل إن القرآن يعلم الناس أن يكونوا دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾وهو دعاء فى سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم داعياً بصيغة الجماعة إيثاراً لغيره، وتبرئة لنفسه، من الأنانية،ولأنه شيء يحبه الله ورسوله ، حيث يقول تعالي : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾[1] ويقول إخباراً

---

[1] سورة محمد الآية (١٩) .

عن سيدنا إبراهيم " عليه السلام " : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[٢] وذلك ليس بدعا فإن القرآن يمتدح المؤمنين الأول، لأنهم تركوا أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[١] ولم يكن بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيثارهم كما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٢] فترى الأنصارى ساكن المدينة يحب المهاجر إليه من مكة، بكل صفاء، ويؤثره على نفسه خاصة ، وسبب ذلك أن وجداناهم قد آمنت بهذه المشاركة عن اقتناع فتمكنوا بعد ذلك من تأسيس مجتمعهم على الحب، والخير، والمشاركة، وكل ما حرصوا عليه هو أن ينمحى الغل من قلوهم وأن يوقفوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح ، وذلك درس للداعية .

أن الداعية ملتزم بأن يحسن صلته مع الجميع تنفيذاً لأمر الله القائل : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾[٣] يبين الزمخشرى فى تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى كل ما بينك وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما ، والجار ذى القربى هو من قرب جواره ، والجار الجنب من بعد جواره ، وهو أجنبى ، والصاحب بالجنب الذى

---

[٢] سورة إبراهيم الآية (٤١) .
[١] سورة الحشر الآية (١٠) .
[٢] سورة الحشر الآية (٩) .
[٣] سورة النساء الآية (٣٦) .

صحبك فى أمر ما أو المرأة ، وابن السبيل المسافر المنقطع أو الضيف [٤] ويجب أن تأخذ هذه الصلة الحسنة أشكالها المتعددة فهى على الخير والبر، المأمور بهما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [٥] وهى نصيحة خيرة، وتواص به، لأنها من صفاتهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [١] وهى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر اللذان هما أساس خيريتهم كما أخبر الله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [٢] وسبب فلاحهم الذين أمروا به فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [٣] .

ويجد الداعية أمامه كذلك صورة النبى " ﷺ " وتطبيقاته لهذه الصفة ، فلقد كان قبل البعثة كما وصفته زوجته خديجة (إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق) [٤] وكان يشارك قومه أحداثهم الكبرى فساهم فى حرب الفجار، وحلف الفضول، وبناء الكعبة، وعاشر الرعاة والتجار، والأثرياء، والكبار، والصغار، وكان الجميع يذكرونه،ويتوددون إليه ، فلما بعث عليه تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [٥] وكان يوالى الناس بالنصح والإرشاد قاصداً نجاتهم وسعادتهم ، وكان " ﷺ " يسبقهم فى كل أعمالهم ألا تراه فى يوم " بدر " يترك ابنته مريضة فى المدينة ويذهب إلى الحرب لا ليجلس فى العريش

---

[١] تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢٦ .

[٥] سورة المائدة الآية (٢) .

[١] سورة العصر الآية (٣).

[٢] سورة آل عمران الآية (١١٠) .

[٣] سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

[٤] صحيح البخارى ج ٩ ص ٣٨- كتاب التعبير .

[٥] سورة التوبة الآية (١٢٨) .

الذى بناه له الصحابة خلف الصفوف ، بل ليكون فى الصفوف، يرمى بالحصا، ويناشد الله ، وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر " ﷺ " فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعد وتنتهى المعركة ،ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائد إلى المدينة .

وكان " ﷺ " يحاول دائماً مصلحة الناس ويتصرف وفق ذلك ، من ذلك ما ذكره " ﷺ " (يا سعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار) [1] فهو يعطى هذا إنقاذا له من النار ويترك غيره الأحب .

إنه " ﷺ " فى موالاته النصيحة،والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، قد ترك للمسلمين عموماً، وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تمدهم بالدين كله .

وعلى الجملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ الصدارة، ويتقدم الصفوف، ويكون ثقة القوم، وأملهم، ويبعد عن تهمة الحاقد ، وينجو من عداوات المعارضين .

٢ ـ القوة والشجاعة :

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة وهى صفة تنبنى على تقدير الشخص لنفسه وفهمه لواقع حياته وأتباعه لتعاليم دينه المؤكدة ، فبذلك يبعد تلقائياً عن الذل والضعف، وعن الخوف والاضطراب، لأنه يثق فى المفاهيم التالية : ـــ

أولاً:المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه الثقة ويشعر بالتفضيل والكرامة لأنه بالإيمان يؤدى ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذى يصرف كل شىء : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [2] .

---

(1) صحيح مسلم ج١ ص ٩١ ـ كتاب الإيمان ـ باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه .

(2) سورة الرعد الآية (٨) .

(3) سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

ثانياً : الخلق كله بقبضة الخالق سبحانه وتعالي وبيده وحده النفع والضرر وكل الخلق خاضع له وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

ثالثاً:الأجل والرزق محددان تماماً بحيث ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٤] ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [٥] وقد ثبت أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح فى المضغة كما يكتب أجله وعمله [١] .

وما دامت هذه المفاهيم قد ثبتت عند الداعية فما عليه إلا أن يظهر العزة فى كل حياته لأن ﴿ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] وهى عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التي أولاها الله للإنسان على العموم، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص ، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان،ولا يقبل من المؤمن قط عذر إذا سار فى مسلك ذليل فإنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل ﴿ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ [٣] فلن يقبل منه أنه كان ضعيفاً فى بلده لأن الأرض كلها لله وهى واسعة ، وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته وحماية لعزته التي يجب أن يتمسك بها بكل شدة ، ولن ينقص من قدره شيء ، وأن الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [٤] .

---

[٤] سورة الأعراف الآية (٣٤) . [٥] سورة هود الآية (٦) .
[١] صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٩٢ ـ كتاب القدر .
[٢] سورة المنافقون الآية (٨) .
[٣] سورة النساء الآية (٩٧) .
[٤] سورة فاطر الآية (٢) .

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره، أو يطغى عليه، لأن العزة خلق ممتاز يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه، ولغيره إنطلاقاً من فهمه لذاته، ولدينه، وللحياة .

ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً، قوياً، فى شخصه ورأيه لتكون خيرة فى ذاتها، ومقبولة من كافلة العقول .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى فى الأسماع والعقول فحفل به وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيماء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ، وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .

ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه والسيطرة عليها بل إن ذلك هو كل القوة فى الواقع لأن النفس خيراً وشراً تتنوع بحسب قواها، وأحسن الناس من يحكم شهوته، وغضبه، فيعطى لنفسه العاقلة زمام أمره، ويتصرف بعيداً عن أى إنفعال يفسد عليه وجهته مهما كان حقاً .

يقول ابن مسكويه (*) : (**شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان راكب دابة قوية، ويقود كلباً ، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذى يروض دابته وكلبه ، فلا شك فى رغد عيشه وحسن أحواله ، وإن كانت البهيمة أو السبعية هى الغالبة ساءت الثلاثة**) [١] ، ولذلك كانت وصية النبى " ﷺ " للصحابى الذى سأله النصيحة (**لا تغضب**) [٢] ليكون قوياً بحق ، فليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب [٣] .

ومن هنا يقول ابن المبارك أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ هو جهاد النفس [٤] ولذلك فالعزيز هو الذى يحكم نفسه ولا يجعلها

(*) يرى ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها ثلاث قوى أو هى أنواع ثلاثة بهيمية (شهوية) وغضبية (سبعية) وناطقة (عاقل) وكل منها له قوته وتحاول التغلب على أختيها ، ويرى أن النفس الغضبية تترقى لأنها تقبل الأدب ، والبهيمية تحكم فقط لأنها لا تقبله ، والإنسان يشرف بالناطقة فقط ويشارك الملائكة ويباين البهائم .

[١] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٥٥ .

[٢] موطأ مالك ج ٤ ص ٩٤ ـ ما جاء فى الغضب .

[٣] موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ ـ ما جاء فى الغضب .

[٤] ذم الهوى ص ٤٠ .

تميل بالغضب الذى يفسد على الإنسان وجهته،ويحول بينه وبين الرشاد،ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [١]

إن سيطرة العقل الهادئ يجعل الإنسان واقعياً فى الموقف فيبدى الحجة، ويظهر الرأى ، ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة إعلان الرأى فى ثبات لا يعرف التغير،أو التلون،بسبب محاباة أو تحامل،لأن هدفه نشر دعوته الحقه المؤيده بالدليل،وهى محفوظة لا تتغير،ولكنها تغير وتصلح وتعلى، فإظهارها على وجهتها وبشكل مرن هو المطلوب، مهما كان الحال أو الموقف أو القوم،ولا عليه ما دام يتجرد فى هدفه ويبعد عن الدعوة أى أثر شخصى محتمل ، وللداعية أسوة فى رسول الله " ﷺ " فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط قوم كافرين بها ومعارضين لها ، ومع ذلك لم يبال بأعمالهم ، لجأوا للتهديد والوعيد ، فرد عليهم قائلاً لعمه : (**لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه**) [٢] ، ولجأوا إلى محاولة إغرائه فكان ينتهز فرصة قربهم منه ويدعوهم إلى الله ، وقاطعوه وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم ، ولم يحدث أن غير الدعوة مع تغير الظروف وإختلافها ، بل كان العذاب الشديد يلحق به وببعض المسلمين،ومع ذلك كان يحث على الصبر وينتظر الأمل،ويواصل دعوته،لأنها الحق ولابد أن تعلن .

يقول الزمخشرى فى تفسيره : أن المعنى أن تجتهدوا فى إقامة العدل حتى لا تجوروا، وتقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم، أو أبائكم، أو أقاربكم ، ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غنى) [٣]

وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه فى

---

[١] سورة الفرقان الآية (٦٣) .

[٢] سيرة النبى ج ١ ص ٢٧٨ .

[٣] تفسير الكشاف ج١ ص ٥٧٠ .

الطريق المستقيم لدعوته ، وحصن نفسه بأخلاق الألفة والريادة ولا عليه بعد ذلك إلا أن يملك أفقاً يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

الركيزة الرابعة

الملاءمة

بين الدعوة والواقع

مرت الدعوة فى مكة بمراحل متعددة تدور بين السرية فى الدعوة،والجهر الخاص، والجهر العام،وكان لكل مرحلة ظروفها الذى حتم صوراً معينة فى أساليب ووسائل الدعوة .

وحين ننظر إلى الدعوة فى العصر الحديث ، ونتأمل واقع العالم المعاصر نرى أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق ، أهمها :

أولاً : يموج العالم بموجات عديدة،ومتعارضة فى المذهب، والفكر، والسلوك .

فمن الناحية الفكرية والمذهبية نرى فى كل دين أقلية تلتزم به ، وأكثرية تدعيه وتطبق ما يعارضه، وتكتفى بمسميات لا مضمون لها .

والذين يتمسكون بدينهم منقسمون إلى جماعات مختلفة كل منها يدعى الحق لنفسه فقط ، ويرى أن ما عداه باطل ، ولو كان هذا الأنقسام فى الفروع لهذا الأمر ، لكنه كثيراً ما يكون فى الأصول مع أنها واحدة لا تتنوع .

ثانياً : تكتفى الدول الإسلامية برموز إسلامية على أساس أنها الإسلام فتحافظ على الشعائر الدينية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، وتنظم الأحوال الشخصية كالزواج ، والطلاق ، والميراث وفق شرع الله تعالى ، وتترك ما عدا ذلك لقوانين البشر التى وضعها الناس لأنها تتصور أن تطبيق كافة أحكام الشريعة أمر مستحيل،أو يذهبون إلى عدم تقبل الناس لها .

ثالثا : سيطرت صورة الحياة الغربية القائمة على الفكر الوضعي على الاتجاهات الثقافية ، والفنية، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية، وتقبل الجمهور ذلك وإن خالف تعاليم الإسلام مخالفة ظاهرة .

رابعا : تعمل أجهزة التوجيه ، والتثقيف بعيداً عن قيم الإسلام غالباً ، حيث ترى فى أجهزة الإعلام الصور الخليعة ، والمسلسلات الهابطة ، والقصص والأفلام بمحتواها الضار ، ولذلك أثره السيء فى التوجيه .

خامسا : برزت طبقات فى المجتمع الإسلامي تنسلخ عن الإسلام باسم التنوير والتجديد ، وأصبح له صوت وأتباع ، وهى ترحب بالفكر الوضعى ، وتدافع عنه .

سادسا : تمكن الغرب المسيحى القوى ، والغنى من فرض أنماطه الحياتية على العالم الإسلامي الضعيف ، ولم يجد المسلمون أمامهم إلا الخضوع للقوة التى تملك المال ، والصوت ، وكل ما يحتاجه الضعفاء .

وكل مخلص لإسلامه يجد نفسه أمام قوة ترقب عمله ، وتحاول هدمه بأساليبها ، ودهائها .

سابعا : يجد الدعاة أنفسهم تحت المراقبة الدقيقة لقوى العالم المختلفة ، حيث تحلل كلماهم ، وتقرأ كتبهم ، وتتابع حركاهم وأعمالهم ، بحيث لو رأوا خطراً فى دعوهم، وعملهم، فإن التصدى لهم يأتى سريعاً تحت مسميات عديدة تجعلهم فى مصاف الذين يعتدون على حرية الآخرين .

ثامنا : ألف العامة فى المجتمع الإسلامي البعد عن تعاليم الإسلام ، وجهلوا الإسلام كله ، وصار علمهم بالأفلام ، والأغانى ، والأزياء ، والألعاب الرياضية هو اهتمامهم ، وهو ثقافتهم .

لقد راعنى شباب وجدهم يعرفون أسماء، ومراكز اللاعبين فى الأندية الأوربية وغيرها ، وفى نفس الوقت لا يعروفن عن الإسلام إلا قليلاً .. ووجدهم فخورين بهذه المعرفة ، غير عابئين بجهلهم أمور دينهم .

هذا هو الواقع ..

بينما الدعوة حقيقة ربانية ، حفظها الوحى ، وصانتها قلوب قلة مؤمنة ، وتحتاج إلى من يتحرك بها ، ويبلغها للناس بالحسنى وبصورة محببة ، وبمنهج يجعلها تفتح العقول والقلوب ، بعيداً عن التصادم، والعنف، والعدوان .

فهل يا ترى ؟ !

يطبق الدعاة منهج المرحلة السرية بما فيها من التخير والانتقاء ، وترك العلن ، والاكتفاء بالاتصالات الفردية ، حتى لا يحدث تعارض ، ومخالفة .

أم يتبع الدعاة منهج الدعوة الجهرية الأولى بما فيها من الدعوة العلنية مع بقاء جمهور المسلمين فى صمته ، كل فى عمله ، لا يشعر بمسئوليته المباشرة تجاه الآخرين .

أم نتبع منهج الجهر العام ليقوم كل مسلم بإعلان الإسلام ، والدعوة إليه ، وتحمل مسئوليته تجاه دين الله تعالى .

إن الأمرليس بهذه البساطة التى يتصورها بعض الناس،لأنه يحتاج إلى دقة النظر،والتأمل فى النتائج،وتحليل الموقف لتكون الدعوة إلى الله متلائمة مع الواقع، وليتخذ الدعاة لكل حالة منهجها المناسب .

فهناك حالات تحتاج إلى السرية،وأخرى يناسبهاالجهر الخاص،وثالثةتحتاج إلىالجهر العام .

والداعية هو صاحب القرار فى ذلك ..

وليكن قرار الداعية واضحاً وهو يتخير الموضوع ، والوسيلة والأسلوب ..

فمن ناحية اختيار موضوع الدعوة عليه تحديد ما يريد وليركز على العقيدة لأنها أساس الدعوة ، وعليه أن يكون مع العقيدة ملتزماً بقول الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]

---

[1] سورة العنكبوت الآية (٤٦) .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] .

وحين يتكلم فى العقيدة ، فإن من الأولى أن يبدأ بالأهم ثم المهم بعده ، على ضوء ما يراه مناسباً لدينه ، ولمن يدعوهم .

إن غرس التوحيد فى القلوب هو أساس العقيدة ، وبعده يأتى إثبات الرسالة وأركان العقيدة كلها .

وإذا ما اعتقد الإنسان أطاع كل ما يتفق مع عقيدته لأن أساس البناء هو العقيدة .

ولتكن الصورة البيانية الحسنى هى لباس العرض ، وأسلوب الدعوة ..

وعلي الداعية أن يدرك أن الدعوة السليمة لا تحتاج إلى السب واللعن ، وليس منها العدوان ، وسوء الخلق .. مع كافة المدعوين .

وحين يختار الوسيلة فعليه أن يجعلها مناسبة للناس ، فمع العلماء يكون الكتاب والمحاضرة والندوة ..

ومع متوسطى الثقافة تكون الصحيفة والبرامج التوجيهيه ، ومع العامة يكون الجدل ، والحوار ، والمقارنة ... وهكذا .

ومع الأسلوب عليه أن يعود للقرآن الكريم يأخذمنه، فلقدكان القرآن الكريم يخاطب بأسلوبه الكفار،والمنافقين،والمؤمنين،ويناقش الملأوالفقراء،ويتحدث إلى الرجال والنساء ، والكبار والصغار .. وهكذا .

ولذلك كانت الملاءمة بين الدعوة والواقع ضرورة أساسية لنجاح الدعوة .

إن العقيدة أساس البناء ، وغرسها في القلوب مهمة الدعاة...وليكن معلوما للجميع أن الشريعة تأتي تابعة للعقيدة الصحيحة بصورة تلقائية .

---

[1] سورة آل عمران الآية (٦٤) .

الركيز الخامسة

إدراك

مسئولية الدعوة

بمـراجعة تاريخ الدعوات الإلهية منذ آدم " عليه السلام " إلى محمد " ﷺ " نلمس ضخامة الجهد المبذول ، والمعاناة التي بذلها الأنبياء لأداء الأمانة التي تحملوها في سبيل الله تعالى .

ولذلك نشير إلى ضرورة إدراك هذه الحقيقة ليقوم الجميع بما يجب عليه إزاء الدعوة .

إن الدعـوة إلى الله تحتـاج إلى إخلاص المسلمين جميعاً ، وخير للدعوة أن تتكاتف الأمة كلها في هذا المجال .

لقـد رأينا رسول الله " ﷺ " يقوم بالدعوة ، ويقوم معه كل من يدخل في الإسلام ، ولذلك أخذت الدعوة الصورة الجماعية منذ الجهر بها ، ولم يحدث مرة أن الرسول " ﷺ " كان في اتجاه ، وكان المسلمون في اتجاه آخر ، ورأينا ـ كذلك ـ المسـلمين وهم يدعون إلى الله في صورة تقرب الناس إليهم ، وتعرفهم الإسلام برفق وهدوء ، وتدعو إلى الله بالحسنى والخلق الجميل .

ورأيـنا أصحاب رسول الله " ﷺ " رغم الضعف ، والقلة يقومون بالدعوة ويضيفون للإسلام أتباعاً ، مؤمنين ، صادقين ، فلقد أدخل مصعب بن عمير الإسلام في كـل بيوت المدينة .. وعاش جعفر بن أبي طالب في الحبشة داعياً محبوباً بين غير المسلمين .

وليس من فقه الدعوة أن يخاطب الناس بما ينفرهم من دين الله تعالى ، فلقد علمنا الله أن نقول لأهل الكتاب ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ ونقول لهم : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وليس من فقه الدعوة أن يصطدم الدعاة مع المسئولين ، عن طريق التشهير ، ونشـر النقد بصوت مسموع، لأن كثيراً من المسئولين يحتاجون إلى النصح الهادئ ، والكلمة الصادقة يسمعوها بخلق الإسلام ، وسلوك المؤمنين .

وليس من فقه الدعوة أن يتفرق الدعاة إلى شيع وفرق ، لأن ضرر هذا أكثر من نفعه ، وكيف يتصور الدعاة أنهم ينادون للتوحيد ، وهم ينقسمون حتى يتخيـل الناس أن لكل جماعة دعوة ، وأن لكل فريق إله .

إن أصـحاب الهوى والغرض أفسدوا ما بين الدعاة والحكام، فانقسم العالم الإسـلامي على نفسه ، وأصبح صراعه مع ذاته، وخير للإسلام أن يكون الأمر على غير هذا النمط .

إن مـن فقـه الدعوة أن يكون العلماء والأمراء معاً فى طريق واحد ، لغاية واحدة ، وبخاصة أنهم جميعاً فى الأمة الإسلامية يعملون لله ورسوله .

وإنى لعلى يقين من أن العلماء إذا تمكنوا من عرض الإسلام بصورته النقية ، الصحيحة ، بعيداً عن التشنجات المذهبية ، والعصبية الفكرية فإنهم سيحققون به ومعه نهضة إسلامية تفيد العالم كله .

إن ملامح الخطاب الدينى الإسلامى يقوم على الأسس التالية : ــ

أولاً : أن يكون محدد الموضوع ، واضح الهدف ، فى إطار المشروعية الإسلامية .

ثانياً : الإلتزام بشرف الوسيلة ، وحسن الأسلوب ، وجمال الطلب .

ثالثاً : مراعاة حق المخاطب فى الفهم ، والمناقشة ، وحرية إتخاذ ما يرى .

رابعاً : ضرورة الإلتزام بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المعروفة فى كل جوانب عملية الدعوة .

ولكل هذا كان إدراك مسئولية الدعوة ، والوقوف على أبعاد هذه المسئولية ضرورة هامة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة السادسة
دور المرأة المسلمة
فى الدعوة

المرأة نصف المجتمع أكرمها الله تعالى ، وجعلها من الرجل، ومعه ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ فتحقق لها بالإسلام الحقوق التى كانت محرومة منها .

وقد كلف الله تعالى المرأة بالإسلام ، وحدد لها دورها فى إطار أسرة كريمة ، وفى حركة مجتمع طاهر ، ولعل ما نشير إليه هنا دورها فى حركة الدعوة إلى الله تعالى فالمرأة هى أم الرسول " ﷺ " ، وهى التى أرضعته ، ونشأته وأشرفت على تربيته .

وهى زوجة الرسول ، آمنت به ، وصدقت برسالته ، وأغنته بمالها ، ويسرت له الطريق بأمر الله تعالى فكانت خير عون على تبليغ الرسالة ..

لقد كانت خديجة " رضى الله عنها " بأمر الله خير معين لرسول الله "ﷺ" تتبع خبره ، وتطمئن عليه ، وتسعى لتعرف حقيقة ما كان يراه الرسول " ﷺ " فى مبدإ بعثته " ﷺ " .

ولقد شاركت المرأة العربية فى مكة فى حركة الدعوة منذ البداية .. وها هى زوجة عمار ، تتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى ، وتتقبل الموت راضية مرضية ، لتصير أول شهيدة فى الإسلام .

وهناك عدد من السابقات إلى الإسلام،منهن من هاجر إلى الحبشة ، ومنهن من هاجرت إلى المدينة ، ومنهن من بقيت صامدة فى مكة .

وقد اشتركت امرآتان في بيعة العقبة الثانية، وبايعتا رسول الله بيعة الحرب ، وصدقتا في بيعتهما،فلقد سقطت أم عمارة جريحة في غزوة احد ،وفي جسدها اثنا عشر جرحا

وتلك إشارات تؤكد دور المرأة فى حركة الدعوة إلى الله تعالى،ويجب على المسلمين تنشئة بناتهم على الإيمان الصادق،وحب الدعوة إلى الله،ومداومة الأمر

بالمعروف،والنهى عن المنكر لتكون المرأة هى المدرسة الصالحة لتخريج جيل صالح، مؤمن .

والمرأة فى العصر الحديث يمكنها أن تؤدى للدعوة خدمات جليلة عن طريق أبنائها وبناتها، ويمكن أن تحيط أسرتها بسياج يحميها من أى فساد فى الخلق والسلوك .

ويمكن للمرأة المسلمة أن تحول بيتها إلى مركز للإشعاع والخير لأولدها ولجاراتها ، وصديقاتها ، فتستفيد بأوقات الفراغ فى مدارسة فكرة دينية ، أو حفظ آية قرآنية ، أو قراءة حديث نبوى شريف .

إن المرأة المسلمة يمكنها عن طريق الاشتراك فى الجمعيات الخيرية ، والوطنية من تقديم الإسلام عملياً لأخواتها ، وبذلك تكون سبباً فى تعليم الإسلام للناس .

إن الفراغ عند المرأة كثير، وبدل أن يضيع فى متابعة الأفلام ، والمسلسلات ، والجلوس الطويل أمام التليفزيون يمكنها أن تحول بيتها إلى مدرسة صغيرة ، تتلى فيه آيات الله والحكمة ، وذلك فضل يوفق الله من يشاء من عباده له .

إن الإسلام لم يقف حائلاً أمام المرأة أبداً،فهى نصف المجتمع،وأمها،وأخواتها ، وبناتها ، وصديقاتها ، وجيراتها فى حاجة إليها .

ويوم أن تقوم المرأة المسلمة بواجبها فإنها تقدم عملاً عظيماً للمجتمع وللناس

ولم يبخل الإسلام على المرأة بعلم أو تعليم ، فطلبها العلم فريضة كطلب الرجل له ، وقيامها بالتدريس والدعوة أمر مقرر فى دين الله تعالى ، وها هى السيدة عائشة " رضى الله عنها " تروى الأحاديث لأصحاب رسول الله " ﷺ " وأتباعه ، وكانت مصدر فتوى للمسلمين ، ولقد شاركت فى الحياة العامة،والأنشطة العملية.

ومن هنا نؤكد على ضرورة اشتراك المرأة المسلمة فى حركة الدعوة استنباطاً من سيرة رسول الله " ﷺ " وحركته بالدعوة إلى الله تعالى .

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وبعد ،،،

فلقد انتهيت من كتابة المرحلة المكية ، ووقفت بها عند بدايات الهجرة لإننى أرى الهجرة بداية المرحلة المدنية .

وحاولت أن أكتب السيرة النبوية بالتفصيل لأعيش مع رسول الله " ﷺ " فى حياته وأوصافه ، وشمائله لأحقق أملاً عشته طويلاً، وعشت مع حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة وهو يتنقل بها بين القبائل والأماكن العديدة ، لأرى منهجية العمل لخدمة الإسلام ، ونفع الناس أجمعين .

ثم كانت أهم الركائز التى استنبطتها من السيرة النبوية ، والحركة بالدعوة خلال هذه الفترة .

وآمل ..

أن يكون كتابى هذا مفيداً فى السيرة والدعوة، ومرجعاً للمسلم العادى ، وللدارس المثقف ، والعالم المجتهد .

وأعتذر عن كل تقصير وقع منى لأن التقصير من لوازم أى عمل بشرى ..

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، وأن يجعله لى فى الدنيا ذكرى ، وفى الآخرة نوراً وذخراً ، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

المؤلف

فهرست الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضــــــــــــــــوع	رقم الصفحــــة

المبحث الثانى

ملاءمة الواقع العالمى للحركة بالإسلام

الفصل الثانى

السيرة النبوية من الميلاد إلى الهجرة

المبحث الثانى (إرهاصات الميلاد)

المبحث الثالث

المبحث الرابع

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضــــــــــوع	رقم الصفحة

المبحث الخامس عشر

تابع مجئ نصر الله

الموضـــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضــــــــــــــوع	رقم الصفحــة

المسألة الثانية

أساليب الدعوة

المبحث الثامن

توافق الأسلوب والموضوع

المبحث التاسع

مواجهة عدوان الكفار

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين